دكتور خليل حسن خليل

الوسية

عن حياة الجندى الذى أصبح أستاذاً للاقتصاد السياسى

مكتبة مدبولى

١

عام ١٩٣٣ :

صيف قائظ ، شمس عنيفة ، تصب وهجها على مبانى القرية . يكاد لظاها يشعل النار فى الحطب الذى يغطى سقوفها . أشجار السنط والنخيل والكافور ، تتناثر فى أرجاء القرية ساكنة هامدة . لم تعد تداعبها تلك النسمات التى كانت تميل معها الغصون ، وتصفق لها الأوراق ، فتخفف ما يرين على القرية من كآبة ، وما يخيم عليها من صمت ، لم يعد يقطعه بين آونة وأخرى ، غير نهيق حمار ، أو نعيق غراب.

كنت أجلس مع والدتى واخواتى فى فناء منزلنا ، الذى يغطيه التراب ، وتتناثر فى جنباته أعواد من حطب القطن والذرة وقش الأرز . كان المنزل مبنيا من الطين . ولكنه يرتفع طابقين ، ويوحى منظره بأن

سكانه يكونون طبقةِ أخرى غير الطبقة التى تسكن الأكواخ .

كنت قد جاوزت الحادية عشرة من عمرى ، وكنت أكبر اخواتى .

وكان الحديث يدور حول تفوقى فى الشهادة الابتدائية ، اذ كنت أول مدرسة كفر صقر ، بل أول مديرية الشرقية . وقد أسعد حصولى على الابتدائية أمى واخواتى ، فأحاطونى بلون من الحنان ، لا يملكون للتعبير عنه غير ومضات العيون ، وخفقات القلوب .

وبينما نحن كذلك ، اذا بالباب يطرق فى عنف ، ارتعدت له الفرائص الصغيرة ، وهرعت نحو الباب لأفتحه . ولكن والدتى اندفعت نحوى فى هلع بالغ قائله :

ـ لا لا ، لا تفتح الباب .

ـ لماذا ؟؟

ـ ولم ترد والدتى على تساؤلى . ولكن وجهها الأبيض الوردى أصبح شاحبا كوجوه الموتى . ورأيت فى عينيها الصغيرتين ذعرا واضحا . ثم قالت فى اضطراب :

ـ تعال معى . . . احمل معى « الكنبه والكراسى » . وحملتهما ، معها بذراعى النحيلتين . ثم صعدنا بهما بعض السلالم فى الفناء الداخلى للمنزل ، وألقينا بهما فى منزل جار لنا .

اشتد الطرق على الباب . تصاعدت أصوات « هستيرية »

فى الخارج . والدتى تحثنى أنا واخوتى على نقل الأثاث بسرعة الى المنزل المجاور . ولما طال الطرق العنيف ، ولم نستجب له بدأت عملية كسر الباب . واندفع الى الداخل رجل طويل غليظ ، يلبس طربوشا صعد العرق الى منتصفه ، وبدلة أفرنجية تآكلت بسبب الاستخدام الطويل . كان يحوط به خفراء القرية وشيخ البلد .

صرخ فينا الرجل الذى دخل المنزل دخول الفاتحين .

ـ لماذا لم تفتحوا الباب ؟

وأجابت والدتى بصوت متكسر لاهث :

ـ لم نسمع الطرق !

ـ لقد سمع الطرق أهل البلد جميعا .

ثم اندفع هذا الأفندى الضخم ، الرث الثياب ، يقتحم حجرات المنزل ويفتشها ، ، ثم انفجر غيظا :

ـ أين الكنب والكراسى والمراتب والأثاث ؟

وأجابت والدتى :

ـ ليس لدينا غير الحصيرة ، وهذه المخدات .

ـ الشيخ حسن أبو خليل كله ليس لديه الا حصيرة . . لابد انكم هربتم الأثاث .

ـ الى أين سننقله ، ليس لدينا رجال لحمله .

كان الخوف قد سيطر على والدتى فخارت قواها ، وجلست على الأرض . . وانساب الخوف منها الى والى اخواتى . . على اننى لم أدرك سر هذا الهجوم . لم أفهم مدلول الحوار بين الأفندى الغليظ ووالدتى .

ثم كتب هذا الأفندى شيئا فى دفتر يحمله فى محفظة أوراق جلدية كالحة ، وانصرف مغيظا محنقا ، يتبعه القوم الذين صاحبوه فى عملية السطو على منزلنا .

وقفلت الباب خلفهم . . وسألت والدتى :

- من هذا الرجل ؟

- جاء ليحجز على متاعنا ، ثم يبيعه .

- ولم يفعل ذلك ؟

انهمرت دموع والدتى على خديها فى فيض دافق ، صمتت فترة طويلة. رأيت فى عينيها ترددا فى الاجابة على سؤالى . وعندما هدأت بعض الشيء ، اصطحبتنى الى « المندرة (بعيدا عن اخوتى ، وأخذت ترد على سؤالى) » . :

- أن والدك مدين بديون كثيرة . . والدائنون يطلبون من المحكمة أن تبعث بمحضر للحجز على متاعنا . فاذا لم نسدد الدين فى فترة معينة ، يباع أثاثنا فى مزاد علنى ، وتعطى الحصيلة للدائنين .

- ولكن لماذا تراكمت الديون على والدى ؟

- هذه قصة طويلة وأنت لا تزال غضا لين العود . ولا أود أن أحملك من شئون الأسرة وهمها ما لا تطيق . وأخشى لو سردت عليك القصة أن يئن من هولها قلبك الصغير .

- ولكن يا أمى ، أنا لست صغيرا كما تظنين ، فأنا فى الثانية عشرة من عمرى ! وقد حصلت على الشهادة الابتدائية . وأنا أكبر اخوتى واستطيع أن أستوعب القصة بل أريد أن أتحمل معك نصيبا منـها .

- لا ، لن أقول لك شيئا الآن ، فلم تفرح بشهادتك بعد . وقد وصلنا خبر نجاحك وتفوقك بالأمس فحسب ، وليس من العدل ألا تستمتع بثمرة جهودك فترة من الوقت .

ثم بدأنا عملية حمل المتاع من منزل جارنا ثانية الى منزلنا ، بعد أن تأكدنا أن المحضر قد غادر القرية .

مضى يومان على هذه الحادثة . فى صبيحة اليوم الثالث بدأ الطرق الرهيب على الباب من جديد . فزعنا جميعا ؛ بدأت أدرك شيئا من أسرار هذه الغارات المفاجئة ، كذلك فزع اخواتى ، اللائى وان كنّ براعم صغيرة ، فقد أصبحن قطعة من هموم الأسرة . ألفن هذا النوع من الهجوم . كنّ دائما بالمنزل ، وكنت أنا فى المـدرسة بكفر صقر ،

تخفى عنى والدتى أنباء الأسرة وأزماتها ، حتى لا يؤثر ذلك على دراستى .

لم أذهب الى الباب لأفتحه هذه المرة . وبدأنا فى عملية نقل الأثاث الى منزل جارنا مرة أخرى . لكن الطرق اشتد . وأدركت والدتى أن رتابة الطرق لم يكن لها ذلك الايقاع الذى كان ينم دائما عن المحضر . وصاحب الطرق نداء : افتحى يا أم خليل ، أنا على الخفير . . اطمأنت والدتى بعض الشيء . فتحت الباب . واذا بالخفير يلهث :

ـ المحضر فى بيت شيخ البلد ، وهو فى طريقه الى هنا ، هربى العزال بسرعة . وتركنا وانصرف .

بدأنا ، أمى واخواتى وأنا ، نقوم بالعملية المرهقة . نقلنا بعض الأثاث . ثم بدأ الدق المخيف على الباب : شحبت وجوهنا ، وهلعت أفئدتنا ، ومضينا فى عملية نقل المتاع . لكن الباب اندفع مفتوحا . وضبطنا المحضر ، متلبسين ، . نشترك جميعا فى حمل كنبة . لم تستطع أقدامنا أن تحملنا . فتساقطنا على الأرض . وسقطت الكنبة من أيدينا .

ظهرت ملامح الانتصار على وجه المحضر المكتنز . ودون فى دفتره شيئا ، وانصرف . ثم بيعت الكنبة والكراسى بعد خمسة عشر يوما .

تكررت غارات المحضر . وتكرر معها الفزع والحرمان من الأثاث ، الذى نفترشه ونلتحف به . ومن القوت الضرورى . أى من محصول الأذرة الهزيل ، الذى أنتجته الأرض فى ذلك العام .

على أن هجمات المحضر انحسرت فجأة . ولما كان الخوف يمكن أن يصبح جزءا من الجهاز العصبى للانسان ، فقد خيل الىّ أن أمى وأنا قد أحسسنا بفراغ قاتل ، عندما انقطع المحضر عن زيارتنا ! لقد ألفت قلوبنا أن تقفز مع طرقاته الثقيلة على الباب . واعتادت أرواحنا أن تهلع حينما يدفع الباب بساقه الضخمة . ويدخل علينا . نهزمه بتهريب الأثاث مرة ، ويقبض علينا ممسكين به ، قبل أن ننقله الى منزل الجار مرة أخرى .

وعلى الرغم مما كانت تحمله هذه الغزوات لنا من بأساء ، الا انها على أية حال كانت فيها إثارة وحركة ، افتقدناهما حين حرمنا من زيارات المحضر . لقد أصبحت أنا وأمى واخواتى كسالى : لا إثارة ، ولا هلع ، ولا نشاط . نقضى نهارنا وليلنا ، نتسلى بالصمت ، ونتوه فى الضياع .

سألت أمى يوما :

ـ لماذا لم يعد المحضر يزورنا ؟

وأجابت : -

- لم يعد هناك مبرر لزياراته .

- هل سددت الديون ؟

- لا ، الديون كما هى .

- اذن لماذا لم يعد يجىء ؟

- لماذا يجىء ؟ لم يعد لدينا ما يحجز عليه .

دمعت عيناى لأول مرة فى حياتى . ونظرت الى عينى أمى ، فوجدتها لا تبكى ، فقد جفت محاجرها ، وأصبحت تضن عليها حتى بالدموع .

٢

فى صبيحة يوم من الأيام ، أحسست بحركة غير عادية فى القرية ، وفى شوارعها : أناس يغدون ، وأناس يروحون . خفراء يهـرعون . شيوخ بلد يركضون . ومحضرون وخواجات وفلاحون . كان بعضهم يمسك بقصبة من ذلك النوع الذى يستخدم فى قياس الأرض . وبعضهم يحمل أدوات أخرى .

لم أدرِ سر هذا النشاط ، ولا هذه الحركة . لم تقل أمى شيئا . ولم أستطع أن أسألها . كانت فى الفراش طريحة . خرجت أتلمس الأخبار

خارج المنزل ، جريت مع الذين يجرون . وسمعت من الصبية الخبر الحزين : أرض الشيخ حسن أبو خليل سيأخذها الخواجات اليوم .

اشتركت فى تشيع جنازة الأرض مع رجال القرية ونسائها وصبيتها . كان هناك جمع كبير يشهد قـياس الأرض ، وتسليمـها « للخواجة » المالك الجديد . سرت مع موكب المشيعين والمتفرجين بعض الوقت . ثم انفصلت عنهم . جلست وحيدا فى ركن من أركان قطعة من أرضنا . كانت قطعة خصبة غنية تجاور القرية . لى معها ذكريات . كنت أجلس تحت أشجار الكافور الباسقات التى تحدها من الشمال . وأستظل بأشجار الصفصاف و « ست الحسن » ، التى تحفـها من الجنوب . وذلك لكى أستمتع بسحر الطبيعة مرة ، ولأستذكر دروسى فى أيام الخميس والجمعة مرة أخرى .

انفض السامر بعد أن قيست الأرض ، ووضعت حدودها .

وسلمت للخواجه اليونانى . وانحنيت على الأرض أرويها بدمعى السخين .

ومن خلال الدموع تراءت لى صور من حياتى فى المدرسة الابتدائية :

ذهبت الى المدرسة الابتدائية فى كفر صقر مع ثلاثة من زملائى فى القرية ، تملأ الفرحة قلوبنا . وسكنا غرفة فى بيت مبنى باللبن .

كانت أرضيتها من تراب ، وسقفها من سعف النخيل . غزل العنكبوت والدخان المتصاعد من الموقد خيوطا سوداء تتدلى من السقف ، وتسقط على رؤوسنا ، وتلطخ وجوهنا . أمتعتنا حصيرة نفترشها نحن الأربعة . ولحاف نتغطى به . وصندوق صغير ، يوضع فيه العيش الذرة والجبن القريش ، الذى نزع منه الدسم وغيره من العناصر الغذائية ، التى كان مدرس « الأشياء والصحة » يحدثنا عنها فى دروسه التقليدية .

وكان أبى يمنحنى قرشين صاغا فى الأسبوع . يتيحان لى جانبا من الجوانب الحلوة وسط هذه الحياة الجافة . كنا حينما ننتهى من المدرسة ، نذهب الى الغرفة ، ونلقى بكراساتنا وكتبنا ، ثم نسرع الى شاطىء « الترعة » حيث نقضى مع الأصيل لحظات ممتعة : « نقزقز » اللب ، ونمص قصب السكر ، ونشترى أعوادا من الفجل ، تخفف من جفاف العيش والجبن « القريش » . كان انسياب الماء ، وشحوب الشمس ، ونسائم الأصيل ، تنفث فينا شعورا رطيبا منعشا . فاذا ما غربت الشمس هرعنا إلى غرفتنا نطالع دروسنا ويراودنا احساس غريب حلو ، حينما نقرأ دروس اللغة الانجليزية . ويحلق خيالنا حينما نستعرض سطور التاريخ .

كان غريبا أن نستذكر دورسنا فى هذه الغرفة . فهى ضيقة ، طليت قديما بالطين الذى شققه القدم . وبها نافذة واحدة صغيرة . تطل

على شارع ضيق قذر ، يلوثه الانسان والحيوان . كان صاحب المنزل وزوجته يعيشان معنا فى نفس الغرفة . كان الرجل يشعل حطبا فى موقد من الفخار . ثم يبدأ فى تدخين الجوزة . فيعبق جو الغرفة بدخان كثيف ، يصبح معه البقاء فيها مستحيلا . ان عيوننا لا تستطيع أن تتبين سطور الكتب والكراريس . والدخان الكريه يزهق أنفاس آدميين ستة . كتب عليهم أن يقتسموا هذه الغرفة ، ويتعايشوا فيها .

الأدهى من ذلك ، ان المرأة كانت نحيلة مصدورة . تكح آناء الليل ، وتسعل أطراف النهار . وتبصق فى كل مكان فى الغرفة . بعد أن ينتهى الرجل من دخانه وحشيشه . وبعد آن يخفت صوت الجوزة ، وتتهافت كركرتها . ونكون نحن قد آوينا الى الحصيرة . كان يبدأ مع امرأته فصلا آخر ، لا حياء فيه ولا رحمة بالمرأة المصدورة ، ولا بالغلمان الذين يكادون يصدرون !

على أن أهلنا اختاروا لنا غرفة فى بيت نظيف بعض الشىء . كان أجمل ما فيه صاحبته . . فتاة بيضاء، تلبس دائما « جلابية » سوداء . تتدثر « بطرحة » سوداء كذلك . يخلعان على جسدها لونا من الأنوثة ، نراه بارزا حينما تقبل علينا ، ونلمح تضاريسه من دبر ! وجهها مضىء كالقمر . بشرتها صافية صفاء البللور . أشاعت فى المنزل جوا مريحا . عوضنا عن العذاب الذى عشناه فى السنتين المنصرمتين . كانت الفتاة

تعول آمها القعيد العميـاء . وتديـر « وكالــة « للحـمير . وكانت وكـالــة « بدوية « مشهورة ، تؤمها الحمير من كل فج . فجمال الفتاة ، وبسمتها المشرقة ، وجسدها الخصيب ، كانت عوامل هامه فى أن تأوى فى وكالتها ، أكبر عدد من الحمير !

ومن خلال دموعى ، لمحت حمارتى العزيزة ، التى كانت تحملنى الى المدرسة فى كفر صقر ، والتى بطش بها المحضر فى احدى غزواته لمنزلنا . كانت أختى سعاد الصغيرة توصلنى الى كفر صقر لتعود بالحمارة ، وهى لما تتجاوز السادسة . وكان عمر « ابن أحد الفلاحين « الذين يعملون فى حقلنا ، يمشى ورائى ليعود بالحمارة من كفر صقر ، لما كانت سعاد ما زالت صغيرة ، وعندما كان لدى الأســـرة مرابعون (فلاحون) . ساءلت نفسى حينئذ : لماذا يمشى هذا الغلام خلف الحمارة ؟ لماذا لا يركب معى ؟ كان حافى القدمــــين . والطريق الى « البندر « ملىء بحصى يدمى قدميه صيفا . ويغطيه وحل يلطخ ساقيه حينما يأتى الشتاء . طلبت الى الفتى أن يركب خلفى . فعل بعد تردد ، بعد أن غادرنــا القرية . كان يخشى أن يراه أبى ، أو أحد السادة من الأسرة . لم يكن مألوفا أن يركب « الفلاحون « خلف أبناء السادة المالكين . . .

وكان يرافقنى فى المدرسة « أحمد « ابن عمتى ، الذى كان والده

على يسار فيمنحه بضعة قروش . بينما لم يكن لدى والدى ما يعطيه لى فى السنتين الأخيرتين . كانت قروش أحمد تنتهى فى منتصف الأسبوع . ما العمل ؟ ان نزهة العصارى واللب والسودانى والقصب ، هى ألوان من الترف يمكن التنازل عنها ، والعيش بدونها . ولكن الفجل أصبح ضرورة موضوعية ، ووسيلة لا غناء عنها لبلع الخبز ! كيف يزدرد الخبز الجاف . لم يعد فى حلوقنا لعاب يسهل مروره الى جوفنا الخاوى . وينقذنا أحمد بما فيه من اباء ونجدة . ذهب الى بائعة الفجل . كانت امرأة بدينة ، تلبس برقعا . تفترش الأرض على رصيف الشارع الذى يحاذى الترعة . كانت تنسق فجلها فى المقطف فى شكل هندسى بديع : رؤوسه البيضاء الناصعة مرصوصة كالبنيان يشد بعضه بعضا . أوراقه الخضراء العريضة تتدلى على جوانب المقطف فى نظام ونضرة ورخاصة ، تثير اللعاب وتجنح بالخيال . اشترى أحمد من المرأة ، بمليم فجل . وعدها بسداده ، عندما يحضر أبوه . فعل نفس الشىء فى اليوم التالى . طالبته المرأة بالمليمين . لم يدفع . ثارت ثائرتها . انقلب صوتها المحبوب عندما كانت تنادى على « الورور « ، الى صوت لبؤة ضروس . توشك أن تنشب أظفارها فى عنق أحمد النحيل . خطفت طربوشه من فوق رأسه ، كرهن لديها الى أن يسدد دين الفجل .

عند هذا القدر من الذكريات غاضت دموعى ، فرأيت « الأرض «

مرة أخرى . لكننى أحسست بانها لم تعد الأرض الحنون ، التى طالما ضمتنى الى صدرها . أواه ، لم تعد الأرض أرضى ، ولا الصفصاف صفصافى .

٣

كيف تضيع الأرض بهذه السهولة ؟ ان التفسير الذى أعطته أمى لغارات المحضر لا يشفى غليلى . فلا بد ان هناك تفسيرا آخر لضياع الأرض السليبه .

كان والدى فى التاسعة عشرة من عمره عندما مات جدى . صورة مثلى لشباب الطبقة البرجوازية ، أبناء العمد . تعلم تعليما أوليا . أكمله بقراءات عريضة فى الأدب والاجتماع والسياسة . محدث لبق . تسرى كلماته الى قلب محدثه . مرح تشع بسمته اشراقا وبهجة . حلو النكتة . أنيق . تسيل سمرته عذوبة وخمرية . كان ممثلا حقيقيا لأبناء الريف الأغنياء : طيبة ، وشهامة ، ونجدة ، وكرما .

وقد ورث عن والده عشرين فدانا من الأرض الزراعية الجيدة ، لهذا كان محط أنظار الرجال والنساء جميعا . على أن تلك الثروة التى ورثها ، كانت سهلة لم يكدح فى جمعها . فلم يقدرها قدرها ، شأنه فى ذلك شأن كثير من الوارثين .

كان والدى كريما ، لولا أنه أسرف على نفسه وعلينا . كانت مكانة الأسرة فى المركز أو المديرية تتطلب ، فى نظره ، آن تقام الولائم الفاخرة لأعيان المديرية وكبار موظفيها . وانقلب الكرم الى لون من التبذير عجيب : فكل انسان غريب يفد الى القرية ، يأتى الى « دوارنا » ليأكل ويشرب وينام . بل ان ذلك شمل أهل القرية أنفسهم . فانقلب بيتنا الى « تكية » يطعم فيها الكسالى والعاطلون . يضاف الى ذلك ان والدى كان يقيم المولد والليالى لأولياء الله الصالحين ، حيث تذبح العجول والخراف ليأكل مئات من الناس .

لست أدرى أحسنة هذه من حسنات والدى أم سيئة . مهمتى هنا أن أسجلها كبند من بنود الدين .

وكان والدى مؤمنا حقا بنجدة الملهوف . . لجأ اليه مدينون كثيرون ليضمن سداد ديونهم . . وقد فعل . . فرح الدائن والمدين جميعا : الدائن لانه وجد لدينه ضامنا مليئا ثريا . فالسداد أصبح الآن مكفولا . والمدين لان أزمته انفرجت ، سواء كان يقصد سداد الدين أم عدم سداده . أصبح الضامن كفيلا بذلك . على هذا النمط ضمن والدى ديونا كثيرة لم يسددها أصحابها ، اما لفقرهم ، واما لأنهم كانوا يستمرئون عدم السداد . ماذا يحفزهم إليه ، وهناك رجل غنى شهم

ضمن سداد ديونهم . وقد أضافت هذه الديون بندا جديدا الى بنود الدين الأخرى . وكان بندا مرهقا تفاقمت معه أزمتنا .

على أن هذه الأوجه من الانفاق وغيرها ، التى تسبب فيها الثراء والشباب ، ما كانت لترهن الأرض ، وتتسبب فى نزع ملكيتها . وكان السببان الحاسمان لعجز الأرض عن سداد الديون هما : الربا الفاحش ، فقد تركت حكومى صدقى باشا الأهالى للدائنين الشرهين يقرضونهم بفوائد ربوية بالغة الارتفاع . ثم جاءت الآزمة الاقتصادية العالمية ، واجتاحت العالم . وعانى منها الزراع عناء شديدا . وانخفض ثمن القطن انخفاضا كبيرا ، فأصبح التجار لا يشترونه ، وغدا ثمنه كالـــتراب .

كان الدائنون مجموعة غريبة مختلفة الأجناس والألوان والأديان . منهم ، مثلا ، شيخ طريقة ! لست أدرى من أين آتى بالنقود التى أقرضها لوالدى . لعله يكون قد أدار لوالدى بعض الليالى والموالد . ولم يقبض أجره نقدا ، بل كتب له والدى « كمبيالات » . تركمت بفوائدها الفاحشة المركبة على مر السنين ، فأصبحت دينا كبيرا ! وانى لأخال هذا الرجل يرتل الآية القرآنية : « وأحل الله البيع وحرم الربا ! » .

وكان منهم الخواجات اليونانيون . كان « الاجريج » يهاجرون الى مصر ، ويعملون فى مهن متواضعة . فاليونانى يبدأ حياته مثلا بأن

يعمل جرسونا فى ملهى أو مطعم أو خمارة . ثم ما يلبث أن يمتلك احداها . كانت هذه الخمارات وسائل مغرية لجذب الفلاحين وملاك الأراضى . ففيها يحتسون القهوة والشاى والنبيذ والروم . ويأكلون أكلا شهيا ، مطهوا على الطريقة اليونانية . وبذلك ينعمون بساعات حلوة يمضونها فى البنادر . ينسون فيها شظف العيش فى القرية ، والطعام البدائى ، الذى تعده زوجاتهم الفلاحات ، أو بنات الناس الطيبين . وغالبا ما تكون زوجة اليونانى ، أو ابنته ، موجودة لتغرى الفلاحين السذج المحرومين بوجهها الاغريقى الجميل ، وجسدها الرخص ، ولهجتها العربيه الركيكه .

نصب « اليونانيون » وغيرهم هذا الشرك لوالدى ولأمثاله من أعيان مصر وفلاحيها . واقتضوهم أثمانا عالية للطعام والشراب . وأقرضوهم ، أو بعبارة أخرى ، كتبوا عليهم ايصالات بقيمة الطعام والشراب . وفرضوا عليهم فائدة عالية مخيفة على هذه الديون تتراكم وتتركب عبر السنين . بهذه الطريقة استطاع « الجرسونات » اليونانيون أن يكونوا ثروات طائلة فى مصر . وكان كل ما تنتجه أرض المدينين يخصص لسداد الفوائد الفاحشة . فاذا لم يكف دخل الأرض فهم ينتزعون الأرض من مالكها وفاء لديون النبيذ والروم والزيتون والجبنة الرومى !! كانت هذه الخمارات والمطاعم والمقاهى التى أقامها

اليونانيون فى بلادنا ، هى كل ما نعمت به مصر من الحضارة الاغريقية الحديثة . . .

ظلت مأساة الأرض تعترك فى وجدانى نيفا وعشرين عاما . فقد خصصت لها فصلا من فصول رسالتى للدكتواره . ووجدت أن البنوك الأجنبية : الانجليزية والفرنسية واليونانية والبلجيكية ، ودعك الآن من المصريين واليونانيين الأفراد ، قد نزعوا ملكية نحو مليون ونصف من الأرض الوطنيـة ، التى عجزت عن سداد الفوائـد الربوية الفاحشـة . وما كان لحكومة يرأسها صدقى باشا « حكومة أقلية » ، ودولة يعتليها الملك ، ويمرح فى جنباتها الانجليز ، أن تحمى الملاك الوطنيين . كان صدقى يمثل الرأسمالية المصرية ، التى تمثل مع الملك والانجليز تحالفا مقدسا مهمته استغلال مصر ، كمزرعة كبرى . لم تتدخل الحكومة الا بعد أن تفاقم الأمر ليصبح كارثة محققة تهدد ذلك التحالف . وصدرت قوانين التسوية العقارية بين البنوك وبين المواطنين الذين لم تنزع ملكيـاتهم بعد . وترك الذين ضاعت أراضيهم للذئاب .

وتمر أيام الصيف الحزين ثقيلة مرهقة . لم يكـن أثر الكارثـة فى نفسى ، انها أضاعت أرضنا ، فأصبحنا مهددين بالجوع والعرى . لكنها كانت سببا فى ضياع أملى فى مواصلة تعليمى . لهذا حينما كنت أشيع جنازة الأرض ، كنت أقبر معها ذلك الأمل العريض الذى طالما

داعب خيالى ، والذى بذلت لتحقيقه جهدا فى المدرسة الابتدائية ، حيث فتح التفوق لى آفاقا فسيحة ، وآمالا وضيئة .

* * * *

على انه كانت هناك ومضة حلوة ، شاعت فى جوانب هذا الصيف القاتم . خففت بعض الشيء من وقع الكارثة على قلبى الصغير . جاءت عمتى لتزورنا من القاهرة . كانت ابنتها عاليه معها . كانت فى التاسعة من عمرها : عطرة كالزهرة . رقيقة كالنسمة . وجهها مستدير ، وشعرها حرير . عيناها زرقاوان . وجنتاها وردتان . كانت شيئا جميلا حضريا ، هبط فى بيئة ريفية خشنة . تركت خشونتها على وجوه بنيها وفى أصواتهم .

تجمع أطفال القرية حول تلك الوردة يستجلون نضرتها ، ويستروحون شذاها . أخذت الفتاة تطفر بيننا كالعصفور . وكنا نحوط بها كالغربان ! لكن والحق يقال ، كنا غربانا أليفة ، تحرسها عيوننا التى تومض بالاعجاب ، وقلوبنا التى تنبض بالحب .

لم تكتف عالية بأن يقتصر استمتاعنا على ما فيها من نضرة . أخذت تغرد لنا أغرودة حلوة . رددناها معها ، ما استطعنا الى فهمها سبيلا : « يا مدارس يامدراس ، ياما كلنا ملبس خالص ، والملبس فى الكباية ، والبنات تجرى ورايه » .

كان الأطفال ينصرفون . وكنت أمكث معها . وأحس بشيء يدب فى أوصالى ، ويسرى فى وجدانى . فقد أحالت ظلمة القرية الى نور ، وجفافها الى لين ، وأنستنى أحداث الصيف الحزين . لقد أثارت فى آمالا عراضا ، ورفعت من معنوياتى كثيرا . فقد آمنت ، بعد لقائها ، انه من الممكن أن تكون الدنيا جميلة نضرة شذية بمثل ما فى فتاتنا من نضارة وشذى وجمال .

ارتحلت مع أمها ، وتركت فى الجوانح شوقا ، وفى القلب حركة ، وفى الخيال جموحا . ان الومضة الحلوة التى انساحت فى القرية مع وجه « عالية » استحالت الى شعاع مزق الظلمة ، التى كانت تغشاها فى ذلك الصيف . فقد ترامى الى سمعى خبر مفرح أعاد الثقة الى نفسى : ان القوم يفكرون فى أن يقدموا لى طلبا للالتحاق بالمدرسة الثانوية بالزقازيق !!

عجيب أمر هؤلاء القوم : ان الأزمة ، وان قضت على ما يملكون من ثروة مادية ، فانها لم تقض على ما فى قلوبهم من حنان ، وما فى صدورهم من أمل وما فى عقولهم من نور .

لكن كيف يمكن أن ينفقوا على ؟ ان مصروفات المدرسة الثانوية باهظة : عشرون جنيها فى السنة ، والتفكير فيها مستحيل بالنسبة لأسرة لا تملك قوت يومها . كيف يمكن أن يدبروا لى غرفة أنام فيها ، وحصيرة أتمدد عليها ، ومن أين يأتون بالخبز الأذرة والجبن القريش ؟ والبدلة ؟ . . . لقد أصبحت طويلا فارعا . لم تعق أحداث الصيف الحزين قامتى أن تطول . والبدلة التى كنت ألبسها فى المدرسة الابتدائية لم تعدت تصلح من حيث طولها وسعتها . وذلك اذا غضضنا الطرف عن البلى الذى أفقدها لونها ، والذى داعبت أصابعه اكمامها فى رفق . وناوشت البنطلون مناوشة عنيفة عند الركب !

انهم يتحدثون عن الاقتراض مرة أخرى . . هذا الحديث يثير الرعدة فى كيانى . لكن هذا الاقتراض المقترح هو الوحيد الذى سعدت له ، واستكنت اليه . . بل ان والدتى التى كان الدين عقدة حياتها فرحت للفكرة ، بل سعت اليها بنفسها . فقد كان اخوتها على يسار . ولكنه كان يسار التعليم والوظائف ، وليس يسار الطين والأرض . كانوا أسعد حالا . فهذا النوع من الثروة ليس معرضا لهجمات المحضر ، ولا لنزع ملكيته لمصلحة الخواجات . اقترضت والدتى ستة جنيهات من احدى أخواتها ، وهى قيمة القسط الأول .

فى المدرسة الثانوية ، بدأت قصة فيها جدة ، وفيها طرافة ، ولكن فيها كذلك مرارة جديدة ، وشقاء طريف !

٤

أيقظتنا « الديكة » فى صبيحة اليوم ، الذى سنشد فيه الرحال الى الزقازيق . كأن الديكة تصيح بالفجر أن يشقشق ، وبالصبح أن ينبلج ، وبالنور أن يمزق ذلك الستار الكثيف القاتم الذى يفرضه الظلام على الكون .

أعدت والدتى « سبت العيش » الذرة ، والجبن القريش . جاءوا بحمارة أعارها لنا جارنا . لشد ما كانت فرحتى ودهشتى ، اذ قبل أن أعلو ظهر الحمارة لمحت « أحمد » قادما يمتطى حمارته ، يركض وراءه « عمر » !

عندما أخذ الركب طريقه الى كفر صقر ، ولمست وجوهنا نسمات الصبح ، التى تحمل رذاذ الندى وعطر الزهور ، بدأ نوع من الأمل يداعب خيالنا ، ويبعث فينا الحياة من جديد . كانت الفرحة بالذهاب الى المدرسة الثانوية مثيرة بدرجة نسيت معها مستقبل الأسرة الذى ضاع . فها أنذا أسعى الى مستقبلى ، يصاحبنى فى السعى اليــه رفيقى « أحمد » .

وصلنا الى كفر صقر . ألقينا نظرة فيها شوق وفيها امتنان ، على مدرسة كفر صقرالابتدائية ، التى تختلط زرقتها بزرقة الأفق . طال بنا

النظر الى مدرستنا الحبيبة . كأنها معبد نلتمس منه التبريك . ونستمد منه القوة والرجاء والتفوق ، الذى منحنا اياها فى دراستنا الابتدائية . ونتمنى أن ترافقنا كذلك فى دراستنا الثانوية .

ركبنا القطار . كانت هذه أول مرة نركبه فيها . لقد كان القطار شيئا جديدا بالنسبة لنا . لم نستطع أن « نعزمه » كما « عزمه » أجدادنا الشراقوة . لم يكن لدينا ما نقدمه له . . كانت تحيتنا له الركوب فيه !

سعدنا حقا حين أخذنا مكاننا فى الدرجة الثالثة . بدأ القطار يصفر ويدخن ويتحرك رويدا رويدا . ثم يمرق كالسهم بين المروج الخضراء .

لطالما حسدنا أولئك الذين ينعمون بركوب القطارات ، حينما كانت تمر علينا ، أو حينما كنا نذهب الى المحطة لنتفرج عليها . كنا ننظر الى صالونات « الدرجة الثانية » و« الدرجة الأولى » نظرة اجلال واعجاب ويأس . لكنه لم يكن يأسا مريرا فى ذلك الحين . لم نكن ندرى لماذا ينقسم القطار الى درجات ثلاث ! . بلغت الاثارة قمتها حين تهنا بين التقدم الصناعى الذى خلق القطار ، الذى ينهب الأرض نهبا ، وبين جمال الطبيعة والشجر والزرع ، الذى يسابق القطار فى الاتجاه المضـــاد !

وصل القطار الى الزقازيق . وقد رافقنا فى الرحلة والد أحمد . كان رجلا قوى البنية ، أسمر اللون . لكن سمرته برونزية ، يلمع معها

وجــهه ، ويتدفق صحة وحيوية . كان يرتدى الجــلابية الكشمير البلدى . ويضع على رأسه عمامة بيضاء ، فتخلع العمامة على وجهه المستدير جلالا ووقارا . وتبرز الجلابية ما فى أكتافه وصدره من قوة ، توحى اليك بانه ما كان فى حاجة الى أن يقتصر على زوجتين ، انه كفء لأربعة !

استأجر والد أحمد « حنطورا » ليوصلنا الى مقرنا الجديد . أضاف الحنطور ذو المقاعد الجلدية ، والحصان الذى يجره ، وخطواته الرتيبة المنغمة ، وسوط الحوذى حين « يفرقع » فى الهواء ، ليستحث حصانه على أن يغذ السير ، أضاف كل أولئك الى الاثارة والسعادة التى غمرتنا فى ذلك اليوم .

كانت الشقة التى سنسكنها تقع فى الدور الأرضى من عمارة ترتفع ثلاثة طوابق . وحين احتوتنا جدران « الشقة » رقصت قلوبنا جذلا . كان المكان قفزة حضارية كبرى ، اذا ما قيس بالغرف القذرة فى كفر صقر . كان فيه حوض نغسل فيه وجوهنا ومرحاض نقضى فيــه حاجتنا ، بينما كانت وجوهنا تغسل بطريقة بدائيه فى كفر صـــقر وفى الرياعى . وكانت حاجاتنا تقضى كما تقضيها الماشية . . أصبحنا نغتسل ونشرب ماء جاريا نقيا ، يتدفق من صنبور فى الحائط ، أدى الى أن تخف عنا وطأة البلهارسيا التى اكتسبناها من الماء فى القرية .

كانت الشقة مؤجرة لسيدة تربطنا بها صلة قرابة ، بل تربطنا بها صلة أقوى ، هى رابطة الفقر ! كان لها ولدان أحدهما يدعى « حليم » والآخر يسمى « سعداو » لف الفقر هذين الغلامين فى غلائله السود ـ كما سيتضح لنا خلال الأيام القادمة ـ وجعلهما أبعد ما يكونان عن الحلم والسعادة !

أثار خيالنا وفضولنا « زر » بالحائط ، تضغط عليه ، فاذا بنور مريح ينساب فى أرجاء الغرفة . لم يكن سبب الفرحة ، التى غمرتنا بهذا الاكتشاف ، هو التخلص من « اللمبة الغاز نمرة ٥ » ، التى كنا نذاكر عليها دروسنا فى كفر صقر ، والتى أرهقت عيوننا وأحرقت أجفاننا ، لكنها الاثارة التى أحدثها فينا ذلك الاختراع !

فرشـنا الحصيـرة على البـلاط . نمنا نوما مريحا . لم نستيقظ منه الا على صوت « السيدة » ، تحثنا على النهوض فى الصباح . بعد أن غسلنا وجوهنا ، قدمت لنا طعام الافطار : طبقا من الفول المدمس الأحمر اللون ، مضافا اليه الزيت الأصفر اللون . كون اللونان مع البخار الذى يتصاعد من الفول تكاملا لونيا جذابا . كان على « الطبلية » كذلك طبق من الطعمية . كانت ملفوفة بطريقة تشبه « الكفته » ، على عكس طعمية كفر صقر المبططة ! وزع علينا كذلـك « العيش الخـاص » الطرى . نعمنا بأحسن أفطار فى حياتنا !

أخذنا طريقنا الى المدرسة الثانوية . كانت تقع فى الطرف الآخر من المدينة . وتبعد نحو ثلاثة كيلو مترات عن المنزل الذى نسكنه .

أشرفنا على المدرسة . هالنا ضخامة مبانيها . دخلناها ، فاذا بفناء واسع مترامى الأطراف ، وعدد كبير من التلاميذ ، تحس معه لأول وهلة بانك فى مدرسة ثانوية . كانت النعمة ظاهرة على كثير من التلاميذ ، على عكس تلاميذ كفر صقر . كان ذلك يبدو اما من ملابسهم ، أو من السمنة التى كانت تبدو على أجسامهم .

أول يوم لنا فى المدرسة يحمل ألوانا من الاثارة : كتب ضخمة فخمة . اللغة الفرنسية . ناقوس الظهيرة . . ما أن دق الناقوس ، حتى تدافع التلاميذ بالمناكب . ألقتنى موجتهم الى فناء المدرسة الكبير ، حيث وقفنا صفوفا . لم أكن أدرى من أمر هذا التجمع شيئا فى أول الأمر . تحركت الطوابير ، اتجهنا الى مبنى من مبانى المدرسة . اكتسحت أنوفنا رائحة قوية مغرية . كانت رائحة الطعام . ترامت الى سمعى أصوات الملاعق والأطباق . سرى فى جسدى شعور لذيذ . نحن الآن فى قاعة الطعام الضخمة ، التى نظمت فيها الموائد . كانت المدارس الثانوية الأميرية تقدم وجبة الغذاء للتلاميذ . انبهرت بمنظر الموائد . انتشيت برائحة الطعام . جلس كل منا فى المكان المخصص له . وزعت قطع اللحم المحمر ، والأرز الناصع ، والخضار ، والخبز

الطرى ، ثم الموز والبرتقال . نعمت بأكله شهية . أكدت لى اننى قفزت الى مستوى معيشة محترم فى الزقازيق .

انتهى يومنا الدراسى الأول . أخذنا طريقنا الى المنزل سيرا على الأقدام . شاركنا فى السير نفر من التلاميذ تربطنا بهم رابطة المشى . حملت « الحناطير » والعربات الفارهة وغير الفارهة جماعات أخرى من التلاميذ تربط بينهم رابطة الركوب !

مضى الأسبوع الأول على هذا النمط . نفطر فولا لذيذا فى الصباح ، ونتعشى طعمية مغرية فى المساء . نذهب الى المدرسة مشاة صباحا . ونعود منها مشاة عصرا . نمضى النهار فى المدرسة فرحين ، بما يلقى علينا من مواد دراسية جديدة . وبما يقدم الينا فى مطعم المدرسة ، من مواد غذائية جديدة علينا كذلك !

٥

وعندما انتهى الأسبوع الأول ، بدأنا نشعر بتغير أساسى فى نظام معيشتنا . أخذت « السيدة » تقدم لنا فولا فقط فى الصباح ، بعد أن كانت تسانده حبات من الطعمية . وانقطع عنا « العيش الخاص » . أصبحنا نأكل الفول بالخبز الأذرة ، الذى أتينا به من القرية . وفى

المساء تقرر عدد حبات الطعمية التى كان يحظى بها كل منا . . . ونظر أحمد الى ، ونظرت اليه . كان شعورنا بالنسبة للطعام حساسا للغاية ! لقد فرحنا بنظام الأكل فى الزقازيق . كان حقا طفرة للأمام . وعندما حدث ذلك التغيير ـ ولو انه كان طفيفا ـ أصابنا نوع من الجزع . خشينا معه أن يمضى التغيير فى طريقه المحتوم .

فى نهاية الأسبوع الثانى ، تضاءلت كمية الفول فى الصباح تضاؤلا مخيفا . اضطررنا الى أن نسابق ولدى السيدة صاحبة الشقة فى التهام الفول التهاما . كنت قد تدربت أنا وأحمد على أكل الخبز الجاف سنين أربع فى كفر صقر . لذلك كنا نستخدمه بمهارة . نحمل على اللقمة عددا كبيرا من حبات الفول . ولما لم يستطع الصبيان الآخران منافستنا فى هذا العمل الفنى ، بدأت غريزة الجوع تهيب بهما أن يسرعا فى الأكل ليعوضا الكمية الكبيرة نسبيا من الفول الذى تحمله ، اللقم ، الى أفواهنا !

على ان التغير فى الأسبوع الثالث كان جذريا رهيبا . . بدأ الأسبوع بدءا كسيفا . لمحت عيوننا ، الطبلية ، وعليها الخبز الذرة والجبن القريش فحسب ! . . تسمرت عيوننا على هذا المنظر . رأيت فى عينى أحمد ورأى فى عينى ، حسرة بالغة . شعرنا فى صدورنا بغصة

موجعة . طافت برؤوسنا ذكريات مريرة . تجسد أمامنا مصير محتوم . كان حتما علينا أن نأكل من هذا الطعام ، فهناك صبيان وامرأة ، تربعوا حول الطبلية . فى بطونهم جوع ، وفى عيونهم تحفز . وسوف يفتكون به اذا لم نبادر بمشاركتهم فيه .

فى أواخر الأسبوع الثالث استجد وضع غريب ، لــم نكن نألفه من قبل . اختفى الجبن والخبز من المنزل ! ذهبنا الى المدرسة دون افطار . انتظمنا فى الدراسة حتى الثانية عشرة .

عندما دق الناقوس ، دقت معه قلوبنا ، أو بعبارة أدق ، دقت معه بطوننا . بدأت حركة نشيطة تتحرك فى أحشائنا . التهمنا طعام الغداء فى المدرسة التهاما . بقينا على المائدة حتى انصرف التلاميذ جميعا. أكلت أنا وأحمد جزءا كبيرا مما تبقى على المائدة من خبز . خبز تركه الذين رضى الله عنهم . وملأ بيوتهم بالخبز والخيرات . أكلنا كذلك ما تبقى منهم من أرز وخضار . لم يترك التلاميذ المنعمون أية بقايا من اللحم ! فعلنا ذلك وكأننا نحس ان هذه الأكلة ، لا تعتبر غذاء فحسب ، ولكنها ستكون كذلك بمثابة عشاء وافطار . كان ما توقعناه صحيحا . فعندما عدنا الى المنزل وجدنا الولدين وأمهما لم يتناولوا طعاما فى ذلك اليوم ، فليس لديهم ما يتناولون .

تجمع خمستنا فى المنزل المبنى بالحجر ، والذى يجرى فى

حوائطه الماء القراح ، والنور الكهربى . بدت الشقة كئيبة مقبضة ، فالماء النقى لا يجدى ، والجوف خال ، والنور الكهربى لا يستطيع أن يمزق ما ران على المنزل من ظلام الجوع وقـتام الحرمان .

وهمست فى أذن أحمد :

- دعنا نتمشى فى الخارج بعض الوقت .
- أرى أن نبقى هنا .
- الجو هنا خانق ومقبض .
- يظهر انك خيالى . . مقبض ايه وخانق ايه ؟
- ألا ترى الأسرة الجوعى ؟ ألا تسمع الشكوى المرة التى ترددها السيدة ؟
- أرى وأسمع ، ولكننى أفضل البقاء هنا .
- لماذا ؟
- لو خرجنا نتمشى فسنهضم أكلة الظهر ! وها أنت ترى انه ليس هناك عشاء أو افطار . فمن الأفضل أن نبقى ساكنين ولا نتحرك ، حتى لا يهضم الأكل !
- فكرة رائعة ! ما هذا الذكاء يا بنى . ألم يكن الأفضل أن يقلل الله من ذكائك ، ويزيد من رزقك ؟ .

ابتسم أحمد . أوشكنا أن نطلق ضحكة من ضحاكتنا العالية ، الا اننا

حبسناها فى صدورنا ، فآلام الجوع بدأت تعمل عملها فى الأسرة التعسـة . آوينا الى حصيرتنا ، واستسلمنا للكرى . تركنا الأسرة تصطرع مع مصيرها ، لا ندرى ماذا فعل الله والجوع بهم .

استيقظنا مبكرين على غير العـادة فى أيام الجمـع . يبدو ان غدوة ، الأمس قد انتهت آثارها . بدأت المعدة الخالية تطالب بما يسد رمقها ، فأيقظتنا فى هذا الوقت المبكر . وجدنا الأسرة يقظى كذلك . بدأ وجه السيدة يتسرب الشحوب اليه ، وتختفى اللمعة الوردية من خدود ولـديها .

٦

افترسنا الجوع يوم الجمعة . وبتنا على الطوى ليلة السبت . وفى الصباح أخذنا طريقنا الى المدرسة ، كان المشى ثلاثة كيلو مترات الى المدرسة ، بعد أن هدنا الجوع ، مهمة شاقة لم نتعود عليها فى أحلك أيامنا فى مدرسة كفر صقر . كان الخبز الأذرة ، على الرغم من انعدام المادة الغذائية فيه ، يملأ فراغا فى معداتنا وامعائنا . ويخفف التقلصات الموجعة ، التى يحدثها الجوع فى جهازنا الهضمى . ويسكت مؤقتا الصرخات المكتومة التى تصاعد من داخلنا . فالحرمان من هذه الوسيلة المادية - لا الغذائية - لم يكن مألوفا لنا من قبل . على ان تلك التقلصات

والصرخات كانت تحتدم فى الصباح الباكر ، وتزداد حدتها ، وهى ترافقنا فى رحلة الثلاثة كيلو مترات الى المدرسة .

كنا نجلس فى الفصل ، لست أدرى كيف نستمع الى مدرسين يشرحون مواد صعبة . كانت المواد مثيرة حينما دخلنا الفصل فى الأيام الأولى . لكنها أصبحت الآن عسيرة الفهم ، خاوية المعنى . يبدو ان بطوننا الفاغة جعلت رؤوسنا فارغة كذلك . فلم يعد ناقوس الظهيرة بالنسبة لنا اعلانا بانتهاء الدرس ، بقدر ما كان ايذانا بمقدم الطعام !

اصبح دخول مطعم المدرسة فى تلك الأيام دخولا فى الحياة مرة أخرى . كانت نكهة الطعام أجمل رائحة فى الدنيا . ننتشى بها عندما تستروحها أنوفنا وصدورنا ومعداتنا . صليل المعالق ، ورنين الأطباق ، أعذب نغم يشنف أسماعنا ، وتتراقص معه بطوننا . منظر المـــوائد لا يأخذ بلبنا من الناحية الجماليه ، بقدر ما كان عنصرا لازما لوجودنا .

على ان الجوع أفقدنا غريزة التذوق للطعام ، والاستمتاع به . كان همنا أن نفرغ أكبر كمية من الطعام فى جوفنا ، الذى أحاله الجوع فراغا كبيرا هيهات أن يملأه ما على الموائد جميعا ! لم نكن نبالى بالتلاميذ من حولنا . كنا نلتهم الطعام بطريقة تختلف حتما عن أولئك الذين يجدون فطورا وعشاء فى بيوتهم . لم نكن نعبأ كذلك بأن ينصرف التلاميذ جميعا من المطعم ، ونبقى نحن ، لنلقى ببقايا الطعام الذى

تركوه فى معداتنا . وكأننا نخزن فيها ما يكفينا أربعة وعشرين ساعة . أى عندما نحضر الى المدرسة فى اليوم التالى ، ونجلس على مائدة الطعام مرة أخرى .

كانت مدرسة الزقازيق الثانوية فى الأسابيع التى مكثناها فيها تعتبر لنا مطعما لا مدرسة ! ! كنا نذهب الى المدرسة لنأكل لا لنتعلم . كيف يعى الجائع ما يلقى اليه من دروس الجبر والهندسة واللغات الانجليزية والفرنسية والعربية .

وجاء يوم الخميس . والعادة أن يفرح التلاميذ بيوم الخميس ، الذى تعقبه الجمعة ، اجازة نهاية الأسبوع ، حيث التحرر والانطلاق بعيدا عن قاعات الدراسة . ولكن يوم الخميس كان شؤما علينا . فوجئنا بان المدرسة لا تقدم غداء فى هذا اليوم ، لانه نصف يوم . ومن المستحسن أن يأكل التلاميذ فى بيوتهم ! كانت وجبة المدرسة هى كل ما يحفظ علينا حياتنا . كيف نمشى ثلاثة كيلو مترات الى البيت وليس فينـــا رمق ؟ وليس لدينا أمل فى أى طعام بالمنزل . قد يكون من الممكن أن يحتمل الانسان ، وبصفة خاصة اذا كان صبيا فى الثانية عشرة ، صوما لمدة أربعة وعشرين ساعة ! اما أن يتغذى يوم الأربعاء ، ويجوع نصف الأربعاء ، وكل الخميس وكل الجمعة ، ونصف السبت ، أى اثنين

وسبعين ساعة ، فهذا يبدو مستحيلا ومرعبا ، وسنهلك حتما فى هذه الأيام الثلاثة .

وركب التلاميذ المترفون ، حناطيرهم ، وعرباتهم الفارهه وغير الفارهة ، وتساندت على أحمد وتساند على. وأخذنا نمشى بخطى متثاقلة ، وأرجل منهكة ، ونفسين غمرهما اليأس ، وغشيهما الضياع . وكان الطريق الى المنزل فى هذه المرة طويلا يبدو ولا نهاية له . كانت السيارات تجرى ، والحناطير تنساب ، والخيول يعلو صهيلها . لم يكن أحد يدرى ان هناك جائعين صغيرين يترنحان على الرصيف ، ويعانيان آلاما مبرحة ، لا لانهما يمشيان ، فقد حفيت أقدامهما من المشى من قبل ، ولكنهما لا يجدان ما يأكلانه . وتحسرنا على أيام كفر صقر ، أيام العيش الأذرة والجبنة القريش !

قلت لأحمد عصر الخميس :

ـ هيا بنا نخرج لنتمشى ، ونشم بعض الهواء .

وأجاب أحمد فى جفوة ظاهرة غير معهودة فيه :

ـ لا ، اخرج انت .

خرجت من المنزل ، لا لانى أستطيع الخروج ، فقد كنت فى حالة من الضعف لا تستطيع قدماى أن تحملانى . لكننى بذلت جهدا للخروج من هذا الجو المقبض . لعل الهواء الطلق فى الخارج يمد

جسدى بنوع من الغذاء . أو لعل النسمات تحمل لى أملا يتسرب من أستار اليأس الكثيفة التى ضربت على جسدى وروحى .

وحين عدت الى المنزل كانت الدنيا قد أظلمت بعض الشيء. لم يعد فى البيت نور ، ، فسيدة ، البيت لم تدفع ما تراكم عليها من مبالغ نظير استهلاكها للتيار الكهربائى ، فقطعت البلدية النور . على اننى استطعت أن ألمح أحمد فى ركن الغرفة ، وقد اعتراه الخـوف عندما رآنى ، وأخذ يخفى شيئا فى جيبه . خاطبته :

ـ لماذا تجلس هكذا فى الركن ؟

ـ لانى أريد أن أجلس هنا !

لم تكن نبرات صوته لها ذلك النغم الحلو الصديق الذى طالما قربه الى قلبى . كانت الكلمات تخرج من فمه متعثرة . وخيل الى ان هناك شيئا فى فمه يعوقها عن الانطلاق . لا يحتاج الآمر الى كثير من الذكاء لأعلم أن أحمد كان يأكل شيئا . . وانه جزع عندما رآنى ، وانه يخاطبنى بلهجة غير صديقة . يا للأسى . . أيمكن أن يكون الجوع قد أحال أحمد الى انسان قاس متحجر القلب؟ لقد كان كريما شهما فى كفر صقر حين كان يشترى الفجل . وكان حلو الشخصية ، بديع النكتة ، عذب الحديث. ما باله أصبح فظا غليظ القلب . خبا فى عينيه ذلك البريق المحبب الذى كان ينزله منزلة خاصة فى فؤادى .

كانت لدى عزة ، وكان بى كبرياء . فلم أكن أطلب من أحمد شيئا . كان اذا اشترى اللب أو الفجـل ، ويقدم لى بعضـه ، كنت أقبله ولا أطلبه ! على ان أحمد يأكل الآن . . وقد مضى على « غدوة » الأربعاء نحو ثلاثين ساعة . وأحمد ، على أية حــال ، ابن عمتى ، ورفيق صباى ، وصديق طفولتى . فهل يمكن أن يتمادى فى قسوته الى هذا الحد : يأكل وأجوع ، وأخاطبه فى لين وينهرنى فى عنف ؟ ان الجوع يمزق ما يسميه علماء الطب بالمعدة والامعاء . دقيقة كانت أم غليظة . ويبدو ان هذه الأخيرة قد أصبحت دقيقة هى الأخرى ، فلم تجد ما يجعلها غليظة خلال ثلاثين ساعة مضت !

وقلت لنفسى :

ان الانسان يستطيع أن يحافظ على كبريائه اذا كانت لديه الوسائل للحفاظ عليها . وهو يستطيع أن يصبر ويصابر بعض الوقت . اما أن يهلك لان لديه كبرياء ، فهذا ليس من طبيعة الآشياء . ثم انه غير مجـد ، فلن تستطيع الكبرياء أن تضع خبزاً فى جوفى ، لتسكت التأوهات التى تتصاعد من داخلى . وعلى ذلك فالكبرياء شيء لا يستقيم مع الجوع . بل انها قد تكون شيئا اخترعه الذين تملأ التخمة بطونهم ، فاذا ماشبعوا ورووا ، عندئذ يفكرون فى الموضوعات المترفة كالكبرياء والعزة والكرامة !

خطوت نحو أحمد خطوات متثاقلة لا تردد فيها . وخاطبته قائلا :

ـ أحمد ، انت تأكل ؟ . .

ورد فى جفوة ظاهرة :

ـ لا ، أنا لا آكل .

ـ اذن ما الذى تلوكه فى فمك ؟

ـ لا شيء ، هذا ليس من شأنك .

ـ ما هذا الذى فى جيوبك ؟

ـ ليس فى جيوبى شيء ، بالاضافة الى انك لست شريكى .

ـ حقا أنا لست شريكك ، ولكنك تعلم كم أعزك ، وكم فرحت حين رافقتنى الى المدرسة الثانوية ، فأنت صديقى ، وقريبى ، ورفيق صبـاى . .

كما توقعت ، كانت القسوة التى فرضها الجوع على أحمد طارئة وليست أصيلة فيه . فحين سمع الجملة الأخيرة ، بدأ صوته يتغير ، ويسترد رويدا رويدا نغمته الصديقة المألوفة ، وبدأت أرى مع نور الغسق الذى يتسلل ضعيفا من النافذة تلك النظرة الحنون التى طالمــا نعمت بها . وقال أحمد :

ـ طيب أنا سأقول لك الحقيقة : نعم آنا آكل ، وانتهزت فرصة

وجودك فى الخارج، وأكلت لقمتين .

- من أين لك هذا ؟

- لا تتفلسف ، أنصت لى الى أن أنتهى من حديثى .

ثم أردف فى لهجة أقل رقة :

- سوف أعطيك لقمة تكسر بها الجوع .

ومنحنى أحمد لقمة ، ثم أتبعها بأخرى . كان عيشا ، خاصا ، ولكنه لم يكن طريـا ، فقد بدا انه خبز مثلا منذ يومين . وأكلت اللقمتين ، وخفتت الأصوات فى أعماقى بعض الشيء . ثم أخذ يسرد على المغامرة التى استطاع بها أن يحظى بهذا الخبز .

- يوم الأربعاء الماضى عندما تأخرت فى مطعم المدرسة بعد أن خرج التلاميذ جميعا ، لمحت بقايا كثيرة من الخبز على الموائد . ولما كنت أعلم انه ليس لدينا ما نأكله فى المنزل تفتق ذهنى عن الفكرة التالية : لماذا لا أجمع كمية من بقايا الخبز وأضعها فى جيوبى ، لأتعشى بها وأفطر ، وأتغذى كذلك يوم الجمعة ! وملأت جيوبى بالخبز فى غفلة من الفراشين . وهكذا ترانى قد استخدمت عقلى فى تخفيف وطأة الجوع .

وقلت له فى اعجاب وحماسة : بورك فيك ، لقد عودتنا دائما الأفكار المبتكرة . . وعقب أحمد :

- ان المسألة ليست أفكارا مبتكرة ، ولا شيئا من هذا القبيل . وانما هو الجوع والحاجة فرضا على التفكير وايجاد الحل . . .

ثم رفع صوته ، وأخذت كلماته لهجة فيها حسم وفيها انذار :

- لقد أعطيتك جزءا من الخبز الآن ، وعليك أن تعمل لنفسك يوم السبت . ان جيوبك كبيرة تستطيع أن تحشو فيها ، بطريقة منظمة ، كسرا كثيرة من بقايا الخبز . وبهـذه الطريقة نستطيع أن نواصل دراستنا ، بل حياتنا .

٧

اعترتنى يوم السبت مشاعر مختلفة متنافرة : فرحة بالذهاب الى المدرسة لنتناول الغداء هناك ، رهبة من الاقتراح أو الانذار الذى وجهه الى أحمد . وعندما دخلنا المطعم ، اصطرعت تلك المعانى فى نفسى ، فأنستنى الفرحة التى كانت تعترينى كلما دخلت الى مطعم المدرسة. على اننى أكلت فى ذلك اليوم أكلا لما ، حيث لممت ما تستطيع أن تصله يدى من بقايا الخبز التى تركها التلاميذ ، ولكننى أكلته كله . وترددت كثيرا فى وضعه فى جيبى . كان يخيل الى أن الفراشين يحملقون فى ، ويتابعون حركات يدى . ولمحت أحمد على المائدة

المقابلة ، يضع لقمة فى فمه ، ويضع أخريات فى جيوبه . وكان ينظر الى مشجعا أحيانا ، ومنذرا أحيانا أخرى . على انه ملأ بطنه وجيوبه ، ولم يعد فى حاجة الى أن يعنى بشئونى ، فانصرف .

وبقيت أنا التلميذ الوحيد فى المطعم مع الفراشين ، الذين كانوا منشغلين بجمع الأدوات وبقايا الطعام من فوق الموائد . وهممت بوضع لقمة فى جيبى . ونظر الى أحد الفراشين فتوقفت . تجمدت أصابعى فوق قطعة الخبز . لم تعد تبدى حراكا . كانت نظرة الرجل تستحثنى أن أغادر المطعم ، فقد انصرف جميع التلاميذ ولم يبق الا أنا . مـاذا أصنع ؟ ان يدى على قطعة الخبز ، ولا أستطيع أن أضعها فى جيبى . لابد أن آكلها رغم عدم حاجتى اليها الآن . وضعت لقمة الخبز فى فمى على مضض . تلفت يمنة ويسرة ، فاذا الفراشون هناك . واذا بضربات قلبى تزداد . واذا بخاطر غريب يجول فى ذهنى . لست أدرى أكان هذا الخاطر نتيجة لعدم القدرة على سرقة الخبز ، أم هو الخوف ، أم انه لا زال فى بقايا انسان : ان هذه اللقيمات البقـايا هى من نصيب الفراشين ! . ولا شك ان لديهم أطفالا كثارا ينتظرونها ، فكيف اعتدى على أرزاقهم ، وأحرمهم وأسرهم من كسر الخبز ؟ تركت المطعم كسيفا مضيعا .

عدنا آخر النهار الى المنزل . نظرت الى أحمد ، ونظر الى ، قرأت

فى عينيه كل ما يريد أن يقوله . وقرأ فى عينى اننى لم أستمع لنصيحته أو لانذاره سألنى :

- لعل جيوبك الآن ملأى ببقايا الخبز ؟

لم أجبه . . . لكننى نظرت اليه من جديد ، أصر قائلا :

- لا تنظر الى . لابد أن تجيب .

- . . . .

- لماذا لا ترد على سؤالى ؟ سوف أرد بدلا منك : انك لم تملأ بالخبز جيوبك كما قلت لك . وأكبر الظن ان بك كبرياء أبت عليك أن تقلدنى فيما أصنع . احتد صوت أحمد . انقلب الى انسان آخر . كانه يتشفى فى حين قال :

- انت فاكر نفسك أحسن منى ؟ يعنى أنا أسرق الخبز ، وانت تتعالى على السرقة . اذا كانت لك بقية من كبرياء ، لماذا لا تصر على كبريائك ، وتتحمل آلام الجوع ؟ لماذا تطلب منى أن أعطيك لقمة اذا كانت لديك حقيقة كرامة ؟ أتعتقد اننى مهين لاننى أسرق الخبز ؟ اذ كان الأمر كذلك ، فأية مهانة يمكن أن تصيب المرء ، الذى يضرع الى سارق الخبز ليعطيه لقمة ، تخفف عنه ضراوة الجوع ، أنا شخصيا لا أدرى من المهين : السارق أم الشحاذ ؟ وما هى درجة المهانة اذا كان الشحاذ يسأل السارق نفسه قطعة من الخبز !؟

لم أنبس بكلمة . . تركت أحمد تتدفق المرارة من بين شفتيه ، ويضوى التشفى فى عينيه . ختم أحمد هجومه قائلا : اننى لن أعطيك لقمة هذه الليلة ، وأحسن علاج لك ولأمثالك أن تجوع ، لترى ان ما تسميه كرامة أو كبرياء ما هو الا هراء . لا ريب ان الجوع سيربيك تربية سليمة ، وستصل الى الخطة التى اتبعتها أنا، بعــد أن تعلمك الأيام .

أجبت أحمد فى نغمة متكسرة :

ـ لكننى يا أحمد لم أطلب منك شيئا هذه الليلة ، فلماذا تصب على هذه القسوة ؟

أجاب بسرعة خاطفة :

ـ أنا لست فى حاجة لكلماتك لأعلم ماذا تريد . فعيناك كتاب مفتوح يقرأ الانسان فيه ما تخفى وما تعلن .

عدت الى صمتى من جديد . شحنت كلمات أحمد ذهنى بمجموعة من المعانى المضطربة ، ظلت تصطرع وتختلط ، خلفتنى فى حيرة وذهول . انتحيت ركنا من الغرفه ، مددت ساقى ، سندت ظهرى على الحائط . أخذت أغمض عينى تارة وأفتحها وأحملق فى سقف الحجرة تارة أخرى .

استرسل أحمد فى قسوته . لكن قسوته هذه المرة لم تكن كلاما ، فالكلام يسرى مع الهواء ، ولا يترك أثرا الا فى النفوس الحساسة . وقد

حساسا . الا أن الجوع يهلك الاحساس ، ويبلد الشعور . أحمد ج الخبز من جيبه ويأكل ، فقد جاء وقت العشاء . . كنت أختلس أنظر اليه ، ثم يرتد بصرى حسيرا . الصوت الذى يحدثه عندما يقضم الخبز ، أو يلوكه فى فمه ، ذو وقع أليم على أذنى ، وذو أثر مدمر لأعصابى . استمر أحمد فى عملية التعذيب فترة طويلة ، خيل الى أثناءها انه جاء ببقايا الخبز كلها من على موائد المطعم جميعا !

ثم سمعت وقع أقدام ثقيلة فى الصالة ، أدركت على التو من هو صاحبها . انه الابن الأكبر « حليم » . دخل علينا الحجرة ، لـم ينظر الى ، فلم يكن يعبأ بى كثيرا ، حيث لا خير يرجى لدى . اتجه نحو أحمد ، الذى أصابه الارتباك عندما رآه . بدأ يحشو الخبز فى جيوبه ، لكن حليم أخذه على غرة :

ـ ماذا تأكل يا ولد ؟

ـ أنا لا آكل .

ـ انت تكذب على ، الأكل لا زال فى فمك .

ـ لم يعد لدى شيء .

ـ اعطنى مما تأكل بسرعة .

ـ كانت لقمة واحدة وأكلتها .

ـ لقد خبأت شيئا فى جيوبك .

- أبدا .

- انك لن تخرج ما فى جيوبك الا بالضرب .

أخذ حليم يضرب أحمد . وكانت وسيلته المحببة ، هى أن يخلع الجاكتة ويضرب أحمد بأكمامها على وجهه وأذنيه ، فتوجعه زراير الأكمام وجعا شديدا . . استسلم أحمد ، أخرج قطعة من الخبز من أحد جيوبه ، أعطاها له . . لم يكتف بها ، هدد أحمد بالضرب مرة أخرى ، انتزع منه مجموعة أخرى من اللقم . يبدو ان الضرب من ناحية ، والشبع الذى بدأ يظهر على أحمد من ناحية أخرى ، وكذلك الخوف من أن يأتى حليم على كل ما لديه من مخزون ، جعل أحمد يخرج ما فى جيوبه من خبز ، ويعطى بعضه له ، ثم يقذف ببعضه الى ، ثم يلتهم هو جزء آخر . ترك أحمد الغرفة على عجل ، خوفا من أن يفتك حليم بما تبقى لديه من لقم . هرولت عجل ، خوفا من أن يفتك حليم بما تبقى لديه من لقم . هرولت خلفه خشية أن يسطو حليم على المنحة التى قذفها أحمد الى . وبينما كنا نتمشى فى الشارع الذى يحـاذى النهر ، تبينت فى دهشة بالغة ان قطعة الخبز الذى قذف بها أحمد الى كانت « سندوتش » ملوخية !!

يبدو ان الضرب والارهاب من جانب حليم ، والوداعة والعرفان بالجميل من جانبى ، قد عادا بأحمد الى طبيعته الطيبة . بدأ بيننا

حدث صديق . أخذ يطلعنى على سر المهنة ، كيف يأخذ بقايا الخبز من فوق الموائد فى مطعم المدرسة ، دون أن يلاحظه أحد . ثم شرح لى أيضا « التكنيك » الذى يرتب به الخبز فى جيوبه . كان أحمد يضع الخبز مرتبا منظما فى جيوب البنطلون والجاكتة ، وبين قميصه وبنطلونه ، وتحت ابطيه ، وفوق بطنه !! ثم انتقل الى مرحـلة فنية أعلى ، فأخذ يعلمنى كيف يعمل السندوتشات ، وكيف يضع فيها أى نوع من الخضروات المطبوخة !

فى اليوم التالى ، تكونت لدى حصيلة وافرة من الجرأة والمعرفة بكيفية سرقة لقيمات الخبز ، ووضعها فى جيوبى ، دون أن يرانى أحد . تكونت لدى فلسفة جديدة ، لم أعد أرى معها فى سرقة هذه الكسر من الخبز ما يمس الكبرياء . بل لم أعد أرى فيها اعتداء على أرزاق الفراشين وأطفالهم !

٨

مضت بنا الحياة فى الزقازيق ومدرستها الثانوية عـلى هذه الوتيرة . نذهب الى المدرسة لنتناول طعام الغذاء . ونسطو على بقايا التلاميذ نحشو بها جيوبنا لتقينا غائلة الجوع فى الصباح والمساء ، ونكون منها خزينا نقتات به أيام الخميس والجمعة . . . ثم نمنح الأسرة

التى نسكن نحن والفقر عندها بعضا منها . كنت أنا أمنح سعدا الولد الأصغر ، فقد كان لحوحا فى ضعة وأدب ، بينما كان على أحمد أن يغدى الابن الأكبر ذا الجثة الضخمة خوفا من أن يبطش بـــه . وقد « استطعم » حليم ما يقدمه له أحمد من سندوتشات الكوسة والملوخية ، بينما لم أستطع أنا أن أجارى أحمد فى فن عمل السندوتشات ، فاكتفيت بالعيش « الحاف » .

مرت علينا أسابيع أربعة ، ونحن على هذه الحال . وطابت لنا الحياة ، وتقبلناها كما هى ، بل قد نكون قد نعمنا فيــها بنوع من السعادة . فأكلة الظهر فى المدرسة دسمة متعددة الألوان لا عهــد لنا بها . ونحن كذلك قد حللنا مشكلة الجوع فى العشى والابكار ، بتخزين بقايا الخبز فى جيوبنا ، لنلجأ اليها فى الساعات والأيام العجاف . . ونحن كذلك نتلقى التعليم فى المدرسة الثانوية الأميرية .. والمدرسة الثانوية هى طريقنا الى التعليم العالى . وبدا الرضا والأمل يداعبانا بين الفينة والفينة . فأخذنا نضحك من جديد ، واسترد أحمد ملكة النكتة القديمة ، وجعل يتندر على الأسرة البائسه ، وعلى نفسه ، وعلى حليم حين يضر به بأكمام الجاكتة فتلسع أذنيه وعنقه .

اجتزت الامتحان الشهرى بتفوق واضح . فقد كنت أول الفرقه ! وكان أحمد متفوقا كذلك . وانقضى الشهران الأولان من الدراسة ،

وتلقينا خطابا من المدرسة كان له وقع الصاعقة علينا . ان المدرسة تطلب دفع القسط الثانى ، وقيمته خمسة جنيـــهات . . خمسة جنيهات !؟ . . من أين يمكن أن نأتى بهذا المبلغ الكبير ، وأهلونا لا يستطيعون اطعامنا ؟ . . .

هرعنا الى المدرسة لنستوضح الموقف . . وقلت لسكرتير المدرسة: انى قدمت طلبا للحصول على المجانية ، فقد نلت ٨٧٪ من مجموع الدرجات ، وكنت أول كفر صقر الابتدائية ، بل أول مديرية الشرقية ، فماذا تم فى طلبى ؟ . .

أخذ الموظف يقلب ملفات متراكمة على مكتبه فى غير نظام . وفتح احدى الملفات ، وكنت أراقب عينيه وأصابعه ، وهى تقلب ورق الملفات فى عصبية شديدة . لقد كان مصيرى معلقا بين أصابع هذا الرجل ، وبين شفتيه . وتوقف الرجل لحظة ، وتوقفت معه نبضات قلبى . ثم أخذ يتلو بطريقة روتينية منغمة :

ـ خليل حسن خليل

نعم يا أفندى .

ـ نصف مجانية . .

بهاتين الكلمتين انتهت حياتى المدرسية . لم تكن بى حاجة الى التفكير فى هل هى نصف مجانية أو مصروفات كاملة ، فالأمر

يستوى . لقد اقترضت والدتى الجنيهات الستة الأولى ، ودفع القسط الأول أملا فى أن أمنح المجانية الكاملة ، ونستردها كى ندفعها الى أصحابها . وكان من المستحيل على الأسرة المفلسة أن تدفع جنيها واحدا .

فى اليوم التالى تسلمنا انذارا نهائيا بانه اذا لم نسدد المصروفات المدرسية خلال يومين ، فسنطرد من المدرسة . ومضى اليومان . وجئنا الى المدرسة فى اليوم الثالث . واذا بالمعاون يستدعينا ، ويقول لنا :

- هلى أحضرتم المصروفات ؟

- من أين نأتى بها ؟

- لا أدرى ، ممكن تسأل ، أبوك ، هذا السؤال .

- أبى فى الرباعى مركز كفر صقر . اعمل معروف اعطنا مهملة نكتب له فيها لكى يحضر لدفع المصروفات .

- لا يمكن اما المصروفات واما الطرد من المدرسة .

ثم التفت الى أحد الفراشين وأصدر له الأمر التالى :

- يا فراش ، احضر كتب هؤلاء الأولاد من ادراجهم . . أو انتظر والتفت الينا قائلا :

- اذهبا معه لتحملا كتبكم .

ذهبنا مع الفراش ، وحملنا كتبنا الثقيلة ، ثقل الهم الذى يملأ

صدورنا . ورجونا الفراش أن يذهب بنا الى الناظر ، لعل المربى الفاضل يجد لمشكلتنا حلا . ودخلنا على الناظر فى مكتبه الفاخر ، والتفت الينا قائلا :

- ما هؤلاء ؟

- نحن تلامذة يا أفندى !

- ماذا تريدون ؟

قال له سكرتيره انه صدر قرار بفصلهم ، لعدم سدادهم القسط الثانى من المصروفات.

- طيب انتهى الأمر . .

- لا ، لم ينته بعد . . أنا متفوق وأول المديرية ، ونلت ٨٧٪ وأرض والدى خطفها الخواجات ، كيف لا أمنح المجانية ؟

- اذهب لتسأل الوزير .

- الوزير بمصر كيف أذهب اليه .

- لقد منحك نصف مجانية .

- وما فائدتها ، نحن لا نستطيع أن ندفع ولا مليم .

- اذن لا تتعلم !!

والتفت الى الفراش فى لهجة آمرة :

- يا فراش ، الأولاد هؤلاء يخرجون من المدرسة .

استعطفته أنا وأحمد أن يسمح لنا بالبقاء فى المدرسة حتى آخر النهار . وكانت الساعة الثانية عشرة قد اقتربت . كنا نرجو البقاء لا حبا فى المدرسة أو التعليم ولكن الحاجة الملحة الى الطعام ، الذى سيكون آخر وجبة لنا فى المدرسة . وسوف نستند عليها فى الأيام القادمة حتى ينجلى مصيرنا . انها الوجبة التى سوف تقيم صلبنا الى أن نرحل الى قريتنا .

لكن الناظر لم يستمع الى الاستعطاف ، ولم يكن يحس اننا نرجوه أن يتركنا فى المدرسة لنأكل . وأكبر الظن انه لو علم باننا جائعين لأدت به فلسفته الى أن يقول : اذا لم تكن لديك نقود ، فلا تأكل !

ودفعنا الفراش خارج حجرة الناظر ، ثم قذف بنا خارج المدرسة ، وصفق الباب خلفنا . ووجدنا أنفسنا فى الشارع جوعى ، ضياعى ، حرمنا حق التعليم ، وحق الأكل ، وحق الحياة . كان وزير المعارف فى « حكومة صدقى » هو « حلمى عيسى باشا » . ويبدو أنه أخذ على عاتقه أن يسهم فى اشاعة الجهل فى مصر ، وبذلك يكمل الصورة القاتمة للثالوث الذى حكم مصر فى ذلك العهد : الفقر والجهل والقهر . وقد تولى صدقى ، ولا سند له من جماهير الشعب ، عملية القهر للحريات ، وأسهم فى ضياع الأرض الوطنية وتملك الأجانب لها ،

وتسبب فى افقار الآلاف من ملاك الأراضى والملايين من العاملين فى تلك الأراضى . كانت مهمة حلمى عيسى أن يصنع الحلقة الثالثة من الثالوث الكرية ، الذى يزهق أنفاس مصر ، وهى الجهل ، وهو المتخصص فى ميدانه . .

لهذا فاحت فى عهده روائح عفنة سببها الفساد والرشوة والمحسوبية ، والمهازل الخلقية . وكان نصيب هذه « القيم » ! من مجانيات التعليم نصيبا كبيرا . بينما حرم المتفوقون الفقراء ، أصحاب الحق فى المجانية ، من التعليم جميعا .

عدت الى القرية لأكتشف أمرا لا يقل قسوة عن طردى من مدرسة الزقازيق الثانوية ، فقد سجن أبى لأنه « كسر » حجزا على الأذرة التى نأكلها . فقد حجز الدائنون عليها ، وأخذت والدتى جانبا منها لاطعام اخواتى . وألقت الحكومة بوالدى فى غياهب السجن .

بهذا تكون المرحلة الأولى من حياتى قـــد بلغت ذروتها : ضاعت أرضنا ، وطردت من المدرسة ، وسجن والدى ، وأصبحت ربا لأسرة مكونة من ثمانية أفراد ، وأنا ما زلت فى الثانية عشرة من عمرى !!

٩

جلست أفكر فى مصيرى ، ومصير أولئك اللائى يتجمعن حولى ، ولا حول لهن ولا قوة . هل يمكن أن تكون الابتدائية شهادة يتوظف بها المرء ، أو تؤهله لعمل ؟ وحتى لو كانت كذلك ، هل يمكن أن يعمل الانسان وهو لم يبلغ الثالثة عشرة بعد ؟ وفى أى عمل ؟ ومن ذا الذى يمكن أن يعاوننا فى ايجاد عمل ؟ أقاربى من ناحية والدى فلاحون فقراء ولا يستطيعون لأنفسهم ضرا ولا نفعا . ولا أظن أن أقاربى من ناحية والدتى بقادرين على بذل جهد فى هذا السبيل .

آه . . لقد خطرت بفكرى خاطرة : كنت قد رافقت والدى ذات ليلة فى الصيف الماضى ، بعد ضياع أرضنا ، الى عزبة أحد الخواجات « اليونانيين » وكانت مساحة المزرعة نحو خمسمائة فدان ، تصل أطيانها الى حوائط قريتنا .

وقد قال لى والدى حينئذ أن الخواجة عرض عليه أن أعمل عنده مساعدا لكاتب العزبة ، ولكن والدى أخبره أنه ينوى أن أواصل دراستى .

لماذا لا أذهب الى هذا الخواجة ، وأخبره بأننى أقبل ما عرضه على والدى . اننى أعتقد انه لن يسحب عرضه ، ولما يمض عليه

شهران . وأنا الآن أستطيع أن أكون مساعد كاتب أكثر كفاءة ، فقد أضفت الى دراستى الابتدائية شهرين فى المدرسة الثانوية . وأخذت فى الحساب الدرجة النهائية : ٥٠ من ٥٠ .

ذهبت الى الخواجة اليونانى وتحدثت معه . فقال لكاتبه فى صلف وفى غير اهتمام : « خذه يعمل معك فى كتابة الأنفار » . وتشاء سخرية الأحداث أن يغتصب أرضنا يونانى ، ثم أعمل لدى يونانى آخر . على ان الأول كان مصدر جوعنا ، ولكن ، الثانى - والحق يقال - قد أسهم فى أن يرد غائلة الجوع ، أو بعضها عنا .

١٠

التحقت بمزرعة الخواجة فى أوائل عام ١٩٣٤ :

كان أول يوم من حياتى فى المزرعة مثيرا . اشترت لى أمى « جلابية » جديدة ، أكسبتنى هى و « الطاقية » التى صنعت من نفس القماش رشاقة خاصة ، بعثت فى الخيلاء عندما نظرت الى نفسى فى المرآة . وودعنى اخواتى ووالدتى وداعا مليئا بالرجاء والأمل .

لم يعد يبدو فى عيونهن ذلك الألم الرفيع الذى أحدثه ضياع مستقبلى . لقد انطمست صورتى بعد تخرجى من الجامعة فى أعينهن ، تلك الصورة التى طالما داعبت عيونهن وخيالاتهن زمانا طويلا . واستحال هذا الألم الرفيع الى ألم متواضع واقعى ، مصدره الجوع .

على اننى لمحت ومضات من الطمأنينة تتردد فى عيونهن : لقد وجد أخوهم الغلام ـ رجل الأسرة ـ عملا وخبزا .

وصلت الى عزبة « الخواجة » التى كانت تتكون ـ شأنها شأن عزب كبار الملاك فى مصر ـ من قصر شامخ تحف به حديقة غناء ، يسكنه مالك الأرض ، وأكواخ من الطين يسكنها الذين يزرعـون الأرض . كانت الأكواخ تبعد عن القصر ، وتقع الى جنوبه ، حتى لا يمر الهواء عليها ، ويحمل رائحتها الى القصر المنيف . فالهواء غالبا ما يهب من الشمال ! . وكان يفصل القصر عن الأكواخ « دوار العزبة » الذى يضم مخازن الحبوب والقطن والأسمدة والأدوات الزراعيـة ، وحظائر الماشية . وكان يفصلها عنها كذلك جرن كبير تدرس فيه الغلال والبقول.

كان المكان يبعث على الرهبة ، فعلى الرغم من اننى أذكر انه كانت لنا أرض ، الا ان مساحتها كانت صغيرة اذا ما قورنت بهذه المزرعة التى بدت شاسعة لا حدود لها . ودخلت حجرة كاتب المزرعة الذى كان شابا يقترب من الثلاثين من عمره . كان يرتدى « جلابية » ، عارى الرأس ، وعلى الرغم من صغر عينيه ، الا ان احداهما كانت أكبر من الأخـرى التى كان يغمضها فى أغلب الأحيان . كان فمه واسعا ، وكثيرا ما كان يزم شفته العليا على السفلى . وبصفة عامة ، كانت تقاطيع وجهه تعكس صورة آدمية لوجه الثعلب !

رحب بى الكاتب ترحيبا فاترا . ولم يقف لاستقبالى ! وكان قابعا وراء منضدة قديمة يتخذ منها مكتبا ، وتتناثر فوقها « دفاتر » مختلفة الأشكال والأحجام . كـانت الغرفة مظلمة مطلية بالطين من الداخل ، ذكرتنى بتلك الغرفة التى كـنا نقطنها فى كفر صقر . ولم يمهلنى الكاتب ، أو كما سميته أنا فيما بعد « الباشكاتب » ، لا احتراما منى له ، ولكن تقربا اليه ، وكذلك حتى يخلو لى منصب الكاتب ! لم يمهلنى كثيرا ، بل دفع لى بكراسة صغيرة ، وقال فى لهجة آمرة . . . اذهب لكتابة الأنفار الذين يعملون فى الحقل .

وطاف بوجدانى ألم عابر ، كان مصدره أنه لم يسألنى حتى عن اسمى ، ولم يدعنى للجلوس ، على أننى أجبته بسرعة :

ـ حاضر .

ـ هل تعلم أين يعملون ؟

ـ فى الحقل .

ـ الحقول كثيرة . . « الوسية » خمسماية فدان .

وأخذ يشرح لى تقسيم العزبة ، وحقولها المختلفة . وكانت الكلمات تخرج من كوة صغيرة انفرجت فى جانب من فمه ، لتكشف عن أسنان صفراء . وبعد أن ذكر لى الحقل الذى يعمل فيه الأنفار ، دفع فى يدى بقلم رصاص ، وربت على كتفى ، وكأنه يضربنى ، قائلا :

ـ الى الحقل يا شاطر .

بدأ عملي في المزرعة مع بدء اعداد الأرض لزراعة القطن : فالجرارات الزراعية الرهيبة تحرث الأرض المترامية الأطراف ، وتعيد حراثتها . ومئات من العمال « يمسحون » خطوط القطن ، وينعمونها لتكون صالحة لوضع البذرة . وعلى مرمى البصر تجد خليطا من الفنون الزراعية الحديثة والعتيقة : فالمحاريث تجرها ثيران قوية ، يقودها بشر هزيل ، وذلك الى جانب آلات الحرث الحديثة . كذلك فالسواقي تسمع هزيجها ، وهى تتراص على « الترعة » ، يجرها الجاموس والبقر . وعلى مسافة قصيرة منها ، نجد الطلمبات الميكانيكية الضخمة تمتص مياه الترعة جميعها ، لتلقى بها فى أرض الخواجة ، بينما أراضى المواطنين الهزيلة المساحة ، التى تقع بعد أرض الخواجة يتشقق اديمها من العطش .

الرجال الذين « يمسحون » الأرض هم أول فريق أعده وأكتبه . وكان يشرف على العمل « الباشخولى » الشيخ سليم . وهو رجل « ربع » القامة عريض المنكبين ، ذو وجه مستدير فاتح اللون ، أكسبته الشمس والهواء لونا برونزيا يطفح بالصحة والحيوية . لحيته تسلل الشيب اليها ، فخلعت على وجهه جلالا وهيبة ، جعلت العمال جميعا يرهبونه . كان الرجل متفانيا فى خدمة الخواجة تفانيا منقطع النظير . يستحث العمال بمختلف الطرق التى أكتسبها من خبراته الطويلة فى المزرعة ابان عمله

لدى الخواجة منذ أكثر من خمس وعشرين سنة ، يشجعهم بالاغراء تارة ، وبالتهديد تارة أخرى . فهو يثير التنافس بينهم مستخدما كلمات تفعل فيهم فعل السحر . وكان العمال يبدأون العمل فى الحقل حين تشرق الشمس ، ويغادرونه وقت الغروب . انهم يعملون فى غير كلال ، يعتصر الشيخ سليم جهودهم طول اليوم ، الذى يصل الى أربع عشرة ساعة ، ليقدمها خالصة للخواجة . ولم يكونوا يستريحون الا نصف ساعة وقت الظهيرة ، يتناولون فيها طعام الغداء .

طعام ؟ ! . . لقد جزعت حينما رأيت طعامهم : العيش الذرة « الأحمر » وهو أدنى أنواع الذرة ، وقطع من الفلفل أو الخيار « المخلل » ، لم يكن يتيسر لفريق منهم ، فكانوا يستبدلون الملح به . ولم يكن جزعى اشفاقا على العمال ، بقدر ما كان مصدره شعورا ممضا حين رأيت هذه الكثرة من الناس تشاركنى الخبز الأذرة . على انه قد انساح فى شعورى لون من الارتياح غريب : اننى أسعد حالا منهم ، فالخبز الذى آكله مصنوع من الذرة البيضاء ، وهم مستوى أعلى من الخبز « الأحمر » لا جدال ، وذلك اذا استثنينا أيام الجوع الكامل فى الزقازيق .

كان العمال يشربون من القنوات التى تشق فى الأرض لترويها بالماء . وبهذا يكون طعامهم سببا فى هزال أجسادهم ، بينما الماء يمدهم بالبلهارسيا التى تنهش عروقهم . وكان هناك أيضا الشيخ سليم ،

باخلاصه المتفانى للخواجة ، يأتى على ما بقى فيهم من مجهود بشرى نظير قرشين فى اليوم .

استقبلنى الشيخ سليم استقبالا باشا ، ورحب بى ترحيبا بالغا ، كان الرجل صديقا لوالدى وجارا لنا فى البلدة . يعرف قصة أسرتنا . لذلك أكثر من عطفه على . وأخذ يلقى الى بنصائحه وخبراته . ويدلنى على الوسائل التى تجعل الخواجة راضيا عنى .

دعانى الشيخ سليم لتناول طعام الغذاء معه . ولشد ما أدهشنى ان الرجل يقترب من الستين من عمره . قضى ربع قرن منها فى خدمة الخواجة . وهو « باشخولى » عزبة مساحتها خمسمائة فدان . يبذل مجهودا خارقا فى عصر جهود العمال ليقدمها عملا انسانيا يزيد من ثراء الخواجة . هذا الرجل يتكون غذاؤه كذلك من الخبز « الأذرة » - ولو انها أذرة بيضاء - ومن الفلفل المخلل . . على انه كان يتميز عن الشغيلة ، بقلة ماء حمراء ، تملأ له من الترعة ، وتوضع فى ظل الشجر ، فيصبح الماء باردا « أحسن وأصح من الثلج » كما كان يحلو له دائما أن يقول . كان الماء البارد يلطف حرارة الشمس التى يصلى بنارها طول النهار فى فصل الربيع والصيف ، وهو يقود العمل فى الحقل . ويخفف نوعا من لهيب الفلفل المخلل الذى يمثل غذاءه العادى ، الذى يتكرر كل يوم الا لماما .

الحق اننى أحببت الشيخ سليم ، وشاركته حياة المزرعة فى النهار ، وشاركته الفراش فى الليل . كنا نسكن معا فى حجرة واحدة تقع الى جانب « اسطبل » المواشى ، كانت مبنية من الطين ، ولها نافذة واحدة صغيرة ، وبها فرن بلدى . . كان الشيخ سليم ، بعد عمله المضنى ، فى الحقل ، يسير على القنوات والمصارف . ويجمع بعض العشب وأغصان الأشجار ، وسيقان القطن ، ثم يحملها الى الغرفة ، ويضعها فى الفرن ، ويشعل النار فيها ، فتشيع الدفء فى الحجرة فى ليالى الشتاء القاسية .

كان فراشنا وغطاؤنا فى هذه الغرفة من نوع جديد . كنا نفرش على مصطبة الغرفة « كيسا » من أكياس الجوت التى يعبأ فيها القطن ، ونلتحف بكيس أو اثنين حسبما اذا كنا فى فصل الشتاء أو فى الفصول الأخرى .

وكنا نتناول الوجبات سويا ، حيث أضم « خيارى » المخلل الى « فلفله » ، نتغذى فى الحقل تحت ظلال الأشجار الوارفه ، ونتعشى على مصطبة الغرفة التى كان يعبق جوها بدخان يصعد من الفرن . وكان الشيخ سليم وهو يرتشف الماء من « القله » أثناء تناول الطعام يحدث صوتا عاليا تحس معه بخرير الماء ينساب فى حنجرته ، ثم يطلق « تكريعة » طويلة . يتبعها بالعبارة الآتية : « الحمد لله ، اللهم ادمها نعمة ، واحفظها من الزوال » . وقد تسللت تقوى الشيخ سليم الى ، فكنت

أستيقظ معه مبكرا ، نصلى الفجر معا فى مصلى تقع على الترعة المجاورة للعزبة . كان هو الامام وأنا المأموم . وكثيرا ما كنت أصلى الفروض الأخرى معه فى الحقل ، أو فى الغرفة .

وفى يوم من أيام يونية القائظة ، كان الرجل يتفانى فى عمله فى الحقل ، ويقود نحو مائتى رجل ، يعزقون أراضى القطن . وبلغت به الحماسة غايتها ، والتفانى أقصاه ، الأمر الذى جعل العمال يبذلون فى العمل ضعف ما يبذلون وترتب على ذلك ان الفدان الذى يعزقه سبعة رجال عادة ، عزقه ثلاثة فحسب . . وخشيت على الرجل من هذا الجهد فسألته :

ـ لم كل هذه الجهود الخارقة ؟ ولماذا ترهق العمال السيئى التغذية الى هذا الحد ؟

أجاب الرجل القانع بالخبز الآذرة والمخلل ببساطة :

ـ اسمع يابنى ، من أكل عيش النصرانى يضرب بسلاحه ، !

١١

كان القيام مبكرا لصلاة الفجر مع الشيخ سليم ، وبصفة خاصة فى الصيف والربيع ، متعة كبيرة . فضوء الفجر عندما ينساب على حقول القطن الخضراء ، ينقل الى عيوننا روعة ذلك البساط المترامى الأطراف

من الخضرة الداكنة ، ويثير فى نفوسنا مزيجا من جمال الطبيعة ، وجلال المساحات الشاسعة من الأراضى التى يمتلكها الخواجة . وكان النسيم المخضل بالندى الذى يمر على حقول القطن والفول والبرسيم فيحمل من نوارها عبقا تستروحه أنوفنا وصدورنا . ولكنه كان يحمل لى كذلك رهبة غامضة تملأ قلبى : هذه الحقول ، الوطنية ، التى تمتد بعيدا بعيدا وراء الأفق ، والتى تفلحها سواعد العمال الوطنيين ، ويذهب ناتجها الى الخواجات .

• الموسيقى التى تصدح بها العصافير واليمام فوق أشجار الصفصـاف ، التى تحف بالمصلى ، رائعة تهدهد الروح ، وترفق بالأعصاب . الطيور تقدم الينا افتتاحية موسيقية ، تشجعنا على أن نستقبل يوما حافلا بالعمل الشاق والكدح الطويل . وكانت الصلاة خلف الشيخ سليم ممتعة . على اننى كنت أحس ، وأنا أقف خاشعا خلف الرجل ، انه كان يتفانى فى صلواته ، وكأنه يشكر الله ان منحه هذا الخواجة الذى يستخدمه ، خولى ، فى عزبته ، ويمنحه جنيهين شهريا ، بعد أن قضى فى خدمته نيفا وربع قرن ، عمل خلالها آناء الليل ، وكل النهار ، باخلاص لم أشهد مثله من قبل

لم تخل رحلاتى الى حقول ، الوسية ، من اثارة . كانت زراعة

القطن و « خفه » يقوم بها الصبية والصبايا ، الذين يحضرهم المقاولون من قريتنا ومن القرى المجاورة . لقد كان قوامى فارعا ، وكانت جلابيتى أكثر بياضا ونظافة من جلاليب الشـغيلة . وكنـت كذلك « كاتبا » يلقبوننى « بالأفندى الصغير » ، حيث كان « حسـين الباشكاتب » هو الأفندى الكبير . وقد خلع كل أولئك عـلى مكانة خاصة ، فحظيت من الصبية بشعور كله ود واعجاب ، ومنحتنى الصبايا نظرات حلوة البريق ، وهمسات وابتسامات تنفرج عنها شفاه كالورد ، وأسنان كالدر النضيد .

عندما كنت أعد الأنفار كنت أسرع الخطى عندما أمر على الصبية ، وأمشى الهوينى عندما أمر على الصبايا ، أعيد العدد وأكرر الكتابة . . كانت البنات فقيرات كالبنين . وكن يأكلن كذلك الخبز المصنوع من الأذرة « الصغيرة الحمراء » والفلفل المخلل أو الملح .

ولكن العجيب ، انه كانت فى أجسادهن رخاصة ، وفى أردافهن امتلاء ، وفى صدورهن ثراء . والأعجب من ذلك انه كان فى شفاههن عقيق ، وفى خدودهن ورود . والحق اننى لم أدر كيف يمكن لهذا الغذاء أن ينتج ذلك القوام ، وتلك الألوان !

* * * *

يبدو ان الخواجة قد رضى عن عملى بعض الشىء فى كتابة

الأنفار ، فأراد أن يضيف لى عملا آخر الى جانب عملى ككاتب ، هو أن أشرف على فريق من العمال الذين يعملون فى الحقول « كخولى » .

تقبلت العمل الاضافى بحماسة بالغة . وكان مصدر الحماسة اننى قد حظيت برضا الخواجة وتقديره ، ولهذا سرت فى نفسى بعض الطمأنينة ، فلن أفقد عملى ، ولن يجوع اخواتى ووالدتى . اعتقدت كذلك ان الأجر الذى سوف أتقاضاه عن عملين ، سيكون أكبر من أجر عمل واحد . هذا بالاضافة الى اننى أحب الحركة ، والجلوس فى قاعة المكتب يقبض النفس ويحبس الروح . وفى الحقل أيضا ، صبايا حسان ، يخفف النظر اليهن والحديث معهن ما ألم بى فى حياتى الماضية من جفاف وحرمان .

كان أول عمل أشرف عليه « كخولى » فى الحقل هو أن أقود فريقا من الصبية والصبايا لنقاوة نبات القطن من الدودة أو من « اللطع » التى تمثل مجموعات البيض ، قبل أن تفقس ، وتستشرى فى النبات ، فيتعذر السيطرة عليها ، وقد تفتك بنبات القطن أو تضعف من محصوله . وتحت تأثير حماستى لرضاء الخواجة عنى ، والاخلاص والتفانى فى خدمته ، اللذين تسربا الى من الشيخ سليم ، بذلت نشاطا غير عادى فى قيادة الأنفار . واستخدمت أساليب كثيرة تتراوح بين الترغيب والترهيب لكى أدفع الصبايا والصبية على مزيد من العمل ، ومزيد من

الجهد . بل اننى استخدمت رابطة الاعجاب بينهم وبينى فى بذل مجهود أكبر ! . وحققنا نتائج لم تتحقق من قبل من حيث اتقان العمل ، وزيادة عدد ساعاته ، وزيادة المساحات التى ننظفها من دودة القطن . ومن ثم انخفضت نفقات « نقاوة الدودة » بدرجة كبيرة . ولم يكن هذا الخفض من النفقات يرجع الى أن الولد ، أو البنت ، كان يتقاضى قرشا صاغا ، أو اثنى عشر مليما نظير العمل أربع عشرة ساعة فى اليوم ، بقدر ما كان يرجع الى اننى . . والشيخ سليم ـ استنزفنا جهده لخدمة الخواجة .

فرح الخواجة لنتائج عملى فى الحقل « كخولى » ، كما سر كذلك من عملى « ككاتب » ، وكان الشيخ سليم يرمقنى بنظرات راضية . كان يفخر بى كتلميذ له ، وكثيرا ما كان يمدحنى عند الخواجه .

وجاء آخر الشهر . . وتطلعت الى القصر السامق وساكنه ، كى ألتمس من فخامة القصر ، ومن رضاء الخواجة عنى ، صورة للمرتب الذى سوف يمنحنى اياه . ودخلت حجرة « الباشكاتب » ، الذى كان يمسك بحساب الخزينة ، ويقوم بوظيفة « الصراف » . دفع « الباشكاتب » فى يدى بخمسة وأربعين قرشا !! كان هذا المبلغ هو كل ما منحه الخواجة لى نظير كدحى ثلاثين يوما فى عملين : كاتب وخولى . وانفرج وجه « الباشكاتب » ، الذى كانت تعلوه غبرة داكنة

بصفة شبه دائمة ، عن ضحكة صفراء ، وبدت فى عينيه شماته كريهة .

كادت قيمة المرتب المنخفضة تصعقنى . لم أكن أتوقع هذا المبلغ الضئيل . ولكننى لم أرفضه . بل اننى أخذت أفسر صغره بتفسيرات شتى ، وألتمس لذلك تعليلات كثيرة : اننى ما زلت جديدا فى العمل . وما زلت صغير السن ، لم أبدأ الثالثة عشرة بعد ! والصبية والصبايا الذين يجمعون « لطع الدودة » ، تتراوح أجورهم بين قرش وقرش ونصف ، فبأى حق أطالب لنفسى بأجر أعلى من أجورهم ؟ ولكننى تعلمت سنوات أربع فى مدرسة كفر صقر . وحصلت على الشهادة الابتدائية ، ومكثت شهرين فى الزقازيق الثانوية . وأنا أقوم بوظيفتين « كاتب » و « خولى » . أيمكن أن يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ وأن يأخذ نفس الأجر القائدون والمقودون ؟ .

كانت هذه خواطر فقط بقيت فى وجدانى . فما كان لى أن أناقش الأجر ، لا بعد أن تسلمته ، ولا حتى قبل أن أتسلمه . فقد كان على أن أرضى بأى أجر مهما كانت قيمته . فلم تكن المشكلة أجرا صغيرا أو ا ، ظالما أو عادلا ، يتضمن استغلالا أو لا يتضمن ، ولكن المشكلة كانت اطعام ثمانية أفواه ، كان الجوع يهددها فى الصباح ، وفى الظهيرة ، وعندما يأتى المساء .

أخذت المبلغ ، وخرجت مسرعا من حجرة الباشكاتب المقبضة ، لأهرب من بسمته الصفراء ، وأسنانه القذرة . وهرعت الى الحقل ، الى الشيخ سليم ، أشكو له حالى . وجزع الرجل حينما سمع انهم يعطونى قرشا ونصف فى اليوم ، على الرغم من انه أمضى فى المزرعة ربع قرن ، ويعطى جنيهين فقط فى الشهر ، وقد بلغ الستين . على ان الرجل كان صبورا قانعا . ما لبثت الصدمة أن اختفت وزال أثرهـــا من ملامح وجهه . ثم أمسك بلحيته التى غلب عليها البـــياض وقال « اصبر ، انت سيكون لك مستقبل عظيم . . هذا أول مرتب ، وانت لا زلت صغيرا ، وجديدا فى العمل . وأنا متأكد ان جناب الخواجـة سيقدرك ، وسيزيد لك المرتب ، خليك طويل البال » .

أثرت كلمات الرجل القانع فى نفسى . كان يخاطبنى بلهجة الأب الحنون ، مسحت كلماته خيبة الأمل التى أصابتنى ، بل ان نغمة صوته هدأت أعصابى .

وفى فجر اليوم التالى ، أيقظنى الشيخ سليم ، لأصلى معه . وصلينا الصبح سويا . وخيل الى اننى كنت أشكر الله معه، اذ هيأ لنا هذا الخواجة الذى أعمل له ستة عشر ساعة فى اليوم ، ويمنحنى خمسة وأربعين قرشا فى الشهر ! . لم يجل بخاطرى انه يستغلنى ، ولم أتساءل لماذا أؤدى له هذه الأعمال الشاقة باخلاص خارق وأمانة فطرية ، لم يكن

أمامى غير بديلين لا ثالث لهما : اما هذا الخواجة وقروشة الخمسة والأربعين ، واما الجوع والضياع لى ولأسرتى .

* * * *

جاءنى تقدير ثالث من الخواجة . انه يريد أن يكل لى عملا آخر ، هو عد الأغنام والاشراف على تغذية المواشى فى الحظائر ! وهذه عملية تستغرق بضع ساعات بعد غروب الشمس . بعد أن تأوى الماشية الى حظائرها . وبعد أن تعود قطعان الأغنام من مراعيها التى تنطلق اليها أثناء النهار . كما تستغرق بضع ساعات أخرى قبل الشروق . ترددت فى قبول التقدير الجديد . فسوف لا أمنح أجرا على العمل الاضافى . انه يتضمن ارهاقا ليس هناك حافز عليه .

صرحت للشيخ سليم بوجهة نظرى . خالفنى الرأى ، وقال : « ان عليك أن تقبل أى عمل يسنده الخواجة اليك ، ولو أدى الى ارهاقك ، وحتى لو لم يكن هناك أجر اضافى نظير القيام به ، فهذا تقدير من الخواجة يجب ألا تخطئه . . وافقت الشيخ سليم على رأيه ، واستمعت لنصيحته ، انتظارا للوعود التى يمنينى بها .

كانت عملية عد الغنم سهلة وممتعة . وكان عددها يتروح بين الثمانمائة والألف . وكان رائعا حقا ، أن يكون عددها اليوم ثمانمائة ، ثم تصبح فى اليوم التالى ثمانمائة وعشرين مثلا ، اذا كان القادمون

الجدد عشرين-صغيرا . وكانت طريقة العد أن يوضع حاجز متحرك على باب حظيرة الأغنام . ثم تمر نعجة اثر الأخرى الى أن ننتهى من العدد . ثم يسجل القادمون الجدد فى سجل خاص .

ومن الطبيعى اننى لم أكن أستطيع أن أعرف عدد الأغنام حتى أستطيع أن أتأكد من أمانة الرعاة . وبهذا يكون العدد الحقيقى هو عبارة عن تقرير شفوى من الراعى يقدم لى عن عدد « الحوالى » المواليد يوما بيوم .

على أن عملية تغذية المواشى من الأبقار والجاموس والخيل والحمير ، كانت عملية مرهقة . كان على أن أشرف على علفها من السابعة الى التاسعة ليلا ومن الخامسة الى السابعة صباحا ، أى أربع ساعات أخرى اضافية . واقتضت العملية أن أتسلم عهدة مخازن الحبوب والأعلاف التى تطعم الماشية منها ، أى الشعير والأذرة والكسب الى غير ذلك .

قمت بهذه الأعمال جميعا ، بكفاية غير عادية فى هذه السن المبكرة ، وبأمانة بالغة ، مصدرها اننى لا أعرف شيئا غير الأمانة . وكان الدافع عليها هو أن أشتهر بالأمانة لدى الخواجة الذى يهيمن على رزقى فى هذه الفترة من حياتى ، وأحظى بثقته ، ومن ثم أحظى بضمان « اجتماعى ! » لأسرتى ضد الجوع .

انتظرت آخر الشهر الثانى على القروش الأربعين أن تزيد ، جمدت عند هذا الحد لمدة ستة شهور ، كنت خلالها قلقا متذمرا ليس أمامى الا الشيخ سليم أبوح له بهمومى . وكانت اجابته دائما : « اصبر . . خليك طويل البال . . ربنا سيعوض صبرك ، وانشاء الله انت لك مستقبل سعيـــد ، غدا سترى ، وسأفكرك » .

١٢

اقترح الخواجة اضافة الى أعمالى ! طلب منى أن أتسلم المخازن جميعا ، أى مخازن الحبوب ، سواء الحبوب التى تعلف منها الماشية ، أم الحبوب الأخرى ، كالقمح والأرز والبرسيم وغيرها . وكذلك مخازن القطن والأدوات الزراعية والوقود وما الى ذلك .

فرح الشيخ سليم لهذه الأعباء ، وتطيرت أنا منها ، لا للأعباء الاضافية التى تتضمنها ، ولكن للمسئوليات الجسيمه التى ترتب على هذه الأعمال . فالمخازن ضخمة تضم آلافا من قناطير القطن وآلافا من أرادب القمح وغيره من الحبوب . وهذه أعباء ومسئوليات ينوء بها كاهلى ، وأنا ما زلت أدب نحو الرابعة عشرة من عمرى .

ويؤكد لى الشيخ سليم :

ـ اسكت انت لا تعرف شيئا .

- كيف ؟ -

- اسكت ، هذا شيء عظيم .

- من أين جاءته العظمة ؟

- من ثقة الخواجة يا أخى ، هل هذه مسألة بسيطة ؟

- ثقـة الخواجـة تكبلنى بأشغال شاقـة ، ومسئوليات كبيـرة . لا جزاء عليها .

- « طول بالك » ، الجزاء فى الطريق .

- متى وأين ؟

- حالا .

- طيب يا عم الشيخ سليم .

فرح الشيخ سليم كثيرا ، حينما منحنى الخواجة فى الشهر التالى خمسة عشر قرشا زيادة اضافية ، وبذلك أصبح مرتبى ستين قرشا فى الشهر ، أى قرشين فى اليوم . والحق اننى فرحت لهذه الزيادة . لقد أصبح أجرى مساويا لأجر الرجل الذى يعزق خطوط القطن بالفأس طول النهار تحت حرارة الشمس اللافحة . ومهما كان الارهاق الذى يصيبنى ، فهو لا يعادل الارهاق الذى يصيب العاملين فى الحقل . ان أعمالى اشرافية على أية حال : اشراف على العمل فى الحقول ، اشراف على المخازن ، اشراف على علف الحيوان ، كتابة الأنفار . لا يبلغ

الارهاق فيها ذلك المبلغ الذى يعانيه الذين يؤدون الأعمال اليدوية .

ما مصدر هذه الثقة الكبيرة التى يمنحنى الخواجة اياها ؟ أهو الشيخ سليم الذى يذكرنى بالخير عنده ؟ أهو العمل الشاق أو النتائج الطيبة التى أحققها فى الحقل وفى المكتب وفى الاصطبل ؟ لقد بدأت نتائج الاشراف الدقيق الأمين على علف الماشية تظهر على أجسام الثيران والجاموس والخيل والحمير . . أم هو الأجر الرخيص الذى يمنحـنى اياه ، فأعمل أعمالا ثلاثة ، كاتب وخولى ومخزنجى ، نظير ستين قرشا فى الشهر ؟

كانت هذه الوظائف جميعا يقوم بها حسين « الباشكاتب » ، ولم أكن أدرى لماذا تنتزع منه واحدة بعد الأخرى ، ألأنه يتقاضى جنيهين فى الشهر ، ويمكن أن أحل محله بستين قرشا فقط ، أم أن هناك أسبابا أخرى ؟

فى ليلة من الليالى الحاكة الظلمة ، استيقظت فى الهزيع الأخير من الليل على غير عادتى ، فقد تعشيت أنا والشيخ سليم فى تلك الليلة بفرخة محمرة طهتها لنا والدتى ، وحشتها بالأرز المتبل بالفلفل والبهارات ، وكانت هذه واحدة من الأكلات التى ينعم بها أهل الريف فى المواسم والأعياد فحسب . وكان هناك الى جانبها سلطانية « مرقة » وضعها الشيخ سليم فى الفرن فأصبحت ساخنة شهية . كان طعمها

اللذيذ يتجلى على وجه الشيخ سليم حينما كان يرتشفها ، ويمصمصها بالمعلقة أولا . ثم يعبها من السلطانية مباشرة بصوت ظاهر . فيسيل بعضها على لحيته . ثم يمسحها براحة يده . وكأنه يريد « للشوربة » الدسمة أن تغذى لحيته ، التى ابيضت بسرعة واضحة فى الشهور الستة الأخيرة ، فغدا لونها كاللبن الحليب .

تسببت هذه الأكلة النادرة فى أن أصاب باسهال . فاستيقظت نحو الساعة الثالثة صباحاً . وذهبت لأقضى حاجتى فى الحقل المجاور . فقد كنا ، وكان أهل العزبة معنا ، نستخدم الحقول الملاصقة لمبانى العزبة دورات للمياه !

كانت غرفتنا مجاورة للباب الكبير « لاصطبل » المواشى ، الذى يؤدى بدوره الى المخازن . وفى طريق عودتى ، بعد أن هدأت معدتى الثائرة ، سمعت صوت باب « الاصطبل » يفتح فى بطء شديد . وترامت الى سمعى همهمات انسان ، وانين حيوان . التصقت بحائط الغرفة البعيد أرقب فى خوف وفضول ما يجرى هناك . وعندما انفرج الباب الضخم اندفع الى الخارج عدد من الحمير تحمل أكياسا معبأة بالقطن . يتبع كل حمار رجل . ولمحت حسين « الباشكاتب » وشيخ الكلافين بين الركب . وأخذ الباشكاتب يعطى للرجال تعليمات هامسة : « أخى « على » سيقابلكم فى كفر صقر ، أول بيت على اليسار ، فى أول

« كفر الغجر » ، سيكون مرتديا جلابية بيضاء ، سينتظركم على الباب الساعة الرابعة تماما . الساعة الآن الثالثة - سوقوا الحمير لكى تصلوا بسرعة . لا تخطئوا أول بيت على اليسار . كلمة السر « وسية » ! » .

وأجاب الرجال : « حاضر يا أفندى » . اندفع الركب فى الطريق الخلفى للعزبة . الحمير تئن تحت حملها الثقيل . يهيب بها الرجل فى صوت مكتوم أن تحث السير . كاد الركب أن يمر بى . لولا أن دلفت بخفة الى داخل الحجرة . وأغلقت الباب فى سكون ، وآويت الى فراشى ، أو الى الأكياس التى تمثل فراشى وغطائى !

لم أكن أدرى لماذا يحمل القطن فى جنح الظلام على ظهور الحمير ، ويأخذ طريقه الى كفر صقر . أو لعلنى كنت أدرى ، ولكننى كنت أود أن « آكل عيش » . فالباشكاتب ذو سلطان خطير ، وهو يمثل « المعلم » بالنسبة لى ، فلم أكن غير « صبيه » ، أنقاضى أجر الولد الصغير الذى « يزرع » القطن أو « يخفه » أو « ينقى الدودة » . لم أقل حتى للشيخ سليم ، حين أيقظنى لصلاة الفجر . فقد سيطرت على فكرة « أكل العيش » ، فآثرت الصمت المطبق . وكان يمكن أن يخف صمتى لو كان هناك انسان أو مجتمع يعنى باخواتى وأمى ، ويدفع عنهم غائلة الجوع .

ويبدو ان معدتى لم تألف هذا الغذاء السمين . فقد وطنت نفسها

على العيش الأذرة والمخلل ، ورتبت أجهزتها وعصاراتها على ذلك اللون من الغذاء زمانا طويلا ، بحيث لم تعد قادرة على مجابهة هذا الموقف المفاجيء الذى أحدثته الدجاجة السمينة . وترتب على ذلك أن استمر الاسهال ليلة أخرى . كانت معدتى وحسين ورجاله وحـــميره ، أو بمعنى أدق حمير الخواجة ، على موعد فى الليلة التالية كذلك ، هذا هو الباب الضخم يفتح فى حذر ، وهذه هى الحمير يتبعها الرجال تخرج منه محملة هذه المرة « بزكائب » الحبوب : القمح والأرز وغيرها . ثم تتكرر التعليمات الهامسة من « الباشكاتب » للرجال : نفس العبارات تقريبا فيما عدا لون « جلابية » أخيه على ، هو الذى كان يتغير ، كذلك كانت كلمة السر ، فهى بالأمـس « وسية » واليوم « عزبة » وغـــــدا « أبعدية » وهكذا .

كنت أرى لأول مرة سارقا نظيفا ، يلبس الجـــــلابية الأفرنجية « البوبلين » والطربوش والبالطو الصوف ، ويشغل وظيفة هامة ويتحكم فى رقاب مئات من الفلاحين . كانت صورة السارق فى ذهنى هى التى رسمتها لى أمى . كانت حدثتنى مرة عن سارق « هورينجى » سرق « طشت الغسيل » من فناء منزلنا المكشوف ، وترك ورقـــــة « الهورين » على الحائط الذى قفز من فوقه بالطشت .

فاجأنى « حسين الباشكاتب » بسرقة من نوع عجيب . أرقت ذات

ليلة ، حيث كان جو الغرفة فاسدا مرهقا لا يحتمل . يعبق بدخان كثيف . تصاعد من الفرن الذى أسرف الشيخ سليم فى وضع كميات من الحطب وأغصان الشجر فيه . وذلك لان الليلة كانت باردة كالزمهرير . فتحت نافذة الغرفة الصغيرة ، لأستروح لفحة نقية من الهواء . لعلها تعاوننى على النوم . كان الشيخ سليم كحالة دائما يشخر شخيرا عاليا . ينم عن نوم عميق ، وقناعة راضية . لا يدرى بما يدور حوله . ليس له فى هذه الدنيا غير الخواجة ، والجنيهين اللذين يتقاضاهما شهريا ، وسنواته الستين . سمعت صرير البوابة الكبيرة ، يسرى فى سكون الليل . توقعت أن أرى الحمير تحمل أثقالها المألوفة . لكنى شهدت منظرا عجبا : الرجال فوق الحمير ، وأمامهم خراف موثوقة الآرجل . توضع على أفواهها كمامات تمنعها من « المأمأة » ! كان كبير الرعاة بين الرجال . يحمل خروفا ويقود الركب العجيب . أغلق الباشكاتب وكبير الكلافين البوابة خلف القطيع . تلاشت خطوات الحمير ، وساد الصمت المظلم من جديد .

كان « حسين » ســـارقا بارعا ، يحكم خطته فى السرقة احكاما بالغا ، كما انه كان لصا فريدا . فلم يصل الى علمى فى هذه السن ان لصا يمكن أن يسرق « الخواجات » ، فهم فى الأصل لصوص ، ومن ذا الذى يجرؤ على سرقتهم . بل اننى لم أسمع من قبل أن سارقا فردا

يشترك معه عدة رجال ، بعضهم يشغل وظائف هامة فى الوسية ، كالخولة والخفر والكلافين والرعاة ، يمكنه أن يحظى بقيمـة السرقة كلها ، دون أن يحظى الشركاء بشيء ، اللهم الا قرشا أو قرشين ينالها الرجل ، لا كنصيب له فى الصفقة ، ولكن « كبقشيش » على خدماته التى قدمها للباشكاتب . أو لعلها كانت أجرا عن عمله الليلى للباشكاتب ، يماثل أجره عن عمله فى النهار فى حقول الخواجة . . والأدهى من ذلك اننى علمت فيما بعد ان حسين لم يكن يدفع أجر معاونيه ، بل كان يكتبهم فى دفاتر الوسية فى اليوم التالى ، وكأنهم يعملون فى حقوق الوسية . . وبهذا نجد أنفسنا أمام صورة نادرة من العلاقات : مسروق يدفع أجر المعاونين لسارق يعمل كاتبا لديه ! !

١٣

كان يوم تسلمى لعهدة المخازن من « الباشكاتب » يوما مشهودا . كان الخواجة يمنحه جنيهين فى الشهر كالشيخ سليم . لكنه كان يتخذ من المخازن مصدرا لثراء عريض . كان هو الذى يزن القطن والحبوب التى تدخل الى المخازن دون رقيب . وهو الذى يزنها كذلك حين تغادر المخزن . وكانت الأقطان والحبوب فى دخولها وخروجها مصدرا للسرقة والثراء . كان الباشكاتب ينقص من وزن كل كيس يدخل الى

المخازن عشرات من الأرطال . هذا بالاضافة الى انه كانت هناك ١٠ ٪ تخصم من وزن القطن عند دخوله المخزن ، نظير جفاف القطن وانخفاض وزنه خلال فترة التخزين . والغالب ان القطن لا يفقد كل هذه النسبة . وكان حسين يقوم بعملية حسابية دقيقة ، يصل بمقتضاها الى ما يمكن أن يفقده القطن خلال فترة وجوده بالمخزن بالضبط ، ويسرق الباقى . كان ذلك يتم بدقة عجيبة تجعل القطن الباقى هو الوزن الذى حسبه حسين الباشكاتب لا أقل ولا أكثر ! . .

كانت سرقات الحبوب والأقطان مزدوجة : كان الباشكاتب يسرق من الخواجة ، ومن الفلاحين فى الوقت نفسه . كان يسرق الخواجة حينما يدخل القطن والأرز والقمح والأذرة وغيرها الى المخازن . وكانت المحصولات كلها تخزن ، بما فيها نصيب الفلاحين ، الذين كانوا يتسلمون ما يتبقى لهم من محصول بعد أن تجرى حساباتهم مع الخواجة ، ذلك ان أبقت لهم الحسابات شيئا على الاطلاق . وكان حسين يسرق من محصولات الفلاحين عند دخولها المخزن ، تماما كما يفعل مع الخواجة ، ويسرقهم مرة أخرى عند خروج ما تبقى لهم من المخازن . فقد كان نصيبهم يعطى لهم بالوزن ، ولم يكن الفلاحون الأميون بقادرين على مراجعة الميزان . وبهذا كانت عملية السرقة تنصب على المالك والمملوك .

أسهمت مخازن « الوسية » فى أن يثرى حسين ثراء عريضا . اشترى نحو عشرة أفدنة من الأراضى الزراعية خلال سنتين فى خدمة الخواجة . لهذا يمكن للمرء أن يتصور الكارثة التى حلت « بحسين » وهو يسلمنى عهدة المخازن . على ان فاجعة « الباشكاتب » التى كانت تظهر آثارها فى الغبرة القاتمة التى علت وجهه ، كانت لها أبعاد أخرى . فقد بدأ يفقد الوظائف المختلفة التى كان يقوم بها واحدة اثر الأخرى . كان هو كل شيء : يعد الأنفار ويكتبهم ، ويمسك بالمخازن جميعا ، وبالحسابات وبالخزانة . وكان كل عمل من هذه الأعمال يدر عليه رزقا حلالا أو حراما .

لم يكن حسين سعيدا عندما وكل الخواجة الى كتابة الأنفار الشغيلة ، فقد كان ذلك مصدرا من مصادر حصوله على المال . كان يتفق مع المقاول ، فيضيف عددا كبيرا من الأنفار الى حسابه كل يوم ، ويتقاضى أجورهم من المقاول الذى كان الشريك الضعيف فى عملية السرقة . فهو محتاج أن يعمل فى توريد الأنفار الى « الوسية » ولابد من رضاء « الباشكاتب » عنه ، والا فقد مصدر رزقه . كذلك فالمقاول يستفيد من الصفقة ، فحسين يأخذ قيمة أجور الأنفار التى أضافها ، والمقاول يستفيد بدوره من الـ ١٠٪ عمولة عن هذه الأنفار الصورية المضافة .

كانت مخازن علف الحيوان موردا آخر سهلا لحسين . . فقد كان لكل حيوان وزن أو كيل معين من العلف ، وكانت العملية مصدر ثراء الباشكاتب ، ومصدر حرمان للماشية !

قسوت على « الباشكاتب » قسوة شديدة فى يوم تسلم المخازن منه . ولست أدرى كيف تسللت هذه القسوة الى قلبى . كنت أحس دائما ، حتى فى أحلك الساعات التى مررت بها ، ان لى قلبا رقيقا . صقله الألم ، وصفاه الجوع ، ونقاه الحرمان . فأصبح يحس بآلام الجوعى والمحرومين . لكن لم هذه القسوة كلها على حسين ؟ ألأنه ليس من الجوعى والمحرومين ؟ أم كان ذلك لانى أصبحت منافسا له وندا ، وأحل محله فى وظائفه المختلفة ؟ وهل يمكن أن تكون المنافسة مصدرا لمثل هذا النوع من القسوة ؟ أكان ذلك لأن « حسين » عاملنى باهمال وحقد . اننى ما زلت أذكر اللحظة التى قذف فى وجهى فيها بالخمسة وأربعين قرشا التى كانت تمثل مرتبى الشهرى . وما زلت أذكر بسمته الصفراء ، ونظراته الشامته . أتكون قسوتى عليه انتقاما لأولئك الفلاحين الذين كان يسرق أقطانهم وحبوبهم . وأولئك الأجراء الذى كان يبتز جزءا من أجورهم ، فيأتى على البقية من أقواتهم ، التى تتخلف من الأجور الهزيلة التى يعطيها الخواجة لهم .

على أية حال ، لقد شهد « الباشكاتب » أسود أيام حياته على يدى .

لقد جعلته ذليلا بعدان كان ملء السمع والبصر . وأصبح العملاق الذى يبلغ الثلاثين عاما قزما أمام صبى فى الرابعة عشرة ، وآل الأفندى الباشكاتب الفصيح الى انسان ممسوخ متلعثم لا يكاد يبين .

ومع ذلك لم أرحمه .. راجعت دفاتر عهدة المخازن سطرا سطرا . وبندا بندا . بدأ الاستلام دقيقا من المسامير الى المحاريث . ومن المقاطف القديمة والجديدة الى الأكياس والزكائب . ومن « الكسب » الى الشعير والقمح والأرز . ومن القطن « السكيرتو » الى الأقطان « الاكسترا » طويلة التيلة .

تبين فى المخازن عجز كبير فى أصناف عدة . . يبدو ان جشع حسين كان أكبر من مهارته . ورغم رهبة الكلافين منه ، فقد كانوا يسرقونه . بهذا كانت عملية السرقة تأخذ ترتيبا تصاعديا تنازليا ، سواء من حيث القيمة أو الكم أو المكانة الاجتماعية للسارق . . فالكلافون يسرقون « الباشكاتب » و « المخزنجى » ، وهذا بدوره يسرق الفلاحين والخواجة ، الذى يسرق بدوره الفلاحين .

أحصيت كل ما هو ناقص من العهدة ، وقدمت به كشفا للخواجة ، وكان المبلغ كبيرا لدرجة ان حسين أخذ يسدده لا من مرتبه ، ولكن من أمواله الخاصة التى أخذت من أموال الخواجة ، وكأنه لم يخسر شيئا .

فرح الفلاحون اذ أمسكت بالمخازن ، فسوف لا تسرق أرزاقهم ، ومال الأجراء فلن يمتص حسين جزءا من عرق « جبينهم » . ذلك الجزء الذى كان يتبقى أحيانا بعد ما تستنزف طاقاتهم البشرية فى حقول الخواجة .

١٤

كان قوامى يتمدد ويكبر مع كبر المسئولية الملقاة على عاتقى ، أصبحت أقترب من الخامسة عشرة ، وغدوت أمسك بأعمال جسام . واشتريت جلابية بوبلين كلون السماء ، أو كلون مكان عزيز على هو مدرسة كفر صقر الابتدائية ! وكانت الجلابية والطاقية ، التى خيطهما لى خياط أفرنجى ماهر ، تزيدانى طولا على طول . وكأننى كنت أستبق الأيام ، حتى أكسب مظهر الرجال الذى يتسق والأعمال التى أضطلع بها ، ولأبدو جديرا بحمل أعباء ثلاثة ثقال : كاتب وخولى ومخزنجى . . وكانت الجلابية الزرقاء السماوية والطاقية البيضاء تضويان تحت أشعة الشمس ، فيعلنان للفتيات العاملات فى الحقل انى فى الطريق اليهن !

وقد خيل الىّ ان الوصول الى أجر « قرشين » فى اليوم فيه ضمان كاف يدرأ عنى وعن أسرتى ضراوة الجوع ! وقد كان هذا الأجر هو

المستوى المتوسط لأى رجل فى القرية ، فهو يعمل أيضا بقرشين فى اليوم ، حينما يكون هناك عمل فى الحقل . على اننى كنت أفضل من الرجال حالا . فمرتبى ثابت ومستمر ، يكفل لنا الخبز المصنوع من الأذرة البيضاء . وأنا لا أعانى من البطالة كما يعانيها الفلاحون . فالعمل فى الحقل موسمى : فبعد آن يزرع القطن يتبطل العمال فترة الى أن ينمو النبات ، فيعمل الصغار فقط فى « خفه » ثم يتبطل الصغار والكبار مرة أخرى الى أن يأتى موعد عزيق القطن حيث يعمل الكبار ويتعطل الصغار ، وهكذا ، الى أن يرسل الله « الدودة » فتشغل الصغار والكبار . ثم تسود البطالة مدة طويلة أخرى إلى أن يأتى موسم جنى القطن .

أما المحاصيل الأخرى كالقمح والذرة والبرسيم وغيرها فتستوعب عملا يدويا ضئيلا . وكذلك الأرز ، فيما عدا تنظيفه من الحشائش الضارة وحصاده .

حينما خيل الى ان الخبز الأذرة أصبح مضمونا أصابتنى طمأنينة عجيبة ! بدأت أحس دبيبا غريبا فى عروقى ، فيه حرارة ونبض وقوة . هل هذا هو الشيء الذى يحس به الرجال ؟ اننى لم أصل الى الخامسة عشرة بعد . ولكن يبدو ان الأحداث التى مرت بى فى حياتى ، والمسئوليات الثقيلة التى ألقيت على كاهلى فى عزبة الخواجة ، وتعاملى

مع الفلاحين ، بل اشتراكى فى تقرير مصيرهم ، كل هذا أنضجنى قبل الأوان .

انداح فى كيانى شعور منعش لذيذ ، عندمـــا أحسست النبض الحار الجديد فى عروقى . توجهت الى الحقل ، والرجولة تسرى فى أعطافى . كان الحقل يضم جمعا كبيرا من الصبايا والصبية ، يعملون تحت اشراف الشيخ سليم ومساعديه . وكان الجميع منهمكين فى تنقية الدودة من نبات القطن . الدودة هجمت على القطن مسببة ساحقا فى ذلك العام . تطلبت مواجهتها العمل ليلا ونهارا ، لدفع الخطر الداهم عن المحصول .

لقد ألفت العمل نهارا فى الحقل . لكن العمل فيه ليلا كانت فيه متعة غريبة . تنفث فى شعورا رطيبا منعشا ونثير فى سرورا يتخبط فى أوصالى . كان القمر هناك يسكب نوره الخالد عاى الحقول الخضر ، وعلى نوار القطن وزهوره الصفر . ونسيم الصيف الندى ، يترقرق على الوجوه ، ويعبث بشعور العذارى . على اننا لم نكتف بضوء القمر فى دفاعنا عن القطن ضد العدو اللدود فكنا نستخدم « الكلوبات » ، التى ترسل ضوءا قويا جعل من حقول القطن أشبه شيء بالمهرجـان . انعكس هذا الضوء الأبيض القوى على وجوه الفتيات . أكسبها جمالا ، لا تستطيع الشمس أن تفعله فى وضح النهار . الخواجة والشيخ سليم

وحدهما كانا جرّعين من الهجوم العنيف للدودة على شجيرات القطن، وعلى الرغم من أن الجميع كانوا منهمكين فى العمل، ولا يرون فيه إلا معركة ضد الدودة، إلا أننى كنت أحس أن الجو كان شاعرياً، يثير الخيال ويدغدغ المشاعر.

وعلى ضوء «الكلوب» لمحت وجه فتاة خارق الجمال: عينان نجلاوان، وفم دقيق قرمزي، وأنف روماني. وحين اقتربت منها، وتأملت وجهها الدقيق الصنع، وملامحها الفاتنة، طاف بمخيلتى تساؤل غريب: كيف يمكن لهذه الفتاة أن تكون فقيرة، وأكبر الظن أن الله خلقها فى أسعد لحظات رضاه على الدنيا؟! .. ودارت بينى وبين الفتاة محادثة قصيرة، ولكنى لم أعبأ بالحديث، فقد كانت فى صوتها بدائية الريف وفجاجته، ولبثت أحملق فى وجهها كانت قطعة فنية رفيعة المستوي، بل آية فى الإبداع، كانت تنحنى لتنقى الدودة من الوريقات السفلى لشجر القطن، ثم تـ نصب قامتها لتفتش عن الدودة فى الوريقات العليا، فأنهل من جمال وجهها، حين تقف وتغزو عينى عودها الخيزرانى حينما تنثنى.

على أننى كنت خجولاً، حيياً عندما كنت أخاطب الفتيات أو النساء، فقد أسهمت الحياة التى عشتها والجدية التى فرضتها عليّ، والتقوى التى اكتسبتها من الشيخ سليم، والوظيفة التى أقوم بها، أسهم كل هذا فى أن أخطو بحذر فى هذا المجال، إننى أسمع همساً بين الأولاد والبنات:

، الأفندى ، الكاتب يحب ، خضرة ، . كان لا مناص من أن أكتم عواطفى . وأخفف من وقوفى خلفها . أكتفى بامعان النظر فى وجهها وقوامها ، وتلقى البسمة الخصيبة التى تمنحنى اياها من بعيد .

احتجت بنات ، الرباعى ، قريتى ، لاننى أقف مددا طويلة خلف بنات ، أبو شرابية ، وهى القرية المجاورة ، والتى أتت منها خضرة . ولا أقف وراءهن الا لذر الرماد فى العيون ، وأداء للواجب . . .

كانت لى فى بنات ، الرباعى ، بنت معينة . كانت تهتم بى . وتقود ضدى حملة الاحتجاج . كانت ، نبيهه ، فى السادسة عشرة من عمرها ذات قد ممشوق كغصن البان . وكان خصرها نحيلا ، وأردافها تنساب من خصرها ، فتشعر بما فيها من لدانة دون أن تمسها ! . وهى أكثر فقرا من زميلاتها . جلابيتها ممزقة ، تظهر أجزاء من جسدها الخصيب . لم أستطع أن أمنع نظراتى من أن تخترق هذه الخروق التى صنعها الفقر ، والذى نسيته لأول مرة فى حياتى . وكأن الغريزة المشتعلة فى عروقى قد أنستنى الفقر فى تلك الآونة . كان نهدا ، نبيهه ، ناهدين نافرين . أسهما مع الفقر فى تمزيق جلابيتها عند صدرها . لكن لسوء الحظ ، كانت نبيهه قد ، رقعت ، جلابيتها فوق نهديها ، فأخفت الرقعة كنزين ثمينين من الكنوز الجمالية التى تملكها هذه الفتاة الفقيرة .

لماذا أصف وجه نبّيه؟ إن هذا الجسد الفارغ والنهود النافرة لم يكن يعلوهما وجه جميل، كانت عيون نبيهة ضيقة، لا جمال فيها. وشفتاها ذابلتين، وفي وجهها شحوب، يعلوه وإستخذاء وذبول أعطياه سحرًا خفيًا.

كانت «نبيهة» – على الرغم من فقر ذويها المدقع – ذات شخصية قوية. فقد كانت زعيمة الفتيات، تقودهن في الغناء والرقص والضحك، وفي التغامز على كذلك. كنت أجتاز حقل الذرة المجاور لحقل القطن في وقت الظهيرة، اذا بي أرى منظرًا يأخذ باللب، أبطأت الخطي. اتخذت مخبأ خلف أعواد الذرة، البنات تكون دائرة، يصفق في إيقاع جميل. نبيهة تتوسطهن، تربط طرحتها في أسفل وسطها، ترقص على تصفيق البنات، الجسد اللدين يهتز في خصوبة ورخاصة، ذهبت بلبي، والنهود الناهدة تتأرجح في ثبات وتماسك مثير.

١٥

الليل ساج، والقمر يغمر «العزبة» بلجينه الفضي، وكأنه يحاول أن يغسل بشعاعاته ما ران على مبانيها من غبار وقتام، ولكن فضة القمر لم تستطع أن تخفف الكآبة التي غشيت الأكواخ الطينية التي

يسكنها الفلاحون . على أن أشعة القمر نفسها حين كانت تنعكس على قصر الخواجة ، الذى طليت جدرانه باللون الأبيض الناصع ، والأزرق الفاتح ـ وهى ألوان علم اليونان ، وكأن العزبة مستعمرة يونانية ـ كانت هذه الأشعة تزيد القصر رونقا وبهاء !

ساد العزبة صمت شامل . لا تسمع أصوات الماشية . نامت وكأن على رؤوسها الطير . بعد أن نعمت بعشائها كاملا . لم تعد تمتد له يد الباشكاتب . . ونام الناس كذلك . لم يكن يقطع هذا الصمت الا ضفدعة تنق* فى الترعة ، أو صرصار يصفر فى القناة ، أو بومة تنعق فى الأرض ، أو كروان يشدو فى السماء .

نام الانسان والحيوان جميعا فى العزبة ، عدا ثلاثة كانوا أيقاظا : حسين الباشكاتب والخواجة ، وأنا . بعد أن ينفض عملى اليومى فى الحقل والمكتب والمخازن والاصطبلات ، يبدأ نوع آخر من العمل الليلى : تدوين الأنفار فى البنود المختلفة فى دفتر اليومية . وتحضير كشف يومى آخر . ثم تقديمها الى الخواجة ، لكى يعلم أولا بأول حسابات الشغيلة . ولكى يقوم بنوع من الرقابة والمراجعة . فقد كان يقرأ العربية ، أو بعضها ، وكان يجيد قراءة الأرقام بصفة خاصة .

وجدت حسينا عنده يعرض عليه حسابات رجال العزبة : الأرض التى يستأجرونها من الخواجة ، والتى يزرعونها بالمزارعة ، وأجورهم وأجور أولادهم وحاصلاتهم التى أودعوها بالمخازن وما الى ذلك .

عندما رآنى الخواجة أشار الى أن أنتظر حتى ينتهى حسين من عرض حسابات الفلاحين . وقفت أنتظر ، رغم ان الغرفة كانت ملأى بالكراسى الوثيرة . على اننى لم يزعجنى الوقوف . فقد « أخذت على الشقا » . ولكن الحديث الذى دار بين حسين والخواجة شد انتباهى كله ، لم أحس ان كنت واقفا أو قاعدا أو حتى موجودا .

عرض حسين على الخـواجة حسابات الفلاح الأول وقال :

- هذا الرجل مدين بخمسين جنيه .

رد الخواجة على الفور :

- خمسين جنيه فقط !؟

- نعم . . لقد ورد عشرين قنطارا من القطن ، وعشرة أرادب من القمح ، وثلاثة ضرائب من الأرز ، وعمل هو وأولاده وبهائمه فى

أرض الوسية ، فبلغت أجورهم ستين جنيها خلال السنة الماضية . وأنا عملت الحساب فبقى عليه خمسون جنيها ! !

هـنا حـدق الخواجة فى البـاشكاتب ، ولبث برهـة يطيل التحديق فيـه . .

ثم قال له وكأنه اكتشف جديدا :

- أين حساب الذرة والبرسيم ؟

- لقد تركنا له البرسيم والذرة لبهائمه ولأولاده ، نظير قطنه كله ، وكذلك القمح والأرز ، وعمله فى الحقل . وهنا صمت حسين لحظة ، وتلمظت شفتاه ، واستعان بابتسامته الصفراء التى حاول ألا تكون صفراء فى ذلك الوقت ، ثم قال بحماسة : ومع ذلك أبقيت عليه خمسين جنيها . . التمعت على وجه الخواجة السمين المترهل علامات الرضا . رمق حسين بنظرة ذات معنى . وقال له « برافو » عليك ! . رد حسين : نحن فى الخدمة يا جنـــاب الخواجة ! وطلب الخواجة حسـاب رجل آخر . أجابه حسين :

- هذا الرجـــل أعطيت له البرسيم ، ونصف محصول الأذرة فحسب . وأبقيت عليه سبعين جنيها . .

- لماذا أعطيته البرسيم ؟

- جنابك تعلم ان البرسيم أكلته المواشى طوال السنة . والا كيف يمكن لها أن تحرث أرض القطن ، وتلوط ، أرض الأرز ، وتدير السواقى ليشرب الزرع .

- طيب مفهوم ، انما لماذا أعطيته نصف محصول الأذرة ؟

- جنابك تعرف ان الرجل والأولاد يعملون فى حقل الوسية بالأجر طوال العام . ولهم أجور بلغت خمسين جنيها . لهذا يستحق أن نترك لهم نصف الذرة . أى أربعة أرادب ، فتقدر ، الولية ، امرأته تخبز لـــهم ، عيش ، يأكلوه حتى يمكنهم أن يزرعوا الأرض وها أنت ترى اننا أخذنا القطن والقمح والأرز !

وهنا أجابه الخواجة على غير ما توقعت :

- انت ، حمار ، !

- ليه يا جناب الخواجة .

- هل هذه عزبة أبوك لكى تتصرف فيها كما تشاء ؟

خرس حسين . شحب وجهه . أوشكت عينه الأخرى المفتوحة أن تقفل ، كان من عادته أن يقفل عينا ويفتح الأخرى ، كما تفعل الذئاب أو الثعالبة .

استطرد الخواجة :

- الذرة ترجع الى المخزن .

- حاضر ، ياجناب الخواجة .

- الحساب الذى يايه .

- هذا حساب محمد محمود .

- ما هو حسابه ؟

- هذا الرجل بقى له مبلغ من النقود .

احمر لون وجه الخواجة . غدا وجهه كثمرة طماطم ضخمه ، تساءل مستنكرا :

- بقى له مبلغ . . ؟ . . .

- نعم . .

- كم ؟

- عشرة جنيهات .

- لماذا ؟

- هذا رجل مجتهد ، ، يعمل بجد طوال السنة ، وأخذ قطعة أرض صغيرة ، وخدمها جيدا فكان قطنه أحسن محصول بين الفلاحين جميعا . كذلك كان أرزه وقمحه . ثم انه وبناته الخمسة وامرأته يعملون جميعاً فى أراضى الوسية . لذلك بقى لهم هذا المبلغ .

ـ وأين الذرة ؟

ـ كنت سأعطية له ، انما خشيت ان جنابك تغضب ، وما زال فى المخزن .

ثم سكت الخواجة هنيهة بانت فيها على ملامحه المكتنزة مسحة من الرضا ما لبثت أن تلاشت بسرعة . انفجر فى حسين صارخا :

ـ أنت لم تعد تصلح للعمل !!

توارت الدماء من وجه حسين زادت الغبرة التى تعلوه ، قال فى صوت مرعوش :

ـ لماذا يا جناب الخواجة ؟

ـ يظهر انك لم تعد تفهم فى « الحساب » .

وهنا نظر الخواجة لى . أطال النظرة ، بحيث يجعل حسين يستوعب مفهومها تمــاما . تلعثم حسين . كان يتأثيء قليلا ، فزادت تأتأته . بدأ يردد كلمات مضطربة :

ـ حاضر يا جناب الخواجة . . أنا تحت أمرك . . حاضر . . جناب الخواجة . . أنا أعيد الحساب مرة أخرى .

ـ طيب ، أعد الحساب ثانية ، وأبلغنى به غدا .

فى الليلة التالية جاء « حسين » بحساب جديد لمحمد محمود .

كانت نتيجة الحسبة الجديدة ان الرجل فقد العشرة جنيهات التى تبقت له من الحسبة الأولى .

وفقد محصول الأذرة الذى كدح من أجله طول السنة قوتا له ولأسرته . ثم أصبح كذلك مدينا للخواجة بخمسة جنيهـات !!

كان هذا « الديالوج » الذى دار بين الخواجة وحسين صدمه كبيرة لى ولكل المعانى التى عشت وأعيش من أجلها . . أيمكن أن يكون الخواجة كذلك لصا يسرق قطن الفلاحين وقمحهم وأرزهم . ويغتصب كذلك أجورهم التى يقدرها لهم بنفسه . ثم يسلبها اياهم فى عملية الحساب الزائفة التى تتم بينه وبين حسين ؟

كان حسين يمسك بحساب الخزانة ، فكان يمنح سلفا للفلاحين ، ويصرف لهم أجورهم . وكانت هذه العمليات ـ الى جانب سرقاته الأخرى ـ مصدر كسب حرام له . فالفلاحون لا يقرأون ولا يكتبون ، ومن الممكن أن يضيف الى السلف ما يشاء ، ويقتطع من الأجـــــور ما يريد . كان الباشكاتب يدافع عن بعض الفلاحين . ويقول للخواجة انه ترك لهم البرسيم والذرة لتأكلها البهائم والناس . لم يكن يفعل ذلك بدافع من الانسانية أو الأمانة . ولكن بدافع اللص الذى اغتصب جانبا كبيرا من أرزاق الفلاحين . ويخشى لو اغتصب الخواجة جزءا كبيرا

آخر ، أن يتبرمّ الفلاحون فيظهر اللصان . كان يخاف أن يقتل اللصان الأوزة التى تبيض ذهبا ، أو بتعبير أدق ، تبيض قطنا وقمحا وأرزا .

لم تكن الفاجعة التى صدمتنى تنصب على المبادىء والمثل التى كانت تداعب خيالى . أنطمست هذه المبادىء فى ذهنى . اختلطت ملامحها ، غشيها ضباب كثيف . لم يكن سبب الغصة التى علقت بحلقى هو الاستغلال والسرقة للفلاحين البائسين . لكننى جزعت جزعا شديدا حينما نظر الخواجة الى بخبث ، وهو يقول لحسين « انت مش نافع ، ولا تفهم فى (الحسابات) » . . لقد كان يلمح الى اننى يمكن أن أحل محل حسين . وأمكنه من سرقة الفلاحين ومن تزوير حساباتهم كما يشاء .

على ان موضوعا آخر أثار فضولى كثيرا : كيف أمكن لحسين أن يحور حسابات رجل تبقى له عشرة جنيهات ، غير حقه الكامل فى محصول الأذرة ، الذى زرعه بيديه ، وسقاه بعرقه وعرق بناته الصغار ، فكيف يمكن أن يصبح الرجل بين يوم وليلة مدينا بخمسة جنيهات ، ويفقد محصول الذرة كله ؟

ذهبت لأنام ، وجدت الشيخ سليم « يشخر » ملء منخريه ، راضيا مرضيا ، أى راضيا عن الخواجة ، مرضيا عليه منه . . لم أنم بطبيعة

الحال فى تلك الليلة . عاودنى الخوف القديم على مصيرى ومصير اخواتى . الخواجة حتى الآن يلقانى باسما . يخاطبنى هاشا . فهو راض عن عملى مقدر له . ولو ان رضاه لم يترجم ماديا الا فى ستين قرشا فى الشهر ماذا أصنع لو كلفنى بأن أمسك بحسابات المزارعـين . أنفذ رغباته . وأزيف حساباتهم . وأصبح أداة يبتز بها أقواتهم وكدهم طوال العام ؟ ان هؤلاء الفلاحين زملائى . يأكون الخبز الذرة والمخلل مثلى . يعمل بعضهم ست عشرة ساعة كما أعمل . تحرقهم الشمس نهارا كما تحرقنى . وتحويهم الأكواخ الطينية القذرة كما تحوينى .

قضيت الليل كله أفكر وأعاود التفكير فى هـذه المسألة الرهيبة . وبينما أنا فى أرقى وقلقى اذا بشخير الشيخ سليم يتوقف . أخـذ يتحرك فى كيسه . كانت عادته أن يدخل فى الكيس بجسمه كله ويدفن رأسه داخله ، فلا يظهر منه شيئا . وكان يوصينى بـذلك ، حتى أتجنب الناموس . رائحة الجوت كانت كما يقول ، تطرد الناموس . وبدأ الشيخ سليم يوقظنى لأصلى الفجر معه . . كانت هذه أول مرة أعصى فيها الشيخ سليم ، بل أتبرم منه . فلم تر النوم عينى . اعتذرت له بانى بقيت مع الخواجة الى ما بعد منتصف الليل . وأنا لا أستطيع أن أنهض من فراشى أو « كيسى » .

بزغت الشمس . صعدت السماء بسرعة عجيبة . الضحى يملأ

الكون ضوءا ،كما يملأه قيظا . ويبشر بظهيرة كالسعير .

وأنا لا زلت غافيا فى فراشى . واذا بيد تتحسس شعرى ، وأنفاس دافئة تقترب من وجهى ، وصوت أدرك أنغامه ، وأطرب لها ، هو صوت نبيهة ، الذى كان جزلا فجا يجعلك تعيش جو الريف كله بجماله وبدائيته معا .

حاولت نبيهة أن تخفف عنى مأساتى ففشلت .

نهضت حتى لا أكلف نبيهة من أمرها عسرا . ثم أخذت طريقى الى الحقل . وانغمست فى أعمالى المعتادة حتى جاء المساء .

١٦

وفى المساء ذهبت الى قصر الخواجة لأعرض عليه « يومية الأنفار » . وصعدت الى الطابق الثانى . وفى الصالة الفسيحة كانت تتناثر الأرائك الوثيرة ، وتمتد البسط الفخمة ، وتتبعثر عليها ، فى فوضى مقبولة ، طنافس ثمينة . أنغام حالمة من الموسيقى تنساب من « جرامفون » أنيق ، وضع فى ركن الصالة البعيد . خليلة الخواجة ترقص على تلك الأنغام مع أخيه . وهو شاب أعزب ساذج . لا يعرف من هذه الدنيا إلا المتعه والترف والخمر والنساء . ثم هو بعد ذلك لا يفقه شيئا ، ليست له أية فاعلية فى أى شأن من الشئون . لكنه كان

لطيفا يجيد الحديث عن البنات . والبنات هنا يستوين : فلاحات أو خواجات ! . كان نيكولا يصادقنى . لم أر بأسا من تلك الصداقة . كنت أستمتع بالموضوعات الخفيفة المضحكة التى يطرقها . وهو الى جانب ذلك ابن صاحب العزبة . وسيصبح أحد ورثة الوسية ، وبذلك يمكن أن أعمل لديه ، اذا بقيت فى هذه العزبة . وقد علمنى الأبجدية والأعداد باليونانية وبعض كلمات وتعبيرات خليلة أخية يونانية كذلك . على قسط لا بأس به من الجمال . ممتلئة الجسم . فى الثلاثين من عمرها . تجيد وضع المساحيق على وجهها . الأخ الأكبر هو « تاكى » الذى يشرف على العزبة ، بينما يشرف أبوه « سماريدس » على عزب أخرى فى الدلتا تبلغ مساحتها آلاف الأفدنة .

وكان « تاكى » ، الذى أسميه الخواجة فى هذا الحديث ، فى الخامسة والثلاثين من عمره ، قصير القامة غليظ الجسم . لكن وجهة يذكرك بالجمال الاغريقى . لولا ما تركم فيه من شحم ولحم ، انتفخت بسببها أوداجه ، وبرزت عيناه . عثر على « كليوبى » خليلته فى علبة من علب الليل فى القاهرة . اصطحبها معه إلى العزبة ، لتعيش فيها سيدة للقصر . أحتج أبوه . لكن احتجاجه ذهب ادراج الرياح .

كانت « كليوبى » ذات شخصية قوية . لها تأثير كبير على « تاكى » تسحبه من ودنه « كما يقولون . كانت تعمل جاهدة لتصبح زوجة

شرعية ، وهو مالم تصل اليه لتهديد الخواجة الأب بحرمان تاكى من الوراثة . . وقد يكون السبب كـــذلك ان « تاكى » كان ينظر اليـــها ، فى داخل نفسه ، على انها ساقطة ، من طبقة دنيا . لا يمكن أن ترقى كزوجة لرجل يمكن أن يرث آلاف الأفدنة . رغم علمه ان أباه ، كان جرسونا فى خمارة منذ مدة لا تزيد على عشرين عاما .

كان « نيقولا » يرقص مع كليوبى على الأنغام الحالمة للموسيقى ، وكانا يلتصقان التصاقا شديدا فى حركة غريبة ، دون أن يعبأ تاكى بذلك ، بينما أدهشنى المنظر كثيرا .

وبينما كنت أتابع الراقصين يتخطران فى الصالة الأنيقه ، اذا بى أرى منظرا لم يجذب عينى فحسب ، بل تجمعت فيــه كل حواسى . فى ركن من أركان الصالة وضعت منضدة فرش عليها غطاء أبيض نظيف مكوى . وعليها وقف كلب صغير بنى اللون أسود الوجه ، يتناول طعامــه . . لم يكن الكلب يتناول طعامه بنفسه شأن سائر الكلاب . فقد وقف الى جواره عبده الطباخ والسفرجى يطعم الكلب بيديه ! ! كان عبده مرتديا ثياب العمل الفاخرة : قفطانا أبيض ناصعا . يتمنطق بحزام أحمر . يضع على رأسه طربوشا أحمر كذلك ، كان أمام الكلب طبق كبير به عدد من الحمام المقلى فى السمن . عبده يقطع الحمام ، ويفصصه ، ويفصل العظم عن اللحم . ويطعم الكلب فى فمه قطعة قطعة ! !

أكل الكلب حمامة واحدة ، وترك الحمامات الأخـــــرى . ونادت « كليوبى » على عبده بصوت عال ، ونيقولا ما زال يلف ذراعه حول خصرها ، ويضع خده على خدها ، ويدور بها فى خطوات محمومة :

ـ غاندى (كانت تسمى الكلب غاندى ، رغم سمنته الواضحة !) أكل يا عبده ؟

ـ نعم يا ستى .

ـ أكل كم حمامة ؟

ـ حمامة واحدة .

ـ ازاى ؟

تركت رفيقها فى الرقص . اتجهت نحو عبده وغاندى . الانزعاج يبدو على وجهها . صرخت فى عبده :

ـ لابد ان الحمام لم يعد بطريقة جيدة !

ـ أنا أعددته ككل يوم .

ـ هل قليت الحمام بالسمن أو الزبد ؟

ـ بالسمن يا ست .

ـ هذا هو السبب !! لقد قلت لك أن تقلى الحمام بالزبدة ، ألا تعرف ان السمنة ثقيلة على معدة غاندى !؟

صمت عبده ولم يجب . . استمرت « كليوبى » توجه الكلام الى عبده فى عصبية حادة :

ـ لماذا لا تسمع الكلام ؟ انت أطرش ؟ انت تريد أن يمـوت غاندى . . ألا تعلم كم هو عزيز على ؟ اذهب الى المطبخ ، واعمل له حمام بالزبدة !

تردد عبده . لكن كليوبى صرخت فيه آمرة مرة أخرى : امش . . اسمع الكلام الذى أقوله لك . اعمل حمام بالزبدة بسرعة واحضره هنا ، واطعم غاندى أمامى .

طأطأ عبده رأسه ، وتقدم الى السلم ، هبط الى الطابق الأرضى ، كان المطبخ هناك . سمعته وهو يتمتم : « ما هذا الغلب يا ناس . . الكلب لا يعجبه الحمام المقلى فى السمن ، والست تريد أن أقلى له حمـــــام فى الزبدة . يعنى أطبخ للكلب مرتين ؟ » . . وكأن عبده لم ير فى هذه الظاهرة الا انها عمل اضافى فحسب !!

كنت أعرض « اليومية » على الخواجة . ولكنى كنت أختلس النظر الى الكلب وعبده ، وأحملق فى عملية تفصيص الحمام ، ووضعه فى فم الكلب . كنت أسترق السمع الى الحوار الذى دار بين الست وعبده . وأتوه فى ضباب كثيف من الأفكار . وأضيع فى لجج من المعانى ، لم

أكن أدرك كنهها ولا فحواها . وفى استغراقة من استغراقاتى صاح الخواجة فى :

ـ فى ماذا تفكر ، أنا أكلمك ولا ترد على ؟

ـ لا شىء ، أنا متعب بعض الشىء .

كانت العادة أن أعرض عليه حساب الأنفار العاملين خلال ساعة أو اثنين ، لا يطلب منى الجلوس . اقتنع الخواجة اننى متعب ، فأمرنى بالجلوس . ليته ما فعل . ما أن جلست حتى سمعت ضجة وأصوات مختلطة تصعد من الطابق الأرضى :

ـ أنا أريد أقابل الخواجة .

ـ الخواجة مشغول يراجع اليومية مع « الأفندى » الصغير .

ـ مشغول أو غير مشغول لا بد لى من مقابلته .

ـ لا ، الوقت متأخر ، يمكن أن تحضر فى الصباح .

ـ لا أستطيع الانتظار حتى الصباح .

دار هذا الحوار بين محمد محمود ، صاحب الحساب المشهور الذى انقلب بين عشية وضحاها من دائن الى مدين ، وبين أحد الخدم . وانتهى الحوار الى مشادة . ثم الى أصوات أقدام تصعد السلم الذى يوصل الطابق الأرضى بالطابق الأعلى . وقبل أن أهم لأستطيع الأمر ، اذا بى أفاجأ بمشهد مثير : محمد محمود وامرأته وبناته الخمس الصغار

يصعدون السلم . المرأة كان بيدها ، مشنة ، الخبز فارغة ، وتحملها مقلوبة على رأسها !

كان منظر الرجل وأسرته مهينا مقززا . كان قصير القامة لا يزيد طوله عن متر وأربعين سنتيمترا . نحيل غار صدغاه . أسنانه وضروسه توشك أن تخترق جلد وجهه الهزيل . له شارب طويل . سوء التغذية جعله يتراخى فى هزال ، فيغطى شفتيه النحيلتين الصفراوين . كان يلبس جلابية بيضاء سودها طين الحقل وروث المواشى ، ودم البراغيث والبق والناموس . كانت جلابيته الوحيدة التى يعمل فيها وينام . مفتوحة من فوق صدره . يستطيع المرء أن يعد عظام صدره الضيق واحدة بعد الأخرى ، رغم ان صدره يكسوه شعر كثيف .

امرأته طويلة تعلوه بنصف متر تقريبا ! لها لسان طويل كذلك . اشتهرت بالتشاجر مع نساء القرية ورجالها ، كلماتها كالسياط تلسع من يتعرض لها . لكن المرأة فى هذه الليلة كانت بكماء . كأن الجوع قد أخرسها . بشرتها سمراء داكنة اللون . ملامحها كملامح الرجال . تلبس أسمالا لم يكن المرء ليستطيع أن يميز بين المناطق المرقعة من جلبابها ، والمناطق الممزقة التى لم يجد معها الترقيع . ذلك لان الجلابية كانت سوداء أحالها البلى والتراب الى لون لا فرق بينه وبين لون جسدها. ولم يكن هناك ما هو أردأ من هذه الجلابية التى تلبسها ، سيدة ، . . زوجة

محمد محمود الا ، الخرق ، التى كانت ترتديها بناتها .

الموسيقى الحالمة ما زالت تتردد نغماتها فى جنبات المكان . . ،كليوبى ، و ، نيكولا ، استأنفا رقصهما . التصقا هذه المرة أكثر من ذى قبل . بدأت كليوبى تضع رأسها على كتف نيقولا ، الذى بدأ يستعذب الحركة ، فيشتد التصاقه بها . كأنه يقول لنفسه هذه امرأة محترفة من بنات الهوى . كيف ينفرد بها أخى !؟ . .

كان عبده قد استأنف اطعام ، غاندى ، الحمام المقلى بالزبدة .

وصاح ، تاكى ، فى محمد محمود غاضبا ، وقد استحال وجهه الى حبة من حبات الطماطم الضخمة :

ـ ماذا أتى بك الى هنا ؟

ـ الجوع هو الذى أتى بى الى هنا يا خواجة .

ـ يعنى ايه . . لا أفهم ما تقول . .

اختلس محمد محمود ، واختلست معه ، نظرة الى الكلب الذى يلتهم قطع الحمام التى يضعها عبده بيده فى فمه . .

ـ يعنى ليس لدينا اذرة فى البيت ، وليس لدينا خبز . وها أنت ترى ، المشنة ، فارغة .

أخذ محمد محمود المشنة من فوق رأس زوجته وعرضها على الخواجة . وهنا تدخلت ، سيدة ، ـ التى لم يكن لها من السيادة غير

اسمها ـ تدخلت بصوتها المجلجل :

ـ نعم يا خواجة ، المشنة فارغة ، ليس لدينا ما نأكله ، بماذا نطعم البنات ؟ هل « نأكل حطب » ؟ ليس لدينا حتى الحطب . .

انفجر الخواجة فى المرأة . كان يعلم انها سليطة اللسان . قال لها بلهجة آمر فيها تهديد : « اخرسى أنت ، ولا تتكلمى . . » .

لشد ما كانت دهشتى ، اذ أرى الرجل الجائع يستدير فى عصبية ، ويلطم زوجته على وجهها ، وينهرها عن الكلام . عجبت لهذه الشجاعة التى واتته فى هذه اللحظة . كانت المرأة شرسة ، قوية الشخصية، والرجل طيب . فهى التى تأمر وهو « المأمور » ؟ وهى التى تنهى وهو الذى يتجنب نواهيها .

واصل الخواجة صراخة : ماذا جاء بكم فى هذا الوقت امشوا من هنا .

وهنا صدر من الكلب « غاندى » صوت استرجاع الحمام من معدته ، تركت كليوبى الرقص . أسرعت الى المنضدة . وتساءلت مذعورة :

ـ ماذا جرى يا عبده ؟

ـ لا أعرف يا ست . . غاندى ، طرش الحمام . .

ـ لماذا ؟

ـ يظهر انه أكل كثيرا . .

ـ ولماذا تطعمه أكثر من اللازم ؟

ـ والله أنا احترت : اذا لم يأكل غاندى (وكان لا يجرؤ أن يقول الكب) تقول الأكل ردىء . . ولو طهوت الأكل جيدا ، وازدادت شهيته تقولى لماذا تطعمه أكثر من اللازم . .

ـ هل أعطيته الحمام بالعظم ؟

ـ لا والله ، هذه هى العظام كلها على « الترابيزة » !

• كان تاكى ونيقولا قد لحقا بالست ليروا ماذا حدث « لغاندى » . .

اقترح تاكى أن يحضروا له دواء يسهل الهضم . ذهب عبـــده لا حضاره ، ثم سقاه اياه !

كنت أتابع هذه المشاهد وقلبى مفعم بمعانى ثقيلة . كان صدرى يطبق على وجدانى ، الذى أخذ ينكمش رويدا رويدا ، حتى خيل الى اننى أصبحت بلا وجدان !!

استأنف الخواجة شخطه فى محمد محمود :

ـ امشى من هنا ، ليس عندى ذرة . .

انفجر الرجل الجائع بعد صبر طال ، وبعد أن رأى الكلب « يطرش الحمام » :

ـ هذه الذرة التى أطلبها منك ، هى ملكى أنا . حسين الحرامى زور

حسابى . أنا أعمل أنا وبناتى طوال السنة فى الأرض التى أخذتها منك بالمزراعة . وكذلك فى أرض الوسية الأخرى . كيف يذهب جهدنا وتعبنا فى الهواء . وحتى الذرة لا نستطيع أن نحصل عليه ، ثم نصبح مدينين بخمسة جنيهات . لا يقوم بهذا الا اللصوص

هاج الخوجة . صارت سحنته الحمراء صفراء شاحبة ، وقال :

ـ أنت تشتمنى يا ابن الكلب ؟ انت تقول علينا حرامية ؟ انت مطرود من العزبة . تمشى من عزبتى باكر ولا تبقى فيها .

حاولت أن أخفف من غضب الخواجة . . قلت له انه يقصد «حسين ، هل من المعقول أن يكون الخواجة تاكى حرامى !؟ وتذكرت ان «حسين» يخاطبه دائما بكلمة «جناب الخواجة» استدركت قائلا : «انه لا يمكن أن يكون جنابك لص» !

كان عبده قد أعد السفرة وبدت ألوان الطعام المترف تنسق فوق المائدة ، وضعت فوقها أطباق الحمام والدجاج واللحوم المشوية والخضروات والفاكهة المختلفة الألوان .

أردت أن أحل المشكلة فهمست فى أذن الخواجة :

ـ لدينا أذرة فى المخزن .

صاح الخواجة فى وجهى قائلا :

ـ اخرس انت ، ليس هذا من شأنك . .

وخرست . لم أنبس بكلمة واحدة . .

يئس محمد محمود من الخواجة ، وبان فى عينية حزن استطعت أن ألمحه من خلال الآلام التى تنضح منهما ، وذلك عندما شخط فى الخواجة . التفت الى امرأته وبناته ، قائلا : لنعد وأمرنا لله . . عاد الركب البائس مطأطىء الرأس . كانوا ينقلون أقدامهم فى حذر وضعف . كأنهم لا يريدون أن يشوهوا الأبسطة الفاخرة التى فرش بها البهو المترف . سرت خلف الركب الحزين ، وكأن أثقال الدنيا والآخرة قد تجمعت كلها فى صدرى . . وقررت أمرا . . عندما فتحت بوابة القصر المنيف ، وخرجت منها القافلة التعسة ، لحقت بهم ، همست فى أذن محمد محمود ببضع كلمات ، فاذا بالرجل يعانقنى ، ويهم بتقبيلى . . انتزعت نفسى منه قائلا : اعمل معروف ، قد يرانا الخواجة فينفضح أمرنا . .

فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، حينما تصاعدت أثار التخمة الى رؤوس السادة الخواجات وكلبهم. واستغرقوا فى سبات عميق . كان مخزن الذرة يفتح . محمد محمود وزوجته ينتظرانى على بابه . يدخل محمد محمود و «سيدة» المخزن ويخرجان منه بجوال فيه ست كيلات من الأذرة ، حمله الرجل الجائع الهزيل على ظهره . سندته امرأتـه

من الخلف ـ تسللا فى جنح الليل !

فى ظهر اليوم التالى كانت الأسرة الجائعة تلتف حول المشنة التى ملئت بالخبز ، أخذ يجرى فى وجوههم ماء الحياةمن جديد . كان البريق الذى يلمع فى عيون الأطفال وهم يقضمون الخبز الأذرة الساخن ، وكانت الدموع التى تترقرق فى عينى الرجل ، أشبه بمكافأة لى على المغامرة الكبرى التى أقدمت عليها بالأمس .

لم يغمض لى جفن ليلة المغامرة . بعد أن أعطيت محمد محمود وزوجته جوال الأذرة . تحسست طريقى وسط الظلام الدامس الى غرفتنا . استلقيت على المصطبة أرتعد خوفا . ما أن سحبت الكيس الذى أتغطى به فوق جسدى ، حتى أخذت الرعدة تستكن . وتعود الطمأنينة الى . زاد منها ذلك الشخير الرتيب الذى يصـدر من خياشيم الشيخ سليم .

لكن العمل الذى أقدمت عليه جعل طائفة من الأفكار تترى على مخيلتى ، ويأخذ بعضها برقاب بعض : كيف أسرق الأذرة من مخزن الخواجة ، وأعطيه للرجل الجائع . هل نسيت ان فى ذلك مخاطرة بمستقبلى وبمستقبل اخواتى الصغار ؟ كيف أنسى الجوع الذى أصبح عقدة حياتى ، والذى لا يزال يهددنى واخواتى وأمى جميعا ؟ هل يمكن

أن يضحى الانسان بنفسه وبأسرته فى سبيل الآخرين ؟ ان بؤس محمد محمود وبناته وامرأته من ذلك النوع الذى يثير فى النفس تقززا واحتقارا للمجتمع الذى يبتذل فيه الانسان على هذا النحو . لقد نسيت أسرتى ونفسى ، لاننا لم نصل الى هذا الدرك السحيق من الفقر . هل يمكن أن تثير رابطة الفقر شفقة فريق من الفقراء على فريق آخر أشد فقرا وأبعد بؤسا ؟ . . .

ان صورة الكلب يطعم بالحمام فى فمه ، وتؤذى السمن معدته ، فتطلب له صاحبته حماما مقـــليا بالزبد ، أثارت فى نفســى غثيانا لا يطــاق . لقد جزعت الست والخواجة ، لان الكلب أكل حمـــاما قلى فى السمن بدلا من الزيدة . وفى الوقت نفسه يأبى الخواجة أن يعطى أسرة من سبعة أفراد بعض الذرة يدفعون بها عن أنفسهم غائلة الجوع . لقد سرق الخواجة وحسين الباشكاتب أذرة هذا الرجل وقطنه وأرزه وعمله هو وامرأته وبناته طول العام فى حقوق الوسية .

* * * *

ساقتنى تلك الأفكار الى تساؤل آخر : هل أصبحت أنا أيضا سارقا كحسين ؟ أفتح المخازن فى جنح الظلام وأسرق الحبوب منها ، كما كان يفعل الباشكاتب . لكن هناك فارقا واضحا : كان حسين يسرق لنفسه .

وكنت أنا أسرق الأذرة أعطيها للجائعين . كان حسين يسرقها ليثرى ويشترى أرضا ليصبح من المالكين . وكنت أنا أقدمها لعامل من عمال المزرعة . سرق حسين والخواجة مجهوده هو وامرأته وبناته طوال العام . سرقاه سرقة مادية واضحة حين زيف حسين الحساب ، وأصبح الرجل مدينا بعد أن كان دائنا . كنت أرد بعض السرقة التى ارتكبها الخواجة ، فأعطى محمد محمود جزءا من الأذرة التى اغتصبها الخواجة منه اغتصابا . كنت كذلك أعطى الذرة الى انسان جائع يعول ستة جياعا . هل يستطيع الانسان - أى انسان - أن يرى الجوع يعصر رجلا . لم يترك له الا عظاما تكاد تخرق جلده الهزيل . ويصهر أعوادا غضة لخمس بنات صغار ، شاء حظهن أن يولدن لهذا الرجل البائس ، وتلك المرأة التعيسة . . ولا يفعل من اجلهم شيئا . . هل يمكن أن يكون اطعام الجائع سرقة أيا كان مصدر المال المسروق ؟ هــل كنت أنتقم من الخواجة حينما فعلت ذلك ولو بطريقة غير واعية ، لان الكلب يأكل الحمام والآدميون يطحنهم الجوع ؟ . .

كلا ، لست سارقا ، اننى اختلف عن حسين والخواجة . ســرى فى كيانى شعور بالطمأنينة . لكن ذلك كان لبرهة قصيرة . فهذا هو الخاطر المقلق يعصف بى من جديد : كان محتملا ان يراك الخواجة ، أو أى انسان آخر ، فيشى بك لديه . وهنا يكون الطرد من العزبة هو

مصيرك . وهذا يعنى ، فى مثل هذه الظروف الاجتماعية ، الطرد من الحياة . وانتابتنى رعشة شديدة ، وتسلل الشعور بالضياع الى نفسى مرة أخرى . ثم راودتنى بعض الطمأنينة حينما سمعت شخير الشيخ سليم . . ان أحدا لم يرنى ، وهاأنذا بجوار الشيخ سليم . كان قربى منه يشعرنى بالسلام . فرضا الخواجة عنه ، ورضا الشيخ سليم عنى ، كان ينقل الى طريقة غير مباشرة رضا الخواجة عنى ، ومن ثم الطمأنينة على حاضرى ومستقبلى . . وأخذتنى سنة من النوم .

١٧

عام ١٩٣٧ ، وفيه جاء اليوم الموعود . . .

فى ليلة من الليالى علفت المواشى مبكرا ، وواتيت الشـيخ سليم فى الغرفة . استقبلنى الشيخ سليم فرحا متهللا ، تشرق ابتسامة عريضة على وجهه المستدير . ينعكس ضوؤها على لحيته العريضة البيضاء . بادرنى بالقول :

- الم اقل لك ان فرج الله قريب ؟
- خير يا عم الشيخ سليم .
- انه خير كثير ، الم تدر بالخبر ؟
- لا .

ـ ألم أقل لك ان هناك ، مستقبل عظيم ، ينتظرك ، وأنى رأيت لك أحلاما جميلة .

ـ هل ستبشرنى بحلم يا عم الشيخ سليم ؟!

ـ لا يا أخى سأبشرك بحقيقة . . الخواجه طرد الولد الكاتب حسين .

وسألته بهدوء واضح :

ـ وماذا بعد ذلك ؟

ـ سوف تتسلم منه جميع الأعمال ، العزبة بما فيها الدفاتر والخزينة وكل شيء .

تلقيت الخبر واجما ، وشرد فكرى ، وتخبطت فيه معان وصور متناقضة . واندهش الشيخ سليم ، لاننى لم أفرح بالخبر . ويبدو انه فسر وجومى بأننى اعتقد ان الاعباء الجديدة، سوف لا أتلقى مكافأة عنها . فهمس فى أذنى : الخواجة قال لى اننى سأعين خليل كاتب العزبة الوحيد ، وسأزيد مرتبه الى مائة قرش ، أى جنيه فى الشهر . . وأردف الشيخ سليم وعيناه الصغيرتان تلمعان سرورا وسعادة : مبروك يا عم ، أصبحت باشكاتب العزبة .

توقع الرجل ان أطير فرحا بالخبر الهام . لكننى لم أفعل . كان تفكيرى منصبا على عملية تزييف الحسابات التى كان يقوم بهـا

حسين . ان الخواجة يتوقع منى ان أقوم بنفس العمل ، بل اننى لازلت صبيا غضا فى الخامسة عشرة ، فأنا الين عودا ، وأطوع للخواجة من بنانه . ولا ريب أنه يتوقع منى طاعة عمياء ، فهو يعلم الكارثة التى حلت بنا ، ويعلم حاجتى للعمل عنده .

وقطع على الشيخ سليم هذه الاستغراقه ، وقال : أفرح يا أخى ، كل الناس فى العزبة فرحين .

ولم أشأ ان أصدم الرجل . كان صادق العاطفة نحوى ، وبصفة خاصة بعد ان اكلنا كميات كبيرة من العيش والمخلل معا . . فابتسمت وقلت له البركة فيك يا عم الشيخ سليم . وأجاب الرجل قائلا : انشاء الله لك مستقبل عظيم .

كان يوم ترك حسين العزبة يوما مشهودا فى حياة الفلاحين جميعا : زغردت النساء ، ورقصت البنات ، وهنأ الرجال بعضهم بعضا . فقد كان حسين كابوسا جثم على صدورهم خمس سنوات طوالا ، كانت مزيجا من الظلم والقهر والسرقة . وقد عبر النسوة عن شعورهن بأن كسروا خلفه يوم بارح العزبة عددا كبيرا من ، القلل ، ، والجرار ، القديمة ، اعتقادا بأن من تكسر وراءه قلة أو جرة لا يعود الى نفس المكان مرة أخرى .

سرى الخبر فى العزبة كما تسرى النار فى الهشيم . جاءت وفود

الرجال والنساء والصبية والصبايا الى غرفتنا زرافات ووحدانا لتهنئتنى . وحظيت يومها بعدد من القبل والأحضان من الرجال والنساء . ايحبنى الناس الى هذا الحد ؟ ايكون الفقر قد قسر الفلاحين عل نوع من الرياء ، فجاءوا يهنئون الباشكاتب الجديد الذى سوف يهيمن على حساباتهم وأرزاقهم ؟ انى استبعد ذلك . والا لما جاء الصبية والصبايا والأطفال الذين لا يعرفون الرياء . ألم يشعر الناس بأن محاصيلهم لم تعد تسرق يوم تدخل المخازن ويوم تخرج منها ؟ اننى أحب الفلاحين ، ولا مراء فى انهم يحبوننى . وحينما وصلت الى هذه الحقيقة بلغت بى السعادة أقصاها .

١٨

اصبحت رجلا فى الخامسة عشرة . أهيمن على شئون مئات من الرجال . كان لكل فئة من الفئات التى اتعامل معهاهم واحد . بينما كانت همومهم المختلفة هى همى . ومشكلاتهم مسئولة منى . ومتاعبهم تمثل جزءا من متاعبى . وكانت آمالهم جميعا تتركز فى ، وكان على ان أخفف الهموم ، وأحل المشكلات ، وأحقق الآمال .

كانت الاعباء الثقال ، والمسئوليات الجسام التى أطالب بها مصدرا لشعور لذيذ : صبى فى الخامسة عشرة يضطلع بمهمة ينوء بها

الرجال ! . كانت الوظائف التى أقوم بها حتى لا ننسى هى : كاتب أنفار ، خولى ، مخزنجى ، مشرف على علف المواشى ، أمين الخزانة ، محاسب المزراعين والمستأجرين والعاملين بالاجرة والمقاولين فى مزرعة مساحتها خمسمائة فدان .

أضيف الى الخبرة التى اكتسبتها فى الوسية ، والتفوق الذى صاحبنى فى دراساتى الابتدائية والثانوية ، عنصر أساسى آخر ، يرجع الفضل فيه لوالدى . فقد كان قارئا من الطراز الأول ، رغم ان نصيبه من التعليم ، كان المرحلة الأولية فحسب . قدم لى والدى فى هذه السن المبكرة ، ثروة أدبية وسياسية بالغة الروعة . ومن الغريب ان هذه الباقة من الكتب لم يعبأ بها المحضر . لعل جهله بالكنوز التى تحتويها هو الذى جعله لا يحجز عليها !

كانت نصيحة والدى أن أقرأ الصحف اليومية بصفة مستمرة . وأوصانى بصفة خاصة ، أن أقرأ المقالة الأفتتاحية ، التى كانت تتصدر الصفحة الأولى من الجرائد فى تلك الأيام . وقدم لى كذلك مجلات أدبية وعلمية ممتازة : الهلال ، والمقتطف ، والمصور ، والرسالة . والرواية . نهلت منها جميعا ، ما شاء لى نهمى للقراءة . ثم قادنى فى مرحلة أخرى الى قراءات أكثر تقدما : المنفلوطى . والرافعى ، وطه حسين . ثم الى الكتب المترجمة من الأدب الفرنسى والانجليزى .

ففرأت ترجمات لفيكتور هيجو ، وجان جاك روسو ، وأشــــعارا من لا مارتين ! وكتابات لبرناردشو .

اصطحبت هذه الثروة الأدبية معى فى وسية الخواجة ، حيث كنت أهرب اليها كلما أمسك القهر بخناقى .

وأضفت أنا الى هذه المجموعة ، كتب المدرسة الثانوية ، وعنيت بصفة خاصة بكتاب « المنتخب من أدب العرب » الذى أثرى عقلى بالكنوز الأدبية فى الجاهلية والاسلام والعصر الحديث . ونهلت من كتب التاريخ ما استطعت ، وبصفة خاصة ، التاريخ المصرى ، وتاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر ! وكنت قد حفظت الى جانب ذلك جانبا كبيرا من القرآن الكريم فى « كتاب القرية » ما زلت أذكر الجانب الأكبر منه .

بهذا أتيــح لى أن أجمع بين خبرة نضالية غنية ، وقراءات متنوعة ، وسعت من آفاقى ، ورققت من وجدانى .

١٩

فى شهر يونيه ينتهى العمل الأساسى فى حقول القطن ، ويقل العمل فى شهرى يوليه وأغسطس ، حيث يتم حصاد القمح ، وغيره من الحبوب فى شهر مايو . ولما كان جنى القطن يتم فى سبتمبر ، فقد رغب الخواجة أن يقضى يوليه وأغسطس فى بلده اليونان التى أنجبته ،

وقذفت بوالده عاطلا ليعمل جرسونا فى مصر ، ثم يشترى خمارة ، ثم يستولى على آلاف الأفدنة من الأرض الوطنية . وترك لى وللشيخ سليم مهمة ادارة العزبة : يدير الشيخ سليم العمل اليدوى ، وأدير أنا الأعمال الفنية !

كان للخواجة حصان رشيق ، يعتبر قطعة فنية . . ذهبى الشهر . . عربى السمات . . أرجله بيضاء فوق الحوافر ، وجبهته بيضاء كذلك . وكان هذا التكوين اللونى النادر آية من آيات الجمال فى الخيل . كان الحصان قوى البناء ، ولكن فى رشاقة . ويرجع ذلك الى ان الخواجة يقدم له كثيرا من الفول والشعير ، ويطعمه السكر بيديه !

كان ركوب ذلك الحـصان أمنية من أمانى . فكيف السبيل الى ذلك ، وهو حصان الخواجة الخاص لا يعتلى ظهره غيره . وعندما كنا نودع الخواجة وخليلته عنت لى فكرة فخاطبت الخواجة قائلا :

ـ ان حصـانك سيبقى مدة طويلـة دون أن يمشى ، وهـذا ضـار بـــه . .

ـ برافو عليك ، لقد فكرتنى . . قل لأحد الكلافين « يمشيه » كل يوم لمدة ساعة .

ـ حاضر يا جناب الخواجه . .

ثم سكت قليلا . . وأظهرت فجأة اهتماما كبيرا بالموضـوع فقلت لـه :

- ان المشى فقط ليس كافيا . .

- ماذا نعمل ؟

وحتى أجيد الدور ، أخذت أعمل الفكر قليلا ثم أجبته :

- أنا رأيى أن نجعل أحد الكلافين أو الخولة يركبه نصف ساعة كل يـوم .

- لماذا لا تركبه أنت ؟!

أوشكت أساريرى أن تتهلل . لكنى سيطرت عليها حتى اتقن دورى وأصل الى الغرض الذى أستهدفه وأجبته :

- هناك خيل كثيرة فى الوسية أستطيع أن أركب أحدها . .

- لا ، انت تركب الحصان كل يوم .

- أمرك يا جناب الخواجة ! .

فى اليوم التالى كنت أمتطى صهوة الحصان « الأرستقراطى » متوجها الى كفر صقر . كان الخواجة قد كلفنى بعمل اضافى آخر فى كفر صقر ! كان يتجر فى الحبوب والأقطان . له « شونه » كبيرة يجمع فيها ما يشتريه من المحصولات المختلفة . وكان الأرز هو المحصول الذى تمتلىء به الشونه فى ذلك الوقت . وللشونه « أمين » ، ولكن

الخواجة لم يكن يأتمن الأمين ، فكلفنى بالاشراف عليه ، والاشتراك معه فى تسلم الأرز من البائعين أو تسليمه للتجار المشترين .

استقبلنى أمين الشونه كما يستقبل الفرسان . كان الرجل فى سن أبى وكان له أولاد فى مثل سنى . ولكن جلال الحصان ، ومظهر الفارس الصغير ، جعلاه يبالغ فى احترامى بطريقة أخجلتنى كثيرا . وأغرقنى الأمين بكرم لم أتصوره . فقد كانت امرأته تقدم لنا « صوانى الضأن » ، والبطاطس المطهوة فى الفرن ، والحمام المشوى والمقلى والمحشو ! وبهذا ارتفع مستواى الى مستوى الكلب غاندى ، على الأقل فى الأيام التى قضيتها مع « محمد أفندى » أمين الشونة !

وفى وقت « العصارى » ذهبت لأتمشى على شاطىء النهر . وكان هناك مقهى يطل على الطريق المحاذى للنهر ، فجلست ، أرتشف بعض الشراب البارد . وتقدم لى شاب أنيق يلبس جلابية بلدى ، وعمامه بيضاء ناصعة ، فى العقد الثالث من عمره ، وعرفنى بنفسه . توطدت بيننا علائق وثيقة . كانت نسمات الأصيل المنعشة تمر على النهر فتحمل رذاذه الى وجوهنا ، ثم تعبر الشجر وزهره الأحمر اليانع ، وتصل الى أنوفنا وصدورنا عبقة شذية . وبينما كـنا نتبادل حديثا خفيفا ، اذا بفتاة تخطر فى الطريق أمامنا . وجهها أبيض ، تنساب حمرة الورد فى جنباته ، وعيونها تعكس زرقة السماء ، وشعرها الذهبى

يلمع تحت شمس الأصيل ، فيزداد سناء وسنى . . كان شعرها يتدلى على كتفيها ليصل الى ما تحت خصرها حيث خيل الى وأنا أتابع طوله انه لا نهاية لـه !

كان وجه الفتاة يقرب من وجه الملائكة ، اذا استطعنا أن نتخيل وجوه الملائكة . ولكن جسدها بشرى صارخ الأنوثة ، وهى لما تصل الى الرابعة عشرة بعد . يبرز نهداها ، فترى تكوينهما كاملا تحت ثوبها الحريرى الأبيض . كانا نافرين نفورا طبيعيا دون معاونة مصطنعة ، فسن الفتاة ، وقوة تكوينها الجسدى ، لا يحتاجان الى معاونة لابراز ملامح جسدها البض ، الذى غزته الأنوثة غزوا كاملا فى وقت مبكر .

وسألت صاحبى :

ـ من هذه الفتاة ؟

ابتسم « أمين » ابتسامة خبيثة خفيفة ثم فاجأنى بقوله :

ـ هل تحب أن تتزوجها ؟!

ـ هكذا بسرعة ؟!

ـ نعم ، اذا كنت تريد ، هلم بنا الى منزلهم !

كان جمال الفتاة يمزقنى بين العبادة والتأمل فى وجهها الملائكى ، وبين الرغبة العارمة التى أثارها فى جسدها الصارخ الأنوثة . كنت ألهث وأنا أتابعها تختال على شاطىء النهر . لم أكن قد

التقطت أنفاسى بعد ، اذا باقتراح الزواج الذى عرضه أمين على يسرع بدقات قلبى ، ويلهب أنفاسى ، فاذا بى ألهث من جديد . . وعندما استرددت أنفاسى بعد لحظات ، طافت برأسى فيها خيالات يحجب بعضها بعضا ، قلت لصاحبى :

ـ هل أنت جاد فى اقتراحك ؟ لكن هذه فتاة خارقة الجمال لا يمكن أن ترضى بمثل هذه السرعة . .

ـ أنا أضمن لك هذا ، اذا وافقت أنت !

وبلعت ريقى ، ثم سألته :

ـ ألا تخبرنى أولا من هى ، وبنت من ؟

وأعطانى أمين كل المعلومات عن الفتاة وأسرتها .

كان منزل الفتاة يجاور الشونه ، وتسكن فى الطابق الثانى ، وتطل شبابيكه على الشونه . كانت كثيرا ما تفتح الشباك ، فتتلاقى نظراتنا . . أتى المساء . قفزت فوق ظهر الجواد . الغادة الصغير تودعنى من النافذة ، ألتفت اليها ، وشعاعات الأصيل تعاون عيوننا أن تسبر أغوار بعضها بعضا . ثم يبدأ الجواد يختال على الطريق . يضرب الأرض بأرجله البيضاء . يلوى رقبته الذهبية تيها . وقامتى تنتصب فوق ناصيته فى زهو وخيلاء .

فى العزبة لم يغمض الكرى أجفانى . كان سقف الغرفة وحوائطها

ونوافذها تعكس صورة الملاك الصارخ الأنوثة . استعذبت أطياف الفتاة ، عيونها الزرق كانت ترمقنى من كل مكان فى الحجرة ، رغم الظلام الذى كان يخيم عليها ! نهضت من مرقدى مع أشعة الفجر تتسلل من فتحات النافذة . نهضت لا لأصلى الفجر كالعادة مع الشيخ سليم ، ولكن لأذهب الى معبدى فى كفر صقر . . .

مضى الحصان يختال بى بين الحقول ، نسمات الصبح الندية تنعش أفكارى . الشفق وبشائر الشروق تثير فى خيالى ألوان اللوحة الرائعة الحية التى شهدتها فى كفر صقر . فشعاعات الشمس التى تنبثق من وراء الأفق هى لون شعرها . والسماء وضعت صفاءها وزرقتها فى عينيها ، والشفق سكب خلاصة لونه فى خديها . أطلقت العنان للحصان ، فانطلق كالسهم يطوى الطريق طيا .

وصلت كفر صقر مع شروق الشمس تماما ، عندما اقتربت من باب الشونه ، اذا بنافذة الحسناء الصغيرة تفتح . واذا بها تشرق من النافذة فتنير وجدانى ، كما تنير الشمس هذا الكون . واذا بى أنظر اليها من فوق ظهر الحصان ، واذا بها تنظر الى ، وكأننا على موعد . كأنها هى الأخرى لم تنم ، طول الليل . وجلست خلف النافذة تنتظر قدومى . . اشتد وجيب قلبى ، زاد تعلقى بالفتاة ، وبدأت أتساءل هل أتزوجها ؟ . . .

التقيت بأمين فزاد من شجونى . سهل لى الموضوع تسهيلا غريبا . قال لى :

ـ دعنا نذهب لزيارتهم ، ولا تتكلم فى موضوع الزواج . واملأ عينيك بها عن قرب . وتحدث معها .

ـ أنا أرغب فى ذلك كثيرا . . لكن . .

وقاطعنى أمين :

ـ لكن ماذا ؟ أنت لن تخسر شيئا .

ـ انت تعلم اننى لا زلت صغيرا لم أتجاوز الخامسة عشر بعد .

ـ اخطبها وانتظر سنة أو سنتين كما تشاء .

ـ والبنت صغيرة كذلك . . انت تقول انها لم تكمل الرابعة عشرة .

ـ المسألة ليست مسألة سن . . الفتاة أمامك ، ألا ترى انها أجمل وأكمل من خمسين امرأة .

ـ نعم . . الحقيقة لم أر أجمل منها فى حياتى .

ـ اذن هيا بنا .

يبدو ان مظهرى بالبالطو والطربوش ، والحصان الأرستقراطى الذى أركبه ، واشرافى على الشونه وعلى العزبة ، كل هذا قد جعل أمين يعتقد اننى « ناظر » العزبة ، وان الخواجة يعطينى مرتبا كبيرا . وكانت

شهرة نظار العزب والوسايا وكتابها ، ان لديهم مصادر أخرى من الدخل ، كما كان حال حسين ، الباشكاتب ، القديم . وبهذا كان أمين يعتقد ان دخلى كبير ، واننى قادر على الزواج فى سن الخـــامسة عشرة . . كنت قد أخفيت عنه حقيقة مرتبى . فلم أقل له اننى أتقاضى جنيها واحدا فى الشهر ، وانى أعول به آدميين سبعة ، يصبحون ثمانية بعد خروج والدى من السجن .

لم يكن أمين يعلم ما يدور بخلدى . لم يكن يعلم ان سبب ترددى فى أن أمتلك هذه الجوهرة ، هو اننى مهدد بالجوع بين آونة وأخرى . كيف أتزوج الآن ، وأنجب صغارا ، فأزيد من عدد الجوعى البائسين فى هذا البلد ؟ لا ، يجب ألا أتزوج هذه الفتاة . . كيف يمكن لهذه التحفة الفنية الرائعة أن توضع بين جدران قذرة ، وتسكن بيتا من الطين . انها سوف تكتشف ان زوجها ، الفارس ، يقبض جنيها واحدا فى الشهر يعول به أسرة كبيرة .

لكن الفتاة تمر بى وأنا جالس مع أمين فى المقهى . وقد خيل لى ان هذين الأسبوعين من الهوى الصامت قد أنضجا جسدها وزاداها أنوثة . هذه هى تلتفت الينا ، وتمسك عيناها بعينى ، وتبتسم ابتسامة

بريئة غضة تستحيل الى لهيب يحتدم فى دمائى . وأهم بأن أقول لأمين ، لنذهب الى منزل هذه الفتاة ، لابد لى من الزواج بها . . ، ولكن الفتاة تسرى فى الطريق كما يسرى النغم الحلو لم يختفى . وعندما تختفى تغيض الحرارة ويخبو النهيب ، وأعادوا التفكير فى مصيرى . . ومصير الفتاة نفسها .

كان يحلو لى قبل أن أغادر الشونه الى العزبة آخر النهار ، أن أتمشى على شاطىء النهر ، حيث تتدلى أغصان أشجار ، ست الحسن ، كما تتدلى شعور العذارى . وكان الحصان يمشى ورائى دون أن أمسك ، بلجامه ، . فقد كان متدربا على ذلك ، اذا نزلت من على ظهره يتبعنى فى خيلاء ، فاذا وقفت وقف ، واذا مشيت ثانية بدأ يخطر خلفى من جديد .

نزلت الفتاة ذلك المساء الى الطريق لتوديعى . وقفت ازائى على الجانب الثانى من الطريق ، تداعب شعرها ست الحسن .

ووقفت أنا على حافة النهر . انتظرت الفتاة أن أبد الحـديث ، أو أذهب حيث تقف . لم أفعل . ارتفعت حرارة عواطفنا ، ولكن مــن

بعيد ! توارت الشمس خلف الأفق . وبدأ الظلام يخيم على النهر ، ويرخى أستاره على الطريق .

تهنا فى سكون الغسق ، ولفنا ضباب العاطفة لحظة ، أفقت منها على صوت أخوات الفتاة ينادين عليها . وتخطرت الفتاة ملبية نداء . . أخواتها . وقفزت فوق ظهر الحصان الذى أسرع يضرب الأرض بأرجله القوية .

عدت الى العزبة . دارت حرب لا هوادة فيها بين ما يسمى بقوى العقل وقوى العاطفة . تتابعت صور الفتاة المثيرة أمام عينى . تلتها صور أخرى لأمى واخواتى ، وأجسادهن الهزيلة . تراءت لى صورتى كذلك . رأيتها معلقة فى الهواء ، يمكن أن تذروها الرياح اذا غضب الخواجة على . واذا لم أسرق له الفلاحين . أو حتى اذا اقترح عـــليـه ، مزاجه ، أن يطردنى من فردوسه . . جالت هذه الخواطر كلها برأسى الصغير ، فأوشك أن ينفجر . لولا اننى سمعت الشخير الرتيب يصدر من خياشيم الشيخ سليم .

فينزل الشخير سكينة على قلبى . وينهى هواجسى . ويرجعنى للحقيقة المرة : ليس هناك مكان للعواطف أو للقلوب فى دنيا الوسية .

وبصفة خاصة اذا كان كدح الانسان ليلا ونهارا لا يكفى الا لسد حاجات المعدة فى أوضع صورها . أى ملؤها بالخبز ، والخبز الأذرة القراح . . ولم أعد ، لشونة ، كفر صقر بعد ذلك اليوم !

شىء غريب !

فتاة كفر صقر حركت شجونا قديمة . كان النضال ضد الجهل والفقر والقهر ، قد غطى عليها . خلتها نسمة شذية . مس صدرى عبيرها لحظة . ثم زفرها ، وذهبت مع الريح .

لكن النضال على قسوته ، كان رفيقا بى . غاص بتلك الشجون فى مكان عميق من القلب ، الذى حنا عليها . وخبأها فى شغافه : عالية ! التى زارتنا فى قريتنا فى الصيف الحزين : الذى ضاعت فيه أرضنا . كانت لمسة من لمسات الجمال فى هذه الدنيا .

مسحت عن قلبى الأسى الذى أصابه بضـــياع الأرض . أحيت فى أملا حلوا حينما شدت : يا مدارس يا مدارس . . !

ذهبت الى قريتهم ! كانوا هناك يقضون اجازة الصيف . ملأت عينى ووجدانى من هذا النبع الذى لا ينضب من الجمال . استمعت

الى حديثها . . كانتَ تهتم بالحديث الى . . براعم عالية تتفتح ، وتنشر من حولها أريجا وعطرا . . لكننى لا أستطيع أن أمس تلك البراعــم ، أو أقترب منها .

ان عالية ـ كفاتنة كفر صقر ـ يجب أن أقنع ـ ما بقيت فى مجتمع الوسية ـ بالنظر اليها ، واسترواح أريجها من بعيد !

٢٠

عاد الخواجة من أثينا ، وانتهت بعودته فترة ذهبية . . فترة من الراحة والانطلاق والمتعة ، والفروسية . لم يكن كابوس الخواجة مخيما على صدورنا فى هذه الفترة ، التى شعرت فيها بلون من السيادة ، فقد كنت « سيد » العزبة خلال شهرين كاملين ! . .

استقبلت الخواجة بنوع من الترحيب المفتعل ! كذلك فعل رجال العزبة جميعا ، عدا الشيخ سليم . بدت الفرحة مشرقة فى وجه . تهدج صوته وهو يحيى الخواجة . أخذه بين ذراعيه ، وطفرت من عينيه الصغيرتين الدموع .

كان من الطبيعى أن أعطى الخواجة صورة كاملة عما حدث فى غيبته فى ادارة العزبة والشونه . وبعد ذلك قدمت تقريرا شفويا الى « الست » عن غاندى وغذائه ونومه واستحمامه ونزهته . ولحسن حظى

وحظ عبده والخدم جميعا كان الكلب بادى الصحة ، غليظ الرقبة ، سمين الأفخاد . . فقد أوصتنى كليوبى بالكلب والعناية به أثناء غيابها .

شهدت أول وجبة تقدم لغاندى بعد عودة « الست » . كان المشهد طريفا ، لكنه كان يثير الرعدة فى أوصالى . كان عبده قد قسر الكلب على أن يأكل طعامه بنفسه خلال تلك الفترة . عبده يفرش « الترابيزه » بمفرش نظيف ، ارتدى قفطانه الأبيض ، وطربوشه الأحمر . وأحضر الطعام فاذا به فراخ وحمام من جديد !

وبدأ « غاندى » ينبح . اضطرب نباحه بين فرحته بعودة صاحبته ، وبين نباح استخلصت منه نغمة احتجاج وسخط وشماته فى عبده الطباخ . كان الكلب ينظر اليه ، وينبح بحدة ، وبنغمة غاضبة ، ثم ينظر الى ، وينبح بنفس النغمة . ثم يستدير الى « الست » ، وينبح نحوها نباحا صديقا . . وقد أحسست احساسا فطريا ، تسنده معرفتى بتاريخ اطعام الكلب فى الشهرين الماضيين ، بهذه النغمات المختلفة فى نباحه . ولحسن الحظ لم تلحظ « كليوبى » الفرق بين « هوهوة » الفرح « ونباح » السخط !

عبده يحاول وضع قطع الحمام المشوى فى فم غاندى . الكلب يمتنع عن تناولها . ثم يخفض رأسه ، ويتجه بفمه الى الطبق ، ويهم أن يأكل بنفسه ! اضطرب عبده . بدأ عليه الارتباك . انطلقت منى ضحكة لم أستطع أن أكبحها فى الوقت المناسب .

دهش الخواجة ، والست ، . تساءلا عما يضحكنى . أجبتهما باننى مسرور اذ عادا من اليونان ! . استأنف عبده محاولاته لاطعام الكلب بيديه . أصر غاندى على الرفض ، واستمر فى محاولته لان يأكل بنفسه . أخذ عبده يختلس نظرات الى الست خوفا من أن تلحظ المباراة بينه وبين الكلب . لحسن حظه كانت الست مشغولة عن الكلب فى ذلك الوقت ، وقلما كانت تشغل عنه . تحرك عبده من مكانه يحجب الكلب عن أعين ، الست ، ، واستأنف المباراة معه مرة أخرى . وعلى الرغم من سرورى لمشاهدة هذه المباراة الطريفة ، الا اننى خشيت أن تكـشف ، الست ، ان الكلب لم يعامل معاملة كريمة خلال غيابها . وانه أجبر على أن يأكل طعامه بنفسه ! وبذلك يكون اشرافى على الكلب وغذائه وشئونه الأخرى ، لم يؤد بأمانة وكفاية . أقلقتنى الفكرة . ولم أتخفف منها الا عندما رأيت عبده ينتصر . وبدأ الكلب يتناول طعامه من يده .

انتابتنى بعودة الخواجة كآبة ثقيلة ، فقد انتهت بعودته فترة الفروسية ، فلن أستطيع ركوب حصانه ، ولم يبق أمامى الا ركوب الحمير ! . . وانتابتنى نوبة أخرى ، فقررت عدم لبس الطربوش والـبالطو . ذهبت الى الحقل بجلابية عادية ، تتمشى مع ركوب الحـمير ! رآنى الشيخ سليم ، علت وجهه الدهشة عندما قلت له : كيف ألبس الطربوش والبالطو . والناس جميعا من حولى يلبسوم الطاقية والجلابية ! !

لست أدرى أكنت حقا مؤمنا بهذه الفكرة الأخيرة فى تلك اللحظة . ذلك اننى لبست الطربوش والبالطو فترة طويلة قبل عودة الخواجة . . ولا شك كذلك اننى لبستهما بعد ذلك فى مناسبات عدة . . ان كلمة طبقة لم تكن قد تبلورت فى وجدانى فى تلك الأيام ، الا أن شعورى نحو طبقة الخواجات والمالكين كان فى طريقه الى التبلور والتكوين .

وجـاء وقت الظهيرة والغـداء ، فأنسانا موضـوع البالطـو والطـربوش . . . واصطحبت الشيخ سليم الى الشجرة التى حجزت لنا لنستظل بها آبان الظهيرة وأثناء تناول الغداء . تحت الشجرة وجدت ترتيبات وحركات غير عادية . وجدت أحد المقاولين وأحد الخولة يمسكان بحزم ملفوفة ، وأخذا يفكانها ، كميات هائلة من الفسيخ والليمون والبصل الأخضر والخبز ، الخاص ، اعترتنى دهشة بالغة ، ولكنها لم تبلغ قوة الشهية التى التهمت بها هذه ، النعم ، جميعا .

كانت الوجبة شهية لدرجة اننا لم نتوقف عن الأكل ، الا بعد أن اختفى الفسيخ وعظامه ، والبصل وقشوره ، والخبز وبقاياه . وما كدنا ننتهى من الفسيخ حتى قدم الينا بطيخ أحمر رائع ، قطعته احدى الفتيات العاملات ، وتركته فى ظل الشجر لكى يبرده النسيم .

بعد أن امتلأت معدتى ، وأخذ رأسى يفيق رويدا رويدا من ذلك الضباب الكثيف الذى لفه الفسيخ والبصل من حوله ، تساءلت ما مصدر

هذا الطعام ؟ وجاءتنى الاجابة عندما ذهبت أعد الأنفار . كان المقاول الذى شاركنا الوليمة يصحبنى . وجدت الأنفار مائة ، فقيدت له فى اليومية مائة . لكن المقاول قال لى فى صوت خفيض واثق :

- ألم يقل لك الشيخ سليم شيئا ؟
- لا ، ماذا تقصد ؟
- أقصد ان عدد الأنفار اليوم ماية وعشرون وليسوا مائة .
- لكننا عددناهم سويا ، ووجدناهم مائة . . .

هم المقاول أن يسر فى أذنى شيئا ، ولكنه تردد . واقترح أن نذهب معا الى الشيخ سليم ، الذى كان ما يزال يعيش فى غيبوبة الفسيخ والبصل . بادره المقاول قائلا :

- أنا قلت لخليل أفندى ان الأنفار مائة وعشرون وهو يقول مـائة . .
- أخذنى الشيخ سليم من ذراعى . انتحى بى جانبا وقال لى :
- أضف له عشرين نفرا . .
- كيف ذلك يا عم الشيخ سليم ، ان عدد الأنفار مائة فقط .
- نعم ، انى أعلم ذلك . . الأنفار الزائدة نظير الفسيخ والبطيخ !

كان رد الفعل الذى أحدثته فى اجابة الشيخ سليم خليطا من الرضا عن « الغدوة » ، وعدم الرضا عن الطريقة التى سندفع بها ثمنها . سألت الشيخ سليم :

- أليس ذلك حراما ؟ اننا نصلى ، فكيف نفعل ذلك ؟
- لا ، ليس ذلك حراما !
- أليس ذلك تزويرا وسرقة ؟
- قلت لك لا ، الحرام هو أن نأكل خبزا مصنوعة من الأذرة ، وفلفل مخلل ، طوال حياتنا ، ونحن نعمل ستة عشرة ساعة فى اليوم ! الحرام اننى أعمل عند ذلك الرجل منذ نحو ثلاثين سنة ، ويعطينى جنيهين فى الشهر ، وقد بلغت من العمر ثلاثة وستين عاما . وأنا أتفانى فى خدمته . وأنتج له أحسن محصول فى المنطقة ! هل تعجبك الحالة التى نحن فيها ؟ هلى نبقى محرومين ، نأكل خبزا كالتراب ، بينما كلاب الخواجات تأكل الحمام ؟ !

أخيرا ثار الرجل الذى كنت أعتبره رمزا للقناعة والرضا. الصورة الحية التى يتجسد فيها الاخلاص للخواجة ، والتفانى فى خدمته ! وعلى الرغم من ان الشيخ سليم فاجأنى بثورته ، الا ان المفاجأة لم تمنع النشوة أن تسرى فى بدنى : لقد استيقظ الرجل الذى طال صبره ، وتمادى فى قناعته ، ولم تغن عنه شيئا . هذا هو يتبرم ويلعن حياة لا تمده الا بالخبز الأذرة . . والمخلل . انه بدأ يحس انه والأنفار الذين يأتى على آخر قطرة من عرقهم ، ليفلحوا أرض الخواجـة ، ويكفلوا له ثراء على ثراء ، ويهيئوا له وخليلته وكلبه عيشة

رغدة ، بدأ يحس انّه هو والعاملين مصدر ذلك الخير، الذى يغرق الخواجات فيه ، ولا يصيبه من ذلك الخير الا الضنك والحرمان .

على ان النشوة التى سرت فى كيانى لم تكن طليقة . فالعمل الذى نقوم به غير مشروع ، على الأقل طبقا للأوضاع السائدة فى المجتمع الذى نعيش فيه . وأهم من ذلك اننى المسئول عن هذه السرقة وذلك التزوير . ما الذى يضمن لى ان الخواجة لن يكتشف هذه السرقة ؟ وانه اذا ما فعل ، فسوف يكون ذلك طامة كبرى ، وطردا من رحمته ، وحرمانا من الرزق .

كان الشيخ سليم قد لمح شعاعات من السرور تبرق من عينى ، فارتاح لها . لكن ما لبثت أفكار « أكل العيش » ، أن طمست ذلك البريق فى عينى . قلت للشيخ سليم :

ـ اننى أخشى أن يعلم الخواجة بهذا الموضوع ، فيكون مصيرى الطرد من العزبة .

ـ لا تخف ، المقاول والخولى رجال يمكن الاعتماد عليهم .

ـ هل أضع مستقبلى فى أيدى أناس ، ثم أفترض انهم رجال ؟!

ـ اطمئن ، أنا أضمن لك ان هذا الموضوع سوف لا يصل الى علم الخواجة . . وما دمت أنا معك فسوف تظل موضوع ثقة الخواجة . . هو يعلم انك أمين . . وهو كذلك يثق فى كثيرا . . هل ارتكبنا جريمة ؟

المسألة كلها ثلاثون قرشا ، أكلنا بها لنستريح يوما من الطعام الذى تشققت منه حلوقنا .

وأضفت للمقاول عشرين نفرا ، أجرتهم ثلاثون قرشا ، ثمنا للفسيخ والبطيخ . وتكررت تلك الأكلات وتنوعت . وشملت أصنافا أخرى ، كالسردين والخيار والعنب والحلاوة الطحينية وغيرها !

يبدو ان التقوى والقناعة اللتين كان الشيخ سليم يتدثر بهما ، أخذا يتمزقان شيئا فشيئا . حدث أن أملانى الشيخ سليم عن عشرة أنفار يعملون فى حقل آخر : وقد درجت أن أثق دائما فيما يقول . تصادف أن مررت بذلك الحقل ، لم أجد الأنفار . وسألت المقاول عنهم ، فأجاب بصراحة عجيبة : انهم يعملون فى أرض الشيخ سليم الخاصة !

أكان الرجل يحبنى لاننى كنت أكتب له الأنفار الذين يعملون فى حقله طول العامين الماضيين على حساب الخواجة ؟ أكان يتفانى فى خدمة الخواجة ، ويستنزف جهود العاملين فى الوسية ، لتعويض الخواجة عن الأجور التى يدفعها للذين يعملون فى أرضه هو ؟ يخيل الى ان قسوة الرجل على الفلاحين العاملين فى الحقول ترجع الى أسباب عدة : كان حريصا على ارضاء الخواجة مصدر نعمته ورزقه . على ان الرجل كان يكره الفلاحين كراهية طبيعية . لقد سألته ذات يوم عن سر قسوته عليهم فقال : وهو يعض على نواجذه ، فتسمع صرير

أنيابه واضحا : آه من آدم . . آدم عايز ضرب النار ! . .

كان الشيخ سليم تقيا حقيقة ، ولكن هل تتعارض التقوى مع أكلات الفسيخ ، التى لا تكلف الخواجة غير قروش معدودات ؟ ان الفسيخ سوف يرفع من معنويات الشيخ سليم ، ويزيد من تفانيه فى خدمة الخواجة ، وسيعتصر له أكبر قدر من جهود الفلاحين ليقدمها له عملا رخيصا يزيد من ثرائه .

لم يتغير شعورى نحو الشيخ سليم ، فقد فهمت موقفه . قد أكون راضياعن الجانب المتعلق منه بالفسيخ ، وغيره من المواد التى ترفع من مستوى غذائنا ، فأنا زميله فى الغذاء الردىء والعيشة النكدة . وكان ضعف حماستى للخواجة ولأموانه يرجع كذلك الى شعور غامض بالاستغلال الذى يصبه الخواجة على الفلاحين . وكنت كثيرا ما أتساءل ولا مجيب : كيف لا يعود جزء من ثمرات الأرض للذين يفلحونها ، فيتركون جوعى ضياعى، يذهب معظم ما ينتجون من خيرات للخواجة ولخليلته وكلبه . على ان السرقات الخاصة بالفسيخ ما زالت تثير فى نفسى أمرا أنكره أشد النكران : اننى والشيخ سليم والمقاول والخولة ، ننعم بتلك الأكلات الشهية المسروقة والمستردة من الخواجة ، بينما يتفرج علينا مئات من الأنفار العاملين فى الحقل ، يحرق الفلفل أفواههم ، ويتوقف الخبز الذرة الجاف فى حلوقهم . انهم لا يستطيعون

أن يستردوا من الخواجة شيئا مما يمنحونه اياه من جهودهم ، ولو فى شكل متواضع كما نفعل نحن ، أى فى شكل فسيخ وبطيخ .

٢١

كان محصول القطن وفيرا فى هذا العام (١٩٣٧). تآزرت العوامل الجوية المواتية ، والقضاء على الدودة ، والجهد الانسانى الكبير الذى بذله الفلاحون ، فى أن تجود الأرض بأكبر محصول فى تاريخها . ان الفرحة بالمحصول الكبير تجتاح الناس جميعا فى الريف : فالملاك الكبار يفعم الفرح قلوبهم . فسوف يشترون مزيدا من الأرض يضمونها لأملاكهم ، وسوف يبقى لهم بعد ذلك ما يكفل لهم ترفا جديدا يضاف الى الترف القديم : قصور تبنى وكلاب تقتنى ، وخيل تمتطى . ويثير المحصول الجيد كذلك لعاب الملاك الصغار لفدادين أو قراريط تزيد من ملكيتهم ، فيصبح الفدان اثنين ، وتصبح الخمسة عشرة وتصبح العشرة عشرين .

ويتوقع المزارعون والمستأجرون ان المحصول الكبير سوف يمكنهم من سداد ما عليهم من ايجار وديون . سيدفعون ايجار قطعة الأرض التى يزرعونها برسيما ، ويطعمون به الماشية التى تعمل فى الأرض ، وتلك التى يزرعونها أذرة يطعمون به أنفسهم وولدهم . واذا كان

المحصول سخيا وثمنه ملائما فانهم يتوقعون فائضا يشترون به كسوة للبنين والبنات .

والعمال الزراعيون ينظرون الى المحصول الوفير نظرة فيها رضى بقدر ما فيها من أمل . فسوف يعملون أياما أكثر ، يستخدمون ما يحصلون عليه من أجر فيها فى الحصول على القوت الضرورى ، عندما ينتهى موسم جنى القطن ، وتنشر البطالة عليهم أجنحتــها الرهيبة . وهم يأملون كذلك أن يتسبب المحصول الكبير فى أن يتنافس الملاك فى زيادة أجورهم ، ، وقلما يفعلون .

وعلى ذلك فموسم القطن يمثل العيد الأكبر للقرية . يعتبر معين الأعياد الأخرى ومصدر بهجتها . فالأعياد التى تلى محصولا وفيرا وثمنا مواتيا ، تكون بهيجة ، يفرح لها الناس ويلبسون فيها الجديد . بينما تلك الأعياد التى تلى المحصولات الرديئة ، والأثمان المنخفضة ، تكون كئيبة يلبس فيها القديم .

ظهرت علامات المحصول الكبير على وجه الخواجة : ازداد وجهه الغليظ سمنة ، أضيفت كميات من الشحم الى ما تحت ذقنه ، اكتنزت نهوده . تضخمت بطنه وأكتافه ، انفرج ما بين شفتيه ، أخذ يبتسم للناس على غير عادته . كثرت زياراته للحقول ليملأ عينيه بالذهب الأبيض الذى أنتجته الأرض المصرية والمواطنون الكادحون . على انه

لحسن الحظ كان يزور الحقول فى الصباح وعند الأصيل ، وبهذا تجنبنا الكارثة التى كان يمكن أن تنجم عن رؤيته للفسيخ والبطيخ !

كان متوسط ناتج الفدان ثمانية قناطير فى مساحة قدرها مائتان وخمسون فدانا . أبلغت الأخبار السارة الى الخواجة . ابتسم عن أسنان صفراء ، نتيجة « للبايب » الذى كان يدخنه . ورغم علامات الرضا التى تبدت على عينيه المنتفختين ، الا انه بادرنى بالقول :

- ثمانية قناطير فقط ؟

- انما هذا أحسن محصول فى تاريخ الوسية .

- ماذا تعرف عن تاريخ الوسية ، انت تعمل هـنا مـن سنتين اثنتين .

- كان محصول العام الماضى خمسة قناطير فقط ، وكان أربعة ونصف فى العام الذى سبقه .

- وماذا أنتجت أرض الوسية التى يزرعها الفلاحــون بالمزارعة أو الايجار ؟

تهللت فرحا ، وأجبته فى سذاجة :

- تصور يا خواجة . . يا جناب الخواجة ! . . ان بعض المزارعين أنتج تسعة قناطير من الفدان ؟

- كيف ذلك ؟

ـ هذا ما حدث . .

ـ اذن لماذا تنتج أرض الوسية ثمانية قناطيرا فقط ؟

ثم صرخ الخواجة مناديا عبده الطباخ ، وقال لـــه : ناد الشيخ سليم . .

جاء الشيخ سليم يضوى الفرح والانتصار فى عينيه الضيقيتين . وأخذ يملس على لحيته البيضاء ، وكانت هذه عادته عندما يبلغ سروره أقصاه . ثم قال للخواجة وهو يبتسم ابتسامه عريضة :

ـ نعم يا جناب الخواجة ؟

ـ كيف حالك يا شيخ سليم ؟

ـ الحال ، عال العال ، الأشياء رضا ومعدن . هلى رأيت يا جناب الخواجة المحصول العظيم الذى أنتجناه هذا العام ؟

وأجاب الخواجة ببرود عجيب :

ـ خليل قال لى ان أرض المزارعين أنتجت تسعة قناطير ، كيف ينتجون محصولا أكبر من أرض الوسية ؟

بلع الشيخ سليم ريقه . أخذ يحك رقبته ، ويرفع عمامته ، ثم يضعها على رأسه ، حركات يلجأ اليها عندما يكون متضايقا ثم رد على الخواجة :

ـ يا جناب الخواجة الأرض أنتجت ثمانية قناطير ، وهو أكبر

محصول فى تاريخ الوسية . وكان أكبر محصول أنتجناه قبل ذلك ستة قناطير .

ـ لا أريد أن أسمع هذا الكلام الفارغ ! . . لماذا أنتجت الأرض التى زرعها الفلاحون بالمزارعة تسعة قناطير ؟

وارتاع الشيخ سليم ، وارتعت معه عندما سمعت لفظ ، الكلام الفارغ ، . ولكن الخواجة كان يخفى فى جعبته الكثير . فبعد أن صمت قليلا ، انفجر مرة أخرى فى الشيخ سليم ووجه له كلاما لم أكن أتوقعة :

ـ انت تلعب يا شيخ سليم !

وفوجىء الرجل الذى اقترب من الخامسة والستين ، قضى منها نحو خمسة وثلاثين عاما فى خدمة الخـواجة . وارتجفت أنا لهذه العبارة . ولم أكن أدرى أكان ذلك تعاطفا مع الشيخ سليم صديقى وزميل الفراش والعيش الأذرة والمخلل والفسيخ والبطيخ . ذلك الرجل الذى كنت ألتمس الرضا والطمأنينة من شخيره أثناء الليل . أم كان ذلك لان الهالة التى رسمتها فى خيالى للشيخ سليم ، ومكانته فى العزبة ، ومنزلته لدى الخواجة ، بدأت تتمزق . أم كان خوفى انعكاسا لدفاع غريزى عن النفس . فما دام الشيخ سليم العملاق قد امتهنت كرامته بهذه الطريقة ، فلا ريب أن دورى ـ ولست عملاقا ـ آت لا جدال .

ونظر الشيخ سليم الى ، وخيل الى من نظرته ان الجرح الذى

أصاب هيبته كان يمكن أن يكون أخف ، أو كان يمكن ألا يشعر بــــه ، لو لم أكن حاضرا . . وتجنبت النظر الى الشيخ سليم . بل اننى بالغت فى التركيز فى قراءة الدفاتر التى كانت بيدى ، لأهيىء له أن يتصور اننى لم أستمع لتلك الاهانة . بعد أن أفاق من الصدمة ، أجاب اجابة كانت تحويرا للحديث ، أو تجاهلا للاهانة . حاول فيها أن يكون رقيقا غاية الرقة ، وهو الرجل الذى يعتبر « بعبع » الوسية وعملاقها :

ـ بعض المزارعين فقط أنتجت أرضهم تسعة قناطير ، ومحصول بعضهم ثمانية وسبعة قناطير . وهم يزرعون فدانا أو اثنين فقط ، ونحن نزرع مائتين وخمسين فدانا .

الخواجة يحك ما بين فخذية العاريتين . كان عارى الصدر ، ويلبس « لباسا » قصيرا لا يكاد يستر ما بين فخذية . وهو يتمدد على سريره ، بينما كان الرجل الطاعن فى السن واقفا أمامه الى جانب السرير . كليوبى فى رداء نومها ، تحتل الجانب الآخر من السرير الكبـــير ، وهى تداعب كلبها غاندى . ولمحت شررا يتطاير من عينى الخواجة . انه يزم شفتيه ، وكأنه قد غضب لان الاهانة التى أرادها للشيخ سليم على مسمع منى لم تفعل فعلها . ثم خاطب الشيخ سليم بصوت ازدادت حدته ، كما ازدادت وقاحته :

ـ أنا عـارف انك ستقول هـذا الكلام السخيـف . . أخرج من هنـــا !! . .

وطأطأ الرجل العملاق رأسه ولم يجب . . ولمحته يحاول أن يبلع ريقه ، فلا يستطيع الى ذلك سبيلا . اذ حالت دون ذلك غصة تعلقت بحلقه . غصة تمثل مجهودا كبيرا ، وعرقا سال فى خدمة الخواجة ، نيفا وثلاثين عاما . . . .

٢٢

فى الليلة التالية صعدت الى الطابق الأعلى بالقصر لأسمع حوار شائقا ، لم أستمع لمثله من قبل . وجدت عند الخواجة أحد المقاولين الذين يوردون عمالا للوسية . احضر عددا كبيرا من الأنفار لجــنى القطن . واعتمد على محادثة شفوية بينه وبين الخواجة على مقدار أجر العامل فى جنى القطن . ولما كان القطن جيد المحصول فى ذلك العام ، فقد ازداد التنافس بين المقاولين على توريد الأنفار للوسايا . وكانت أجرة النفر فى المواسم العادية قرشا ونصف . ولكن المقول أخبر الخواجة بان هناك طلبا كبيرا على العمال فى ذلك العام ، فاذا كان يريد عددا كبيرا منهم فلابد من زيادة الأجر . اقترح أن يرفع الأجر مليمين ونصـف ! أى يصبح الأجر ١٧,٥ مليما . وافق الخواجة أن يزيد المقاول الأجر ، ويأتى بعدد كبير من الأنفار . « وليس هناك فارق بيننا فى الحسابات ، فنحن أصدقاء ، وانت معنا فى الوسية منذ عدة سنين » .

فرح المقاول لهذه الثقة ، ولتلك الصداقة . أغرق الحقول بالأنفار . وانتهى جنى القطن فى وسية الخواجة قبل الوسايا الأخرى .

طالب المقاول الخواجة بحساب أجور الأنفار على أساس ١٧,٥ مليما للعامل . أجابة الخواجة فى شيء من عدم الاكتراث :

- اسمع ، ليس هناك شيء اسمه ١٧,٥ « مليم » !

- نحن اتفقنا يا جناب الخواجة على هذا الأجر ، وقد أحضرت العمال على هذا الأساس .

- لا ، أنا لم أتفق على هذا !

- انت قلت زد من أجر الأنفار ، وليس بيننا فرق .

- هذا هو الكلام الصحيح ، ليس بيننا فرق !

- طيب أنا دفعت للأنفار ١٧,٥ مليما ، وانتهينا من جنى قطنك قبل سائر الوسايا .

- ولـو . .

وهنا انفرجت أسنان الخواجة الغبراء عن ضحكة صفراء ، وقال للمقاول بصوت هامس :

- نحن أصدقاء ويعرف أحدنا الآخر جيدا . وليس هناك داع للقول بانك دفعت ١٧,٥ مليما ، أو شيئا من ذلك القبيل . .

- والله ، والله ، والله العظيم يا خواجة انى دفعت للأنفار أجرة قدرها ١٧,٥ مليما .

- يا خبيبى ، أنا لا شأن لى بالله هذا « بتاع المسلمين » .

ثم صمت الخواجة برهة ، ولمع فى عينيه بريق غريب صاحب ابتسامته الصفراء ، وقال للمقاول فى صوت خفيض :

- اسمع ، سوف لا يخدع أحدنا الآخر . . انت دفعت للأنفار ١٢,٥ مليما ، ودفعت لقلة منهم ١٥ مليما . . وأنا أعرف الحكاية كلها . . فدعنا نبرم معا اتفاقية : سوف أحسب لك ١٥ مليما أجرة للنفر ، وتترك ٢,٥ مليما لى ، نظير أن أتركك تعطى للأنفار ١٢,٥ مليما فقط ، أو اذا كنت تريد تعطيهم قرش صاغ واحد فقط ليس لدى مانع ، وتأخذ أنت الباقى ! !

وهنا حاول المقاول أن يقسم أغلظ الايمان . . . ولكن الخواجة قاطعه قائلا فى حدة :

- خلاص هذا آخر كلام عندى . . اذا لم يكن يعجبك . . افعل ما تريد . .

وطأطأ المقاول رأسه ، واتضح من الطأطأة انه رضى بالصفقة . ان القسمة عادلة : ابتز الخواجة مليمين ونصف من أجر العامل ، وترك للمقاول أن يبتز مليمين ونصف أخرى . . . .

٢٣

أصبح الشيخ سليم فى نكد مقيم . حاولت أن أسرى عنه همومه . لكن موجة الفرح التى اجتاحت الفلاحين بالمحصول الوفير قد طغت على كل شيء . اندمج الرجل فى عمله فى اليوم التالى ، وكأن شيئا لم يحدث . فهو قد بلغ من السن حدا لا يستطيع معه أن يثور أو يغير مجرى حياته . فمن أين له بخواجه ، أو مالك آخر ، يمنحه جنيهين فى الشهر ، ومركزا قياديا يمكنه من أن يأمر وينهى ، وينصاع لأمره ونهيه مئات من البشر . لم يتغير فى حياة الشيخ سليم الا شيء عزيز على ، هو شخيره ليلا ! لقد انقطع الشخير الى غير رجعة ، أصبح الرجل ينام نوما متقطعا تتخلله زفرات وآهات .

فرح الناس فى العزبة ، وقلما يفرحون . ووجدتنى أستعذب الاستسلام لتلك الموجة ، فشاركت الفلاحين أفراحهم . كانت سعادتهم ترجع الى محصول القطن الجيد . كما كانت ترجع كذلك الى ان محصولهم سوف لا يسرق . كما كان يحدث عندما كان « حسين » الكاتب القديم هو المهيمن على مصائرهم ، « والأمين » على محصولاتهم.

كان من الممكن أن أحقق لهم شطرا من طمأنينتهم ، وهو ان أبقى لهم الجزء الذى كان حسين يسرقه منهم ، ولكنى لم أكن قادرا على منع

الخواجة من سرقتهم . فأنا ، على أية حال ، ما زلت غلاما ، أعتمد فى عيشى على جنيه يعطيه لى الخواجة فى الشهر . كنت أخشى دائما ذلك الموقف : عندما أصبح كاتب العزبة الوحيد ، كنت أتوقع أن الخواجة سوف يطلب منى - صراحة أو ضمنا - تزوير حاسابات الفلاحين ؛ لكى أمكنه من سرقتهم ، كما كان يفعل حسين . كنت أرهب هذا الموقف أشد الرهبة . لم أكن أدرى هل سأبلغ من الصلابة ما يمكننى من مجابهته . واذا أستطعت أن أكون صلبا أمينا فى الدفاع عن الفلاحين ، فهل أستطيع أن أكون صلب كذلك ازاء فكرة طردى من الوسية ؟

• على ان السرور الذى كان يشرق فى وجوه رجال العزبة ونسائهم وصبيتها وصباياها قد أنسانى تلك المخاوف ، فاندمجت معهم فى فرحهم ، وسعدت كثيرا حين أحسست ان جزءا من سرورهم يرجع الى ثقتهم بى ، ووجودى بينهم .

وحتى ألهب فيهم الفرحة ، وأفعم قلوبهم بالسعادة ، أخبرتهم عن عدد قناطير القطن التى أنتجها كل منهم ، فتهللت وجوههم بشرا ، وطارت بهم الأمانى . كانت هذه الفرحة الجماعية أمرا غير مألوف بين الفلاحين ، فقد رافقتهم البأساء زمنا طويلا ، فطبعت آثارها على وجوههم الضامرة ، وعلى عيونهم الذابلة ، وعلى أجسادهم الهزيلة . ولكنى أرى الدم يجرى فى عروقهم من جديد ، وهذه وجوهم تفيض حيوية ، وعيونهم تشع أملا . أيمكن أن يغسل العدل والرخاء فى زمن

قصير آثار الظلم والقهر والحرمان التى عاناها هؤلاء القوم وأسلافهم منذ زمان طويل ؟ على ان الفرحة التى أنعشتهم هذا الانتعاش مصدرها بسيط للغاية . انهم اطمأنوا الى أن جهودهم المبذولة طوال العام لن تغتصب . حقا ان المحصول الجيد قد أفعم قلوبهم سرورا ، ولكن ماذا تفيد جودة المحصول لو ان « حسين » الكاتب القديم كان هناك ، فانخفض محصول الفدان من تسعة قناطير الى ستة مثلا . .

مع ان السرور كان غامرا الا اننى لمحت تساؤلات فى عيون الرجال : انهم يريدون أن يطمئنوا الى حساباتهم . يريدون أن يتأكدوا ان البرسيم الذى أكلته أبقارهم وحميرهم التى كانت تكدح فى الأرض طول العام ، كما كانوا يكدحون ، قد سدد إيجاره المحصول الوفير . ويريدون أن يطمئنوا كذلك الى ان ايجار الأذرة الذى يسد رمقهم ، والذى أكلوه حينما كانوا يسقون الأرض بعرقهم ، سوف يسدده المحصول كذلك . ان لهم أيضا مطلبا متواضعا مشروعا ، هو أن يفيض لهم ما يشترون به كسوةلهم ولأبنائهم . ان « جلاليبهم » قد أبلاها العرق والتراب والطين الذى تراكم على أجسادهم خلال عملهم فى الحقل . ولقد مزقها نبات القطن عندما أصبح حطبا جافا ، أثناء جنيه أو عندما يحملونه فوق بطونهم بعد جنيه أو بعبارة أخرى يضعونه بين بطونهم وبين تلك الأثمال التى يلبسونها .

يتطلعون كذلك ، وقد استجابت الأرض لجهودهم بهذا المحصول

العظيم الى أن ينعموا بلون متواضع من الترف . . يتطلعون الى الذهاب الى السوق مرة فى الأسبوع يشترون فيها وجبة معقولة . فهم لا مراء قد سمعوا ان فى السوق « لحما » وفيه « طعمية » و « عيش خاص » مصنوع من القمح . هم لا يرجون ترفا كهذا الذى يشهدونه مباحا للخواجة وخليلته وكلبه . لقد طوروا لأنفسهم فلسفة غريبة لا أعلم من أين جاؤوا بها ، مؤداها ان الله يغدق نعمته على هذا الخواجة وأمثاله فى هذه الدنيا ، لانه سيحرمه منها فى الآخرة ، بل سيدخله النـــار كذلك ! . . أما نحن فان الله يحرمنا من هذه النعمة ، ويقسم لنا فقط الذرة الحـــمراء ، غذاء لنا فى هذه الدنيا ، لانه سوف يعوضنا عن ذلك فى الآخرة ، باغراقنا فى أنهار من اللبن والعسل فى الجنة ! . . ولكن هذه النظرة لم تستطع أن تمنعهم من التفكير فى مطالب أجسادهم الملحة . فلابد من أن يأكلوا ، والخبز الأذرة الذى يأكلونه طول العام قد أحدث قرحا فى أفواههم ، فلابد لهم بين الفينة والفينة من غذاء لين تلين معه الحياة . ولابد كذلك من أن يلبسوا ، فالخرق التى يضعونها على أجسادهم تكثر فتحاتها ، فتعرضهم للشمس تكوى أجسادهم صيفا ، وللزمهرير يرعشها شتاء .

طافت برأسى هذه الصورة وأنا ألمح البشر على الوجوه النحيلة . ثم ترسبت فى ذهنى فكرة مجنونة . . لماذا لا أطلق العنان العواطفى ،

فأفرح مع الناس آلذين أحبهم ، وأبتسم معهم فلم يكونوا من قبل يبتسمون ، وأرقص مع أولادهم وبناتهم الذين لم أرهم فيما مضى يرقصون . اننى أشعر بسعادة غامرة فلماذا لا أزيد من سعادتهم . وأجعل بهجتهم تبلغ ذراها . وأبرمت بينى وبين نفسى أمرا .

ذهبت الى منزل محمد محمود ، وكانت تربطنى به عاطفة خاصـة ، لم يكن مصدرها فحسب ، اننى ارتكبت معه أول سرقة فى حياتى ، حينما فتحت له مخازن الحبوب بعد منتصـــــف الليل ليأخذ « شوالا » من الأذرة ليطعم به أسرته الجوعى ، ولكننى كنت أكن للرجل اعجابا حقيقيا . كان الرجل على الرغم من قصر قامته ونحول جسده ، عاملا زراعيا ممتازا يعمل نهارا وليلا دون كلل .

وعندما دخلت منزل محمد محمود هبت الأسرة جميعا للقائى تعلو وجوههم بسمات خففت من ظلام الكوخ الذى يأويهم . وبـادرنى الرجل :

ـ أهلا وسهلا . . هذه خطوة عزيزة . .

ـ أهلا عم محمد ، كيف حالك يا ست سيدة وانتم يا بنات ؟

ورد الجميع فى نفس واحد :

ـ نحن بخير والحمد لله ، والبركة فيك . . وما دمت معنا لن نحمل هما .

ـ لقد جئت لك بخير حلو ياعم محمد . .

ـ انت وجهك وجه السعد وسنتك لبن . .

ـ لبن انشاء الله . .

ثم أخرجت دفترا من شنطة قماش كنت أحملها ، وفتحت الصفحة التى يوجد فيها حساب محمد محمود ، وقلت له : مبروك ياعم محمـــد . .

ـ الله يبارك فيك ، بشرنى الله يبشرك بالخير . .

ـ هذا هو حسابك : لقد بقى لك خمسون جنيها ، وقد سددت جميع الديون وايجار البرسيم والذرة والقطن ! . .

وانطلقت حنجرة سيدة القوية بزغوردة مرتفعة صفق لها البنات . وعانقنى الرجل ، وشعرت بدموعه السخينة تلمس وجهى .

ثم تركت محمد محمود ، وذهبت الى بيوت رجال العزبة واحدا بعد الآخر ، وفتحت لهم دفتر الحساب ، وأعلنت لهم الأنباء السارة التى كانوا ينتظرونها طوال السنة . وكنت كلما زرت بيتا ، أدخله والهدوء يخيم عليه ، وأغادره والزغاريد تنطلق فى أرجائه . وهكذا دخلت جميع الدور ، وتركتها والفرحة تكتسحها . ولأول مرة يجد رجال العزبة مبالغ لا بأس بها تتبقى لهم بعد الجهود الكبيرة التى بذلوها فى زراعة الأرض .

عصفت الفرحة بكيانى ، حينما رأيت السعادة تشرق فى وجوه البائسين . ولكن الضجة التى أثارها الفلاحون عندما سمعوا الأنباء السارة . . أخافتنى كثيرا . كان الخواجة لحسن الحظ ، غير موجود فى العزبة فى ذلك اليوم ، فلم يستمع للزغاريد ، ولم يشهد موجة الفرح تتلاطم فى الأكواخ التى يسكنها فلاحوه . عندما تلاشت الزغاريد ، وتكسرت موجة الفرح ، وآويت الى فراشى ، بدأت أصوات العقل الكريهة تهاجمنى فى عنف . . ماذا صنعت ؟ . . ان الخواجة لو علم بانك أعلنت الحسابات للرجال ، سيغضب أشد الغضب .

انه لم يتعود على الحسابات الأمينة ، ويكره أن يتبقى شىء للفلاحين ، بل يود أن يكونوا مدينين له دائما . لقد تعود على ذلك منذ أن امتلك هذه الأرض وامتلك البشر الذى يزرعها له . كيف أواجهه الآن بعد أن أذعت الحسابات لا ريب اننى انسان ضائع ، واننى مطرود من العزبة .

لم أنم طول الليل . عصفت بى هذه الأفكار ، قضت على السعادة التى أحسستها عندما أسهمت فى اسعاد الفلاحين . وقد عاون على ذلك الأرق ان الشيخ سليم لم يعد يبعث بذلك الشخير الرتيب الذى كان يهدهد أعصابى ، ويبعث الطمأنينة فى أوصالى ، ويسرع بالنوم الى جفونى .

٢٤

بكر الشتاء هذا العام على غير عادته ، فما آن انتصف شهر نوفمبر حتى أخذت جحافل السحاب يزفها البرق والرعد تزحف على العزبة ، وعلى غيرها من القرى . ثم يتوقف الزحف فى ليلة من الليالى . وتتراكم السحب فوق مبانى العزبة ، ثم تفتح أفواهها لسيل منهمر ، أحال أكواخ العزبة الى طبيعتها الأولى ، أى الى طين بعد أن كانت طينا جافا !

كنت أقوم بعليف المواشى فى تلك الليلة . وعندما انتهيت من ذلك العمل خرجت من باب « الاصطبل » ، الذى يبعد عن باب غرفتنا بضعة أمتار . واندفعت أجتاز هذه المسافة والمطر يتدفق ، والسماء تزمجر . انزلقت قدمى من كثرة الماء والوحل . وانكفأت على وجهى . تلوثت ملابسى . أدركنى أحد الكلافين وانتشلنى من الطين . دفع بى الى الغرفة التى كان الشيخ سليم قد آشعل فرنها . كانت النار التى أوقدها دفئا لنا وسلاما .

فى اللحظة التى تمددت فيها على المصطبة ، وسحبت غطاء الأكياس فوق جسدى المقرور ، اذا بباب الغرفة يقرع بشدة وفى عصبية بالغة . . وأجاب الشيخ سليم :

ـ من بالباب ؟

ـ أنا عبده ، ياعم الشيخ سليم . . افتح لان المطر شديد جدا .

فتح الشيخ سليّم باب الغرفة . قفز عبده الى داخلها تصطك أسنانه من البرد . كان يقى جسمه النحيل ببالطو كاكى قديم من ذلك النوع الذى يستخدمه الجنود فى الجيش . وبادره الشيخ سليم متأففا :

ـ ماذا أتى بك فى هذا الوقت يا عبده ؟

ـ ماذا أصنع يا سيدى ، هذا هو نصيبى ! . . الخواجة قال لى أن أحضر لأستدعى خليل أفندى . .

كنت فى هذه اللحظة بدأت أستشعر الدفء الصاعد من الفرن . وتصل الى أنفى كذلك رائحة الجوت الزكية التى تتصاعد من الأكياس ! وكانت عظامى قد أخذت تسترخى وتستريح وتتمدد بعد التقلص الذى عانته من البرد ، ومن العمل المنهك منذ بزوغ الفجر ، وما أن سمعت اسمى ينطق به عبده حتى نهضت فى عصبية غريزية ، وقلت لعبده فى صوت يشبه الصراخ :

ـ ماذا تقول ياعبده ؟

تمهل عبده قليلا فى الرد ، فقد كان هادىء الطبع ، ثم قال فى صوت خفيض :

ـ أقول ان الخواجة يريد أن يراك . .

لم أستطع أن أمنع نوبة الغضب التى أصابتنى من أن تنفجر فى وجه عبده :

ـ أيريد أن يرانى فى هذه الليلة السوداء ؟ هذا كلام فارغ . . اذهب وقل له اننى نمت .

لم يتوقع عبده منى هذا الرد ، فنحن أصدقاء . وكيف أنسى الأطباق الشهية التى كان يعطيها لى . وكان عبده كذلك غاية فى الأدب . . ولذلك أجابنى بصوت هادىء :

ـ لماذا تصرخ فى هكذا يا سى خليل . . أنا لست مسئولا عن هذا ، وأنت تعلم اننى « عبد المأمور » . قال لى اذهب وناد خليل ، فجئت أنفذ الأمر . . ألا ترى الوحل الذى يلطخ ملابسى ، لقد تزحلقت ووقعت على الأرض مرتين . أليس هذا كافيا ، فتضيف اليه صراخك فى وجهى ؟

خجلت من تصرفى مع عبده . زاد خجلى حينما رد على ردا مهذبا . هممت أن أعتذر إليه ، لولا أن الشيخ سليم تدخل قائلا:

لاتغضب ياعبده، أنت تعلم انه « شقيان » طول النهار ، والجو برد.. وأجابه عبده :

ـ أنا لست غاضبا ، كيف أغضب من « أفندينا » (الباشكاتب) ؟

وقلت لعبده :

ـ أشكرك يا عبده . . أنا آسف .

ـ الخواجة يقول لك أحضر معك دفتر حسابات الفلاحين .

آه . . وقع المحظور . . وجاء يوم الحساب !

كان الطريق الى قصر الخواجة موحلا زلقا . والمطر يتساقط فوق رؤوسنا كالحجارة . أمسك عبده بذراعى ، حتى لاتنزلق قدماى وأسقط على الأرض . أراد أن يخلع البالطوالكاكى الذى يلبسه على ليمنع عنى المطر، وكذلك عن البالطو الأنيق الذى كنت ألبسه عندما أمثل دور « باشكاتب العزبة » . فقلت له ان فائدة هذا البالطو تكون أكبر لو استخدمته ليحمينى من المطر . هذا فضلا عن انك تحتاج مثلى لمعطفك ليقيك من البرد والسيل . . كانت الليلة التى اختارها الخواجة لأقدم لـه فيها الحساب ليلة عبوسا قمطريرا . أيقظنى عبده بعد ما تغطيت بالأكياس ، وسرى دفء الفرن فى عظامى . تسبب كل ذلك فى أن تزداد درجة التقزز ، التى كانت تنمو فى نفسى مع نمو جسدى ، ومع تطور عملى فى وسية الخواجة .

تسبب التفكير فى الموقف « الدرامى » الذى يمكن أن ينشأ بينى وبين الخواجة ، عندما أعرض عليه حسابات الفلاحين ، فى أن أنسى القسوة التى تعامل بها السماء أهل العزبة . انطلقت أفواه السماء كالقرب فوق الأكواخ الهزيلة . اخترق الماء سقوفها المصنوعة من حطب الذرة ، وحطب القطن ، وسعف النخيل . أحال أرضيتها الى برك من الماء والطين . ذاب فيها روث المواشى ، فأصبحت الاقامة فى الأكواخ

لا تطاق . كان أهل العزبة قد استيقظوا جميعا ، لينزحوا الماء الذى تجمع فى أكواخهم ، وأغرق حصرهم والأثمال التى يتغطون بها . كانوا يقذفون بالماء الى طرقات العزبة ، التى تفيض بالماء والروث هى الأخرى ، فلا يلبث الخليط أن يتدفق الى الأكواخ مرة أخرى . وتمضى المباراة هكذا : لا ييأس الفلاحون من نزح المياه ، ولا ترفق بهم السماء وسيولها .

شهدت هذا المنظر على طول الطريق الذى يصل غرفتنا بالقصر المنيف . ومضيت الى القصر تاركا المعركة مع سيول السماء للفلاحين . يكفينى اننى سوف أناضل ضد قوى الأرض .

على باب القصر خلعنا أحذيتنا بما تراكم عليها من طين . وصعدنا حفاة الى الطابق الأعلى ، كما تقضى تعليمات « الست » ، وما كنا بقادرين على مخالفة أوامر « سيدة » العزبة .

تلقانى الخواجة بالقول : لماذا تأخرت ؟

كان متكئا على أريكة فاخرة ، ويرتدى قميصا هفهافا من الحرير . وكانت الحجرة دافئة بحيث لم يكن يعلم أو يحس بان المطر العنيف قد أحال عزبته الى كتلة من الطين والوحل . وان البرد قد تجمدت معه سيقان أولئك الذين يزرعون له الأرض ، وتصلبت معه سواعدهم . أجبته وأسنانى تصطك من البرد ، بينما كانت يداى المرتعشتان

تمسحان قطرات المطر من على وجهى :

ـ كنت نائما عندما جاء عبده ليناديني .

ـ ولماذا تنام مبكرا ؟

ـ ليس الوقت مبكرا ، فنحن نقترب من منتصف الليل .

ـ هذا ليس عذرا .

ـ هذا الى جانب ان الطريق وحل وطين وسيل ، واذا لم تكن مصدقا يمكننى أن أحضر لك حذائى من على الباب لتتحقق منها بنفسك !

ـ ليس هناك داع لذلك !

ـ أى أوامر ؟

ـ أريد أن أرى حسابات الرجال . .

ـ لقد أوشك الليل أن ينتصف . هل نؤجل ذلك الى الغد ؟

ـ لا ، انى أقول : أريد أن أرى الحسابات الليلة ، وهذا يعنى الليلة .

ـ أمرك .

لست أدرى لماذا بدأت بحساب محمد محمود . قد يكون السبب اننى أحب الرجل ، وان الخواجة يكرهه. لقد بدأت كراهية الخواجة له ـ فيما أظن ـ عندما جاءه وامرأته وبناته الخمس ومشنة الخبز الفارغة ، وأقحم فى جوه المترف صورة مثلى للبؤس . يبدو ان حنق الخواجة

على الرجل قد اشتد حينما لم يعد اليه فى اليوم التالى يستجديه الأذرة . اكتفى الرجل بما أعطيته له ليلا من المخزن . ان الجوع قد يستذل الانسان ، وينخفض بكرامته الى الحضيض . ولكن الكرامة الأصيلة لا تلبث أن تسترد قوتها حين تسكت ، ولو مؤقتا ، وخزات الجوع .

طلب الخواجة :

ـ ما هو حساب هذا الرجل ؟

أجبته فى حماسة وسذاجة :

ـ هذا الرجل ، يا جناب الخواجة ، حسابه طيب هذه السنة .

ـ كيف ؟

ـ لقد سدد ما عليه من ايجار وديون ، وبقى له خمسون جنيها . .

ـ ، خمسين جنيه ، ! ؟ انت مجنون !

كانت هذه أول اهانة أتلقاها من الخواجة . صدمت لها أول الأمر . ولكننى ما لبثت أن رضيت بها كل الرضا ! . فقد كانت هينة لا تقاس بالكلمات الوقحة التى كان الخواجة يوجهها الى حسين الكاتب القديم ، والى الشيخ سليم . لذلك مررت على هذه العبارة مر الكرام . وقلت له فى هدوء غير معهود فى :

ـ لا ، أنا لست مجنونا ، خذ الحساب وراجعه بنفسك . . لقد أنتج ثمانية عشر قنطارا، لانه زرع فدانين قطنا . وكان ذلك أحسن محصول

فى أرض العزبة كلها . وهو يعمل وبناته وامرأته فى أرض الوسية طول العام . وهو كذلك أمهر فلاح فى ، تلويط ، الأرز ، فقد ، لوط ، وحده نحو أربعين فدانا . هذا بالاضافة الى المحصولات الأخرى التى أنتجها كالقمح والأرز .

ـ هذا كله لا يهم !

ـ هذه المسائل هى التى جعلته يسدد ديونه ويتبقى له هذا المبلغ .

ـ مستحيل . . انت خمار !

وقعت الواقعة ، ونطق بالكلمة التى يمتهن بها العاملين فى وسيته . وأصبحت أنا أيضا أحمل ذلك اللقب ، كما كان يحمله ، حسين ، من قبل ، ورجال العزبة جميعا . لكن ، حسين ، كان يتقبل هذا اللقب راضيا مرضيا . بل كان يبتسم عندما يخاطبه الخواجة بهذا الخطاب ! ولما علمت بسرقاته فيما بعد تفهمت سبب سعادته بالاهانة . على اننى أصبحت أحمل اللقب الذى يحمله اللصوص . .

كنت مرهف الحس للغاية . لم أكن أدرى أيرجع ذلك الى تكوينى الجسمانى والعصبى ، أم ان البيئة والأحداث الاجتماعية هى المسئولة عن هذا الارهاف . على اننى كنت دائما على وعى بانه كانت لنا أرض . وانها كانت تكفل لنا لونا من السيادة لم يكن متاحا للكثير من الناس . . . وكنت دائما كسير القلب بعد أن انتزعت أرضنا من أيدينا .

ولم تبرح ذاكرتى حادثة طردى من المدرسة وحرمانى من التعليم . وكنت لذلك أخشى أية اهانة يوجهها الخواجة الى . فكنت أكد ليلا ونهارا لأرضيه وأتجنب غضبه ، لا خوفا من طردى من رحمته فحسب ، لكن خشية أن يتناولنى بلسانه السليط . فينكأ الجراح التى أحاول جاهدا أن أنساها . لكن غمرة التقزز التى انتابتنى ، والتى تراكمت فى وجدانى ابان عملى فى الوسية ، وايقاظى فى هذا الوقت من الليل ، واستدعائى تحت هذا السيل من المطر لأقدم الحسابات للخواجة المترف فى قصره الدافىء ، ونضال الفلاحين ضد المطر والزمهرير والوحل والروث ، كل أولئك بدا لى وكأنه قد خفف من درجة ارهافى وحساسيتى ، بحيث أصبحت هذه الكلمة ، خمار ، وليس لها ذلك اللسع الذى كنت أتخيله !! يبدو كذلك ان استماعى لها توجه للآخرين بكثرة لم يجعلها موجعه كما كنت أتصور !

الواقع اننا نحن الفلاحين والخولة والمقاولين والشيخ سليم وأنا ، حمير ، بالحاء لا بالخاء ، اذ نرضى بهذا الذل . واذ نكدح آناء الليل ، وأطراف النهار ، لنخرج من الأرض خيراتها ، نقدمها للخواجة الذى لا يعمل ، والذى لا يفارق أحضان خليلته وكلبه ، ونتلوى نحن من الجوع . ان الذين يرضون بهذه الأوضاع ، لا شك انهم حمير . ولا مراء فى ان الخواجة كان مهذبا اذ خفف من وطأة اللفظ الأصلى ،

فأطلق علينا كلمة « خمير » بالخاء . وأجبته فى هدوء لا أدرى من أين هبط على :

ـ لا . . أنا لست « خمار » . ونطقت بالكلمة كما ينطق بها الخواجة.

وانفجر الخواجة غاضبا مغيظا :

ـ أنت تستهزىء بى ، وتقول « خمار » . لماذا لا تقول « حمار » ونطق بالكلمة الأخيرة بالحاء ، نطقا سليما ! . .

احتد صوته ، واحمر وجهه ، فاكتسب شكله التقليدى ، وبدا كحبة الطماطم الضخمة . توقعت اهانات أخرى . لكن « كليوبى » تدخلت . ربتت على خده المكتنز . تمتمت ببضع كلمات يونانية ، كان يتضح من نغماتها ان فيها حبا ، وتهدئة ، وحرصا على صحته الغالية . التفتت كليوبى الى بصوت فيه شخط وأمر : اذهب الآن واحضر فى الغد . فرحت للاقتراح . هممت بالانصراف ، لولا اننى سمعت صوت الخواجة الأجش ينادينى من جديد : لا تذهب . أريد أن أرى الحسـابات . التفت الى محبوبته . ربت على صدرها وبطنها المنتفخ ، دليلا على هدوء ثائرته :

استأنفنا النظر فى الحسابات ، قال الخواجة :

ـ دع حساب هذا الرجل الآن ، أرنى بقية الحسابات .

ـ هذا حساب راغب محمد .

ـ ما هو موقفه ؟

ـ تبقى له أربعون جنيها .

واختلست نظرة الى عبده الطباخ . راغب محمد هو والده . أضاءت وجهه ابتسامه . كان يقدم وجبة أخيرة خفيفة « لغاندى » قبل أن يذهب لفراشه ! شحب وجه الخواجة . تطاير الشرر من عينيه ، وقال :

ـ ألا تعرف ان هذا الرجل مدين بخمسين جنيها من السنة الماضية ، فكيف يتبقى له أربعون جنيها هذا العام ؟

ـ نعم ، أعلم ان حسين الكاتب السابق أبقى عليه خمسين جنيها . لكن محصوله هذا العام سدد دينه السابق . ولا تنس ان ماهية ابنه عبده الطباخ طول السنة داخلة فى الحساب .

ـ لابد انك مخطىء فى الحساب .

غاض الدم من وجه عبده . تلاشت الابتسامة من على شفتيه . غارت عيناه . نسى انه يطعم الكلب ، ويضع الطعام فى فمه . دفع بيده داخل فم الكلب ، الذى عض أصابعه تفجر الدم منها . صرخ عبده صرخة مكتومة . سارعت « كليوبى » ، التى كانت عيونها على الكلب دائما تحرسه وترعاه ، نحو عبده تسأله الخبر . جاءت بمطهر تنظف به فمه وأنيابه . قالت لعبده أن يذهب ليطهر يده ويربطها حتى لا تلوث

طعام الكلب ! لم يدر بخلدها ان كلبها حتى ولو أسمته « غاندى » ، وحتى لو وضع الخدامون الحمام واللحم وغيره من الطعام المترف فى فمه ، فانه كلب . يمكن أن تسرى جراثيم مرض « الكلب » من فمه الى جسد عبده ودمه .

لا ريب ان عبده لم يصرخ لان غاندى عضه . فعبده رجل فلاح على كل حال . والفلاحون لا يصرخون من عضة الكلب . انهم لا يصرخون حتى من الجوع !! كذلك فغاندى كلب مترف . أسنانه لاشك لينه . وأنياب الكلاب المترفة ليست بذات خطر كبير . . لكن السبب فى صرخة عبده ـ فيما أظن ـ هو انه سمع الخواجة يتهمنى بالخطأ فى حساب أبيه . يبدو كذلك انه كان يتسمع للحوار بين حسين الكاتب السابق وبين الخواجة ، حين كان حسين يأتى فى اليوم التالى للحوار ، فيقلب حسابات الرجال الدائنة الى حسابات مدينة . .

أجبت الخواجة باننى دققت فى عمل الحسابات ، ويمكن أن يراجعها بندا بندا اذا شاء . رد على بقوله :

ـ ماذا أراجع ؟ لن تجدى المراجعة . . هذه الحسابات لابد وأن تجرى من جديد . .

ـ كيف ؟

ـ انت لا تفهم . .

ـ فهمنى من فضلك . .

ـ لن يجدى فيك التفهيم . . يظهر انك مش نافع ، ولا تصلح للعمل !

تذكرت ان الخواجة كان قد وجه الى حسين نفس الألفاظ فى مناسبة مماثلة . يبدو أن الخواجة قرر أن يتخذ موقفا معينا بالنسبة لى . هذا هو يقول لى فى غير مبالاة ، وحساب الرجل الذى يليه . أجبته فى غير مبالاة أيضا . رغم علمى ان كلمة « مش نافع » هذه معناها الطرد من العزبة . لكن من الغريب انها لم تحدث فى ذلك الأثر الذى كنت أتوقعه . لم يكن ذلك شجاعة . فلا شجاعة للجائع الفرد فى مجتمع يبارك الجوع . ويحمى الظلم والقهر والاستغلال . لم أثر فى تلك اللحظة . تحملت اهانات الخواجة ، لا حرصا على العمل عنده . ولا خوفا من الطرد من رحمته . ولا صبرا فرضته على نفسى . ولا حلما يعتبر من صفاتى . فقد حال التقزز الذى اعترانى بينى وبين هذه المعانى جميعا .

أفقت على صراخ الخواجة :

ـ ألا تسمع ماذا أقول . . انت « مش نافع » !

ـ لقد فعلت ما أستطيع .

ـ أرنى بقية الحسابات .

تناول الخواجة الدفتر من يدى . أخذ يقلب صفحاته ، ويتساءل فى كل صفحة عن حساب صاحبها : هذا محمد خطاب بقى له خمسة وأربعون جنيها ، وهذا مصطفى الكلاف له ثلاثون جنيها ، وأبو حطب تبقى له خمسة وعشرون جنيها . كان الخواجة حينما يقلب صفحة من صفحات الدفتر يزداد معها شحوب وجهه . أوجست خيفة حينما صمت الخواجة لفترة طويلة ، بعد أن أستعرض الحسابات . وعقارب الساعة تشير الى الواحدة والنصف بعد منتصف الليل . كليوبى وغاندى ، ذهب كل الى فراشه . وعلى عكس ما توقعت ظهرت على وجهه الخواجة ابتسامة نمت عن أسنان أكسبها ، التوباك ، والمشروبات الكحولية لونا رديئا . هدأت ثائرته ، استرد وجهه المكتنز لونه رويدا رويدا . . ثم خاطبنى فى لهجة فيها هدوء وفيها افتعال للصداقة :

ـ اسمع يا خليل . راجع الحسابات غدا ، لعلك تكون مخطئا . .

ـ لا يا خواجه ، أنا راجعتها جيدا ، وهى دقيقة ١٠٠ ٪ .

كتم الخواجة غيظه . لكن لون الطماطم الذى يعترى وجهه دائما حينما يكون ، منرفزا ، كشف ما يريد أن يكتمه . خاطبنى ولايزال صوته خفيضا صديقا :

ـ اسمع الكلام ، راجع الحسابات مرة ثانية . من الممكن أن يخطىء الأمر ، ولو كان ذكيا مثلك !

ـ قل لى كيف أراجعها . .

ـ هل لم يعلمك حسين الكاتب القديم ؟

ـ لا . .

ـ اذا كان الأمر كذلك ، فأنا أعلمك ، وأقول لك ما كان يفعله حسين .

ـ تفضل .

ـ حسين كان ينتقص من كل فلاح قنطارين قطن عن كل فدان ، وكذلك أردبين من القمح والأذرة والأرز !!

ـ أليست هذه سرقة يا خواجة !؟

ـ كيف تسميها سرقة ؟ انت أصلك خمار .

ـ ماذا تعتبرها اذن ؟

ـ انت مخك حجر .

ـ حسين كان لصا يسرقك . . ويسرق الفلاحين كذلك .

ـ حسين كان أخسن منك .

ثم صمت لحظة استطرد بعدها فى صوت آمر : لا تقاطعنى ، ودعنى أعلمك كيف تجرى حسابات الفلاحين . . اضطررت الى السكوت . واصل الخواجة قوله :

ـ ثانى مسألة ، لا تحسب جميع الأجور عن الأيام التى عملها

الفلاحون وأولادهم فى حقول الوسية . كذلك الأمر فيما يتعلق بمواشيهم وحميرهم عندما تستخدم للعمل فى أرض الوسية .

رغم الشعور المتبلد الذى اعترانى ، فانى لم أستطع أن أتحمل هذا البند من السرقة . تخيلت الفلاح وهو يعمل فى حقل الخواجة أربعة عشرة ساعة فى اليوم نظير قرشين ، ويعمل ولده نظير قرش واحد . استطاع هذا البند من السرقة أن يخترق ذلك الحاجز الكثيف ، الذى قصدت أن أفرضه على نفسى ، لأمنع هذه المعانى من أن تخترق الحاجز الى وجدانى . . .

وقلت للخواجة :

ـ ان فلاح العزبة يتقاضى أجرا أقل من العمال الذين يفدون للعمل عندك من القرى المجاورة ، فكيف لا نعطيه هذا الأجر الوضيع كله ، وهو حقه ؟

ـ انت لا تفهم شيئا ، فلا زلت والدا صغيرا .

ـ أنا صغير السن هذا صحيح . . ولكن ما تقوله الآن يعتبر عملية نهب لعرق الفلاحين وأولادهم !

ـ ماذا تقول ؟

ـ أقول وماذا تريد أيضا أن تفعل بالحسابات ؟!

ـ هناك مسألة هامة جدا : كيف حسبت ثمن القطن ؟

ـ حسبته على أساس الثمن الذى دفعه التجار الذين اشتروا قطن الوسية جميعه .

وهنا انفجر الخواجة كالقنبلة :

ـ ماذا تقول يا ابن . . . . . هى دى وسية أبوك ، ؟ أبوك ضيع أرضه ، وأنت تريد أن تضيع أرضى .

ثم هجم على . . لولا أن صراخه أيقظ كليوبى وغاندى من نومهما . وقفت كليوبى بينى وبين الخواجة الذى أوشك أن يفتك بى . احتضنته وقبلته ، تحسست أناملها وجهه الغليظ . جففت عرقه ، فخارت قواه فجأة . استكان بين يديها . مال عليها بجسده الثقيل . قادته الى الفراش . وباشارة من عينيها أمرتنى بالانصراف . فغادرت الحجرة مروعا . لسوء حظى ، كان الحجاب البليد الذى فرضته على وجدانى أخذ يضعف ويتمزق بعد أن اخترقته سرقة الخواجة لأجور الفلاحين. ثم تهلهل عقب الانفجار الرهيب ، والألفاظ القاتلة ، التى قذف بها الخواجة فى وجهى .

كانت اهانته الأولى موجهة لى شخصيا . وكان التقزز قد بلغ حدا لم أجد معه هذه الاهانات جارحة ! لكن الشتائم التى وجهها الى أبى ، والطريقة التى عرض فيها به ، وبضياع أرضنا ، كانت قاسية الوقع على نفسى . تسللت الى داخلى ، فمزقت أحشائى . هبطت الدرج كما

يهبط الشبح . كان الدور الأول مظلما ، فكدت أرتطم بالجدار ، لولا ان عبده كان ينتظرنى . يبدو انه لم يستطع النوم . لست أدرى أكانت عضة الكلب غاندى هى التى أبقته يقظا ، أم ان عضات ، الكلب ، الآدمى ، أو بعبارة أخرى ، أنياب الوحش اليونانى ، التى توشك أن تنغرس فى جسد والده وحسابه هى التى أبقته سهران ينتظرنى .

سندنى عبده فى الطريق الموحل الى غرفتنا . حاول أن يقول شيئا يخفف عنى ، فتوقفت الكلمات فى حلقه . سرنا فى صمت . دخلت الغرفة . ارتميت على المصطبة الى جوار الشيخ سليم ، الذى لم أسمع له غطيطا .

٢٥

لم أنم . كانت الغرفة ما زالت عابقة بالدخان الذى تصاعد من الفرن . طالما تحملت ذلك الدخان من قبل ، اذ كان يشيع الدفء فى أوصالى المنهكة . لكننى فى تلك الليلة لم أطق الدخان ، ولا جو الغرفة الخانق ، أكاد أحس كذلك باننى برمت بصحبة الشيخ سليم . الحق ان الهالة التى أحاط خيالى بها الشيخ سليم بدأت تهتز . ثم أخذت تتمزق رويدا رويدا . لم يكن ذلك لانه يسرق الخواجة . ونأكل معه الفسيخ والبطيخ . أو لانه يحسب العاملين فى حقله الخاص على نفقة الخواجة .

كذلك لم يفقد الشيخ سليم احترامى له عندما امتهن الخواجة كرامته أمامى ، فالخواجة وقح مع الناس جميعا .

لكن التحول فى شعورى نحو الشيخ سليم يرجع الى اننى كنت أعتقد ان الرجل عملاق . فاذا بصورته كعملاق تتلاشى من مخيلتى . كان هذا طبيعيا . فلا يمكن أن يوجد عملاق فى اقطاعية الخواجة . . فى مثل هذا المجتمع الذى يغتصب فيه الخواجة كل شىء ويحرم العاملين من كل شىء ، لا يمكن أن ينشأ عمالقة . واذا حدث ووجد عملاق فى ذلك المجتمع ، فلن يسمح له بالتطور والنمو .

وعلى العاملين فى ذلك المجتمع أن يظلوا أقزاما ، فالعمالقة فقط هم ملاك الوسية والمتسلطون عليها .

عندما كان الشيخ سليم عملاقا فى خيالى ، كنت أشعر بالطمأنينة حينما أستمع لحديثه . وأتمدد على المصطبة بجواره . وأشنف آذانى بشخيره ونخيره . ولما وضع الخواجة الشيخ سليم فى مكانه بين الأقزام ، أدركت انه لاأمن لانسان ، ولا ضمان له ولأسرته ضد الجوع والضياع فى مثل هذه الوسيه . وان هذا الضياع ينصب على الشيخ سليم ، كما ينصب على أى انسان آخر ، عدا الخواجة وخليلته وكلبه .

على ان عملية التقزز التى ألمت بى فى الوسيـة التى نعيش فيها قد أصابت الشيخ سليم ببعض رذاذها: ان الشيخ سليم لا يعطف أبدا على

الفلاحين . بل انّه ليخيل الى أن هناك عداء بينه وبينهم . كان الرجل مؤمنا بالعبارة التى يرددها دائما ، آه من آدم . . آدم عايز ضرب النار ، . وعلى الرغم من انه كان يستمتع ببعض الامتيازات والسرقات ، الا انه كان يبيحها لنفسه ، ويأباها على الفلاحين .

مرت هذه الخطرات بذهنى ، وأنا أنظر الى سقف الغرفة الذى لفه الظلام . ووجدتنى أتقلب على الكيس وكأنه قد من جمر . لم أعد أطيق النوم عليه . بل لم أعد أحتمل البقاء فى الغرفة . انتزعت نفسى من على المصطبة انتزاعا . هبطت الى أرض الحجرة . وجدتنى أفتح الباب ، وأندفع الى الخارج . نسائم الفجر الندية تثلج صدرى . اتجهت الى الجرن فى خطوات حريصه حتى لا تنزلق قدماى . كانت السماء قد أفرغت كل ما فى جعبتها من سيول ، وأتت على كل شحناتها من البرق ، وكل موجاتها من الرعد ، فانحسر المطر ، وانقشع السحاب ، وأشرقت فى جوانب الأفق شعاعات الفجر .

أخذت طريقى الى ، العشة ، التى يحتمى فيها خفير الجرن . كان خفير الجرن فى الخمسين من عمره ، ذا لحية كثيفة سوداء ، حليق الشارب ، عريض الوجه ، بارز الخدين ، فى عبارته عذوبة ، فى حديثه حبكة وسلاسة . وهو رجل سنى . يطيل الصلاة ، ويستخدم السبحة دائما فى الحمدلة والحوقلة . كان ، محمد خطاب ، الخفير نائما

فى ذلك الوقت فى عشته ، والمفروض انه حارس لا ينام . وحينما اقتربت منه نهض فزعا ، وأمسك ببندقيته ، ونادى بصوت خشن ينبىء عن نومه :

- من هناك ؟

- أنا يا عم محمد .

- من ؟ خليل أفندى ؟

- نعم .

واطمأن الرجل بعض الشىء ، وأخذ يسترد أنفاسه ثم قال :

- خير ، اللهم اجعله خير ، ماذا حدث ؟ ما الذى آتى بك فى مثل هذا الوقت ؟

- لا شىء . . لم أستطع النوم ، فجئت لأتحدث معك . وأنا آسف لايقاظك من النوم .

- نوم ؟ أنا لا أنام . . هل أستطيع النوم ، وأترك هذه الأموال والمحاصيل ؟

- لا يهم أن تنام أو تظل يقظا ، ربك يسترها . .

- ونعم بالله ، انما يجب أن يؤدى الانسان واجبه .

- اسمع ياعم محمد ، هل لديك مانع أن أنام معك هنا ؟

وذعر الرجلّ للاقتراح ، وأجاب بسرعة :

ـ لماذا هل قال لك الخواجة شيئا ؟

ـ لا ، لم يقل لى شيئا ، أنا الذى أود أن أنام معك هنا فى الجرن . .

ألا تذكر أنك قلت لى يوما ان نوم الجرن صحى ، ألا تذكر كذلك المثل الذى تردده دائما :

« لا تخلى ندا الورد يفوتك ، ولا طل « بابه » ينزل عليك »

ضحك محمد خطاب . استطعت أن أرى فكه العريض وأسنانه البيضاء الصغيرة . كانت ضحكته على الرغم مما فيها من بنائية ، الا انها كانت مبتورة وغير خالصة . تحس معها انه يضحك ليرضيك . تردد الرجل بعض الشيء . لكنه لم يجد بدا من الترحيب بى . أعد لى مخدعا داخل عشته ، فرشه بالحطب والتبن « وبطنه » « بالزكايب » الفارغة . ما ان تمددت عليه ، وغطانى بزكيبة أخرى ، حتى استسلمت لنوم عميق . منذ ذلك اليوم لم أدخل غرفة الشيخ سليم . اتخذت من الجرن سكنا لى ، ومن التبن وأعواد القمح فراشا . ومن السماء والزكايب غطاء . ومن محمد خطاب الخفير رفيقا لا مناص من رفقته .

جاء « ندى الورد » ، أى جاءت بشائر الربيع ، كنت أستروح حقا فى الليل رائحة فيها عبق الورد . تركت « العشة » لأرقد فى الخلاء على

فراش مترف من التبن ! كانت لى مع السماء أحاديث ، ومع النجوم نجوى ، ومع القمر شجون . كنت أود لو كانت تلك المناجاة شاعرية . فأنا فى السادسة عشرة من عمرى ، عمر الربيع . لكن أحاديثى مع السماء ، ونجواى مع القمر والنجوم ، كانت تدور حول « مجتمع الوسية » ، الذى أعيش فيه ، ويعيش فيه معى بشر ليسوا كالبشر . كنت كثيرا ما أشكو لها ظلم الانسان واستغلاله للانسان ، ولكن هيهات أن تستمع النجوم ، أو ينشق القمر لآلام البشر .

٢٦

تركنى خفير الجرن أنام حتى ارتفعت الشمس تقريبا من كبد السماء . واستيقظت على جلبة غير عادية . ما فتحت عينى ، حتى رأيت الفلاحين يتجمعون أمام السراى ، تعلو أصواتهم مرة ، وتخفت أخرى .

لا أكاد أميز منها شيئا . انتفضت واقفا . جريت نحو الجمع أستطلع الخبر ، لكن محمد خطاب هرول نحوى . أمسك بى قائلا :

ـ لماذا أخفيت على الذى حدث بينك وبين الخواجة الليلة البارحـة ؟

ـ ماذا يجدى الكلام يا عم محمد . .

ـ نحن رجال . . كيف تدافع عنا ، ونتخلى عنك ؟

- لم أكن أدافع عنكم . لكنى حاولت أن أكون أمينا معكم ومع الخواجة ومع نفسى .

- نحن نفديك بأرواحنا . . لابد أن نقتل هذا الرجل !

كانت حماسة محمد خطاب بالغة . ارتفع صوته . لمعت عيناه. تناثر رذاذ من بين شدقيه . لكنه لبث معى بجوار « العشة » ، ترك الرجال يغلون من الغيظ أمام السراى . كان الرجل مستأسدا من بعيد . نصحنى بعدم الذهاب الى الرجال ، أو الى الخواجة فى هذا الوقت . وسألته :

- لماذا ؟

- يابنى ، نحن لا نستطيع أن نقف أمام الخواجات . .

- كيف . . ألم تقل اننا لابد أن نقتله ؟

- نحن لا نستطيع أن نقتل فرخة !

جاءت أصوات الرجال : افتح الباب يا عبده ، صح الخواجه . لن نتركه يسرق محصولاتنا . ألح محمد خطاب على ، وتوسل بكل عزيز ، أن أذهب الى الحقل ، وأن أبعد عن هذه المتاعب .

- أنت ما زلت صغيرا . . وخلفك أسرة كبيرة ، والمستقبل ينتظرك . . . أستحلفك بالله أن تذهب الى الحقل وتترك العزبة .

- كيف أترك الرجال وحدهم فى المعركة ؟

- هذه معركتهم ، وقد فعلت ما تستطيع . وأنت ما زلت غضا

يمكنك أن تسهم فى العنف .

لا أدرى كيف استجبت لرجائه . هل لأننى قد فترت حماستى للدفاع عن الفلاحين ، اذ ان هذه هى معركتهم حقا . عليهم وحدهم أن يخوضوها ؟ أم لأن محمد خطاب ، الخبير بنفسيات الناس ، قد لمس معنى لا شك انه أرضانى كثيرا : لقد فعلت ما أستطيع من أجل الفلاحين تشبثت بهذا المعنى الأخير ، وذهبت الى الحقل .

عندما عدت الى العزبة آخر النهار علمت انها كانت مسرحا لأحداث جسام . كان عبده الطباخ هو الذى أخبر الرجال بأحداث الليلة الماضية التى وقعت بينى وبين الخواجة . لم ينم تلك الليلة ، وبكر فى الصباح ليخبر والده بالحوار الذى دار بينى وبين الخواجة . وكيف ان الخواجة أخذ يغرينى مرة ، ويرهبنى أخرى ، لأزور حسابات الفلاحين ، ليصبحوا مدينين له بدلا من أن يتبقى لهم تلك المبالغ الكبيرة . سرى النبأ فى العذبة كالبرق . ما أن برزت الشمس من خدرها ، وأخذت تصعد فى الأفق ، حتى كان الرجال ونساؤهم وبناتهم يأخذون طريقهم الى السراى ، ويتجمعون آمامها .

على أن بعضهم قد تخلف . . كان المتخلفون ، ولوأنهم فلاحون ، الا انهم كانوا يقومون بوظائف أخرى فى الوسية . كانوا أشبه شىء بفئة متميزة . ينتفعون من الخواجة نظير قيامهم بأعمال أخرى الى جانب فلاحة الأرض لايعنى هذا أنهم لم يكونوا مستغلين أو مظلومين . فقد

كان الاستغلال يتمثل فى استيلاء الخواجة على محصولات الأرض التى يزرعونها ويتمثل كذلك فى تلك الأجور الهزيلة التى يعطيها الخواجة لهم ، نظير الساعات الطوال التى يقضونها فى العمل بالحظائر والحقول والأجران . ومع ذلك فقد كانوا يمثلون طبقة أخرى فى « مجتمع الوسية » فهم « مستخدمون » ، لم يعودوا يشعرون بنفس القدر من الارهاق ، الذى يعانى منه الفلاحون العاملون فى الحقول ، والذين لا عمل لهم ولا مصدر للدخل غير فلاحتهم للأرض وعملهم فيها . لهذا لم يستجب هذا الفريق للنداءات المتحمسة التى وجهها اليهم العاملون فى الأرض . تخلفوا عن التعاون مع زملائهم للدفاع عن حقوقهم ، ومجابهة الخواجه صفا واحدا .

كان هؤلاء هم « الخولة » الذين يشرفون على الأنفار الذين يعملون فى الأرض . والخفراء الذين يحرسون الأجران والحقول ، و « الكلافون » الذين يعنون بماشية الخواجة ، والخدم الذين يسهرون على راحته فى السراى .

قص على محمد خطاب خفير الجرن أحداث ذلك اليوم فقال : تجمع الرجال . . كما رأيت فى الصباح أمام السراى . . وأخذ بعضهم يدق على الباب ، ويصيح البعض الآخر : « نريد مقابلة الخواجة . . افتح الباب يا عبده » . وتردد عبده فى فتح الباب أول الأمر ، ثم فتحه أمام اصرار الرجال ، وسألهم : ما الخبر . . وأجابوه فى

استنكارا : ألا تعرف الخبر ؟ « نريد أن نقابل الخواجة من أجل حساباتنا » ، وأجابهم عبده بصوته الخفيض : « الخواجة نائم ، كان سهران الليلة الماضية حتى الساعة الثالثة » . وجاءت أصوات أخرى من المؤخرة: اذهب وأيقظ الخواجة لن نمكنه من أن ينهبنا . ورد عبده عليهم بانه لا يستطيع أن يوقظه من النوم ، والا رفته من خدمته .

اقتحم فريق من الرجال الباب ، هموا بالدخول عنوة قائلين : اذا كنت لا تستطيع ايقاظه ، سوف نصعد لا يقاظه . حال عبده بينهم وبين اقتحام المنزل . تقدم أبوه وأخوه وعاوناه فى دفع الرجال بعيدا حتى تمكن عبده من قفل الباب .

على الرغم من أن عبده هو الذى حرك هذا التجمع ، وان راغب والده كان من أكبر المتحمسين ضد الخواجة ، الا انهم رأوا انه لزاما عليهم أن يحموا الخواجة . ويدافعوا عن المنزل الذى يعمل عبده فيه ! لا ريب كذلك ان عبده من الخدم ، أى من الفئة الممتازة فى الوسية ! فرغم شعوره بالظلم ، الا أنه يمتاز عن الفلاحين الآخرين بأنه يأكل بقايا طعام الخواجة ! . . ثم هو يتقاضى سبعين قرشا مرتبا ثابتا كل شهر ، فهو موظف يعمل طول السنة .

وعندما أوصد عبده الباب فى وجه الرجال ازداد غليانهم . اقتحموا الباب يريدون أن يكسروه . ولما ازدادت حدة الضجة ، استيقظ الخواجة . أطل عليهم من شرفة الطابق الأعلى . كان مصفر الوجه ،

منتفخ العينين . يظهر كرشه ونهوده من « الروب » الحريرى الذى كـان يلبسه . وكانت كليوبى خلفه ، ووقف غاندى بينهما ، وكأنه يطل هو الآخر على الرعية ! صرخ الخواجة : ما الحكاية ، ما هذه الضجة ، ماذا تريدون ؟ تعالت الصيحات فرادى من المتجمهرين . . انزل حاسبنا ، هل تتعالى علينا ؟ نريد محصولاتنا . . نريد نقودنا . . انفجر الخواجة فى عنجهية قائلا : ليس لدى حسابات . ليس عندى محصولات ، ولا نـقود ، ابعـدوا عن السراى ، والا أحضرت لكم البوليس .

اختلطـت الأصـوات . لم يسمـع الخواجة شـيـئـا . لم يكن يرى الا قبضات تلوح فى الفضاء فى اتجاه وجهه ، ووجوها غاضبة ، وصيحات محمومة . اختفى الخواجة لحظات ، وعاد بيده بندقية . ثم صوب البندقية نحوهم . فلم يخف الرجال ، بل ازدادات ثورتهم ، وبدأوا يدفعون الباب ثانية ليكسروه . وهنا أطلق الخواجة طلقة ، ولكن فى الهواء . جرى الرجال والنساء والأطفال كل فى طريق !

* * * *

قال محمد خطاب تلك العبارة الأخيرة باحتقار ويأس . بل بدا فى نغمته نوع من الشماته . كأن هذا التجمع لا يعنيه . ثم ختم روايته بقوله بعد أن هرش لحيته الكثة السوداء : وقد سمعت الخواجة يضحك فى قهقهه عالية ، ثم يحتضن كليوبى ، ويدخل بها القصر ، ثم يقفل باب

الشرفة ونوافذ غرفة النوم ، ويستغرق مرة أخرى فى نوم عميق !

على الرغم من خيبة الأمل التى اعترتنى لهذه النهاية لغضبة الفلاحين ، الا أن حالة اللامبالاة التى كانت قد بدأت تخيم على شعورى ، وكذلك صوت محمد خطاب الهادىء ، قد أسهما فى أن يتراخى غضبى من فشل الفلاحين فى جولتهم . لهذا دخلت فى دردشة مع محمد خطاب . . .

ـ . . . . وانت يا عم محمد ألم تشترك مع الرجال فى حركتهم ؟

ـ كيف أشترك ؟ ألا تدرى ان هذا الرجل لديه حماية . . افترض انه ضربنى بالرصاص ، ماذا سأجنى من هذه الحماسة الفارغة ؟

ـ حماية ؟ ماذا تقصد ؟

ـ الحماية الأجنبية معناها ان هذا الخواجة وغيره من الخواجات يستطيع أن يقتل أى مصرى ، دون أن يتعرض له أحد !

ـ أليس هناك قانون فى البلد ؟ أنا أعرف أن هناك قانونا يحمى الخواجات وغيرهم من كبار ملاك الأراضى فى عملية الاستغلال التى يصبونها على الفلاحين . . فهل يخول القانون نفسه لـهم قتل المصريين ؟

ـ هناك نظام يسمى « الامتيازات الأجنبية » ، يحمى الخواجات عندما يرتكبون جرائم ضد المصريين . . فهم يحاكمون أمام قناصل

بلادهم محاكمة شكلية ، حتى فى جرائم القتل ، يرسلون بعدها الى بلادهم ، ليسجنوا هناك بضعة أشهر ، يعودون بعدها الى مصر ليواصلوا الاجرام والاستغلال والقتل من جديد !

ـ من الذى منح الأجانب هذه الامتيازات ؟

ـ الخليفة ، فى اسطنبول ؟

ـ خليفة المسلمين ؟ . . . لابد ان له لحية طويلة تماثل لحيتك يا عم محمد !

ـ أتريد أن تهزأ بى يا « سى خليل » وأنا أريد أن أشرح لك تاريخ هؤلاء « الأنجاس » ؟

ـ حاشا لله يا عم محمد ! ولكن كيف يرضى خليفة المسلمين بأن تهدر دماء المسلمين وأموالهم وكراماتهم بهذه الطريقة ؟ كيف يرضى باستغلال عباد الله المسلمين ، بمثل هذا النوع البشع من الاستغلال ؟ أيكون متخذا من الاسلام رداء يعاونه هو أيضا على استغلال الشعب باسم الاسلام ؟

ـ ليس ذلك مقصورا على « خليفة المسلمين » هناك كذلك الانجليز وغيرهم من الخواجات . وهناك ملك مصر والباشوات . . خذها منى كلمة . . فيما يتعلق بالظلم والاستغلال ، ليس هناك فارق بين هؤلاء الناس !

ـ كيف ذلك ؟ . . .

ـ اسمع يا سيدى : أنا كنت أعمل فى تفتيش الملك . . الـــظلم هو هو ، ولما هربت من ظلم الملك ذهبت الى وسية « على باشا » ووجدت الأمر ألعن وأضل سبيلا . وقلت لنفسى « اهرب بجلدك » من المصريين والأتراك ، وجئت الى اليونانيين . وآنت تعلم قصة الخواجة معنا فى هذه الوسية . . مرة أخرى أقول لك ليس هناك اختلاف بين خواجة ومصرى ، بين مسلم ومسيحى فى عملية الظلم والاستغلال .

عند هذا الحد من « الدردشة » أخذت أقيم « محمد خطاب » تقييما آخر . بدا لى ضخما ، لحصيلة المعلومات والخبرات التى جمعها . ولقطرات الوعى التى تتناثر أحيانا من حديثه . فأحببت أن أسترسل معه فى الحديث . حببنى فى ذلك ، صوته الهادىء والقاوه البارع ، واختياره للعبارات المنسقة :

ـ أين كنت يا عم محمد أثناء فورة الرجال ؟

ـ كنت هنا فى العشة !

ـ ولما ظهر الخواجة فى الشرفة ، هل بقيت فى العشة ؟

ـ لا ، خرجت منها ، ووقفت أمامها !

ـ هل قصدت أن يراك قائما بواجبات الحراسة ، وكذلك ليتأكد من انك لم تشترك مع الرجال ؟

بلع الرجل ريقه ، وهرش فى لحيته ولم يرد . .

فى الوقت الذى كنت أدردش فيه مع محمد خطاب فى الجرن كانت قصة تذمر الفلاحين تتلى بصوت عال وصراخ يحمله الهواء الينا من باب الشرفة فى الطابق الأعلى لقصر الخواجة . كان الشيخ سليم هناك يستمع لأحداث اليوم من الخواجة . طالت المقابلة بينهما .

بعد فترة من الصمت بدا لى ان محمد خطاب يريد أن يواصل الحديث :

- لماذا غضب الفلاحون فحسب عندما علموا ان الخواجة سرق منهم قنطارا أو قنطارين من القطن ؟ انه ينهب جهودهم طول السنة .

هل الايجار المرتفع الذى فرضه علينا عادل ؟ جهودنا وجهود أبنائنا تذهب كلها لسداد الايجار ، ونأكل العدم بعد ذلك . هل يعجبك نظام المزارعة الذى يمكن الخواجة من الحصول على ثلاثة أرباع المحصول دون أن ينفق مليما واحدا ، بينما يأخذ المزارع الربع ، ويدفع منه نفقات الأسمدة والبذور والرى والعمل طول السنة ، سواء كان ذلك عمل الانسان أو الحيوان ؟ هل الأجور الهزيله التى يعطيها للفلاحين تكفى ليشتروا بها ما يطعمهم ويكسوهم ؟

ثم ارتفع صوت الرجل فجأة ، واحمرت عيناه ، وتناثر رذاذ من فمه على لحيته . فقد عصفت به غضبة مفاجئة ، ونادرا ما كان

يغضب، فهذه هي المرة الأولي التي أراه فيها علي هذه الحال:

– هل هذا البلد بلدنا؟ هذه بلد اليونانيين والإنجليز والأتراك، والملك، والباشوات، والملاك، والحكام. هل هذا نظام؟ دعني في حالي يا خليل أفندي.. دعني آكل عيش.. إذا كنت تريد المبيت معي هنا، أرجوك لا تثير هذه المسائل. أنا رجل لدي أولاد كثيرون، ومطرود من وسايا كثيرة، وأعلم كل شئ أكثر من الجماعة «السذج» الذين كانوا يصرخون في اليوم أمام السراي!

لقد سعدت إذ رأيت الحماسة تحمر لها عينا محمد خطاب، ويضيق لها فمه، ويسيل الرذاذ منه علي لحيته. وعلي العكس مما يظن، فقد كان ارتفاع صوته آية علي أن بين جوانحه قلبًا واعيًا، وأن في تجاويف جمجمته العريضة عقلاً مستنيرًا.

ومع ذلك فقد كان الرجل منافقًا، تلمس ذلك بسهولة في سلوكه وأسلوبه في الحديث.. ولكن أيكون النفاق الذي أصبح من خصائل الرجال مكتسبًا؟.. من الطبيعي أن يكون النفاق مكتسبًا وهو من المحال أن يكون طبيعيًا في الرجال. فالمنافق يتجه بنفاقه إلي إنسان، بعبارة أخري، إن النفاق عملية اجتماعية اقتضتها نظم وقيم اجتماعية معينة، وهو نوع من الدفاع عن النفس في مجتمعات الوسايا والتفاتيش التي عاش فيها الرجل.

لعـله وجد أنه اذا لم ينافق الكلافين والخولة والكتبة والنظار والسادة المالكين للعزب والتفاتيش ، فانهم قد يصبون غضبهم عليه ، وقد لا يتمكن من كسب عيشه . فاذا كان محمد خطاب قد اكتسب النفاق من مجتمعات الوسايا التى استخدم فيها ، فلا جناح عليه . فالنفاق قيمة أساسية فى مثل تلك المجتمعات . وأغلب الظن ان الرجل لم ينضم الى المجموعة الثائرة لانه جبان ، أو لأنه لا يحس الظلم ، ولكن الخبرة التى اكتسبها من حياته الشاقة ، هى ان مثل هذه التجمعات الجزئية الصغيرة غير الواعية لا فائدة ترجى من ورائها . فالفلاحون ، كما لا حظ ، فرقتهم طلقة بندقية فى الهواء . وكان الرجل على حق - لا جدال - حين ألمح الى أن الفلاحين لم يثوروا أو يتجمعوا أمام السراى لمناقشة الشروط أو العلائق التى تربطهم بالخواجة ، ونظام الاستغلال الزراعى . كان محمد خطاب مصيبا ، حينما قال ان الفلاحين تجمهروا لان الخواجة سرق منهم قنطارا أو قنطارين من القطن . لكنهم لم يفكروا فى الثورة على مجتمع الوسية الذى يعيشون فيه . بما فيه من نظام للملكية وللايجار والمزارعة والأجور الرخيصة . مجتمع تسود فيه الكلاب وتترف وتثرى ، ويجوع فيه الكادحون زارعو الأرض .

ما زال صراخ الخواجة يقطع سكون الليل الذى انتصف . وما زال

الشيخ سليم معه . ولما طال اللقاء ـ لقاء القمة ـ بين الخواجة ورجله الأول ، آويت الى فراش التبن ، وبدأ التعب يغمض جفونى . واستسلمت لنوم متقطع ، وليلة قلقة .

فى الصباح الباكر بحثت عن الشيخ سليم لأسأله عن نتيجة المقابلة مع الخواجة ، فلم أجده . أسرعت الى الحقل الذى يعمل فيه.

عندما رأيته كان وجهه مكفهرا . لم يمهلنى لحظة واحدة ، ألقى فى وجهى بخبر مدمر : الخواجة سيطردك من الوسية !

لم يكن طردى من الوسية أمرا جديدا على . كنت أتوقع هذا المصير . الا ان هذه العبارة كانت آخر ما أنتظر أن يتفوه به الشيخ سليم . .

صمت . . لم أكن أدرى ماذا أقول ، حتى ولو استطعت الكلام . . لبث الشيخ سليم صامتا فترة خيل الى انها لا نهاية لها .

ثم أخذ يتحدث ثانية فى تردد شديد :

- لكنى لم أتركه يفعل . .

- ماذا فعلت ؟

- قبل أن أسرد عليك القصة . . قل لى لماذا مكنت الفلاحين من خداعك والضحك عليك ، لكى تخبرهم عن حساباتهم . ثم لماذا أجريت لهم حسابات مضبوطة ؟

ـ انت أيضا يا عم الشيخ سليم تريدنى أن أزور الحسابات لكى يسرق الخواجة الفلاحين ؟

ـ ألم أقل لك مرارا وتكرارا أن آدم يستاهل ضرب النار ؟ . .

لماذا لم تأخذ بهذه النظرة ، ها أنت ترى كيف ان عطفك عليهم سيؤدى الى أن يفصلك الخواجة . . هل سينفعك الفلاحون ؟

ـ هذا ليس عطفا ، ولكن هذا حقهم . .

ـ حقهم ؟ ليس هناك حق أو باطل . . الحق أن « تأكل عيش » !

ـ هل تريد أن أنهج نهج حسين ، أمكن الخواجة من سرقتهم . وأسرقهم أنا أيضا ؟

ـ حسين اشترى خمسة عشر فدانا .

ـ نحن نصلى يا عم الشيخ سليم ، فكيف تقول هذا الكلام ؟!

ـ الصلاة شىء ، وحسابات الفلاحين شىء آخر ، وأكل العيش شىء ثالث !

ـ هل يستحيل على الانسان أن « يأكل عيش » ، وهو أمين نظيف؟

ـ أتريد الصراحة ؟ هذا مستحيل ! . .

ـ لكن الرجال فقراء وبؤساء ، كيف نجعل الخواجة يسرقهم ؟

ـ هؤلاء ليسوا بؤساء ، انهم يستاهلون الدبح . . أريد أن أسألك

سؤالا صريحا : هل تريد أن يجوع الفلاحون أو نجوع أنت وأسرتك ؟

ـ . . . . . .

ـ انت عبد المأمور . . والمأمور فى هذه العزبة هو الخواجة . .

اذا لم تكن تريد الجوع دعه يسرق الرجال ، وينهبهم كما يريد . . هل أنت شريكه يا أخى فى عزبته ؟ علينا أن نؤدى عملنا ، ونأخذ مرتبنا ، وليس لنا التدخل فى الأمور الأخرى .

ـ . . . . . .

ـ **لقد أخبرنى الخواجة بالقصة ثم صرخ فى قائلا :**

ـ تطرد هذا الولد من العزبة غدا . . .

وقلت له : « طول بالك يا خواجة » .

فأجابنى بأن « هذا مستحيل . . كيف يذهب ليخبرالفلاحين عن حساباتهم ؟ » .

وأكدت له انك لم تفعل ذلك أبدا .

لانك كنت معى طول الوقت ، وذهبنا معا فى الصباح الى الحقل الى أن عدنا سويا آخر النهار .

وقد اقتنع الخواجة ، وسوف يبقيك فى العزبة .

ـ شكرا يا عم الشيخ سليم . .

٢٧

ذهبت الى قريتنا لاننى شعرت بحـاجة الى من أستنيم فى أحضانه .

سألنى والدى هل جرى وراءك الخواجة وشتمك ، وشتمنى معك ، وقال لك ان والدك أضاع أرضه ؟

أجبته :

ـ دعك منه انه رجل مجنون . .

كان والدى يسألنى على خلاف عادته ـ والأسى يغشى عينيه . ويقطع من صوته . كان يحاول أن يكتم مشاعره حتى لا يزيد من أساى .

لكننى استطعت أن ألمح المعنى الذى حاول أن يخفيه . وقالت أمى بصوت عال كعادتها :

ـ لماذا يعتدى عليك ؟

ـ لم أفعل شيئا غير اننى عملت حسابات الفلاحين بأمانة فبقيت لهم مبالغ من النقود .

قال والدى :

ـ كان لابد أن يشكرك على أمانتك . .

وتدخلت أمى :

ـ لماذا لم تعمل الحسابات كما يهوى ؟

ـ حتى أنت يا أماه .

نهرها والدى :

ـ ما هذا الكلام ؟ أتريدين أن يسرق الخواجة الرجاله ؟

ـ هذا ليس من شأننا ، يسرقهم كما يريد . . هل يرضيك ما صنع ابنى ، ويريد طرده من العزبة ، فاذا ما فعل من أين نأكل ؟

أدار والدى عينيه الغائمتين بالحزن بين والدتى وبينى ، ولم يستطع أن يقول شيئا ، وصمت أنا الآخر فما هى فائدة الكلام .

بعد هنيهة ساد فيها صمت يائس ، أردت أن أرد لهم بعض الأمل فقلت لهم :

ـ ان الخواجة سوف لا يرفتنى من الوسية . فقد هدأ الشيخ سليم من حدته . وسأستمر فى العمل فلا تخافوا . ردت هذه العبارة اللون الوردى الى خدود والدتى ، والاشراق الى عيون اخواتى . لكن والدى بقى على حاله ، تضطرب بين ضلوعه معركة رهيبة ، أكاد أشهدها فى عينيه ، وعلى شفتيه ، ومع صعود صدره وانخفاضه .

ذهبت الى العزبة عصر ذلك اليوم . وفى المساء جاءنى رسول من

البلدة يلهث ، وتكاد تنقطع أنفاسه . كان شاحب اللون . حيث قطع المسافة بين القرية والعزبة جريا . قال فى كلمات متناثرة :

ـ تعال ، يريدونك فى البلدة .

ـ ماذا حدث ؟

انفجر الرسول فى بكاء حار . لم يستطيع أن يسيطر على دموعه . فسرت بكاءه بأن كارثة وقعت بالأسرة كلها أو بأحد أفرادها . هدأ بعض الناس الذين كانوا معى من روع الرسول . رجوه أن يتكلم . . أخيرا نطق :

ابوك ..

ثم توقف مرة أخرى . . وأردف :

ـ أبوك . . أبوك . . توقف لسانه عن الكلام !

كانت هذه الصدمة من نوع جديد . لم يكن لى عهد به من قبل . هزتنى هزا عنيفا ، وجعلتنى أتساءل : لماذا كل هذه القسوة ، ولماذا تتخذ فاجعتنا هذه الأبعاد الجديدة ؟

فى الصباح ، رافق والدى صديق له الى القاهرة . استعان بطبيب كبير فى القصر العينى . مكث شهرا تحت العلاج الكهربى ، وغيره من فنون الطب الحديثة ، حتى نطق لسانه . وحين عاد الى القرية ، كان

الاستماع الى صوته أحلى من زوبعة الزغاريد التى استقبله بها أهل القرية .

٢٨

كانت السنة الأخيرة (١٩٣٨) من حياتى فى مزرعه الخواجة ذات طابع خاص يختلف عن السنوات السابقة . فقدت فيها الحماسة للعمل التى انتباتنى عند بدء التحاقى بها . بل فقدت الاحساس بالمتعة التى كانت تغمرنى حينما كنت أؤدى الأعمال الكثيرة المرهقة التى وكلت الى . لم أعد أتذوق اللذة التى كانت تصاحبنى حين أحل مشكلة من مشكلات الفلاحين . أو عندما أسرق لهم الحبوب من مخازن الوسية ليدفعوا عن أنفسهم وعن أولادهم ضرواة الجوع . لم أعد أرى فى عمل حساباتهم بأمانة، عملا بطوليا يفعم نفسى رضا وسعادة .

فقدت الحماسة لهذه الأشياء جميعا . لكن فقد الاحساس بهذه المسائل معناه ببساطة فقد الاحساس بالحياة نفسها . كيف يمكن أن تكون هناك حياة دون أن تضطرب فى وجدان المرء هذه المعانى وغيرها .

ولم أشعر فى هذه السنة ان الحياة تتدفق فى عروقى . على الرغم من انها كانت السنة السابعة عشرة من عمرى ، تلك السن

التى يبدأ فيها - كما يقال - ربيـع الحياة . كانت تلك السنة خريفا بالنسبة لى . . هل يمكن أن يخلق الناس ليكافحوا كفاحا ميتا فى سبيل الخبز والأذرة والمخلل فحسب !؟ هل يمكن أن يحرموا حتى من الشعور بالأمل ، وبتخيل حياة أفضل ؟ أيمكن أن تغيض فيناالمشاعرالانسانية الغنية التى تجعلنا نتصور - مجرد تصور - ان هنا وجها آخر للحياة غيرهذا الوجه الكئيب الذى تتبدى بشاعته فى مجتمع الوسية ؟

غير ان المـوات الـذى غشى نفسى فـى هـذه السنة قد ومضت فى جنباته شعاعات هزيلة . ونبضت فى حواشيه نبضات ، ولو انها خافته ، الا انها نبضات على أية حال . توحى بان الموات ليس كامـلا ولا شاملا . فمهما كان الأمر فان هناك نبضا وهناك ومضا .

كنت أصطنع الحماسة للعمل أمام الخواجة ، أو فى غيبته ، اذا تأكدت أن حماستى هذه سينقلها اليه الناقلون . . لم أكن أهدف بذلك الى ارضائه ، أو الى الحظوة باعجابه ، أو استرداد مكانتى عنده ، لم يكن ذلك ميسورا . كيف يمكن أن يقتنع اللص بالعدول عن سرقاته ، التى تكفلها له القوانين ، ومجتمع الوسية . لم تكن لى كذلك رغبة حقيقية فى أن أسترد تلك المكانة لدية . ولو رغبت فى ذلك لكانت لدى القدرةعلى تحقيقها . المسألة لا تحتاج الى عبقرية ، فهى غاية فى البساطة : كان على فقط أن أمكنه من سرقة الفلاحين . وكان

على أن أنافقه وأغرر به كما كان يفعل الكاتب السابق .

كان الخواجة يسب ، حسينا ، ويضربه . وكان ، الباشكاتب ، يضحك لذلك . بل كنت أراه فرحا لهذا التكريم ، الذى يخلعه الخواجة عليه ! سألت حسين يوما ، وقد استطعت أن أكسب ثقته فى فترة من الفترات :

- لماذا تتحمل كل هذه الاهانات من الخواجة ، وانت انسـان محترم ، أفندى ، باشكاتب العزبة . ويعمل لك الفلاحون ألف حساب ؟

وأجابنى حسين بلغة لم أفهمها آنذاك ، ولكنى أدركتها فيما بعد :

- السب والضرب والاهانة لا تهم يا عبيط !

- كيف ذلك ؟ ان للانسان - لا سيما الانسان النظيف مثلك !

- كرامة يجب أن يحافظ عليها .

- انت ما زلت صغيرا . . ليست الكرامة هى المهمة . . أهم منها الثمن الذى سيدفعه الخواجة نظير الضرب والسب !

- **أى ثمن ؟**

- ستعرف فيما بعد

- يظهر انك لا تثق بى . . لقد غضبت غضبا شديـدا مـن الخواجة ، حينما شتمك وضربك أمامى ، ألست مصريا . . مثلى وشرقاويا ، وباشكاتبا ، ورئيسى ؟ !

ـ طيب . . سأقول لك كيف يدفع ثمن الاهانات . . انما تقسم ألا تقول لأحد . .

ـ أقسم .

ـ اسمع يا سيدى . . التعريفة كالآتى : كلمة « يا ابن الكلب » هذه يدفع فيها الخواجة مائة جنيه ، والصفعة على وجهى يدفع فيها مائتى جنيه ، والشلوت أى الركل بالقدم يدفع فيها ثلاثمائة جنيه !!

ـ لا أفهم قصدك . . هل ستشكوه الى البوليس ؟

ـ بوليس ايه وحكومة ايه ، هؤلاء لا يستطيعون آن يوقفوه عند حده .

ـ كيف اذن سيدفع هذه المبالغ ؟

ـ لا ، هذا هو سر المهنة ، عندما تكبر ستعرف .

حاولت أن أطلب من حسين أن يشرح هذا اللغز فرفض .

ولكنى توصلت الى حل اللغز ، حينما تذكرت حسين يفتح باب الدوار فى الهزيع الأخير من الليل ، وتخرج الحمير محملة بالقطن والغلال والأغنام . عندما تذكرت عدد الحمير والأثقال التى تئن من تحتها . استطعت أن أحسب كم من الصفعات والركلات والشتائم حظى بها حسين فى ذلك اليوم !!

أقول ، كان ارضاء الخواجة عملية سهلة لو رغبت فى ذلك ، على

أنه خيل الى اننى حتى ولو رغبت حرصاعلى لقمة العيش ، فقد كنت أخشى ألا تواتينى القدرة الفنية على اتقان هذا اللون من السلوك . وحتى اذا استطعت اتقانه فسوف لا أكون سعيدا . بل سوف أكون حزينا . كيف يجيد الانسان دورا ، أو يؤدى عملا بكفاءة اذا لم يستشعر السعادة من خلال آدائه ؟ . . .

٢٩

يبدو ان مجتمع الوسية ـ شأنه فى ذلك شأن مجتمع الغابة ـ لا ينطبق قانون الأقوى فيه على الشخص أو على الفئة التى تتبوأ القمة فحسب . فبين القمة والقاع فئات لها أيضا أنياب ومخالب ، يمكن أن تنشبها فى الفريسة . وهى ان لم تستطع ذلك جهارا فى وضح النهار ، فهى بعد أن يشبع ملوك الغابة ويأوون الى مضاجعهم ، تتسلل فى جنح الظلام ، وتفرض نفسها على الحياة فى مجتمع الغابة .

فى ليلة من الليالى كنت أنام فى الجرن على عيدان القمح التى هرستها النوارج أثناء النهار ، وأحسست « بندى الورد » يبلل وجهى ، ويتطاير شذاه الى أنفى ، فيثير لونا من الانتعاش فى صدرى .

يخفف من ذلك الركود الذى جثم عليه فى الشهور الأخيرة . كانت

النجوم تتدلى من السماء كعناقيد العنب . تغرى الانسان بأن يمد ذراعه لاقتطافها . وكان الليل ساجيا ، وقد أطفئت أضواء القصر ، ولف أكواخ العزبة سكون دامس كذلك الذى يغشى القبور .

كنت مستغرقا فى تأملاتى أنظر الى النجوم . أحاول أن ألمس بعضها دون أن أمد ذراعى ! . . وكان محمد خطاب فى هذه الليلة بادى النشاط كثير الحركة . كنت قد استأذنته فى أن أنام مبكرا لأنى مكدود من العمل طوال النهار . لكنى لم أنم . تسبب ندى الورد وعناقيد النجوم فى أن أظل يقظان . بل أخذت أناجى النجوم ، وأتمنى لو يستطيع الوميض الذى ترسله من عليائها أن ينير لنا السبيل فى هذه الأرض . وطفق محمد خطاب يدور حولى ، لاهو بالذى يقترب منى ، ولا هو بالذى يبتعد عنى . ما باله قلقا نشيطا فى هذه الليلة ؟

كنا فى موسم الحصاد . وكان الجرن كبيرا ، والقمح والشعير والفول والبرسيم تملأه على سعته . بعض المحصولات قد هرست بالنوارج ، وبعضها ما زال مكوما بسيقانه كما هو . محمد خطاب يركز نشاطه فى الحراسة على المنطقة التى كنت أنام فيها . كأن بقية الجرن الشاسع لا تهمه . انه لا يستطيع أن يرى ما اذا كانت عيناى مفتوحتين أو مغمضتين . وهو لا يجرؤ على الاقتراب منى ليتأكد من نومى .

وبينما كان محمد خطاب يدور حولى كالنحلة ، اذا بى أسمع صوت شيء ثقيل يرتطم الأرض . فانتفضت جالسا ، وأخذت أحدق فى الظلام :

ـ ما هذا يا عم محمد ؟

ـ لاشيء . . لاشيء يا فندى . .

ـ لاشيء !؟ . . اذن ما هذه الحسير والناس ؟

ـ هذا ابراهيم ابنى وأخته يأخذان بعض التبن !

ـ تبن !؟

لم يكن محمد خطاب فى أحسن حالاته ، من حيث قدرته على الحديث ، فقد كان متلعثما .لم يكن فى ذكائه المعهود . كانت حمارته ترقد على مسافة بضع أمتار منا ، تئن تحت كيس كبير ملىء بالقمح . انحنى على الحمارة ابنه وابنته التى كانت فى الرابعة عشرة من عمرها . فى جسمها سخاء ، أسهمت سرقات القمح من جرن الوسية فى أن تنضجه قبل الأوان ! كان ابراهيم وآمنة يحاولان انهاض الحمارة والكيس فوقها فعجزا . يبدو ان الحمارة قد أحست بغريزتها بانهم يحثونها على النهوض بأصوات منخفضة على غير عادتهم فآثرت الراحة ، ولم تبد جهدا من جديد ! . . أحست الحمارة كذلك بانهم لا يستخدمون العصا لانهاضها ، فاستمرأت الوضع الذى كانت راقدة

فيه ! كان من الطبيعى ألا تستخدم العصا لضرب الحمارة فى هذا الوقت ، فصوت الضرب يمكن أن يسمع على مسافات بعيدة فى الليل الساكن . وبعد جهد كانت الحمارة وابراهيم وآمنة وكيس القمح فى الطريق الى منزل محمد خطاب ، بعد أن خفف ابراهيم حمل الحمارة فحمل على ظهره جزءا منه .

كان محمد خطاب يمسك مسبحة كبيرة ، عدد حباتها تسع وتسعون .كان يذكر اسم الله عليها . يسبح بحمده بصوت عال ملهوف . كأنه قصد أن يغطى صوته على صوت كيس القمح وهو يرتطم بالأرض . هل كان الرجل يسبح لله ، ويصيح « يا ستار يا ستار » ليحميه الله وهو يسرق ؟ هل كان يسبح بحمد الله لأنه قد هيأ هذا الجرن ليسرق منه . وجعله رزقا خاصا به دون الفلاحين الآخرين ؟

اقترب حارس الجرن منى . كان يتصبب عرقا . حاول أن يعتذر ، ويبرر تصرفاته ، فبادرته فى شيء من الجد :

- يا عم محمد ما تفعله يعتبر سرقة ، وانسرقة حرام . .

- وعندما يغتصب الخواجة منى ومن عيالى قطنى وقمحى وأرزى الذى كدحنا لانتاجها طول العام . ألا يكون ذلك حراما !؟

- هذا أيضا سرقة ! وهل علاج السرقة هو ارتكاب سرقة مقابلة ؟

- ماذا أصنع ؟ أأترك الأولاد يأكلون طوبا ، وأنا أعمل خفيرا

بالليل ، وفلاحا فى الحقل خلال النهار ، وأولادى يعملون طول السنة ؟

- كيف تعمل ليلا ونهارا ؟

- لابد أن أعترف لك . . بعد أن ينام الخواجة ، فانى أنام بدورى .

- ألا تخاف أن يسرق الجرن ؟

- خليها على الله ، ربك يستر !

- هل سيحرسك ربنا وأنت تسرق ، ويحرس لك الجرن كذلك لكى لا يسرقه أحد !؟ افرض أن الله لم يسترها ؟

- هو قادر على كل شيء ! كما يشاء . . ماذا سيفعلون بى أكثر مما أنا فيه . . هل سيسخطوننى ويقلبوننى غزالا ؟!

- انت تسترد حقك ، فما بال الفلاحين الآخرين ؟

- ليس لى شأن بالفلاحين . . أنا اهتمامى بنفسى فقط . . الفلاحون تعودوا على الذل والجوع ، وأنا وأولادى تعودنا على الطعام الجيد !

وهنا فاجأنى محمد خطاب بعبارةلم أتوقعها :

- بصراحة لا أستطيع أن آكل « مخلل » طول السنة ، مثلما تفعل أنت والشيخ سليم .

يبدو ان الرجل ، وهو محنك « ذو ناب أزرق » أراد أن يحول

الحديث ، ويكسّبنى فى صفه . لكننى وددت أن أرجع بالحديث الى مجراه الأول فقلت له :

ـ هل تعنى يا عم محمد انك وجدت حلا لمشكلتك الخاصة . خلاصته أن الخواجة يسرقك فتسرقه . . ولعلك تريد أن تضيف انك محتاج للسرقة لكى تعيش . . والخواجة ليس محتاجا للسرقة ، ولكنه مع ذلك يسرق المحتاجين .

ـ هذا كلام مضبوط ، الله ينور عليك . .

لكن الفلاحين الآخرين ، لا يمكنهم أن يأخذوا حقهم بهذه الطريقة، لانهم ليسوا خفراء ، وليست لديهم مثلك فرصة مواتية للسرقة .

ـ نحن فى مجتمع ، اذا لم تأكل الناس فيه يأكلوك. . وأنا مسئول عن نفسى فحسب . وان لم أفعل ذلك سأكون عبدا كبقية الفلاحين !

ـ هل السرقة هى التى لا تجعلك عبدا ؟

ـ لماذا تسميها سرقة ؟ لماذا لا تسميها دفاعا عن النفس ، أو استرداد للحق . نحن فى زمن من لم يكن ذئبا كان فى الغنم !

ـ هذه العبارة الأخيرة حلوة !

ـ أنا لا أستطيع أن أباريك يا أفندينا . نحن قوم جهلة وأنت متعلم .

ـ لقد تفوقت على المتعلمين . . المتعلمون يأكلون خبزا مصنوعة من الذرة ، وأنت تأكل خبزا قمحا !

ضحك الرجل ضحكة ليست خالصة . ظهرت فيها أسنانه القوية التى يبتعد بعضها عن بعض . لكنه انتهز هذه الفرصة ، لما رأى فى عينى بعض الاعجاب بأفكاره . قال فى صوت رقيق وكأنه ينصحنى :

ـ أنا لا أدرى لماذا تفعل هكذا بنفسك يا « أفندينا » ألم تسمع « الولد » حسين الكاتب ، وماذا كان يصنع ؟ لقد اشترى خمسة عشر فدانا من السرقة . .

ـ دعك من حسين الآن ، ولا تغير مجرى الحديث .

صمت الرجل لحظة ، أخذ فيها يسوى من لحيته الكثيفة بأصابعه ثم قال :

ـ أنا لا يمكن أن أحرس هذا القمح الجميل ، لكى يذهب كله للخواجة ، وأولادى جوعى . وأومن ايمانى بالله بأن ما آخذه لأطعم به نفسى وولدى ليس حراما ولا سرقة !!

ـ انك يا عم محمد رجل واع . . ولكنك للأسف تحور هذا الوعى ، وتلف به نفسك فحسب ، ولا يعنيك أن يتعرى الآخرون أو يجوعوا .

ـ أنا رجل واقعى وبسيط . . قلت ان الفلاحين « عبيد » ! يرضون الذل ، فلا شأن لى بهم . أنا لا أستطيع أن « أؤذن للصلاة فى مالطة » ! . فكل انسان مسئول عن نفسه . . وأنا عركتنى الأيام .

ولقيت صنوفا منَ العسف فى التفاتيش والوسايا . . وقد وصلت الى هذا الحل ، وهو أن أعنى بشئون نفسى وأولادى ، ولا ألقى بالا للآخرين .

ـ هل يعتبر الفلاحون عبيدا ، لانهم لا يسرقون ، وهل اللصوص فقط هم الأحرار فى هذه الدنيا ؟

ـ يبدو لى ان هذا الوضع فى الدنيا التى نعيش فيها ؟ !

ـ ماذا تقصد بالدنيا ؟

أنا أقصد الوسية التى نوجد فيها !

وأحببت أن ، أجر رجل ، محمد خطاب الى مزيد من الحديث فقلت له :

ـ انت ذكى ، وحديثك ممتع ياعم محمد !

أنعشت هذه العبارة محمد خطاب ، وبانت السعادة على وجهه العريض . لكنه بدا وكأنه يريد أن يفيد من هذا الثناء فقال :

أنا سعيد جدا بكلامك يا خليل أفندى.

ثم صمت لحظة وأردف . . هل يعنى ذلك أنك لست غاضبا منى من أجل ، التبن ، الذى آخذه ، من تحت النوارج ؟!

ـ أبدا . . لست غاضبا . . قد أكون غاضبا لانك تأخذ تبنا فحسب.. هل يصلح التبن لاطعام العيال ؟!

قهقه محمد خطاب ، وضحكت معه . واتخذ الحديث بيننا بعد ذلك

دوريا وعرة . كان الحوار شيقا عكس خبرات الرجل العتيد .

أسهمت تجاربه مع عقله الرصين فى أن يستحوذ على كنز من المعارف ، لا يتيسر لكثير من أولئك الذين يبحثون عن المعرفة فى الكتب فحسب .

واصل خفير الخيرات حديثة :

ـ نعم يا سيدى ، وما دمت قد أطمأننت على صداقتك ، فاننى أحب أن أهمس فى أذنك : ان هذا ينطبق على وسية الخواجة .

سكت الرجل هنيهة . نظر فيها الى الأرض . ودفع بكنكة القهوة فى النار التى أوقدها أمام العشة . ثم استأنف الحديث وهو يحك جبهته البارزة ، والتى بدأ الزمن يحفر فيها وهادا :

ـ من هم الأحرار فى هذا البلد ؟ الانجليز ينهبون خيراتنا . . الملك؟ أرأيته كيف يغتصب هو وأسرته عمل أبائنا وأجدادنا وأرضهم . . الباشوات ؟ لقد كنت أعمل فى تفتيش أحدهم ، ولست أرى فارقا بينهم وبين ما يفعله الخواجة اليونانى ، وسرقته للفلاحين . الاستغلال واحد ، والفارق الوحيد هو ان الباشا يلبس طربوشا ، والخواجة يلبس قبعة !

من هم الأحرار فى هذه الوسية التى نعيش فيها ؟ الخواجة طبعا وحبيبته والكلب غاندى . ولعلك أدركت أنهم اللصوص الكبار فى هذه العزبة . . الخولة : أبو حطب الخولى حرامى !

وهنا قاطعته : أبو حطب حرامى ؟ . . وأجاب بحدة نعم أكبر حرامى ، أرجوك لا تقاطعنى ، حتى أكمل لك الصورة .

ـ تفضل . .

ـ الشيخ سليم حرامى ! . .

وكدت أطلق صرخة ، لولا انى كبتها ، حتى لا تدوى فى جنبات الليل الساكن . تساءلت فى صوت، حاولت السيطرة عليه : الشيخ سليم لص كذلك ! ؟ . . .

ـ نعم . . دعنى أكمل . . والكلافون لصوص ، وكذلك المقاولون وزملائى الخفراء ! هؤلاء هم المجموعة الراضية المستمتعة ، وهم الأحرار فى نظرى !

كف محمد خطاب عن الحديث فجأة . . ظهر كأنه يعمل فكره . أطرق رأسه الى الأرض . حبات سبحته تطقطق بين أصابعه ، وتقطع سكون الليل . ثم رفع رأسه ورمانى بنظره عميقة . . الوحيد الذى لا يسرق هو انت ! وتفسيرى لهذه الظاهرة الشاذة ، انك لازلت صغيرا . فيك براءة واضحة ! وربما تكون رأسك ملأى بالكلام الذى تعلمته فى المدرسة ، ولا زلت تقرآه فى الكتب ! يبدو ان عاطفتك مرهفة ، فالتصقت بوجدانك هذه المعانى . . صمت مرة أخرى ليقول فى أسى واضح ، يا للخسارة . . كان حسين الكاتب السابق « ولد تمام » .... كنت أستمع

فى شغف لمحمد خطاب . وأدرك هو ذلك بلمحايته . أراد أن يستغل رغبتى فى الاستماع اليه ، فقال لى بعد تردد قصير :

ـ أريد أن أقول لك شيئا ، اذا ما عاهدتنى ألا تغضب منى . .

فأجبته :

ـ لقد تعاهدنا على الصراحة ، وسوف لا أغضب من أى شيء تقوله .

وهنا فاجأنى خفير الجرن العتيد بقوله :

ـ أنا أعتقد انك وان كنت موظفا ، بل فى قمة فئة الموظفين فى مجتمع الوسية ، الا انك تعتبر من العبيد ، لانك تسير فى ركب الفلاحين ، ولا تمضى فى ركب « الأحرار » !

ثم صمت ثانية ولكنه عاد وانفجر فجأة قائلا ، وقد بدا فى عينيه وعلى شفتيه اللتين زمهما زماشديدا ، معنى لا يكاد المرء يخطئه : كان فيها استنكار واشمئزاز :

ـ لم أرطول حياتى انسانا مثلك ، كاتبا فى عزبة مساحتها خمسمائة فدان ، ويتصرف فى شئون الأنفار والحقول والأجران والمخازن والخزانة وغيرها ، ويرضى أن يعيش هذه المعيشة . . أنا رأيى . . وهنا استدرك قائلا : لا تؤاخذنى ، لقد اتفقنا على ألا تغضب . . أنا رأيى أنه لا يرضى بهذا الطعام الا العبيد !!

هز محمد خطاب رأسه بطريقة تعبر عن المعانى التى يريد أن ينقلها الى . . كانت حركة رأسه وشفتيه جارحة . ولكن المعانى التى كانت تستتر وراءها كانت واقعية . لا مراء ان ما قاله لى محمد خطاب قد أصابنى بجراح . بعبارة أخرى ، قد نكأ جراحا كانت دائما هناك . وكانت للجراح أثار سطحية ، هى أننى أسمع لأول مرة أننى واحد من العبيد . على أن الأثر العميق للجراح كان خيبة الأمل فى المبادىء التى عشت معها ولها طوال السبعة عشر عاما التى انصرمت من عمرى .

على أننى تخلصت من ألم الجراح بسرعة . فقد وعدت الرجل بألا أغضب . وأنا كذلك أريد منه أن يسترسل فى الحديث . فعلى الرغم من عدم احترامى لهذا النوع من الناس ، الا أننى أحترم جانب المعرفة لديهم . كان محمد خطاب الى جانب معرفته الواسعة ، يثير اعجابى بالطريقة الفنية التى يعبر بها عن أفكاره . كنت حريصا كذلك على أن أتعرف على خبرته ونظرته للحياة .

سألته :

- هل يعنى هذا انك تقرن العبودية بالجوع أو بالغذاء السيىء ؟

- هو ما أقصده تماما . . ان الجائع لا يمكن أن يكون حرا . . ويدخل فى حكم الجائع بطبيعة الحال ، أولئك الذين يتكون غذاؤهم من الخبز الأذرة والمخلل !

ذكرتنى اجابة محمد خطاب بأيام الجوع فى مدرسة الزقازيق الثانوية ، حيث يتسبب الجوع فى خواء العقل ، كما يتسبب فى خواء البطن . وبهذا فالجوع لا يستلب الحرية فحسب ، ولكنه يستلب القوى العقلية كذلك .

ـ هل معنى ذلك ان الذين يملأون بطونهم أحرار ؟

ـ ان الذين يملأون بطونهم نوعان : الذين يملؤون بطونهم بالعيش الذرة والمخلل ، وهؤلاء لا شك عبيد ! . وأولئك الذين يملؤونهابالخيرات التي خلقها الله للناس . فاذا صرفنا النظر عن ملاك مجتمع الوسية ، فلا جدال ان أولئك الذين يحظون بأكبر قدر من هذه الخيرات ، بأية طريقة كانت ، يعتبرون أحرارا !

ـ هل تعنى ان حسين وأبو حطب والشيخ سليم وأنت تعتبرون أحرار هذا المجتمع ؟

ـ هذا أمر لا جدال فيه . . لعلك لا حظت ان هذه الفئة تسهم فى السيطرة على الناس والأموال .

ـ لكن ما تقوله لا ينطق على الشيخ سليم . .

ـ الشيخ سليم شخصية غريبة . فهو الذى فرض على نفسه هذا الطعام الردىء . وقد شاء لنفسه أن يظل فى دنيا العبيد . فهذا رجل لا يعرف ان طعاما آخر غير ذلك .

ارتحت مؤقتا لهذه الاجابة ، اذ يبدو انه لم يعلم بقصة الفسيخ . وقلت له .

- ولكنك ، يا عم محمد ، ليست لك سلطات على الناس ، فأنت لا تعتبر - طبقا لنظريتك حرا كاملا !

- ليست السلطة فقط هى التى يباشرها الانسان على الناس . ولكن السلطة قد تكون أقوى اذا ما باشرها الانسان على الأموال والخيرات . فالسيطرة على الناس ما هى ، فى نظرى ، الا وسيلة للسيطرة على الأموال ! وأنا يوكل الى حراسة محصولات كبيرة .فأنا أستمد سلطتى وحريتى ، وبالتالى أملأ بطنى وبطون أولادى ، بحكم انتمائى المباشر لهذه الخيرات !

- حتى ولو لم تكن لك ؟

- يستوى الأمر ، فأنا لا أملك شيئا . . ولهذه لابد من طريقة أخرى لأخذ نصيبى من هذه الخيرات . . والوسيلة هنا فى نظرى ، هى أننى حارس الجرن !

وهنا شق الفضاء أذان الفجر من مصلى العزبة . بمجرد سماع الأذان سكت محمد خطاب فجأة عن الحديث . كأنه شهرزاد تسكت عن الكلام المباح ، عندما ينبلج الصباح ! ثم رأيته ينتفض واقفا . تعلو « بسملته وحمدلته » . وأخذ يتوضأ من القلة التى كانت موضوعة عند

باب العشة . لم يلتفت لوجودى . لم يستأذننى فى قطع الحديث بسبب صلاة الفجر . كأننى لم أكن زميله فى حوار طريف . انتهى من وضوئه . استقبل القبلة أخذ يرفع يديه الى السماء ، ويستغرق فى صلاته . وبدا من خشوعه ، أن هناك بالاضافة الى ايمانه ، ثناء خاصا لله : انه يحميه فى سرقاته ، ويحتفظ له بوظيفة الخفير . ان الله كذلك جعل كاتب العزبة صديقا له ، لا يعترض على سرقاته ، ويستمتع بأحاديثه !

حينما يعود الانسان بذاكرته الى ذلك الحوار الشائق ، الذى دار بين محمد خطاب الخفير وبينى ، عندما كنت صبيا فى السابعةعشرة من عمرى ، يثب الى ذهنى تساؤل غريب : كيف يطرق محمد خطاب بمنطقة البدائى ، الذى صقلته الخبرة ، ولم تدعمه قراءات ومعارف علمية ، هذه القضايا ، التى كانت الشغل الشاغل للاشتراكيين فى كل مكان ؟ فقد بحث هؤلاء فى السلطة على الناس والسلطة على الأموال وملكيتها . هل تعتبر تلك الموضوعات بديهية ، يصل الانسان اليها ببديهته وخبراته ، كما وصل اليها محمد خطاب الفلاح الخفير ؟ واقتصر دور أولئك العلماء على صقل الفكر البدهى ، واعطائه النكهة العلمية ؟

كان هم محمد خطاب أن يأكل من القمح ، ومن خيرات جرن

الخواجة . وهو عَلى وعى بأن هذه الخيرات نتجت عن عمله وعمل زملائه فى الوسية . وان ظلما وقع عليه منعه من أخذ نصيبيه منها . وان الخواجة يفترس هذا النصيب . وان من حقه أن يسترده ، أيا كانت وسيلة الاسترداد . ان السلطة على الأموال التى تمكنه وظيفة الخفير والبندقية التى يحملها من مباشرتها ، تجعل من حقه أن يسرق القمح ، وهو يعتقد أنه استرداد للحق . وانه ليس هناك فارق بين الخواجة الذى تعطيه القوانين التى خلقها النظام الاقطاعى أو الرأسمالى ، سلطة على الأرض عن طريق تملكها ، وبينه ، وهو الذى يملك سلطة تسندها بندقيته ، وعقيدة خاصة بأن له نصيبا فى تلك الأموال .

كانت هناك وصاية رجعية مفروضة على العقل المصرى ، الذى ألقت عليه الحكومات المتعاقبة ستارا كثيفا من الظلام ، منع الفكر الانسانى من الوصول اليه . على اننى كنت قرأت شيئا عن الثورة الفرنسية وكيف قضت على النظام الاقطاعى . والوسايا فى مصر كانت تحمل أهم ملامح الاقطاع . لذلك تساءلت فى حوارى مع محمد خطاب عما اذا كانت هناك وسائل تقتلع الظلم من جذوره على نمط الثورة الفرنسية . بل تساءلت عن وسائل أكثر تقدما عن تلك الثورة تقضى على استغلال الانسان للانسان . وبذلك يشارك الناس جميعا ، لا الخواجات والباشوات والخفر والخولة والكتبة والمقاولون

فحسب - فى الخيرات التى أوجدها الله ، وأنتجها الانسان .

ان انتفاضة الفلاحين ضد الخواجة ، لم تكن ثورة على أصل الظلم . ولكنهم تجمعوا للسخط على سرقة مباشرة ، أراد الخواجة أن يباشرها على محصولاتهم . وهو نفس الشيء الذى كانوا سيفعلونه لو هاجم لص شرس منازلهم ليستلب مواشيهم ومحصولاتهم . ومع ذلك يجب عدم التهوين من تلك الحركة ، حتى ولو كانت منصبة على السرقة المباشرة فحسب . فعملية الاستغلال والسرقة كل لا يتجزأ . والقوانين التى تخول الخواجة ومن يماثلة ملكية الأرض . وتحرم الفلاحين منها . ونظام الاستغلال الزراعى (ايجارا ومزارعة وأجرا يوميا) الذى يعتبر السبب الرئيسى لتجويع الفلاحين ، وتخمة الخواجة المالك للمزرعة ، قد تكون أمورا لا تسبب سخط الفلاحين المباشر . فطالما ان التنظيم الاجتماعى والقوانين تحمى هذه الأوضاع ، فانهم يأخذونها كقضية مسلمة . أما أن تؤخذ آموالهم بطريقة السرقة المباشرة ، فهذا أمرملموس يمكن أن يثوروا عليه . وعلى أية حال ، فقد تكون هذه السرقة محكا يشعل وعيهم . لقد فطنوا إلي انه لا يسرق محصولاتهم فحسب بل يخفض ثمنها الحقيقى . وهم يعلمون كذلك انه بسبب السيادة التى تخوله اياها ملكيته للأرض ، فانه يستغلهم فى العمل فى حقوله بأجور تافهة . وسوف يدركون حتما انه يحدد ايجارا مرتفعا للأطيان التى يستأجرونها منه . وبهذا فأى سبب يجعلهم يحسون

بالظلم ، ويتجمعونَ ضده يعتبر مفيدا . وهو ، على أية حال ، يناقض نظرية محمد خطاب فى أنهم عبيد . فهم ثاروا وتجمعوا أمام قصر الخواجة ، وتخلف هو مع « الأحرار » الذين يباشرون حرياتهم فى جنح الظلام !

٣٠

بعد يومين من حوارى مع محمد خطاب ، ذهبت الى قريتى لأزور أسرتى ، شعرت أننى فى حاجة ماسة الى حنان يخفف عنى حدة الصراع الذى أعانيه فى مجتمع الوسية . ويرد الى نفسى بعض الثقة فى المعانى الجميلة التى عشت لها فيما مضى من عمرى .

استقبلتنى أمى وأبى بالأحضان على غير عادتهم . كان البشر يتألق فى وجوههم وكانت تترقرق فى مآقيهم دموع تختلف عن الدموع التى عهدتها فى هذا البيت ، الذى ما كان يتخلص من أزمة الا ليتردى فى فاجعة . كانت الدموع هذه المرة فيها فرح وفيها ابتهاج لا عهد لى بهما . التف اخواتى حولى يعانقننى :

- ما الخبر يا أماه ؟ ما هذا البشر يا أبتاه ؟ . .

سارعت أمى بالأجابة ، فقد كانت لاتستطيع أن تكتم عواطفها :

- الخبر خير . . انت مصدر الخير والسعادة لنا .

- ما زلت لا أفهم سبب هذا السرور . .

وأجاب والدى :

- سوف تفهم حالا . . .

ثم نادى على « سعاد » أختى الكبرى هاتى يا سعاد الحاجات .

بعد برهة قصيرة ذهب بى الخيال فيها كل مذهب ، بانت سعاد وعلى رأسها صينية كبيرة . وضعتها أمامنا على « ترابيزة » قديمة متبقية من أيام العز . كنا نجلس على الكنبة نفسها ، التى كنت أهربها أنا ووالدتى حتى لا يحجز عليها المحضر . شهدت على الصينية منظرا مدهشا : فطير ، مشلتت ، عسل نحل وقشطة !! رفع المشهد من معنوياتى . رد لى بعض الثقة فى ان هذه الدنيا فيها خيرات كما يقول محمد خطاب . وأنها يمكن أن تكون أحيانا جديرة بأن يحياها الانسان .

انطلقت من فمى صرخة : من أين لك هذا يا أماه ؟

والتففنا جميعا حول « الصينية » ، أكلت أكلة شهية . كان الفطير لذيذا دافئا يقطر سمنا . الأكلة جماعية مع والدى واخواتى . زاد هذا المعنى من حلاوة الفطير ! بعد أن انتهت الوليمة ، بدأت أسأل مرة أخرى :

- ما هذا التطور فى الطعام ؟

وأجابت أمى :

- ألا تدرى مصدره ؟ هو من فضل خيرك . .

- لست أدرى . .

- ألست أنت الذى أرسلت الرجل ، بزكيبة ، القمح ؟

- أى رجل ، وأى زكيبة ؟

وتدخل والدى قائلا :

- الرجـل محمد خطـاب ، الله يستره ! ، أرســل ابنه منــذ ليلتين ، بزكيبة ، ملأى بقمح هندى ممتاز . . وقال لنا ان خليل أفندى أرسلنى بهذه الأمانة . .

صعد الدم الى وجهى . دارت رأسى ، سرحت عيناى فى زرقة السماء التى كنت أراها خلال النافذة . صمت فترة طالت . وصمت الجميع ، وكأن على رؤوسنا الطير . ان الرجل المحنك قد بدأ عملية افسادى . أيكون الرجل قد فهم من اعجابى بحديثه ، وعدم اعتراضى على سرقاته من الجرن ، والحوار الذى تبادلته معه ، أنى أصبحت صديقه . لذلك يريد مكافأتى على صداقتى له ؟ أم ترى دار بخلده اننى طالما لا أعترض على سرقاته ، فأنا أيضا سوف لا أعترض على أن يمنحنى جزءا منها ؟ أيريد أن يقضى على ما بقى لدى من مبادىء ، أم أنه يريد منى أن أكون حليفا له . بهذا يضمن أن يظل

متصلا بالخيرات ، حيث أصبح باشكاتب العزبة شريكا له ؟ لعل الرجل مؤمن حقا بما يبدى من آراء . لا جدال فى أن حياته قد أكدت له هذه المعانى التى كان يعرضها على . وهو قد يريد أن يكسب لأفكاره أنصارا . . أو لعله يعتقد اننى صبى خجول صغير السن . ما زلت أتمسك بمعانى ليس لها وجود فى هذه الأرض . أو على الأقل ليس لها وجود فى مجتمع الوسية . وهو قد فعل ذلك ليعاوننى على أن أتخطى عمرى ، وأنضج وأفهم فلسفته . ان حماسة الرجل عندما كان يتحدث لى ، توحى بانه يريد أن يحررنى من عبودية ، العيش الأذرة والمخلل ، . وبذلك أصبح - وأنا با شكاتب العزبة - فى صف ، الأحرار ، الذى يعتبر هو من طلائعهم . هل أرسل الرجل هذه المنحة لأن قلبه كبير ، على الرغم من انه فى نظر القيم الاجتماعية السائدة يعتبر لصا ؟ لعل قلبه الكبير لم يرتض أن يستذلنا المخلل ، أو يقسو علينا العيش الأذرة ، فأراد أن يرفه عنا بهذه الزكيبة من القمح ؟

دارت فى ذهنى هذه التساؤلات ، خلال فترة الصمت التى سادت الغرفة ، بعد أن علمت مصدر الفطير . عصفت بوجدانى من جديد المعانى المثالية القديمة . طفرت الى خاطرى فكرة ارجاع القمح الى محمد خطاب . كيف نأكل فطيرا مصنوعا من قمح مسروق ؟

لكن هذه الفكرة تلاشت رويدا رويدا . أصبح القمح دقيقا . وأخذ

الدقيق طريقه إلي الفرن ، وخرج منه فطيرا . وتسلل الفطير الى بطون جوعى سعدت به كثيرا . وغاضت الفكرة فى وجدانى مع صوت والدى يقطع هذه الغفوة :

ـ هل غضبت ؟ هل يجوز أن تغضب وأنت ترى الفرحة على وجوهنا جميعا ؟

ترددت كثيرا قبل أن أقول :

ـ كيف نأكل حراما يا أماه ؟ هذا قمح مسروق من جرن الخواجـــة . .

ردت والدتى بسرعة فى لهجة واثقة :

ـ ليس هناك حرام أو حلال ! أليس حراما أن ينهب الخواجات أرضنا ، وأن يطردك الوزير المصرى من المدرسة ؟ أليس حراما أن نأكل العيش الأذرة والمخلل الذى حرق أفواهنا ، وقرح امعاءنا ؟

دعك من هذا الكلام . . انه حلال بدليل البهجة التى تتألق فى عيون اخواتك ، وكأنهن فى عيد . . لا تضيع علينا متعة الفطير . .الله يسترك يا عم محمد خطاب ويقويك وتبعث لنا بكثير من هذه الخـــــيرات !!

لمحت السعادة تضيء وجه أبى ، وينساب الرضا من عينيه ، فكتمت ما كنت أود أن أقول . . وألمت بى الهواجس . حتى والدى

يرددان الكلام نفسه الذى سمعته من محمد خطاب ، ومن الشيخ سليم ومن حسين الكاتب . . أواه . . ان فلسفة الوسية تخطت حدودهـا الضيقة ، وأصبح يؤمن بها الذين يعيشون على هامشها .

وفى اليوم التالى دخل على أبو حطب « الخولى » غرفتى . وهو شاب فى الحلقة الثالثة من عمره ، غائر العينين كث الحاجبين ، داكن اللون ، بدأ شعره يشيب وهو فى شرخ الشباب . وقذف فى وجهى بالخبر التالى :

ـ لقد سرقت منك ختم الجرن ـ بعد يأسى منك ـ وسطونا على «عرمة » القمح فجر اليوم . . وقد اعترفت لك بحـــكـم « العيش والملح ! » ، وحتى أكون أمينا معك !

لم ينتظر أبو حطب منى جوابا . تركنى فى ذهول ويأس . فى منتصف النهار جاءت هند أختى لتقول لى : « الله يستره الشيخ أبو حطب . أرسل لنا أردبين من القمح !! » .

بهذين الأردبين من القمح بالاضافة الى زكيبة القمح التى بعث بها محمد خطاب الى أسرتى بدأت عملية الافساد التى فرضها على مجتمع الوسية تضيق الخناق على ، وتعمل على تشويه وجدانى .

* * * *

٣١

جاء صيف ١٩٣٨ ، وفيه تخففت بعض الشيء ، من آلام المنح التى كان أبو حطب ومحمد خطاب يرسلانها الى أسرتى ، فلم تعد تثقل ضميرى . . وتخففت كذلك من العمل فى العزبة ، فأصبحت أؤديه أداء هينا رفيقا . وكان العمل فى الصيف خفيفا بطبيعته ، ينتقل النشاط فيه من الحقل الى الجرن عقب الحصاد : يعمل العاملون فى درس الغلال وتذريتها نهارا ، وتنشط قوى السطو عليها عندما يجن الليل .

استقبلت هذا الصيف بروح متخففه طليقة . وزاد من انطلاقى ان الخواجة وخليلته قد ذهبا الى وطنهما « اليونان » ليقضيا فيه فصل الصيف . ولينقلا اليه والى بنوكه الثروة التى تجمعت من حبات عرق الفلاحين المصريين . ذهبت الثروة المصرية مع الخواجة الى بلده أثينا ، لتنفق فيها وتثريها ، وتفتح لأبنائها أبواب العمل ، ويحرم الذين أنتجوها من أية فائدة يمكن أن تعود عليهم أو على وطنهم .

اصطحبت كليوبى الكلب غاندى معها هذه المرة ، لكى يصطاف هو الآخر . فجو مصر حار بالنسبة له ! ولم تكن مصاحبة غاندى لهما لاعطائهما متعة خاصة فحسب . ولكن ليرى غاندى وطن صاحبته ، ويلقى نظرة على تلك الأرض التى أنجبت أولئك الذين كفلوا له حياة

مترفة ، هيأها لهم فلاحون وأرض ينتمون لشعب آخر .

انقشع الصيف بسرعة : عاد الكابوس من اجازته . عادت معه همومى . عاد معه كذلك الوجه القبيح لمجتمع الوسية بكل قسماته البشعة ، وبكل منغصاته القاتله .

لم يضع الخواجة وقتا ، اذ أرسل فى طلبى فى اليوم التالى لوصوله لأقدم له حسابا عما تم فى غيبته . وكان أول شىء يطلبه منى هو حساب الخزانة . كان بعض المستأجرين الذين لا يقطنون عزبة الخواجة ، ولكن يقيمون فى القرى المجاورة ، يسارعون بدفع ايجار الأرض التى يستأجرونها من الخواجة ، خشية أن تؤخذ محصولاتهم . وتوضع فى جرن الخواجة ومخازنه ، فيغتصب الخواجة جزءا منها ، ويسطو « أحرار » العزبة على جزء آخر . لهذا جاء لى نفر منهم ليدفعوا الايجارات . رحبت بذلك ترحيبا شديدا ، فهناك نفقات يجب أن تدفع ، وأجور يجب أن تقدم الى أصحابها ، وكذلك لاننى أضمرت أمرا .

عرضت حساب الخزانة على الخواجة . بينت له الايرادات ثم المصروفات أو كما تقول الدفاتر : حساب « منه » أى الايرادات و « له » أى المنصرف .

ثم بدأت أعرض عليه بنود « له » أى الانفاقات التى تمت فى غيبته : سكر للحصان . . لحم للكلاب . . أجور أنفار . . حساب

المقاولين . . وبعد ذلك أتيت الى بند يقول ثمانية جنيهات ماهية ثمانية أشهر للكاتب : خليل حسن خليل :

شحب وجه الخواجة شحوبا شديدا . غارت عيناه المنتفختان . تطاير منهما شرر كذلك الذى يتطاير من عيون الجان . ثم انفجر صارخا :

- ماذا تقول ؟

وأجبته بصوت حاولت ما استطعت أن يكون هادئا :

- أقول ثمانية جنيهات صرفت للكاتب خليل حسن خليل نظير مرتبه فى ثمانية أشهر .

- من هو الكاتب خليل حسن خليل هذا ؟

- أنا !!

- ومن أمرك أن تعطى لنفسك نقودا من الخزانة ؟

- أنا أعمل عندك . . ولابد أن آخذ أجرى .

- هل أعطيتك أمرا لتأخذ « فلوس » من الخزانة ؟

- لا ، أنت لم تعطنى أمرا ، لكن كيف أظل ثمانية أشهر من غير الحصول على أجرى . . وقد طلبته منك مرات كثيرة قبل سفرك ، فقلت انه ليس لديك نقود ، وطلبت منى أن أنتظر حتى تحصل الايجارات من المستأجرين .

- أنا لم أقل هذا الكلام .

- يظهر أنك نسيت ما قلت لى .

- أنا قلت لك انتظر حتى يأتى الايراد ، انما لم أقل أن تتصرف فى عهدة الخزانة كما تشاء .

- لقد حصلت على ماهيتى تماما كما دفعت للعاملين فى الحقل أجورهم .

وهنا علا صوت الخواجة ، وقال بلهجة فيها تعجرف ووعيد :

- أنا لا أريد أن أطيل الكلام معك . . هذا المبلغ يعـــود الى الخزانة . . وتأتى بالحساب كله كاملا بما فيه الثمانية جنيهات . . هل تفهم ما أعنى ؟

- ومرتبى .

- بعد أن تحضر النقود ، سوف ننظر فى ذلك .

- كيف ؟

قبل أن أنتهى من الكلام قاطعنى بصوت فيه وقاحة وقبح :

- اخرج من هنا فورا ، واذهب لا حضار النقود . . غدا صباحا يكون المبلغ كله عندى هنا .

انصرفت ، ولم أقص على أحد قصة هذا الحوار . ثم عدت اليه فى

اليوم التالى ، وكان مضطجعا على أريكة فى الصالة الكبيرة الوثيرة الرياش . وكانت الموسيقى تنبعث من الراديو ، وكأنها نعيق الغربان . كان يلبس « روبا » من الحرير ، يبرز منه كرشه المنتفخ .

وكانت تتناثر فى الصالة طنافس زاهية الألوان ، تدل على ذوق رخيص لم يهذبه الثراء . وكانت كليوبى تسترخى الى جواره ، وقد انتفخ بطنها هى الأخرى . وكان وجهها مطليا بأصباغ قوية متعددة يناقض بعضها بعضا . كما تفعل زميلاتها من بنات الهوى . وأكتملت اللوحة « بغاندى » الذى اعتلى المنضدة ، وأخذ عبده يضع المشويات فى فمه قطعة قطعة .

فى هذا الجو الكريه بدأت كتلة الشحم الملفوفة فى الروب « الحريرى » تخاطبنى :

- هل أحضرت النقود ؟

- المبالغ المطلوبة معى من البداية .

- لا أريد كلاما كثيرا ، هل أحضرت المبلغ كله أولا ؟

- مرتبى الذى تقصده أعطى لأهلى ، وأنفقوه على الطعام .

- يظهر انك لن تستجيب بسهولة . . اذهب واحضر الفلوس ، وألا أبلغت البوليس بانك اختلست أموال الخزانة فى غيبتى . . وهذه خيانة للأمانة . . وجزاؤها السجن .

لبث الخواجة صامتا برهة يسيرة ثم صاح قائلا :

انت حرامى . . أنا لازم أضعك فى السجن . . امش . . نادى الشيخ سليم وأبو حطب .

كانت عملية من التقزز قد بدأت تتراكم فى وجدانى ، وكان لون من الغثيان قد أخذ يزحف رويدا على نفسى . وكنت أوشك أن أنفجر فى وجه هذا المخلوق الكريه . ولكن صوتا آخر كان ينادينى : اصبر على المكروه ، وصابر هذا الشخص القبيح . كنت صغير السن لا دراية لى بالسجون والاختلاسات والسرقات . أحقا اننى مختلس ، واننى خنت الأمانة ، واننى لص ؟ هل يجوز أن يأخذ الانسان أجره الذى تراكم ثمانية أشهر كى يستطيع أن يستخدمه هو وأسرته فى الضرورات الدنيا للحياة ، اذا كان مشرفا على خزانة ، بنفس الطريقة التى يصرف هو نفسه بها أجور العاملين فى المزرعة ، أم لابد له من اذن من صاحب العزبة ؟ وهل يعتبر الاذن ضروريا اذا كان صاحب العزبة غائباً ؟ كيف ينتظر ثمانية أشهر دون أن يأكل هو وأسرته ؟ هل القانون الذى شرعه المشرعون لمجتمع الوسية يأخذ هذه الاعتبارات فى حسابه ؟

أيهددنى الخواجة لصغر سنى ؟ . . انه أصبح وقحا غاية فى الوقاحة لقد قال لى : « امش نادى لأبو حطب والشيخ سليم » . وكلمة « امش » لا تقال الا للكلاب . بل اننى لم أسمعه مرة واحدة ، لا هو

ولا خليلته ، يقول للكلبّ غاندى « امش » !

لكن لماذا يصر على أن يسترد منى أجرى الذى تراكم ثمانية أشهر ؟ أهو حقا حريص على الشكل ، أى لابد لى من استئذانه أولا قبل أن أحصل على مرتبى ، أم انه يضمر أمرا آخر ؟ انه لم يغفر لى اطلاقا اننى أجريت حسابات أمينة للفلاحين . وانه تبقى لهم جميعا ، ولأول مرة ، مبالغ كبيرة بعد أن سددوا ايجاراتهم وديونهم . ولم ينس اننى أخبرت الرجال بهذه الحسابات . اننى منذ ذلك اليوم لم أتسلم قرشا واحدا من أجرى ، ذلك اليوم الذى سخط فيه الرجال عليه وتجمهروا أمام قصره .

اذن ، هى الحقيقة صارخة . الخواجة لا يريد أن يـدفع لى أجـرا . ويضمر لى عقوبة ، مؤداها أن أعمل لديه هذه الفترة الانتقالية دون أجر . لقد درج أن يوقع غرامات على العاملين فى الوسية يحددها كما يهوى . وهى عملية تسهم هى الأخرى فى الاستغلال والسلب الذى يباشره على أرازقهم . انه لا مـراء فاعل بى ما يفعل بالفلاحين . وبهذا فتهديده لى بالسجن وبالبوليس ، هو عملية تخويف ، لكى يبتز منى الثمانية جنيهات . انه يريد أن يغتصب أجرى الرخيص الذى أتقاضاه عن خمسة أنواع من العمل تبدأ مع الفجر ولا تنتهى الا حين

ينتصف الليل . عندما وصلت الى هذا القدر من التحليل شعرت براحة لم أعد معها خائفا من السجن . أصبح الصراع بينى وبين الخواجة فحسب .

دارت هذه الأفكار برأسى وأنا فى طريقى لاستدعاءالشيخ سليم وأبو حطب لمقابلة الخواجة . . صعد ثلاثتنا الى الطابق العلوى للقصر . جاء صوت الخواجة متثاقلا :

ـ كيف حالك يا شيخ سليم . . وأنت يا أبو حطب ؟

وجاء ردهما فى صوت واحد :

ـ الله يخليك لنا يا جناب الخواجة . . أوامرك . .

ـ أقعد يا شيخ سليم ، أقعد يا أبو حطب . .

وجلسا ، ولم يطلب الخواجة منى الجلوس ، وارتفع صوته المتعجرف مرة أخرى فقال مخاطبا كبير الخولة والخولى الأول دون أن ينظر الى :

ـ الولـد هذا ، أخذ ثمانية جنيهات من الخزانة ، ولايريد أن يعيدهـم .

فهم أبو حطب على الفور المقصود « بالولد » وتساءل الشيخ سليم :

ـ الولد من ؟

ـ الولد الكاتب هذا !!

سادت المكان فترة سكون قصيرة . اخترقت فيها الاهانة الجديدة صدرى ، وبدأت تسهم فى عملية تمزيقه . خاطبنى الشيخ سليم وأبو حطب :

ـ لماذا فعلت هكذا يا خليل أفندى ؟

الحمد لله لا زلت « أفندى » فى نظرهما . ولست « ولدا » كما يقول الخواجة . وأجبتهما :

ـ هذا المبلغ هو أجرى ، أنفقته أسرتى ، وأكلت به خبزا .

ضاق الخواجة بهذا الرد الذى سمعه من قبل . ثم نهض متثاقلا ، وطلب من الشيخ سليم وأبو حطب أن يتبعانه الى غرفة النوم . ولبثوا هناك فترة غير قصيرة . . وتركونى مع كليوبى التى بدأت تخاطبنى قائله :

ـ لماذا أغضبت الخواجة يا خليل ؟ ألا تعلم انه رقيق ، ويعانى من أزمة عصبية . . لماذا لاتعيد النقود التى أخذتها من الخزانة ؟

ـ يا ست اخواتى لا يستطعن البقاء دون أكل لدة ثمانية أشهر .

ـ لماذا ؟!

لم أتمكن من الاجابة على سؤالها . ذلك ان الانسانة ـ ولو انها كانت انسانه ضائعة عندما كانت تعمل فى دنيا الهوى ـ التـى تسأل هذا السؤال ، لا ريب انسـانة تافهة . انهـا كذلك لا تحس ان كلبهـا

« غاندى » عندما يطعم بالحمام « المشوى » ، قد سبب لى عقدة رهيبة ستبقى معى ما بقيت فى هذه الحياة . واستأنفت كليوبى الحديث :

ـ وحياتك يا خليل ، لا تغضب الخواجة تاكى ، واعط له الفلوس .

ـ يا جناب الست ! هكذا كانوا يلفبونـها ـ الفلوس أخذوها الى السوق ، واشتروا بها أذرة ، وذهبوا بالأذرة الى ماكينة الطحين ، فأصبح دقيقا . . وجاءوا بالدقيق ووضعوه فى الفرن ، وخرج من الفرن خبزا للبنات وقد اكلنه فعلا .

ـ أنا لا أفهم ما تقول .

عاد الخواجة ومعه معاوناه المخلصان . انتحى بى الرجلان جانبا . أخذا يحثانى على أن أرد المبلغ الى الخواجة ، وسوف يعطينى اياه مرة أخرى . كان السبب الذى استندا عليه ان الخواجة رأسه صلبة . وقد غضب لعدم استئذانه فى أخذ المبلغ . وكان أبو حطب أكثر حماسة من الشيخ سليم فى الاصرار على أن أرد النقود . قال بلهجة وكأن الخواجة هو الذى يتكلم :

ـ بصراحة ، الخواجة قال لنا اذا لم تحضر النقود ، فسيبـلغ البوليس ، ويضعك فى السجن .

وضاق صدرى بكبير « الأحرار » فى العزبة عندما قال :

ـ انت لم تقبض مرتبك لمدة ثمانية أشهر ، مسألة بسيطة ، أنا لم أقبض مرتبى منذ أكثر من سنة .

انفجرت فىّ أبو حطب قائلا :

ـ أنت تستطيع أن تمكث دون أخذ مرتبك سنة أو أكثر . . وأنت تعلم السبب كما أعلمه أنا .

ثم علا صوتى :

ـ أسكت يا أبو حطب ، والا فلا تلو من الا نفسك . . انك تفهم ما أعنى .

شحب لون أبو حطب . خرس لسانه الذى كان ذلقا سليطا . لما سمع الخواجة صياحى فى وجه أبو حطب تدخل صارخا :

ـ اتركوا هذا الولد ، لا فائدة ترجى من ابن الـ . . . . هذا .

وكانت كلمة ابن الـ . . . هذه كالقشة التى قسمت ظهر البعير كما يقولون . كانت الشرارة التى فجرت البارود الذى تراكم فى أعماقى فى هذه السنين الطوال التى قضيتها فى الوسية . وثبت الى ذهنى الكوارث التى حلت بنا : ضياع الأرض والحرمان من التعليم. تراءت لى ألوان العذاب والتقزز التى حاقت به منذ التحاقى بالوسية . الكلب غاندى يأكل اللحوم والحمام . ويأكل الفلاحون العدم الذى وصفه أبو حطب ومحمد خطاب بأنه غذاء المواشى والعبيد . عملية النهب التى يمارسها الخواجة مستعينا بقوانين الايجار ونظم المزارعة . السرقة المباشرة يباشرها على محصولات الفلاحين وأجورهم . الاحتقار والقسوة التى يصبها الخواجة

على وعلى الفلاحين ، الرقة والحنان يغدقهما على الخيل والكلاب . . ،الجرسونات ، اليونانيون الذين فتحوا ، خمارات فى بلادنا ، ، وبواسطتها استولوا على أراضينا ، فأصبحت ثرواتنا فى يد الأجنبى يستخدمها لا ستغلالنا : مستأجرين ومزارعين وأجراء . كيف يمكن أن نكون عبيدا فى بلادنا ؟ وكيف نرضى أن يستعبدنا جرسونات أجانب ؟ ان الخواجة يريد أن يسطو على أجرى الهزيل ، ويريد أن يعـــــاقبنى لا ننى أجريت حسابات أمينة للفلاحين .

• لست لصا فأرضى بالبقاء فى هذا المجتمع . ان ما فى هذه البيئة من لصوصية ونهب ونفاق لا يتفق مع القيم التى أتخيلها . . وأنا أيضا لست مستفيدا من هذا المجتمع كما يستفيد ، أحراره ، . ان كل نسمة أتنسمها فيه ، هى شهاب من نار تحرق صدرى . اننى فى سجن مظلم ثقيل . ولا بد لى أن أتحرر منه . ماذا دهانى ؟ كيف أقبل العمل فى هذه المزرعة نظير أجر هزيل ، لايكفل لى الا طعام البهائم والعبيد ؟ سوف لا أكون بعد اليوم عبدا أو حيوانا .

وانداح فى وجدانى سيل آخر من المعانى : ان وزارة الوفد قد أبرمت مع الانجليز معاهدة ١٩٣٦ . وهى وان لم تحقق كل المطالب الوطنية ، الا انها حققت مطلبا أساسيا ، كان وجوده سبة فى جبين مصر والمصريين ، ألا وهو الغاء الامتيازات الأجنبية، التى تناولها

محمد خطاب فى حوارى معه . وقد تم الغاء تلك الامتيازات نهائيا فى مؤتمر مونتريه بسويسرا بين الحكومة المصرية والحكومات الأجنبية صاحبة الشأن فى هذا العام ١٩٣٨ . اذن فهذا الخواجة القمىء لا يستطيع أن ينال منى ، ومن كرامتى ، ولا بد أن ألقنه درسا.

برقت كل هذه المعانى فى خـــاطرى بعد أن سمعت كلمـــة ابن الـ . . . .

انطلقت فى الخواجة كالقنبلة :

- هل تريد أن تنهب أجرى ، كما تنهب أجور الفلاحين ومحصولاتهم . . لن أمكنك من ذلك . . لك أن تذهب الى البوليس ، أو الى جهنم . . لا أريد العمل عندك . . لست أريد أن أشهد سرقاتك للفلاحين ، ولا أريد أن تستخدمنى لسرقتهم . . انت لم تنس مطلقا قصة الحسابات التى عملتها للفلاحين . . انت تريد للذين يعملون معك أن يكونوا لصوصا مثلك . . أما الشرفاء والأمناء لامكان لهم فى عزبتك انت يونانى ، وأبوك جرسون ، ونهبتم أرضنا ، أتريد أن تستبعدنا فى بلادنا . . انت ابن الـ . . . . . .

كانت الكلمات تنطلق كالصواريخ ، وتتتابع كالحمم . وحاول الشيخ سليم وأبو حطب أن يسكتانى ، فلم يستطيعا . بهت الخواجه . أخذ على غرة بهذه الثورة العارمة ، التى تحدث لأول مرة فى مملكته . لم

يحدث أن ثار شخص عليه بهذه الطريقة أو بغيرها . كيف يتسنى للعبيد أن يخاطبوا السيد المطلق بهذه اللهجة . على انه ما انتهيت من فورتى ، حتى قفز الخواجة من الأريكة التى كان يضطجع عليها . وهجم على ، وأوشك أن يفتك بى ، لولا اننى أفلت من بين يديه ، وقفزت الى الخلف . هبطت السلم فى خفة عجيبة ، لم تمكنه سمنته من أن يجارينى فيها . هبط خلفى فى بطء . . صرخ قائلا : قف يا ابن . . . أنا سأضربك بالرصاص . ورأيت مجموعة من الفلاحين قد تجمعت على قرب من باب السراى . كان صوت الخواجة مرتفعا ، والصرخات التى أطلقتها فى وجهه قد دوت فى أرجاء الليل الساكن ، فجاء بعض الفلاحين يستطلعون الخبر . .

اندفعت مارا أمامهم ، واندفع الخواجة خلفى . لم يتحرك أحد من الفلاحين للدفاع عنى ، وقد كنت ضحية الدفاع عنهم . كانوا يتفرجون علينا . يتابعون المشهد فى بلاهة : كاتب العزبة يجرى ، والجزع يرعش أوصاله . والخواجة يعدو خلفه يحاول اللحاق به . لم يصنع الفلاحون شيئا . كذلك لم يفعل الشيخ سليم وأبو حطب ، لم يمسكوا بالخواجة الغليظ ليمنعوه من أن يفتك بى . كانت بينى وبينهم صداقة وزمـالة وألم ، وحسابات أمينة ، وعيش أذرة ومخلل ، وفسيخ وبطيخ ، وقمح !!

طفقت أجرى . أهيم على وجهى فى جنح الليل . لم تكن لى وجهة ، فلا أدرى أين أذهب . اتجهت نحو المصلى على الترعة ، لعلنى أجد فى المصلى حماية . ما لبث الخواجة أن اقترب منى . اقتحم المصلى بنعاله . قفزت فوق حائط المصلى بسرعة . تابعت الجرى ماذا أفعل ؟ اننى ان ذهبت الى غرفتى ، سوف يتبعنى الخواجة ، وقد يفتك بى . وبيوت الفلاحين لا أعتقد انها سوف تأوينى . اذن لا مناص من مواصلة الجرى فى اتجاه قريتى .

على أن خوفى من بطش الخواجة بى ، بل خشيتى من أن يضربنى بالرصاص ، قد أعطيانى قوة غير عادية . فجريت فى سرعة مجنونة على « المشايات » فى الحقول . وقفزت فوق الجداول والمصارف . وتعثرت أقدامى فى الأراضى المحروثة . وانكفأت على وجهى مرات عدة . لكننى تابعت الجرى ولم أنظر خلفى الى أن وصلت القرية .

طرقت باب منزلنا ، وكاد الليل أن ينتصف . استيقظت الأسرة كلها .

كان وجهى أصفر ممتقعا ، وجسدى ينتفض كالطير الجريح . قدماى وساقى لا تقوى على حملى . كنت منقطع الأنفاس مضيعا على اننى استطعت أن أنتزع هذه الكلمات :

ـ اذهبوا لتناموا . . أنا بخير ، لكنى متعب بعض الشيء . . خارت قواى . سقطت على الحصيرة . وضعوا وسادة تحت رأسى .

واستسلمت لاغفاءة من النوم .

٣٢

أمضيت الأيام الأولى ، بعد هروبى من العمل فى مزرعة الخواجة اليونانى ، فى استرخاء لذيذ ، شعرت معه بأن ذلك الكابوس ، الذى ربض على صدرى سنوات خمسا طوالا ، قد انزاح الى غير رجعة . لا مراء فى أننى تحررت من ذلك اللون من العبودية ، الذى فرض على فى هذه الوسية طوال هذه المدة ، اننى أتنفس الآن بحرية . لم يعد حتما على أن أرى وجه الخواجه القبيح ، الذى ينعكس فى قسماته الوجه الردىء للبشرية ، بما فيه من قسوة وقهر وامتهان الانسان للانسان . استطعت أن أتخفف كذلك من الشعور المرهق ، الذى يغشانى حين أرى البائسين الذين يزرعون الأرض ينشر البؤس أجنحته الكثيفة عليهم .

اننى أبقى فى فراشى الى ما بعد طلوع الشمس ، وأنعم بذلك التمدد اللذيذ فى الصباح . لم أعد مضطرا الى النهوض فى الفجر ، لأشرف على علف المواشى فى « الاصطبل » ولن أخوض مع الكلافين فى روث الماشية ، فأستقبل اليوم استقبالا كريها ، حيث تظل رائحة الحظائر

عالقة فى أنفى طـّول النهـار .

لم يتغير شيء فى مستوى عيشى . فأنا أكل الخبز الأذرة والمخلل الآن كما كنت أفعل وأنا باشكاتب العزبة . وعلى هذا فأنا لـم أخـسر شيئا ، بل كسبت شعورا لذيذا ، هو التحرر من القهر والخوف .

لم يكن يعكر صفوى ، ويقلل من فرحتى بالتخلص من الوسية ، الا تلك النظرات الكسيرة التى كنت ألمحها فى عيون اخواتى ووالدتى . كان أبى هو الانسان الوحيد الذى كان مرحا ، ينبعث من عينيه شعاع قوى يرفع من معنوياتى .

كانت هذه هى حالى فى الأسبوع الأول لخلاصى من مجتمع الوسيـة . ومـا أن انقـضى ذلك الأسبـوع الأول ، حتى خيـل الى ان مـا تصورته من سعادة وتحرر ، ما هو الاومضة عابرة التمعت فى خيالى . وقد بدأت تخبو شيئا فشيئا ، لتترك مكانها ظلاما ثقيلا .

أحقا أننى تخلصت من عذابات الوسية ومنغصاتها ؟ ربما أكون قد تحررت منها جسديا . فأنا لست الآن فى عزبة الخواجة . ولا أرى المظاهر المادية للاستغلال تخيم على سكان تلك العزبة . ولكن هل أستطيع حقا - وان رغبت فى ذلك - أن أتخلص من صور ظلت تتراءى أمام عينى خمس سنين . لقد استحالت الى شيء أشبه بالشريط السينمائى . يبدأ ثم ينتهى ليبدأ من جديد ، وكأنه عرض مستمر ! لقد

حفرت هذه الصور فى وجدانى حفرا ، حفرتها سنون طوال من الحرمان الذى تعرضت له ، وتعرض له معى كثرة من الناس . وعاون فى ذلك نفس مرهفة ، رحبت بالألم واستوعبته وحنت عليه .

لا جدال فى اننى لست سعيدا . بل ان هناك عاملا جديدا يجعلنى شقيا شقاء لا عهد لى به فى مجتمع الوسية . لقد حرمت من ذلك النشاط والديناميكية التى تستيقظ معى فى الفجر ، وتسترخى معى فى منتصف الليل . لقد كان هناك عمل وحركة ، ودفع وجذب ، ونزال ونضال ، واحساس بالحياة . كنت أغضب وأرضى ، وأصول وأجول بين المخازن والحظائر والأجران والحقول .

وأركب الخيل والحمير ، وأتزين بها وأختال بين الناس ، وأستهوى بها قلوب العذارى . كنت أشترك فى تقرير مصائر الناس ، فلاحين ومستأجرين وعمال ومقاولين وموظفين . أنتصف لهم مرة ، ويغدر بهم الخواجة مرة أخرى . كانت هناك حركات مثيرة فى الجرن ، تجرى فى جنح الظلام ، تثير فى ذهنى تساؤلات ، وأدير حولها حوارات .

ترى هلى ستفتقدنى صبايا القرى والعزب ، حين يصبحن فلا يجدن « الأفندى » يتهلدى فوق الحصان ، أو يتجه اليهن متخطرا بين الحقول . هلى سينسوننى ،ويشغلن بالأفندى الجديد ؟

كان العمل يكسبنى نشاطا رائعا وحيوية بالغة . لم أكن أبالى باننى

أعمال نحو سبع عشرة ساعة فى اليوم ، وأؤدى خمسة أعمال ، كان يلزم لها خمسة رجال . بل ان أداء هذه الأعمال كان يملأ نفسى شعورا بالتفوق والرجولة .

لقد حرمت من هذا كله . وأخطر من ذلك أننى أشعر بمخالب البطالة تتسلل الى قواى الخلاقة فتمزقها . بل انها تنشب أظفاره فيما أمتلك من حيوية ، فتحيل حيويتى الى موات . لقد مر بخاطرى سؤال غريب : هل يعتبر العمل رغم الظروف التى يجرى فيها ، ومهما كان ما يتخلله من استغلال وارهاق ، وأجر هزيل ، وساعات طويلة . ومهما كان نوعه وشروطه . ومهما كانت صور القهر والظلم التى يباشرها المالك لرأس المال والأرض على العمال الذين يستخدمهم ، ومهما كانت ألوان الاحتقار والازدراء التى يمتهن بها هذا المالك كرامات العاملين لديه ، ومهما كانت صور الحرمان والبؤس التى تنضح بها وجوه العاملين وأجسادهم ونفوسهم ، على الرغم من هذا كله ، هل يعتبر العمل أفضل من البطالة التى تفرض الجمود والموت على الانسان ، وتستل منه أغلى ما يملك ، وهو قواه الخلاقة ؟

ليس لدى الآن اجابة شافية لهذا التساؤل . . ولكن الذى أستطيع أن أجزم به هو أننى فى ذلك الوقت برمت بالبطالة ، وبوجهها الكالح . وأحسست معها بمرارة وغصة أعنف من تلك التى تعرضت لها فى

مجتمع الوسية . بل انها تكتم أنفاسى فلا أستطيع معها الحياة . وقد كانت قوى الوسية تكتم أنفاسى كذلك ، ولكننى كنت أجد فى العمل متنفسا ينقذنى من شرور تلك القوى .

ان البطالة تقوم بعملية مدمرة ، لم تستطع قوى الظلام فى الوسية أن تقوم بها طوال خمس سنين ، وان حاولت ذلك جاهدة . تلك هى عملية القضاء على قواى الخلاقة ، وعلى ذلك العنصر الذى لا أملك سواه ، ولا يملك أحد سواه من الملايين من أمثالى ، وهو العمل الانسانى .

أواه : اننى أصبحت عاطلا ، ولم أعد منتجا .

ومضى أسبوعان آخران طحنتنى فيهما البطالة طحنا ، لم تبلغه القوى المخيفة فى مجتمع الوسية ابان خمس سنوات طوال ، رغم اصرارها على عملية الطحن .

مكثت فى المنزل ذات صباح ، فلم تعد بى رغبة فى آن اتريض بين الحقول ، ولا أن أرى الأشجار ، أو أستظل بظلها .

وفى هذا الجو الكئيب دخل على والدى ، وقد حمل فى يده خطابا . . تسلمه من ساعى البريد . كان أبى متهللا ، تنفرج شفتاه عن أسنانه البيضاء ، ويطفح وجهه بالبشر ، وترسل عيناه تلك الشعاعات الحلوة التى طالما تنساب منها عندمايكون سعيدا . .

ـ اننى أحمل لك خبرا سارا !

- خيرا يا أبى . .

- أرسل لى صديق هذا الخطاب ، وبه هذه القصاصة التى فصلها من جريدة الأهرام . .

. . . وأخذت القصاصة ، وقرأت :

« تعلن وزراة الدفاع الوطنى عن حاجتها الى متطوعين يحملون الشهادة الابتدائية على الأقل ، ليعملوا ضباط صف فى الجيش ، بعد فترة من الدراسة لمدة سنة ، وسوف يمنحون مرتبات مجزية أثناء التدريب وبعد التخرج . والوزارة تكفل لهم بالاضافه الى ذلك مسكنا وغذاء مجانين . .

وقلت لوالدى :

- انما الجيش يأخذ من بلغ عمره تسع عشرة سنة ، وأنا ما زلت فى السابعة فى السابعة عشرة . . . .

- أكمل قراءة الاعلان . .

وكان شرط السن فى الاعلان من ١٧ الى ٢١ سنة .

كانت معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا ، قد أطلقت يد الحكومة المصرية فى اعادة تنظيم الجيش ، وتحديثه . واتفق على أن ترسل انجلترا بعثة عسكرية لتدريب الجنود والضباط على الفنون العسكرية الحديثة . وكانت الحاجة ماسة الى أعداد ضباط صف أكفاء ، يمثلون

العمود الفقرى فى الجيش ، والرابطة بين الضباط والجنود ، وليكونوا معلمين للعساكر .

ولما ساءت العلاقات الدولية بين النازى والحلفاء ، وواجه العالم كارثة الحرب العالمية الثانية فى أواخر عام ١٩٣٨ ، سارع الانجليز - فى حذر - باعداد الجيش المصرى ، ليقف فى صفهم ضد المحور فى هذه الحرب . ومن ثم أعلنت وزارة الدفاع المصرية عن حاجتها الى متطوعين ، يحملون الابتدائية على الأقل ، ليكونوا ضباط صف فى الجيش . »

وطار بى الأمل ، وجمح بى الخيال . وتراءت لى صورتى ، وأنا فى السنة الثانية الابتدائية ، حينما اختار لى مدرس اللغة العربية فى المناظرة التى نظمها بين التلاميذ آنذاك ، أن أكون ضابطا فى الجيش . . ولكنهم يريدوننى ضابط صف . . ما الفرق بين الضابط وضابط الصف أيكون الضابط ضابطا لصفوف كثيرة ، بينما يكتفى ضابط الصف بصف واحد !؟

على أية حال لقد تحرر من الوسية ، وسوف أنتصر على البطالة وسأسترد قواى الخالقة من جديد . سوف أعمل !

٣٣

وصل القطار الذى أقلنى الى القاهرة . محطة السكة الحديد فسيحة ضخمة ، شاهقة البناء ، تعج بالناس . ان عددا كبيرا منهم من الفلاحين يرتدون الجلاليب والعمائم ! عجبا ! . . . من الذى أقلهم الى القاهرة . . كيف استطاعوا أن يغادروا الوسايا التى يعيشون فيها . . والى أين يذهبون ؟ انهم يحملون فوق ظهورهم ، وعلى أكتافهم ، جوالات ممزقة يبدو منها كذلك الخبز المصنوع من الأذرة الحمراء اللعينة . انهم يرتدون أسمالا بالية كالتى يرتديها الفلاحون فى عزبة الخواجة اليونانى . وهم يشبهوننى فى أجسادهم النحيلة ، وخدودهم الغائرة ، وأيديهم المعروقة . أيمكن أن تكون القاهرة « مجتمع وسية كبير » ؟! هذه الفرق من حاملى الخبز الأحمر هم عمال التراحيل . هل ينقلهم المقاولون من الصعيد للعمل فى وسية القاهرة ؟! . . .

وفى الصباح ذهبت الى ادارة التجنيد للكشف الطبى . . وهناك فوجئت بفريق كبير من الحفاة ، الذين شاهدتهم بالأمس فى محطة السكة الحديد ، يتجمعون فى فناء الادارة الطبية للتجنيد . وينتظرون كذلك الكشف الطبى . هل ستظل هذه المجموعات البائسة تلاحقنى حتى فى القاهرة ؟ اننى لم أجزع حين وجدت هذا الجمع الكبير من

شباب الفلاحين يأتى الى نفس المكان ليفحص طبيا ، فقد كانت ، ولا تزال ، تربطنى بهذا الفريق روابط قوية خفية تجعلنى واحدا منهم . لم أكن أشعر بأننى من فئة أخرى غير هذه الفئة . فالعذابات التى تعرضنا لها جميعا فى مجتمع الوسية قد ربطتنا برباط لاتنفصم عراه . لكن الذى جزعت له حقا هو أن يكون مصيرى هو مصيرهم . وان الخبز الأذرة الحمراء التى يحملها بعضهم قد تفرض على مرة أخرى !

على أن الطمأنينة بدأت تراودنى من جديد . فقد قسم الشبان الذين تجمعوا فى هذا المكان الى فريقين : فريق المجندين ، وهم الفلاحون الذين استدعوا للخدمة العسكرية الالزامية ، وفريق المتطوعين اللذين يحملون شهادة الابتدائية وما فوقها !! ودخلنا صالة كبيرة ، وأمرنا أن نخلع ملابسنا جميعا . وكشفت العورات كلها . وخجلت كثيرا من منظرنا ، وسترت نفسى بيدى ، بينما بقى زملاء كثيرون على الفطرة . وبهذا المنظر الذى صدمنى أول الأمر ، بدأت قيم المرحلة الحاضرة من حياتى تتبدى لى شيئا فشيئا !

واجتزنا الكشف الطبى . ونقلتنا لوارى الجيش الى معسكر الأساس . المعسكر الذى يقضى فيه العساكر المستجدون الفترة اللازمة للعلاج الطبى ، قبل أن يحولوا الى وحداتهم العسكرية .

كانت خيام المعسكر تتناثر فوق رمال الصحراء ، كحمامات بيضاء

تنتشر فى حقول القمح التى تنتظر الحصاد . وكان الاستقبال ، لأول وهلة رائعا . فعندما هبطنا من اللورى تهادت الى أسماعنا نغمات حلوة تصدر عن « ميكروفون » كبير علق على أعمدة النور . كان الصوت ملائكيا : ليلى مراد تردد : الشمس عند الأصيل ، راخية شعور الذهب.. . وكان الوقت أصيلا فعلا ، وكان ذهب الشمس ينعكس على الخيام ، ويخلع على المعسكر جمالا وجلالا رف لهما قلبى ، وسرح فى أفاقهما خيالى .

على ان الخيال انحسر فجأة ، حينما صرخ فينـا شاويش كث الشارب ، ضامر الوجه ، داكن البشرة ، يلبس قميصا وبنطلونا قصيرا من الكاكى ، ويطرز أكمامه بثلاثة أشرطة حمراء فاقعة اللون . وقد كان شغوفا بهذه الأشرطة . كان يشخط فينا ثم يلقى نظرة عليها بين كل شخطة وأخرى . صرخ الشاويش فينا : قف بسرعة فى طابور . . صف واحد . . وارتبكنا . . وصرخ الشاويش : لليمين در . . ولم يدر بعضنا كيف يفرق بين اليمين واليسار . . وأدار الشاويش الى اليمين أولئك الذين اتجهوا الى اليسار ! معتادال مارش . . علا صوت الشاويش بهذه العبارة . . ولم يتحرك أحد ، لان أحد منا لا يفهم مصطلحات الجيش بعد . ودفع الشاويش الذين فى المقدمة بيدية يحثهم على السير ، وتبعهم بقية الطابور .

ووقف الطابور أمام مخزن كبير . . سلمونا المهمات : البدل الكاكى ، والقمصان والجوارب والملابس الداخلية والبطاطين وغيرها . . ثم قادونا الى « البلوك » الذى سننتمى اليه ، وهناك تسلمنا شاويش آخر . كان يبتسم أحيانا ! فى وجهه وسامة ، وفى قوامه رشاقة . فاستبشرنا به خيرا ، ووزعنا الشاويش « ابراهيم » على الخيام ، كل ثمانية فى خيمة . وأخذنا نفرش المشمعات والبطاطين على ألواح من الخشب ، وضعت على أرضية الخيمة . وبينما كنا منهمكين فى هذا العمل ، اذا بصوت الشاويش ابراهيم ومعاونيه يصيح : اجمع . . اجمع . . ما معنى . . اجمع ؟ . . واقتحم الشاويش ومساعدوه الخيام علينا ، شخطوا فينا : قفوا فى صف أمام الخيام . وعلى ضوء النجوم قدمت لنا وجبة العشاء . . جلسنا على الأرض . كان نصيب كل خيمة « قروانة » من العدس وثمانية أرغفة ، أخذ كل منا رغيفا . والتففنا حول القروانة . استخدمنا الخبز كملاعق . ولم يكن ذلك جديدا بالنسبة لى . بينما كان جديدا بالنسبة لبعض الزملاء لم يستخدموا هذا التكنيك من قبل !

ثم أخذنا طريقنا الى خيامنا . . كان الظلام يخيم على الخيام ، الأضواء الكهربية توضع فقط فى الشوارع الرئيسية ، وعلى مقربة من خيام الشاويشية ! وتحسس كل منا طريقة الى لوحة الخشبى ، ومشمعه ، وبطاطينه . ثم نمنا دون مخدات . وعلى الرغم من ان لوح الخشب

كان صلبا ، وكأنت عظامى تطقطق عليه طقطقه واضحة ، الا أن أحداث اليوم ، وأكله العدس ، قد جعلت النوم يسرع الى جفونى .

فى الساعة الرابعة صباحا سمعنا أكفا تصفق تصفيقا شديدا ، تلتها أصوات تصرخ صراخا حادا : اجمع ، اجمع العساكر . وتساءل الذى استيقظ منا : اجمع اجمع فى هذا الوقت المبكر ؟ لماذا نجمع فى هذا الوقت ؟ لماذا لايتركوننا ، نطرح ، أجسامنا أرضا !؟ . . . واشتد ضرب الكفوف ، وعلا صوت الحناجر ، الذى بدأ الغضب يتسرب اليها . . ولم يستجب أحد ثم بدأت مرحلة عنيفة . ارتفعت النداءات . صكت الأيدى فى عصبية واضحة . فتح معاونو الشاويش ابراهيم الخيام . جذبوا البطاطين من على أجسامنا . . أخذوا يشدوننا من أرجلنا . كنا فى طلائع الشتاء . لفحت أجسادنا موجة قارسة من برد الصحراء . غادرنا الخيام . ووقفنا فى الطابور ، ولا يزال بعضنا مغمض الجفون .

، صفا . . انتباه . . ، نادى علينا أنباشى بهذا النداء ، فلم يلبه أحد منا . . . على ان هاتين الحركتين ، انتباه وصفا ، أصبحتا من حركاتنا الرئيسية ، التى نقوم بها فى كل دقيقة من حياتنا فى الجيش . . ثم أخذ الأنباشى يدور علينا بقروانة فيها سائل أسود ، يعطى كل فرد منا

جرعة منه . . كان طعم السائل غريبا . . فيه سكر . وسألت الذى يقف على يسارى عن هذا السائل ، فأجابنى بانه لا يعرف . ولم يكن الذى على يمينى بخير من ذلك الذى على يسارى . على اننى علمت فيما بعد أن هذا هو الكاكاو . . وظللت مدة طويلة أعتقد ان لون الكاكاو أســود ، الى أن شربتــه فى منزل قريب لى ، حيث تبينت لونه الحقيقى ، فقد كنا نشرب الكاكاو فى الجيش دون لبن ، وفى الساعة الرابعة صباحا على ضوء النجوم ، فبدا لى أسود داكنا ! وقضينا الصباح نتلقى درسا من الشاويش ابراهيم : كيف نلبس الملابس ونكويها : نبلها بالماء ، ونطبقها ، بطريقة خاصة ، ونضعها فوق اللوح الذى ننام عليه ، ونفرد عليها البطاطين ، ونلقى بأجسامنا عليها ، فاذا هى فى الصباح مكوية !

بعد تناول عدس الصباح ، بدأت عملية رهيبة فى ، بلوك ، المتطوعين . ساقنا الشاويش ابراهيم والأنباشى نوح الى حلاق المعسكر . وهناك أخذت الشعور الطويلة الناعمة تتقصف تحت مــاكينة قص الشعر . كان العسكرى الحلاق يحركــها فى خيلاء فى رؤوس المتطوعين ، وكان سعيدا اذ يفتك بشعورنا ، بينما هو نفسه كان طويل الشعر !

وتناثرت مع الشعر المتطاير دموع الزملاء جميعا الا دموعى !

عجبا ! ان زملاءكَ يتألمون وينتحبون، فكيف لا تشاركهم مشاعرهم ؟ لا أدرى . . . ان منظر أى انسان يائس : جائع أو عـــار أو شريد ، لاريب يستدر دموعى . . . ولكننى لم أحس فى أعماقى بان الزميل الذى قص شعره الجميل ، كان من البائسين . كنت أبتئس مع البؤساء فى الوسية . ولعل سبب ذلك يرجع الى اننى جعت كما يجوعون، وحرمت كما يحرمون . أو لعله القهر والاستغلال والاحتقار الذى كان الخواجة يفرضه عليناجميعا . هل يعنى ذلك ان احساس الانسان ببأساء الناس ، لا يكون أصيلا الا اذا تعرض الانسان نفسه لمثل تلك البأساء ؟

لا مراء فى أن هناك نفرا من الناس لهم قلوب كبيرة . . ولا مراء فى انهم يتألمون لآلام الناس ، ولو انهم لم يعانوا نفس الآلام . وهم لا شك يسهمون ـ أو يريدون أن يسهموا ـ فى دفع الشقاء عن الأشقياء. ولكن يتبقى فارق أساسى ،هو أن هؤلاء القوم ، رغم صدق شعورهم ، لم ينصهروا فى بوتقة العذاب والبؤس . فشـعورهـم ينصـرف غالبا الى العطف على البائسـين . ولكـن شـعلة البـؤس لا تتـوهـج فى صدورهم دائما ، لتدفـعهـم الـى عـمـل كـبيـر يجـتـث البـؤس مـن جـــذوره . ان وجداناتهم ـ رغم نقائها ـ لا تـنـدلـع عنـهـا تـلـك الشـرارات ، التى تـدفـع بالمـرء الـى نضـال مستمر لا يليـن ، ضـد قـوى القـهـر والاسـتغلال ، فـاذا بالتضـحية حـلـوة ، والكفاح عذبا ، واذا بتحرير الانسان من بطش تلك القوى رسالة مثلى لا تعلوها رسالة . ان ذلك القبس الخالد الذى يضوى فى وجدان الانسان الذى تعرض للاستغلال ، وصقلته عذاباته ، هو الذى يفرق بينه وبين أولئك الذين يعطفون على البائسين .

كنت دائما أحس بأننى قطعة من الفلاحين ، وان عذاباتهم هى عذاباتى . ولكنى لم أحس بنفس الشعور حين ذرف زملائى الدموع على شعورهم ، التى أتى الحلاق عليها .

٣٤

بعد أن انتهى علاجنا فى معسكر الأساس ، نقلنا الى مدرسة ضباط الصف ليبدأ تدريبنا . فرحنا أول الأمر لتخلصنا من معسكر الأساس . . لكن هناك كانت صدمة تنتظرنا : ففى أمسية من الأمسيات ، كانت فصائل الجند تتجمع فى فناء المدرسة ، لحضور « طابور الهتاف » وهو التجمع الذى يهتف فيه الضابط النوبتجى « بحياة الملك » فى ذلك الوقت . ويردد العساكر الهتاف ، ثم ينزل العلم من على ساريته .

كان الضابط النوبتجى فى تلك الليلة ممتلىء الجسم ، صغير الرأس عريض القفا ، داكن البشرة ، تنطوى ملامحه وطريقه مشيه

وحركاته على أنه أتى من بيئة مختلفة عن تلك البيئة ، الأرستقراطية ، التى كان الضباط يختارون منها.

حدث أن تأخرت فصيلة من الفصائل دقيقة واحدة عن طابور التمام . واذا بالضابط الهمام يثور غاضبا ، ويشمخ بأنفه ، ويرغى ويزبد . ثم يخاطب الجمع الكبير الذى يضم نيفا وخمسمائة عسكرى متطوع ومجند قائلا :

« أى واحد منكم لو كانت أمه تستطيع أن تدفع له عشرين جنيها بدل معافاة من العسكرية ما كان جاء الى الجيش !! » .

وقعت الألفاظ كالصاعقة على المتطوعين والمجندين جميعا ، أولئك الذين يعدون ليكونوا قادة صغارا لوحدات الجيش ، ومدرسين للعساكر فى الكتائب . على أن الصاعقة أصابت المتطوعين بدرجة أكبر . فقد درج المجندون على أن يسمعوا مثل هذا الكلام ، نطق به ضابط ، أو حتى - وهذا غريب - ضابط صف مجند ، لم يستطيع أهله كذلك أن يدفعوا له عشرين جنيها لينقذوه من شرف الخدمة العسكرية . . ولكن المتطوعين كانوا يظنون انهم تطوعوا لخدمة شريفة هى الدفاع عن الوطن ، وانهم سوف يكونون ضباط صف فى جيش يعد لتلك المهمة . ولم يكونوا يتوقعون أن ضابط سوف يبتذل كرامتهم

بمثل هذا الابتذال ، وسوف ينحط بهذه الخدمة المشرفة الى هذا الدرك السحيق .

قابلت زميلا لى يدعى عبد العال فى اليوم التالى . وجدته مكتئبا محزونا ، رغم ان انتقالنا الى المدرسة كان قد رفع من معنوياته بعض الشىء . كانت المدرسة فى قلب المدينة ، وكنا ننام فى عنابر نظيفة مضيئة ، فيها أسرة ترتفع عن الأرض . وكان الطعام أجود ، لا مراء فى ذلك . فالعدس نظيف بعض الشىء . وطعام العشاء يمكن أن يطلق عليه تجاوزا : خضارا ولحما . وأهم من ذلك انهم بدأوا يعترفون بنا كمتطوعين متعلمين ، نحمل الابتدائية على الأقل . وأخذنا نشعر باننا فى مدرسة ننتظم فى قاعات الدرس ، الى جانب الطوابير والعمليات العسكرية فى ميادين التدريب . . وكان ضباط الصف والضباط أكثر تقدما من أولئك الذين استقبلونا فى معسكر الأساس . وبادرت عبد العال اقول :

- ماذا دهاك يا عبد العال ؟

- ألم تسمع ما قاله هذا الضباط بالأمس ؟

- ألم تكن تعلم ما قاله ؟

- لا ، والله ، ولو علمت ذلك ما تطوعت فى الجيش .

ـ ألم تعلم ان الخدمة العسكرية التى تعتبر من أقدس الخدمات فى كل بلد قد شوهت فى مصر . وأصبح كل شاب مصرى يستطيع أهله أن يدفعوا للحكومة عشرين جنيها ، فانه يعفى من الخدمة العسكرية . . وبذلك يقتصر أداء هذا الشرف على الفئات الفقيرة .

وهنا ضرب « البروجى » نوبة الطابور . . وجرينا الى أرض الطابور ، الذى لم يبدأ بعد .

واستوقفنا ضابط من الضباط وبادرنا بالقول :

ـ لماذا تأخرتم عن الطابور ؟

ـ النوبة ضربت الآن فقط .

ـ لا وحياة أمك انت وهو ! النوبة ضربت منذ دقيقة كاملة ! . . هل تظنون انكم متطوعون ومتعلمون ؟ لو كانت أمك انت وهو تستطيع أن تطعمكم ، ما كنتم تطوعتم فى الجيش ! خطوة سريعة الى الطابور !

وفى اليوم التالى كنا فى قاعة الدرس نستمع الى محاضرة فى هندسة الميدان ، عن الخنادق والأسلاك الشائكة والموانع المختلفة التى تحمى المواقع الدفاعية . وكان المحاضر ضابطا برتبة « صاغ » طويلا عريض المنكبين . وكان منهمكا فى شرح مادته . وكنا نستمع له بكل ما فينا من آذان وعقول . فقد كان محاضرا بارعا متحمسا لمادته

حماسة عجيبة . وبينما كان المحاضر مستغرقا فى شرحه ، وصوته الجمهورى يدوى فى جنبات القاعة ، اذا بذبابة تندفع الى فمه ، وتصل الى حلقه، ويصدر عنه ذلك الصوت الذى يصدر عن المرء فى مثل هذه الحالة للتخلص من الذبابة . وانساب مع الصوت رذاذ سميك من فمه . وضج العساكر الطلاب بالضحك . هنالك غطى العرق وجه «الصاغ » ، ولبث برهة قصيرة صامتا بعد أن تخلص من الذبابة . ثم أخذ يخاطبنا قائلا فى هدوء عجيب ، ونغمة خفيضة لم نعهدها من قبل : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تعلموا أولاد السفله العلم !!

وبذلك أصبحت الشتائم والاهانات جزءا لا يتجزء من حياتنا الجديدة ، وتقبلناها كقيمة أساسية من قيمها !

وعلى الرغم من هذه المنغصات ، فقد سعدت بحياتى الدراسية فى مدرسة ضباط الصف سعادة حقة . فقد أصبحت تلميذا ، ولا يغير من ذلك اننى تلميذ عسكرى . وكانت هذه رغبة حرمت منها حين طردت من مدرسة الزقازيق الثانوية . وكنت كذلك راضيا عن نوع الحياة التى أحياها فى المدرسة . فالطعام كان لا نزاع أجود من طعامى فى المزرعة . وحتى الشتائم كانت جماعية ! ينال كل واحد نصيبا منها .

وأخذنا نتخفف منها شيئا فشيئا ، ونعطيها تفسيرا هروبيا ، هو انها ترجع الى النقص فى برامج اعداد الضباط وضباط الصف .

على أن أمرا واحدا جزعت له جزعا شديدا . فحين انتهى الشهر الأول من وجودنا بالمدرسة ، ذهبنا الى مكتب « صول التعيين » لنتسلم مرتباتنا . واذا به يعطينى جنيها واحدا ! وتذكرت على الفور ما صنعه بى الجنيه فى وسية الخواجة . ومرت صور مجتمع الوسية أمام عينى بسرعة . وعدت الى العنبر ، ومكثت أتساءل طول الليل : هل كتب على هذا الجنيه أن يكون مرتبا شهريا فى عزبة الخواجة ، والجيش ، وفى كل مكان ؟ ألا توجد مرتبات أخرى ؟ ألا توجد كميات من النقود أكبر من الجنيه ؟ ! . . . .

٣٥

انتهت الفترة الدراسية ، وبدأت فترة أكثر خصوبة فى حياتى . . فى صبيحة يوم من الأيام ، جاء الملازم الذى كان يدرس لنا مـــادة « ضرب النار » الى العنبر يسأل عن العسكرى خليل حسن خليل .

وعندما رآنى بدت الدهشة على وجهه ، وبادرنى بالقول :

ـ انت خليل حسن خليل ؟

ـ نعم يا فندم .

وصاحب ردى عليه فرقعة شديدة من كعبى حذائى ، مع التحية العسكرية ، التى كانت تجرى بحركة مسرحية ، يهتز معها ساعدك ، وترتعش يدك ، ليكون ذلك دلالة على النشاط ، والأداء الدقيق للحركة !

وأجاب الملازم عبد المحسن مرتجى بعد أن رد التحية قائلا :

ـ غير معقول !

ـ معقول يا أفندم . . أنا خليل والله العظيم !

ـ انما كيف تنال ١٠٠ من ١٠٠ فى ضرب النار ؟!

ـ اعتقد اننى أجبت اجابة جديرة بهذه الدرجة . . واذا لم تكن حضرتك متأكدا ، يمكن أن تصحح الورقة مرة أخرى !

ـ انت يظهر عليك« غلباوى » ! لكن كيف استطعت الاجابة على الأسئلة الصعبة ، والمسائل المعقدة التى وضعتها ؟

ـ كانت الأسئلة صعبة لكنها لذيذة !

ـ يا « واد » !

ـ هل ظهرت نتيجة المواد الأخرى ؟

ـ أظن نتيجة مادة « التكتيك » ظهرت .

ـ هل رأيتها ؟

- رأيت اليوزباشى مَحرم عثمان يعرض ورقتك على الضابط . . يبدو ان اجابتك فى التكتيك كذلك ممتازة .

- شكرا يا فندم .

وفى اليوم التالى جاءنى الملازم مرتجى فى العنبر ينبئنى باننى أول الدفعة ، وانه جاء ليهنئنى . وفى مساء ذلك اليوم ، أقيم لنا حفل للتخرج ، وزعت فيه الجوائز التى حظيت بثلاث منها : جائزة ضرب النار وجائزة التكتيك وجائزة الأولوية . وعين قائد المدرسة العشرة الأوائل ليكونوا معلمين فى المدرسة . . وفى صبيحة اليوم التالى ، دعانا القائد الى مكتبه ، وأصدر قرارا بترقيتنا الى درجة « الأنباشى » . . ووضع كل منا شريطين أحمرين على ذراعه ، كان منظرهما جميلا ، بقدر ما كانت السلطات التى خولاها لنا مغرية .

كان للشريطين اللذين علقتهما على ذراعى أثر كبير فى أن أتخلص من عقدة ظلت لصيقة بى عدة سنوات فى مجتمع الوسية ، وظلت تلازمنى حتى الآن فى الجيش . تلك هى عقدة الجنيه . فقد قفز مرتبى الى ثلاثة جنيهات فى الشهر . . كانت الجنيهات الثلاثة جميلا طوق الشريطان به عنقى ، الى جانب كونهما حلية على ذراعى .

أصبح لدى ضمان ضد الجوع : العدس مكفول فى الصباح

الظهيرة ، والخضروات واللحم ، أيا كان طعمها وجودتها ، موجودة فى المساء . وبهذا فكابوس الجوع سوف لا يقض مضجعى . وبدأت أنسى العيش الأذرة . . والمخلل . وبدا لى انهما قد أطلقا سراحى الى الأبد . كذلك أصبحت أسرتى آمنة على عيشها ، أرسل لها ١٢٥ قرش فى الشهر وأنفق ٥٠ قرشا ، وأقتصد ١٢٥ قرشا للسنوات العجاف !

أراد مرتجى أن يحتفل بتفوقى ، فاصطحبنى الى « ميز » الضباط وقدم لى فنجانا من الشاى . وأخذ يتحدث عن كفاية الفصيلة التى يقودها . ثم فأجانى بقوله :

- هل تعرف تلعب شطرنج ؟

- لا ، للأسف . . أنا ألعب « سيجة » فقط !

وضحك ضحكة عسكرية ، فيها ضبط وربط :

- السيجة هذه تلعبها فى بلدكم . . انما فيه لعبة اسمها « الشطرنج » اذا لم تكن تعرفها أعلمك اياها .

وأخذ الملازم مرتجى يعلمنى الشطرنج . وكنت سعيدا مأخوذا ، لا لاننى أتعلم لعب الشطرنج ، ولكن لانى أجلس فى ميز الضباط ، وأشرب الشاى مع ضابط . . ان ميز الضباط يشهد لأول مرة حدثا تاريخيا : ملازم أول وأنباشى يلعبان الشطرنج معا !

علمنى الملازم مرتجى الشطرنج ، وهزمنى بطبيعة الحال فى تلك الليلة بسهولة فى أول الأمر ، وبصعوبة فى آخره . على اننى هزمته فى الليلة التالية !

* * * *

أخذت العلاقة بينى وبين الملازم مرتجى أبعادا جديدة . فلم تعد مجرد رابطة بين أنباشى وضابط أعجب الأخير بالأول لتفوقه أو لجهوده فى توجيه الفصيلة التى يقودها ، ولكنها بدأت تتخذ شكل صداقة قوية . ويبدو ان هذه الصداقة قد دفعت بموضوع شائك الى ذهنى بدا لى أن أناقشه مع مرتجى . فهذا التناقض الذى أراه فى الجيش يثير حيرتى . كيف يمكن أن يكون الضابط مرتجى بهذه الروح العالية ، وهذه العقلية المستنيرة ؟ بل كيف يكون لدية الجرأة التى تجعله يلعب الشطرنج مع أنباشى فى « ميز الضباط » ، فى الوقت الذى ألمح فيه دلائل استهجان لهذا العمل على وجوه زملائه الضباط جميعا ؟ كيف يمكن أن يضم الجيش ضابطا كهذا ، وفى الوقت الذى يضم فيه أنماطا أخرى عرضنا لبعضها فيما مضى من هذا الحديث .

وانتهزت فرصة فراغنا من الشطرنج ، بعد أن هزمنى مرتجى ، وكان لا يهزمنى الا لماما . . انتهزت هذه الفرصة التى ارتفعت فيها

روحه المعنوية ، وبدأت الحديث :

ـ ألا ترى فى هذه العلاقة التى تربطنا غرابة ؟

ـ أية غرابة ؟ يظهر ان الغلب جعل أفكارك انت غريبة .

ـ أود أن أسألك سؤالا : ألم تخف أن ينتقدك الضباط لأنك تصادق أمباشيا ، وتلاعبه الشطرنج فى الميز ؟

ـ أنا لا أخشى أحدا .

ـ يبدو أن هذه أول مرة يصادق فيها ملازم أمباشيا .

ـ لتكن هذه أول مرة ، فهذا لا يقلل من شأن العلاقة ، بل يعطيها قوة طليعية ، يجعلها أجمل مما لو كانت امتدادا لأنماط قديمة من العلاقات .

وشجعتنى اجابة مرتجى على أن أدفع الحوار قدما :

ـ ولكن الضباط يختارون من أبناء الفئات الغنية ، بينما العساكر ينتمون الى الطبقات الشعبية .

فوجىء الملازم مرتجى بما قلت . وبدا لى انه لم يكن يتوقعه . فقد اكتسب وجهه جدية معينة ، وصمت فترة طالت بعض الشىء ، خشيت أن أكون قد مسست احساسه . فهو ضابط على أية حال. واستمر مرتجى فى الصمت ، واستمر قلبى فى الوجيب . ولكن بسمة خفيفة

بدأت تضيء وجهَ مرتجى . وبدأت عيناه الخضراوان ترسلان وميضا خفف مخاوفى ، وأخذ يقول :

- انك تثير مسألة خطيرة ، ولكننى لا أتفق معك تمـــاما فيما تقول. ألست أنا ضابطا فى الجيش ، ألا أجلس معك وألعب وأتحادث وأتصادق ؟

- لهذا قلت ان علاقتنا استثناء . . وتبدو شاذة فى نظرى ، فى هذا المجتمع العسكرى الذى نعيش فيه .

- أود أن ألفت نظرك الى ان الموضوع الذى تثيره ليس وقفا على الجيش . ما هو الا صورة مصغرة للمجتمع الواسع . . ولا أحسبك تريد أن يشذ الجيش ، فينشأ فيه مجتمع يختلف عن المجتمع الكبير الذى يأتى منه الضباط والعساكر .

- هذا صحيح لكن هذه الظاهرة أكثر وضوحا فى الجيش . . أرأيت الى أن الدولة تقرر قوانينها انه لا يدخل الكلية الحربية الا أبناء الطبقة الغنية ، ومن ناحية أخرى ، فان من يدفع ٢٠ جنيها يعفى من الخدمة العسكرية كجندى . وبذلك يجند للجيش فحسب أولئك العاجزون عن دفع ذلك المبلغ .

نكس مرتجى رأسه . نظر الى السجادة الفاخر التى كانت تغطى

أرض « الصالون » « بالميز » ، والتى كنت أخشى عليها من حذائى الثقيل . ثم عبث مرتجى بشعره ، الذى لم يكن طويلا كشعور الضباط الآخرين ، ورفع رأسه فى بطء ، وكأنه يبحث عن اجابة ثم قال :

- ماذا أقول لك ؟

ثم ابتسم ابتسامة هادئة أعقبها بالقول :

- هذا خطئى اذ شجعتك على أن تحادثنى بمثل هذه الجرأة !

ولكن لا مناص من أن أوافقك على نقدك لهذه التفرقة بين العنصرين اللذين يتكون منهما الجيش . اذ كيف يمكن أن يقوم جيش على فريقين مختلفين تماما . دعنى أطلق لفظ فريق أو فئة على ما تسميه أنت بالطبقة . . كيف يمكن أن يوجد انسجام فكرى وعقلى بين فئتين تختلفان كلية من حيث المستوى الثقافى والمكانة الاجتماعية . وكيف يمكن أن يتألف من هذين العنصرين جيش قوى ذى معنويات رفيعة ، ومستويات تدريبية عالية ؟ على اننى لا أعتقد ان تحليلنا لهذه الظاهرة ، اذا اقتصر على المجتمع العسكرى فحسب ، سيكون تحليلا كافيا .

- اننى أتفق معك . . ولكنك ستجرنا الى مشكلة بعيدة الأغوار ، لا يستطيع ملازم أو أمباشى فى الجيش أن يجدا لها حلا . . وأنت

كذلك سوف تنكأ جراحى التى أريد لها أن تندمل . . فسوف تثير ذكريات تزهق وجدانى . . دعنا نضيق نطاق الحوار ، ونحصره فى الجيش .

ـ ماذا حديث لك ، ولا تريد أن تعود بك الذكرى اليه ؟

ـ هذا حديث يطول . . سأقصة عليك فيما بعد .

ومر بنا الضابط الذى أهان جنود المدرسة جميعا ، فاستعجل بداية الحوار ، فقلت لمرتجى :

ـ خذ مثلا هذا الضابط . .

ـ ما باله ؟

ـ ألا تعرف قصته معنا ؟

ـ لا ، هل له قصة معكم ؟

وأخبرت مرتجى عن تحقيره للجنود . وصعق مرتجى ، واربد وجهه وعلاه القتام :

ـ هل ما تقوله صحيحا ؟

ـ هو كذلك .

ـ كيف يجرؤ على مثل هذا القول ؟

ثم استطرد مرتجى قائلا :

ـ على أية حال ، هذه حالة فردية ، ويجب ان يتجمع لديك عدد معقول من الحالات حتى يمكن أن تحكم على سلوك مجموعة من المجموعات . .

وعرضت على مرتجى حالات أخرى . . ثم صمت برهة أردفت بعدها :

ـ أرجو أن أكون مخطئا ، وأن يكون هؤلاء الضباط هم الاستثناء .

ـ ليس لدى تفسير لهذه الظاهرة، اذا تركنا أساسها فى المجتمع الكبير مؤقتا كما اقترحت ، الا ان الضباط يخشون ان مثل هذه العلاقة ، سوف لا يقدرها العساكر ، فقد يتهاونون فى واجباتهم ، ويضعف الضبط والربط والنظام فى الجيش .

ـ ان علاقات الاخوة بين الضباط والعساكر لا يمكن أن تكون مصدر اضعاف للضبط والربط ولكفاية التدريب . . والعكس صحيح : كيف يتوقع انسان تمتهن انسانيته أن يكون جنديا أو ضابط صف عالى الروح والكفاية ؟

ـ يخيل لى ان الانفصام الاجتماعى والثقافى بين الضباط والعساكر له دخل كبيرفى سلوك الضباط . . كيف يمكن للمجند الفقير الأمى

الذى تتكاثر عليه الأمراض العضلية والاجتماعية ، أن يقدر هذا النوع من العلاقة ؟

- لا ريب ان التعليم يمكن أن يكون عنصرا معاونا على فهم عميق بين الناس ، وعلى التفرقة بين العلاقات الشخصية ، وبين أداء العمل أو القيام بالواجب . على اننى أرى ان العلاقة الطيبة يمكن أن تثمر بين المستويات الثقافية المختلفة . القاعدة ان الانسان ـ متعلما كان أم جاهلا ـ يطربه الكلام الحلو ، وتهزه المعاملة الطيبة وتستقر فى شعوره المعانى الجميلة ، وهو كذلك يستجيب للقدوة الحسنة والمثل الجيد .

كان هدفى من الحديث مع مرتجى ، أن نصل الى لون من العلائق مقبول بين الضباط والعساكر . يجعل حياتنا فى الجيش كريمة ، مريحة لنفوسنا ومشاعرنا . فقد ارتبطت حياتى بالجيش ، وأود أن أعتز بانتمائى اليه . وهناك أيضا شعور خفى يوحى الى باننى لابد أن أعترف للجيش بجميل لا يقدر ، وان كان بعض زملائى المتطوعين لا يشاركوننى فيه . فالجيش قد أطعمنى بعد جوع ، وطمأننى بعد ضياع ، وآمننى بعد خوف . . وضمن لأسرتى بعض ما تأكل وتلبس وتعيش . فلماذا لا أحاول ما استطعت أن أجعل من المجتمع العسكرى

مجتمعا أنظف وأشرف من مجتمع الوسية ؟ وقد خيل الى انه يمكن أن نعمل عملا فى الجيش . فاذا لم نستطع فلنحاول أن نخلق على الأقل ، جوا جديدا فى مدرسة ضباط الصف ، فهى تعتبر البيئة العسكرية التى نعيش فيها . لماذا لا نجعل من هذا المكان بيئة طيبة ، يحلو العمل فيها . ومن ناحية أخرى ، فالمدرسة تخرج الأنباشية والشاويشية بعد تدريبهم واعدادهم ، ثم توزعهم على وحدات الجيش المختلفة . وهذه هى الفئة التى تقود العساكر فى الوحدات ، وتعيش معهم . فاذا استطعنا أن نخلق ضابط صف بهذه الروح ، فان ذلك يمكن أن يؤثر فى تركيب العلاقات بين الضباط وضباط الصف والجنود فى الجيش كله .

وعلى ذلك سعدت كثيرا اذ وجدت مرتجى يسهم معى فى هذا الميدان .

ابتسم مرتجى ابتسامته الحلوة ، وأظهر حماسا لمواصلة الحديث :

- ان المحاولة التى تريد أن نقوم بها لخلق روح جديدة بين الضباط والجنود جديرة بالقيام بها . وعلينا أن نفكر فى الأسلوب ، الذى يمكن أن نتبعه لنشر الطريقة الجديدة . . . .

وهنا سكت مرتجى ، ثم نظر الى ساعته ، وكأنه كان على موعد مع « البروجى » الذى ضرب نوبة « نوم » فى التاسعة والربع تماما .

والتفت الى بجدية قائلا :

ـ انصرف يا أنباشي ! اذهب الى عنبرك بسرعـــة . ونم فى الحال. . واذا كان هناك عسكرى واحد يقظان ، سوف تلقى مـا يسرك غدا . . ذلك ان الحوار شيء والضبط والربط شيء آخر . . مفهوم . . .

وأجبته فى هدوء وثقة :

ـ مفهوم يا أفندم . . لا تخف . . يمكنك أن تمر الآن ، حتى دون وجودى ، على العنبر ، سوف تجد الجميع نياما . ثم اصطك كعباى ، فأحدث الحديد الذى يقوى به كعب الجزمة « البيادة » دويا شديدا فى ميز الضباط ، ورفعت يدى بالتحية العسكرية قائلا: « تصبح على خير يافندم «.. ورد مرتجى التحية العسكرية بوجة جامد ولم تعجبه كلمة «تصبح على خير » ، لانها ليس لها وجود فى القاموس العسكرى ، فلم يرد عليها !

٣٦

كانت الليالى التى يكون فيها الملازم مرتجى ضـــابطا « نوبتجيا » « لقشلاق » المدرسة من أكثر الليالى التى قضيتها فى الجيش متعة . لم تكن المتعة مقصورة على القضايا الأساسية التى نثيرها فى أحاديثنا ، بل ان مرتجى كان يرد لى الثقة بنفسى ، وبالمهمة التى أضطلع بها . كانت صداقته لى تمدنى بلون من الاعتزاز بالوظيفة التى أشغلها : معلم بمدرسة ضباط الصف ! وكان مرتجى يدعم كذلك مكانتى بين زملائى ضباط الصف ، فأنا الوحيد بينهم الذى أصادق ضابطا ، بل قد توثقت بيننا صداقة عميقة الجذور ، سامقة الذرى .

فى ليلة من الليالى التى كان فيها مرتجى نوبتجيا ، لبست القميص والبنطلون والطاقية الكاكى ، وكانت كلها مكوية أنيقة . وأخذت طريقى الى ميز الضباط . كان الشارع الرئيسى للمدرسة تغطيه رمال حمراء ، تتفرع من على جانبيه طرق فرعية مفروشة برمال صفراء . الرمال الحمراء والصفراء تعطى لمسة ملونة « للقشلاق » ، الذى يطغى اللون الكاكى على كل شيء فيه : على ملابس العساكر وعلى وجوههم ، وعلى لون المبانى ، وعلى الصحراء ، بل وعلى لون العدس كذلك !

وكان الراديو فى ميز الضباط يشدو « كليوباترا . . أى حلم من لياليك الحسان . . طاف بالموج وغنى ، فتغنى الشاطئان » . اشتركت هذه الأغنية ، والحديث المثير الذى أتوقعه مع مرتجى فى أن يطير بى الخيال .

وجدت مرتجى جالسا مع زملائه الضباط ، وما أن رآنى حتى

تركهم ، وجاء يستقبلنى عند باب الميز . وبعد أن لمحت مشروع ابتسامة على وجهه اختصرها مرتجى قائلا :

ـ ماذا تريد يا أنباشى ؟

تجمعت كل مخاوف الدنيا فى قلبى : ماذا تريد يا أونباشى ؟ هل كانت صداقتى بمرتجى علاقة عارضة ، أشبه بومضة خاطفة برقت فى ظلام حياة العسكرية ، ثم خبا بريقها فاحتلك الظلام من جديد ؟ كيف يمكن أن يضمن الانسان أن تستمر علاقة من هذا النوع فى الجيش ؟ هل بعد هذا الأمل الذى أثاره مرتجى فى خيالى ، ينحسر الأمل ، وأعود الى اليأس والمعاملة المتخلفة مرة أخرى ؟

ماذا دها مرتجى ؟ هل انتقده زملاؤه الضباط ، فأقلع عن التجربـة ؟ هل أسأت اليه ؟ هل أهملت فى عملى العسكرى فأراد ان يضع حدا لعلاقتنا ، ويعود الى المعاملة التقليدية التى يتبعها الضباط الآخرون ؟ كان وجه مرتجى لا يوحى بأى معنى من المعانى السابقة ولا بعكسها . ولم أنطق بكلمة . وشحب وجهى بدرجة لا حظهـا مرتجى ، فأسرع يقول : ادخل ، لماذا تقف هكذا ؟

وأنقذتنى هذه الكلمة من الانهيار . وتقدمت خلف مرتجى بخطى متثاقلة . وخيل الى ان الطريق بين باب « الميز » وبين المقاعد التى

اتجهنا للجلوس عليها طويل لا نهاية له . وكنت اتعثر فى السجادة الفاخرة التى تغطى ارض « الصالون » المترف ، وكأن عليها صخورا وعرة تعوق تقدمى . كان طول الطريق يتراءى لى وكأنه المسافه التى يجب ان اقطعها ، وتقطعها معى جماهير الشعب ، فلاحوه وعماله وعساكره ، للوصول الى الأوضاع التى أتخيلها . طريق طويل يجب أن نخوضه حتى نخلق ذلك الانسجام الاجتماعى الذى نفقده فى كل مكان فى مجتمعنا : فى المزرعة والمصنع والقشلاق أو المعسكر .

• وفى الطريق الطويل بين باب الصالون ومقاعدة تخبطت برأسى الأفكار : أيمكن أن يكون مرتجى واحدا من الضباط العاديين ، وان علاقته بى عارضة ، أراد أن يكافئنى بها جزاء على ما قمت به فى فصيلته من أعمال ؟ أيمكن أن تكون وسيلة دعائية ، ولكنه لا يؤمن بها بينه وبين نفسه ؟ ولكن العلاقة بينى وبينه استمرت شهورا طوالا ، وهى تتطـــور وتقوى مع الأيـام . . لا . . انـه ضـابط ممـتاز يجـب ألا تخدش صورته المثالية فى ذهنى بمثل تلك الأفكار . اذن لماذا هذه الجفوة ؟ أيكون شعوره نحو ضرورة ايجاد انسجام اجتماعى بين الطبقات ، ورغبته فى أن يسود الود بين الضباط والجنود ، لان له قلبا ذكيا ووجدانا نقيا ، ولكن لا يلبث تكوينه الطبقى أن يطغى على ما فى

قلبه من ذكاء وما فى وجدانه من نقاء ، فيعود سيرته الأولى ؟ لكن مرتجى ذا عقل مستنير . كيف للمستنيرين أن يقلعوا عن المعانى الجميلة بهذه السرعة ؟ هل أكون مبالغا فى تفسيرى لهذه العبارة التى واجهنى بها ؟ ان مرتجى ضابط ، على أية حال ، وهو رغم شعوره الرقيق ، فان الجيش قد أكسبه نوعا من الخشونة والجفوة . . فلماذا ترهق العبارة التى تفوه بها ، وتحملها كل هذه المعانى ؟

ثم طافت بذهنى فكرة محمومة : يجب أن أنهى هذه العلاة ! وأقصرها على الجانب العسكرى البحت بمعناه القديم . اننى أستطيع أن أؤدى عملى بكفاءة ، وليس لمرتجى أو لغيره أن يسىء الى ، طالما أؤدى واجبى أداء كاملا . . لا . . لا . . يجب ألا تقدم على هذا العمل الطائش . أليس مرتجى ، كما هو ، أحسن من أى ضابط التقيت به ؟ لماذا تطمح للكمال فى دنيا تسودها النقائص والعيوب ؟ واذا جاز أن تطمح للكمال ، فلماذا تود أن تطفر له طفرة واحدة ؟ اننى يجب أن أسعد بعلاقتى بمرتجى كما هى . لا كما أحب أن تكون . بل يجب أن أترك لمرتجى تحديد مدى العلاقة ، ونوعها ، ودرجة حرارتها . أننى أ ن فقدت صداقة مرتجى ، فسوف أفقد متعة لن أجدها مع انسان آخر ، ضابطا كان أم عسكريا . وسأصبح فريسة للوجه الكالح للعسكرية ، بعد

ما حسن مرتجى من ملامح هـذا الوجه فى الشهـور الماضية .

ما أن وصلت الى هذا النتيجة ، حتى كان الطريق الذى تخيلته طويلا وعرا ، قد انتهيت من قطعة . جلست على المقعد الوثير بعد أن جلس مرتجى. ان وجهى ، لسوء الحظ ، يعبر تماما عن مشاعرى . فقد لاحظ مرتجى حتما ، خيبة الأمل التى ظهرت عليه عندما فاجأنى بهذا اللقاء . انه الآن لا شك يلمح على وجهى رضا ، أو ما يشبه الرضا ، بعد أن قطعت الرحلة الشاقة بين باب الغرفة والمقاعد . كم كنت أتمنى لو كان لى وجه غير معبر . كنت أرغب فى أن أظل مبتئسا ، لأرى ماذا يكنه مرتجى لى من مشاعر . لكنى أطلقت نفسى على سجيتها ، وكأن صدمة اللقاء لم يرع لها فؤادى . بدأ مرتجى الكلام . وبدا من المقدمة انه يريد أن يلغى أثر لقائه البارد حيث قال :

ـ انت « لابس اللى على الحبل كله » .

ـ هذا يوم « فسحتى » . . انت تتعب فى ليلة النوبتجية وأنا أستمتع بها !

ـ يبدو انك قد تقدمت ، لا فى التدريب العسكرى فحسب ، ولكن فى الكلام كذلك . . واذا كان الأمر كذلك ، فما هى الأفكار « النيرة » التى أحضرتها معك الليلة ؟

ـ اننى أقترح تكوين مجموعة من الضباط الصف يطلق عليها ندوة « الروح المـعنوية » ، يختار لها نخبة من ضباط الصف ، ثلاثة مثلا ، وعدد مماثل من الضباط . وفى هذه الندوة تبحث الوسائل التى يمكن أن تغرس الروح التى نتحدث عنها بين الضباط وضباط الصف والعساكر.

هل تعلم كذلك ان الشعب خارج القشلاق ، أى فى المدينة، لا ينظر الينا بالاجلال والتقدير الذى كنا نتوقعه ؟ ألسنا حماة الوطن ؟ ألسنا نؤدى أشرف خدمة ؟ ما بال الناس لا تظهر فى عيونهم هذه المعانى ، حينما يروننا فى شوارع المدينة ، وأماكنها العامة . انه ليحز فى نفسى أن أقول ان فى نظراتهم لونا من الاهمال بل الاحتقار . أيمكن أن يرجع ذلك الى اننا لم نستطع أن ندفع عشرين جنيها لنعفى من الخدمة العسكرية ؟ فنحن اذن من الطبقات ـ آسف من الفئات ـ التى تعتبر فى أسفل السلم الاجتماعى ، بل من الفئات التى تكون الدرجات الساليه للسلم ، أى التى توجد فى « البدروم » !

لمحت فى هذه اللحظة ذلك القتام الذى يكسو وجه مرتجى أحيانا ، فيجعله يقطب ما بين حاجبيه . وقد أثارنى هـذا المعنى كثيرا ، فانفعلت ، وارتفع صوتى ، ولفت ذلك نظر الضباط الذين كانوا يجلسون

جماعات فى أركان « الميز » الأخرى .لم أبال بهم واستأنفت الحديث فى شكل صراخ :

ـ هل تقبل يا أفندم أن تكون ضابطا فى جيش لايجند فيه الا الفقراء العاجزون عن دفع البدل العسكرى ؟ وهل يكون مصدر اعزاز لك أن تقود جنودا تنظراليهم الدولة هذه النظرة ؟

على الرغم من اندماج مرتجى فى الاستماع ، وتأثره الذى ظهر على وجهه ، الا أن صوتى المرتفع أيقظه من هذا الاندماج . . فقاطعنى قائلا :

ـ ماذا جرى لك ؟ ألا ترى الضباط فى الميز يستمعون الى كلامـك؟

ـ أنا آسف . . لكننى لم أستطع كبح جماح الغضب من هذه السبة التى تعلق بجباهنا جميعا .

قلت ذلك فى صوت خفيض هدأ بعـض الشيء من انزعاج مرتجى . لكنـنى لم أكن آسفا حـقا . فقد كنـت أود أن يسمـع الضباط ما أقول . فقد كانت هذه فرصة ليستمعوا للحوار بين مرتجى وبينى . حتى يسهم ذلك فى بث الروح التى نرتجيها . . واستأنفت الكلام :

ـ على أية حال ، هذه الروح التى نلقاها من الناس فى الشوارع

والحدائق وغيرها من الأماكن العامة تتطلب أيضا برنامجا تثقيفيا للشعب . . ان الأغلبية الكبرى من أبناء بلدنا لا تقرأ ولا تكتب . . وأغلب الظن ان الذين يقرأون الجرائد مثلا هم أولئك الذين يستطيعون دفع البدل العسكرى ! اذن ، فالراديو ، هـو الوسيلة المناسبة لهذا التثقيف. . وأقترح أن تختار صفوة من ضباط الصف ليتحدثوا للناس عن الجيش الجديد ، ومهمته ، والعلاقات فيه ، والشرف الوطنى الذى يجب أن يخلع على العاملين فيه .

كانت كلماتى الحماسية ، سواء عندما علا صوتى بها ، أو عندما كان خفيضا ، قد جعلت مرتجى يجلس معتدلا فى مقعدة . خيل الى ان الحديث قد أرهق أعصابه . فما أن انتهيت من كلامى حتى اضطجع على كرسيه ، ومد أرجله وأغمض جفنيه . وبدا وكأنه يفكر فيما اقترحته عليه ، وبعد برهة لم تطل قال :

ـ لماذا لا تقدم هذه المقترحات لقائد المـــدرسة ، أو لكبير المعلمين. . أنا أعتقد انها سوف تقبل . .

وقدمت الاقتراحات لادارة المدرسة .

وبعد ثلاثة أيام كنت أقف أمام قائد المدرسة ليقول لى ان ادارة

الشئون العامة بوزارة الدفاع قد اتصلت بالاذاعة ، وعرضت عليها فكرتك ، فرحبت بها، وهم مستعدون لأن يخصصوا لك موعدا تحدده أنت لتلقى بحديث فى الاذاعة . . واقترح كبير المعلمين أن تجرى مسابقة بين ضباط الصف من حيث اعداد الموضوع ، ومن حيث الالقاء . وأجريت المسابقة ، وفزت فيها .

وشهد الميكروفون فى دار الاذاعة بالقاهرة أول أنـباشى يقف أمامه . كان المذيع حافظ عبدالوهاب هو الذى يقدمنى . كان يرى أول متحدث من نوعه فى الاذاعة : انباشى نحيف أسمر ، يلبس البدلة الكاكى المقفولة حول العنق ، تضوى آزرارها النحاسية تحت ضوء الثريات الكهربية ، ، ويلعلع ، شريطان أحمران على ذراعه . وكانى بالمذيع يتوقع أن يستمع الى كلام حضروه لأنباشى فى الجيش يجيد القراءة فحسب . ولكنه فوجىء بمتحدث لا عهد له به ، وفوجىء كذلك بموضوع لم يستمع لمثله من قبل .

وقد ظهر كل هذا على وجه المذيع ، الذى اشتهر بالهدوء والالقاء الرتيب ، فاذا به ينفعل ويندفع فى تقييم رائع للأنباشى المتحدث، الذى نقل حديثه على الهواء مباشرة .

٣٧

عجيب امرنا نحن بنى الانسان . . . حينما اقترحت على قيادة المدرسة هذا الجانب من البرنامج الثقافى عن طريق الراديو ،كانت المعانى الوطنية ، لا مراء ، من أقوى الدوافع على تقديم مثل ذلك الاقتراح . ولكننى لا أكتمك ان هناك معانى أخرى خفية حفزتنى على هذا العمل . اننى أريد أن أحس ويحس الناس معى بأننى « ضابط صف معلم بمدرسة ضباط الصف » ! واننى أتقاضى مرتبا . وأحمل شهادة الابتدائية . وقد يكون فى هذا نوع من الكبرياء ، يريد الانسان أن يخلعها على نفسه ليثبت وجوده ، ويفرض نفسه على المجتمع الذى يعيش فيه.

وقد أحدثت هذه الكلمات التى ألقيتها فى الاذاعة دويا هائلا فى الاتجاهات المتعددة التى قصدت أن تحدث فيها دويا . فقد بدأت بعد هذه الاذاعة سلسلة من الكلمات تلقيها نخبة من ضباط الصف والعساكر والضباط . وأخذت تحظى بجمهور كبير من المستمعين ، وتحدث فيهم رويدا رويدا عملية التحول المقصودة ، وهى تقييم العساكر

والعسكرية تقييما جديدا .

وكان تأثيرها لدى أصدقائى وأقاربى وأهل بلدى بالغا . وتردد صداها فى وحدات الجيش . وكان آثرها فى المدرسة فعالا فى خلق الروح التى قصدت اليها . فاذا بالضباط وضباط الصف يحاولون تحطيم الجليد الذى يفصل بينهم . وهكذا تحققت تلك المعانى المختلطة ، وطنية أو شخصية .

على انه كان هناك أتسلن أحرص على أن يسمعنى. بطل من أبطال هذه القصة ، جاء ذكره فى مرحلة مبكرة من مراحلها . مر بالقصة ، كما يمر الطيف الحلو ، أو الشعاع العابر . أضاء حياتى لحظة ثم توارى . وتركنى أتردى فى لجج مجتمع الوسية ، وأجوب آفاقه المظلمة .

ان نغمة صوتها ما زالت ترن فى أذنى . وتردد أصداءها فى كيانى . لا أزال أذكر تلك الأغنية الحلوة التى كانت تغردها لنا فى القرية منذ نحو عشر سنوات : « يا مدارس يا مدارس . . ياما كلنا ملبس خالص . . » انها عالية . . ابنة عمى . هى الآن فى السابعة عشرة ، حسناء تبز كل الحسان ، شذية نضرة ، يتضاءل أمامها شذى الزهر ،

ونضرة الورد . كانت عالية ، الانسانة الأولى التى كنت أود أن تستمع الى فى المذياع .

بعد ما تركت « الميكروفون » فى تلك الليلة ، قطعت المسافة بين دار الاذاعة ومنزلها ركضا ، لا أنظر الى الناس ، فـلا أريد أن أرى الاها . خيل الى اننى صعدت الى الطابق الثانى حيث تسكن فى قفزة واحدة ! ضغطت على زرالجرس . وأسرع مع صليله وجيب قلبى . . وفتح الباب : رأيت فى وجهها سعادة وحماسة زادا من حمرة الورد فى خديها . ووددت لو آخذها بين أحضانى ، ولكن الحياء منعنى . اكتفيت بالنظرة الحانية فى عينيهـا . وباللهفة الدافئة تصاعـد من صدرهـا ، ويا للنبضات الحارة يبعث بها قلبها الى يدها ، فأحس بهامتلاحقة يسارع بعضها بعضا ، حينما شدت على يدى عندما فتحت الباب .

كانت الأسرة كلها هناك ، وقد استمعوا جميعا للحديث . علمت من زوجة أخيها ان عالية بلغ اهتمامها بالحديث أن حبست أطفال أخيها فى حجرة أخرى حتى لا يثيروا ضجة لا تتمكن معها من سماع كل كلمة فى حديثى !

أمضيت سهرة ممتعة مع الأسرة . . أمسكت عيناى بعينى عالية

طول الوقت . أخذت أعطيها صورة وردية عن الجيش ، رغم ان اللون الغالب فيه الكاكى ! شرحت لها مهمة ضابط الصف فى الجيش ، ورسالة مدرسة ضباط الصف . استغرقت فى الحديث معها استغراقا كاملا . طالت بنا السهرة وتشعب بنا الحديث . نقلت الحديث من الجد الى الهزل المباح ، ثم الى الجد مرة أخرى . كان الحديث ممتعا حينما يجد ، وممتعا حين يهزل. كنت سعيدا ، ومع السعـادة يصفو ذهن المرء ، ويجود أداؤه .

تجاوزت الساعة منتصف الليل . « سرقنا الوقت » كما يقولون . لم يبد التعب على أحد . لم يظهر النوم على الجفون . كانت الليلة هى مساء الخميس « وليلة الجمعة » . وكان عمى وزوجته قد بلغا من العمر ما يجعلهما لا يحفلان كثيرا بليلة الجمعة ، كما يحفل بها الناس فى مصر . لذلك لم أشأ أن أذكر أحدا بالنوم ، فلماذا أختصر هذه السعادة التى تجود بها هذه السهرة الجميلة .

لست أدرى ان كان الكرى قد دغدغ جفونى فى تلك الليلة . أم انه لم يفعل . كانت عالية تتراءى لى يقظا ، فاذا نمت كان طيفها موضع أحلامى .

عندما استيقظت فى الصباح ، كان أول شىء تقع عليه عيناى هو عيناها . . وكان أول صوت أسمعه هو صوتها :

- صح النوم . .

- صحالله بدنك . .

- صباح الخير . .

- ان الصباح أحلى من الخير . .

- هلى نمت جيدا . .

- لا يهمنى النوم . . ولكن الليلة كانت أجمل ليلة فى حياتى . وهذا السرير أجمل فراش فى الدنيا .

- يا سلام ما هذا الانشاء ؟

- ليس انشاء ولكنه حقيقة . .

- وهل الانشاء ليست حقيقة ؟

- لديك حق ، وهل نمت جيدا ؟

- لقد استيقظت مبكرا ، فلدى عمل كثير . . أريد أن أستأذنك لأعد لك الفطور . .

- الفطور لى فقط .

- كل الناس خرجوا . . لقد نمت نوما عميقا . . الآن الساعة الحادية عشرة .

- أين ذهبوا ؟

- ذهبوا لصلاة الجمعة .

- لابد لى أن أسرع لأننى أيضا أريد أن أصلى .

- دعك من كل هذا ، هل الضباط والعساكر يصلون ؟!

أحسست بتمزق فى أحشائى عندما نطقت عالية بكلمة « العساكر » لا حظت عالية اصفرار وجهى المفاجىء واستغراقى فى التفكير . لا حظت كذلك ان عينى قد تخلتا عن عينيها .

- ماذا جرى ؟

- لاشىء .

- لابد أن تقول لى .

- هل يوجد مسجد قريب من هنا ؟

- دعك من الصلاة ، وابق معنا هنا . .

- هلى يجوز أن يذهب الجميع للصلاة ، وأنا أتخلف ؟

- كما تشاء . . هناك مساجد كثيرة فى هذه المنطقة .

وأخذت تصف لى المساجد المختلفة . . مسجد السيدة زينب ، مسجد الحنفى . .

و . . . ثم أردفت :

- انما لابد أن تأكل قبل أن تذهب .

ـ لا ، ليس ذلكَ ضروريا .

ـ هذا ضرورى ، هذا أمر . .

ـ أتلاحقنا الأوامر فى الجيش وهنا ؟

أسرعت الى مسجد السيدة زينب . وعلى الرغم من الزحام الشديد استطعت أن أشق طريقى ، وأجد مكانا داخل المسجد ، يا الهى ! حتى المساجد درجات ! تذكرت مسجد قريتنا الذى يتماثل مع أكواخ القرية : حوائط من طين ، يتدلى العنكبوت من سقفه . تفرش أرضه بالحلفاء وأعشاب الحقل . دورة مياهه قذرة تأخذ ماءها من بئر تتسرب اليه أشياء كريهة من المراحيض البدائية . أما هذا المسجد ، فان أرجلى تغوص فى سجاده الفاخر، له أعمدة شاهقة من الرخام ، وتتدلى من سقفه ثريات كهربية رائعة ضخمة .

ما هذه الصور من البشر التى أراها تصطف للصلاة ؟ ان الذى يقف على يمينى رجل تتبدى مظاهر النعمة على وجهه وملابسه ، بينما يقف على يسارى رجل يلبس جلابية زرقاء وعمه صفراء ، تسرب لونهما الى بشرته الداكنة ، والى وجهه الشاحب ، الذى يبدو ان الجوع والمرض قد باشرا عملهما فيه بهدوء وثقة واصرار منذ زمان طويل . اننى ألمح فى الصف أمامى جنديا من الجيش وآخر من البوليس ،

يفصلهما رجل واحد عن ضابط يقف فى نفس الصف . اننى لا أدرى ان كان الضابط قد وضع هذا الرجل المدنى بينه وبين العساكر ، أو أن العساكر لم يجدوا الجرأة ، حتى أمام الله وفى بيته ، أن يصليا الى جانب الضابط ، فشاءا أن يجعلا من هذا الرجل حاجزا بينه وبينهما !

ان هذا الانتظام لهذه الصور المتعددة من البشر فى صفوف واحدة رائع حقا . لماذا ينتهى هذا الانسجام الذى نراه فى المسجد بمجرد انتهاء الصلاة ؟ لماذا يبدأ عند باب المسجد ذلك الانفصام بين الناس ، الذى يحدثه المجتمع البشرى فى المزرعة وفى المصنع وفى المعسكر وفى كل مكان ؟

لا جدال ان أحداث نهاية الأسبوع قد أضافت عنصرا جديدا الى حياتى . لقد دخلت عالية الى وجدانى لأول مرة ، فلم تكن قبل الآن الا معنى حلوا يطوف بخيالى .

هلى يستطيع قلبى أن يستوعب كل هذه المشاعر الحلوة ؟ ان أفكارا أخرى تدور فى رأسى . لكن لماذا تسمح لمثل تلك الأفكار أن تغزو رأسك ؟ لماذا لا تنعم بفكرة واحدة سامية ، وحقيقة واحدة كبرى ، وهى ان عالية قد ضمها قلبك ، واتخذت هى منه سكنا ، ومن شغافه حجابا ، أرجو لو يحجبها عن الناس كافة .

٣٨

يا لهذا الانسان ! . . انه اذا ما أصاب من السعادة قدرا ، لا تلبث أفكاره أن تتجه الى الشقاء . وعلى الرغم من ان السعادة التى عرضت له قد تكون غامرة دافقة ، الا ان حساسيته نحو الشقاء قوية ، حتى لو كان حجم الشقاء الذى ألم به صغيرا . لقد كان أحرى بى أن اعيش مع هذا الشعور الجميل ، الذى لفنى بردائه الحلو يومى الخميس والجمعة ، حينما كنت مع عالية . كان على أن أوصد عقلى ووجدانى على تلك العاطفة الحلوة ، التى بدأت تسرى فى كيانى . يجب أن أغتنم هذه الفرصة ، لأنعم بها ما شاء لى النعيم ، فقد طال بى الشقاء . ولكن يبدو ان هذا هو مصيرى . . .

عبارة واحدة نطقت بها عالية ، جعلت موجة السعادة التى حملتنى حين كنت معها تتكسر على صخور من الشقاء . لقد خيل الى اننى تخلصت منها حين هجرت مجتمع الوسية : « هل الضباط والعساكر يصلون ؟ » اننى أثق انها قالتها ببراءة ، وان شعورها الملائكى لا يمكن أن يحس بالطبقات الاجتماعية التى نعانى منها فى هذه الأرض ! انها كذلك كانت تحادثنى وعيناها تشرقان ، وبسمتها المضيئة توحى بانها تهزل معى .. ألم تقترح أن أبقى فى المنزل ، وأقلع عن الصلاة ؟ لكن يبدو اننى « غاوى شقا » .

ضباط وعساكر ! أهى القصة مرة أخرى : سادة يملكون الأرض وعبيد يزرعونها ! وتلاحقت صور الوسية كريهة قبيحة فى مخيلتى . هل كتب على أن أعيش خمس سنين فى الوسية وأشهد عذاباتها الاجتماعية المرهقة ، ثم آتى الى الجيش لأرى فريقين : ضباط وعساكر ؟

أواه ، هل هذا هو قدرى ؟ هل قصدت عالية بعبارتها المقتضبة « هل الضباط والعساكر يصلون ؟ » هذه المعانى التى بدأت عملية تعذيب قاسية فى داخلى ؟ لا أظن انها قصدت بهذه العبارة البريئة كل هذه المعانى الشريرة . . اذن لماذا تركز تفكيرك فى هذه العبارة العابرة ، وتنسى تلك اللحظات الحلوة التى أمضيتها فى منزلها . ثم لماذا لا تكون واقعيا ؟ ان هناك ضباطا يأتون من فئات اجتماعية معينة ، وهناك عساكر ـ وانت منهم ـ يأتون من فئات اجتماعية أخرى . لماذا لا تقبل الفكرة فتريح وتستريح ؟

وما أوشكت أن أريح وأستريح . . حتى اقتحمت ذهنى فكرة سوداء ، ان لعالية أخا ضابطا فى الجيش ، وهم يعطون للضباط عساكر مراسلة . ان أصل الكلمة يرجع الى أن العسكرى المراسلة يحمل رسائل الضابط من مكتبه الى المكاتب الأخرى ، ويعاونه فى بعض شئونه الشخصية ، حتى يتفرغ الضابط للأعمال العسكرية الكبرى ! ولكن هذا

النظام الذى ورثه الجيش المصرى من الجيش الانجليزى ، قد أصبح مشوها جارحا لكرامة الوطن والمواطنين . فعسكرى المراسلة يعمل عمل الخدم فى البيوت . فهو يرافق الضابط أو امرأته ، وهو يرتدى زيه العسكرى ، الى السوق ، ليحضر الخضروات ، واللحم ، ، والكرشة ، الى غير ذلك . وهو يحمل الأطفال ومعداتهم فى الطريق العام ، فاذا بالأطفال يلوثون بذلته العسكرية .

هل تنظر لى عالية ، كما تنظر الى العسكرى ، مراسلة ، أخيها ؟ على اننى لم أر هذا العسكرى طول وجودى فى البيت . ولحسن حظى كان أخوها لا يحضر مراسله الى المنزل . فأبوه رجل شرع ودين ، ويأبى أن يوجد خادم عسكرى رجل فى البيت ، فبنته كبرت ، ولا يجوز أن يختلط رجل غريب بأهل بيته ، حتى ولو كان عسكرى مراسلة . وعلى الرغم من ذلك فهل تعلم عالية ان هناك نظام مراسلة فى الجيش ؟

لكن لماذا تفرض على عالية ، هذا الملاك ، أن تتجه بأفكارها هذا الاتجاه الأسود الذى تتخذه أفكارك ؟ أيمكن لعينيها الحالمتين أن ترانى على هذه الصورة ؟ أيمكن لوجدانها النقى أن يشابه بينى وبين المراسلة ؟ لا لا . . هذا مستحيل . انها ظلت دائما تحنو على ، وتقبل على حديثى ، فكيف تجرؤ على اتهامها بهذه الأفكار ؟ لماذا تتشاءم

دائما ؟ اذا كانت حياتك قد قست عليك فيما مضى ، لماذا تطبق ما فرضته الحياة عليك حينما كانت كئيبة ، على صفحة أخرى وردية بدأت الحياة نفسها تفتحها لك من جديد ؟ ألا تكون الحياة جديرة بالتفاؤل ، اذا ما كانت تضم عالية فيمن تضم من الناس ؟ أو ليس حظك عظيما أن تكون عالية من أسرتك ، وابنة عمك ؟

كان هذا الخاطر الأخير منقذا لى من الأزمة النفسية الطاحنة التى كنت أعانيها . وما ان وجدته حتى تعلقت به ، وحرصت على ألا يفلت منى . وذلك لكى يسد أية ثغرة يمكن أن تنفذ منها الخواطر الكئيبة التى عصفت بكيانى . ولكننى لم أنعم بهذا الخاطر المريح طويلا . فالأنباشى يصفق : اجمع العساكر . . لقد شقشق الفجر ، وبدأت الحياة العسكرية يوما آخر من أيامها الطويلة المنهكة .

فى المســاء ألحت على فكرة طموحة : هل تقبل عالية أن تتزوجنى ؟ وهل يقبل أبوها واخوتها ؟ ان اخواتها أطباء ومهندسون واقتصاديون ومدرسون . وأبوها يحتل مكانا بارزا فى القضاء العالى . ما بالى نسيت ان لها أخا ضابطا فى الجيش ، وهو يعتبر ـ فى نظرى ـ كعسكرى ـ أخطر من هؤلاء جميعا ! هل تصاهر هذه الأسرة عسكريا فى الجيش ، حتى لو افترضنا انه عسكرى ممتاز أو ضابط صف معلم بمدرسة ضباط الصف ؟!!

عادت الى ذهنى الأفكار السود من جديد . لقد أصبحت النظرات الملهمة التى ظلت تصدر فى اصرار ورقة من عيون عالية ، لاتمنحنى سعادة خالصة ، بل شقاء خالصا كذلك . رباه ! ما هذا العذاب الجديد ؟ أيمكن أن يكون النظام الاجتماعى متخلفا الى هذا الحد ، فيمنع زواج فردين من أسرة واحدة : ذلك لان أحدهما عسكرى والأخرى أخوها ضابط ؟ هل تتحدد العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة بقدر ما يملكون من مال أو أرض أو وظيفة ؟ هل كانت أسرتى تعد من الطبقة العالية حينما كانت تملك الأرض ، ثم غدت من الطبقات الشعبية ، الدنيا ، عندما ضاعت الأرض ؟ واذا كانت هذه هى معايير المجتمع . . فهل تنطبق هذه المعايير على العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة : فنهبط فى نظر عمى وأولاده من أعلى السلم الى أسفله ، وذلك لان حدثا اجتماعيا عارضا ينتج عن نظام اجتماعى معوج ، ودولة لا تحمى ثروات المواطنين ، قد ذهب بأرضنا الى الخواجة المرابى ؟

ماذا يمكن أن يكون الحاله عليه ، لو استرددنا هذه الأرض بطريقة أو بأخرى ؟ هل تتغير نظرة المجتمع ، وعمى وأسرته ، الينا ، ونصعد السلم الاجتماعى الى درجاته العليا من جديد ؟ هل يمكن أن تكون هذه المعايرموضوعية انسانية ؟ أسرة تتأرجح بين أعلى السلم وأسفله ، تصعد مرة وتهبط أخرى ، حسبما كانت تملك الأرض ، أو تضيع منـــها ، ثم تملكها لتفقدها مرة أخرى ؟

كلا كلا . . ان هذه ليست معايير الناس الفضلاء . وعمى لا جدال رجل فاضل . بل هو من أكثر الناس تقى وفضلا وموضوعية .

لماذا تلح على هذه الفكرة ؟ . دعك منها واستمتع بعاطفتك نحو عالية ووجودك بالقرب منها . واترك هذه الهواجس . ان مصدر الالهام الى جانبك ، فاستق منه ما شئت ، واختزن فى صدرك ما استطعت من ألوان الجمال التى تصدر عنه . لقد كانت الدنيا قبيحة فى الماضى ، فلماذا لا تنهل من الجمال الذى يملأ بصرك وفؤادك ، وتدخر أكبر قدر منه لتجابه به قبح الدنيا فيما يستقبل من الأيام ؟

• اننى أحب عالية . . ولا جدال فى انها تحبنى ، فلماذا لا أعيش هذه الفكرة الحلوة . وأسعد بها ، وأتوه فى آفاقها الوردية . . ؟

ومنذ لقائى الأخير مع عالية ، وكذلك بعد صداقتى لمرتجى ، كانت هناك فكرة قد نضجت فى ذهنى ، ولكنها كانت فكرة غائمه . وأملا طاف بى فى المزرعة . ولكنه كان كالطيف يظهر ليختفى بعيدا وراء الأفق . وواتتنى الفكرة كذلك فى بدء حياتى فى الجيش ولكنها توارت تحت وقع الطوابير المرهقة ، والحياة العسكرية الصارمة . انها الآن تتبلور شيئا فشيئا . وأخذت أبعادها تتضح لى تماما ، وكذلك وسائل تنفيذها .

فى صبيحة اليوم التالى ، وقد كنا فى عام ١٩٤٠ ، أخذت طريقى

الى حى العباسية وتوجهت نحو مبنى قديم يتكون مـن طابقين ، مبنى بالطوب الأحمر دون طلاء . هذه هى مدرسـة فؤاد الأول الثانوية . وقابلت الناظر .

قصصت على الرجل قصة طردى من الزقازيق الثانوية . وأخبرته بعزمى على استئنافى دراستى الثانوية من جديد . وتأثر الرجل للقصـة . وكان اول رد فعل للقصة ان دعانى للجلوس . ثم قال :

- طبعا انت لا تريد ان تكون تليمذا منتظما . اننى اظن انك تريد ان تتقدم الى الامتحانات من منازلهم .

- حضرتك تقصد ان اتقدم للامتحان من « معسكراتهم » !

ضحك الرجل . ومنعت نفسى من الضحك معه . لكنى ابتسمت . وبدأ يوضح لى ان هناك طريقتين : ان اتقدم للامتحان النقل سنة بعد سنة حتى احصل على الثقافة ، أو امتحن فى مقرر السنوات الأربع دفعة واحدة . وبعد حوار مع الناظر تبينت ان الامتحان فى نظام السنوات الأربع مرة واحدة صعب . فقد تركت الدراسة منذ نحو ثمانى سنوات ، فكيف أمتحن فى الفرنسى والانجليزى والكمياء والطبيعة والجبر والهندسة وغيرها وهى علوم لا اعرف عنها شيئا . وعلى ذلك طلبت أن يعاوننى على التقدم الى امتحان النقل الى السنة الثانية . .

وتساءل الرجل :

- تقصد هذا العام ؟

- نعم.

- هذه مسألة صعبة .

- ما صعوبتها ؟

- بقى على الامتحان شهران فقط ، وهى مدة غير كافية لاستذكار المواد التى ستمتحن فيها . لا سيما وانت تعمل عملا مرهقا فى الجيش . ولا يمكنك معه السيطرة على مواد كثيرة معظمها جديد عليك . بالاضافة الى ان موعد تقديم الطلبات قد انتهى . واجبت الناظر بحماسة وثقة ورجاء :

- أعد حضرتك بأننى سوف أجتاز الامتحان بنجاح ، رغم قصرالمدة . اما موعد تقديم الطلبات وفواته فهذه مسألة اعتقد انك كفيل بهـا .

ابتسم الناظر وبدت فى عينيه رغبة فى تشجيع هذا الشاويش العـجيب :

- سوف أقبل طلبك . . قدمه اليوم الى المسجل ، وادفع الرسوم . وفرحت ، وأصابتنى فى نفس الوقت رعدةخفيفة عند سمـاع كلمة

« الرسوم » هل هى مصروفات كتلك التى تسببت فى طردى من مدرسة الزقازيق الثانوية . . وسألت الناظر :

- هل الرسوم كبيرة؟

- لا تخف . . جنيهان فقط على ما أظن .

- مسألة سهلة : مرتب نصف شهر .

- يبدو انك رجل غنى تتقاضى أربعة جنيهات شهريا !

- طبعا يا أفندم ، أنا معلم فى مدرسة ضباط الصف ، فأنا أيضا انتمى الى مهنة التدريس !

وهكذا أصبحت تلميذا « من معسكراتهم » بالسنة الأولى فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية بالعباسية ، بعد ثمانى سنوات من طردى من مدرسة الزقازيق وكان هذا اليوم من أعظم أيام حـياتى ، ومن أكثرها اثارة .

جاء يوم الامتحان . وتشهد مدرسة فؤاد الأول الثانوية ، لأول مـرة ، شاويشا بحلته الكاكية وشرائطه الحمراء ، يتقدم بخطى ثابته ، ليجلس على المنضدة المخصصة له فى قاعة الامتحان .

أمسكت بالقلم . أجبت على أسئلة الجغرافيا فى متعة وشغف . دعمت الاجابة بالرسوم والخرائط . استغرقت فى الاجـابة استغراقا كاملا . لم أرفـع رأسى الا بعد أن نبهنى الأستاذ المراقب قائلا : كفى

يا شاويش هل تريد أن تكتب كتاب الجغرافيا كله ؟

لم تكن اللغة العربية تمثل بالنسبة لى مشكلة . كنت قد قرأت كثيرا وكنت أستطيع فى هذه السن أن أكتب موضوع انشاء لا يستطيعه أطفال لم تتسع أفاقهم بعد لكتابة شائقة . وكان من السهل السيطرة على قواعد اللغة ، نحوها وصرفها .

أما اللغة الفرنسية ، فلم يكن الاستمتاع بالاجابة فيها بنفس الدرجة فى المادتين السابقتين : لغةجديدة لا أستطيع أن أنطلق فى مادة الانشاء فيها . وقد حفظت قواعدها اللغوية عن ظهر قلب . على ان الاجابة كانت نجاح فحسب .

كنت خلال الاستراحة بين امتحان المواد ، أناقش مع التلاميذ الأطفال الأسئلة ، وكيف جاوبت وجاوبوا عليها . وانتهى اليوم الأول نهاية سعيدة : كنت سعيدا بالاجابة ، وبجو التلمذة ، اذ أجد نفسى أنغمس فيه مرة أخرى .

وفى اليوم التالى ، كان الامتحان فى اللغة الانجليزية وفى الحســاب . وكنت أعتبر اللغة الانجليزية من المرفهات ، رغم انها كانت « بعبع » كثير من التلامذة ، وكنت أعتبر الحساب من أنصــاف المرفهات . . وانقضى يوم طيب آخر من أيام الامتحان ، لاشك أننى مدين لمن وضع برنامج الامتحان فقد بدأ بالمواد المشهية ، وبهذا رفع معنوياتى . وأجبت على أسئلة الانجليزى بشغف بالغ ، وحللت أربعة

مسائل فى الحساب ، وكانت الخامسة عصية .

ذهبت الى المعسكر جذلا عالى الروح . وأخذت أقرأ مواد اليوم التالى . وما أدراك ما مواد اليوم التالى ، الرياضيات : الجبر والهندسة . وكذلك الطبيعة . من الممكن أن يذاكر الانسان مادة الطبيعة . ومن الممكن أن يسيطر عليها . ومن الممكن أيضا أن يحفظ نظريـات الهندسة . ولكن كيف يذاكرمسائل الجبر وتمارين الهندسة ؟ وبرقت فى خاطرى ذكرى حلوة عندما كنت فى الزقازيق الثانوية ، حصلت فى امتحان الشهر الاول على ٥٠ درجة من ٥٠ فى كل من الجبر والهندسة والحساب . لماذا لا يكون ذلك مصدر ثقة لى ؟

على اننى لم أرهب أى امتحان كما رهبت امتحان الرياضيات . واصطرعت مع تمارين الهندسة ومسائل الجبر اصطراعا قاتلا ، لم انج منه الا على صوت المدرس المراقب : باق من الزمن خمس دقائق . . ورجعت الى مسألة فى الجبر كانت عصية . ثم صارت طيعة . وما أن خطوت فيها خطوات حتى جاء صوت النذير مرة أخرى :

باق من الزمن دقيقتان .

انتهى الوقت . . ، ضع الأقلام ، جفف الأوراق . . وفى اللحظة التالية كان المراقب ينتزع ورقة الاجابة من تحت يدى انتزاعا ، ولم تشفع نظراتى له ، والبدلة الكاكى ، والشرائط الحمراء ، فى أن يعطينى

دقيقة أو دقيقتين . أصبت بخيبة أمل . لاننى لم استطع ان اكمل اجابة مسألة الجبر . لكننى شعرت بقدر كاف من الرضا . هاانذا اراجع الحلول مع التلاميذ ، فاذا بى وقد حللت ثلاثة مسائل من الجبر ، ومشيت فى الرابعةخطوات . وفى الهندسة اجبت على النظرية وتمرين كامل ، وقطعت شوطا فى تمرين أخر .

ذهبت الى المعسكر رضى النفس مرتاح البال ، لقد حلت عقدة الامتحان ، وبقيت مواد كالحلوى تأتى فى نهاية المائدة ، لقد بقى التاريخ والرسم .

انتهى الامتحان ، وستعلن النتيجة بعد عشر أيام . وذهبت الى المعسكر ، ونمت كما تنام الابل . .

أعلنت النتيجة . . ذهبت لأارها . .

استخدمت الخطوة السريعة ، التى تعلمناها فى الجيش ، للوصول الى الحائط التى علقت عليها النتيجة . . هذا هو اسمى يشغل لوحة مستقلة كتب عليها :

، امتحان النقل الى السنة الثانية للمتقدمين من منازلهم ،

، الناجحون : خليل حسن خليل ، .

ثم لا شيء بعد ذلك . .

٣٩

لا أدرى ان كنت وصلت الى منزل عالية ، طائرا آم سابحا ، أو بواسطة الترام . . وضغطت على جرس الباب بطريقتى الخاصة . ولم يحضر أحد لفتح الباب . كان الوقت مبكرا قبل الظهيرة بقليل . لم تتعود عالية أن أحضر فى مثل هذا الوقت . كذلك فقد انقطعت عن زيارتها نحو شهرين . ضغطت على الجرس مرة أخرى . ثم فتح الباب : عـــالية . . لقد فوجئت . . انها لم تتوقع حضورى فى هذا الوقت . كذلك يبدو انها كانت تقوم بـاعداد الطعام فى المطبخ ، فشعرها مضطرب ، والفستان الذى تلبسه قديم . بدا عليها انها كانت لا تود أن تلقانى على هذه الصورة . لم تكن تدرى ان منظرها هذا الطبيعى ، كان من أحب المناظر الى نفسى . .

ـ تفضل . . . .

ودخلت . ودلفت عالية الى حجرتها ، وغيرت ملابسها وصففت شعرها . هل أحبها كما كانت دون صناعة . أو احبها الآن مع قليل من التنسيق ؟ لا ريب اننى أحبها طبيعية ، وأحبها منسقة !

المنزل خال ، الا من والدتها . . وجاءت عالية وجلست معى .

وترددت قبل أن تقول :

ـ انت مخاصمنا ؟

ـ كيف أستطيع ذلك ؟

ـ لم نرك منذ أكر من شهرين .

ـ كنت مشغولا .

ـ كما تحب .

كان فى نغمتها أسى ، وكنت جذلا لهذا الأسى . . وخيل الى اننى أقرأ فى عينيها تساؤلا : ما بالك فرحا ، وأنا أعاتبك على غيبتك الطويلة . ألا تحس بما أكنه لك ؟ ألا تستطيع أن تلمح معنى معينا فى عينى ، ونغمة خاصة فى صوتى ؟

همت عالية بالخروج من الحجرة ، فرجوتـــها أن تنتظر لحظة ، فقالت :

ـ سوف أعود ثانية .

ـ انتظرى ، أريد أن أقول لك شيئا قبل أن يحضر أحد .

وتصاعد لون الورد كثيفا قويا الى خديها . وتساءلت :

ـ خيرا .

ـ لدى خبر جميل ، إريد أن أسوقه اليك .

ـ قل وطمنى .

- هل تريدين معرفة سبب غيابى ؟

- نعم .

- كنت أحضر لك مفاجأة .

- مفاجأة لى أنا ؟

- نعم . . أنا كنت أذاكر لأحصل على الثقافة . وقد دخلت امتحان النقل الى السنة الثانية ، ونجحت .

سرى لون الورد الى بقية وجهها ، عاد الاشراق الى عينيها . ثم امتشقت واقفة . تقدمت نحوى خطوة . توقفت فجأة . . كان الحياء القاتل سدا منيعا بينى وبينها . كان الحياء قسمة بيننا . تلاطمت الأفكار فى مخيلتى : هل تريد أن تقبلنى أو تعانقنى . هذه أحلى مكافأة يمكن أن تكافأ بها جهودى . لكن هذا مستحيل . ان لخيالك جرأة غريبة . اذن لماذا تقدمت نحوى . . ثم توقفت . . . أبتهل اليك أن تتقدمى . فأنا خجول لا أستطيع أن آخذ المبادرة . . ومضت برهة تلاقت فيها عينانا ، ولهثت فيها أنفاسى . . واذا بصوت أمها ينهى هذه اللمحة النادرةمن لمحات هذه الدنيا :

- عالية . .

- . . . . . .

- عالية . .

- نعم يا ماما

- تعالى . .

وترددت عالية ، ثم قفزت الى خارج الحجرة كالعصفور ، وسمعتها تغرد :

- ماما . . ماما . . خليل نجح فى الامتحان الى ثانية ثانوى .

- أى امتحان يا بنتى ؟

- يريد أن يحصل على التوجيهية .

- أى توجيهية . . لقد كبر ، وترك المدرسة منذ مدة طويلة .

- لكنه يكافح ليكمل دراسته . . تعالى قولى له مبروك . .

وجاءت والدتها تهنئنى ، وتدعو لى بالتوفيق للحصول على الشهادة الكبيرة .

وقالت عالية :

- ما هذه المفاجآت يا بنى ؟

- نحن لا نلعب .

- كيف استطعت المذاكرة ؟

حكيت لها القصة تفصيلا . ونمقتها تنميقا خاصا . أضفت اليها من « الرتوش » ما يجعل منها عملا بطوليا . ألم أحقق شيئا فى ظروف عسيرة ووقت قصير، ودون مدرسين ؟ ألم تكن عالية ملهمتى ؟ لماذا

لا أحبك القصة ،وأطرز خيوط البطولة حولها ، لتبدو زاهية حلوة . . .

أنصتت عالية بأذنيها وجوارحها جميعا . وكان شريط الرواية ، بصوره النضالية المريرة والحلوة ، الضاحكة والباكية ، ينعكس على زرقة عينيها . كانت تنفعل لكل شيء .

وكنت أنا لا أرى الا عينيها ، تتحرك فى صفائهما صور القصة واحدة بعد الأخرى .

وفى عصر ذلك اليوم خرج والدها واخواتها وبقيت ، وفرحت عاليه لبقائى :

ـ لماذا لم تخرج اليوم كعادتك؟

ـ أنا متعب بعض الشيء .

ـ صحيح ؟

ـ ألا تصدقينى ؟

ـ اذا أراد الصراحة فلا .

ـ هل يعنى هذا انك تريدين أن أخرج ؟

ـ لا . أنا أود أن تبقى . .

قالت هذه العبارة باندفاع أرض مشاعرى كثيرا . وصمتت لحظة ، عادت بعدها الى الحوار الخفيف :

ـ لكن هناك فرقا بين اننى لا أصدقك وبين رغبتى فى عدم تصديقك .

ـ اذا كان لابد وأن تنتزعـى منى اعترافا . . فالحق اننى لست متعبا .

ضحكت عالية ضحكة هامسة ، تجلت معها دلائل السعادة على محياها ، وظهر طابع الحسن فى أسفل ذقنها .

أخذت أستعرض ماضى معها . وخيل الى ان شيئا ما بدأ يدب فى وجدانها . لا ريب ان نظراتها تنطوى على معنى آخر غير انها قريبتى . لقد رأيت أقارب آخرين يزورونهم ، فلم تحتف بهم حفاوتها بى ، ولم تعطهم من الاهتمام قدر ما تعطينى . وهى قطعا لاتنظر اليهم بتلك النظرة الحلوة ، ولا تطيل النظر اليهم. انها لا تغادر الحجرة التى أجلس فيها ، فاذا غادرتها لفترةقصيرة ، وأصبحت ، الطرقة ، التى تؤدى الى المطبخ ، وتمر أمام غرفتى ، هى مسارها المفضل ، ومتنزهها الوحيد .

تركت الحجرة الى الشرفة ، وكانت فسيحة، تتدلى على جوانبها أغصان الأشجار الباسقة ، التى تصعد من حديقة المنزل . وكان الوقت صيفا . ومع مغرب الشمس تهب نسمات حلوة ، تجعل من أمسيات القاهرة شيئا مستحبا يمسح حرارة النهار . وانتثرت فى حواشى الأفق

سحابات صيف ، امتصت شعاعات الأصيل ، فأحالت السماء الى مهرجان من الألوان . فقد انعكست على قطع الغمام المتناثرة ألوان الطيف الرائعة . كانت الشرفة فى هذا الوقت تغرى بالوقوف فيها . وهى كذلك تتسق مع الجو ، العاطفى ، الذى كنت أعيشه . بل انها غدت مرتعا من مراتع الحب ، ألجأ إليه كلما وددت أن أتوه فى دنياه .

ووقفت فى الشرفة ، أنهل من جمال السماء ، وأستمع للموسيقى التى يهمس بها النسيم لأوراق الشجر . وبدا لى ان السماء والأرض تسهمان ، لأول مرة فى سعادتى . . ويبدو ان عالية قد افتقدتنى ، حيث لم تجدنى فى حجرتى ، فجاءت الى الشرفة . واقتربت منى ، واستندت هى الأخرى الى حائط الشرفه . ونظرت الى السماء فانعكس فى عينيها صفاء السماء وألوانها .

يا الهى ! كل هذا الجمال دفعه واحدة !؟ كيف يتسنى لى أن أستوعبه ؟ ألم يكن من الأفضل أن أمنح منه جرعات فحسب ، حتى لا أنوء بحمله ؟ هل هذا هو قدرى ؟ أمنح السعادة كلها ، أو أعانى الشقاء كله ؟ يبدو ان الحياء الذى كان يطبع سلوكى قد استحال الى أسلوب ، وجاء بنتيجة ممتعة غاية فى الامتاع . فقد أصبحت لغة العيون بينى وبينها تمنحنى شعورا عذبا أبلغ من كل لغة ، وأفصح من كل بيان : وهكذا بدا فى الشرفة لون من التعبد الصامت صمتا أقوى من

الكلام ، الهادىء هدوءا أقوى من العنف . واستمر التعبد فترة غير قصيرة . كانت هى المعبودة ، وكنت أنا العابد . ولا غرو ، فالمعبود دائما أجمل من العابد . . وأصرت عيناى على ألا تدع عينيها تفلتان . واستسلمت عيناها ، وغبنا عن الوجود .

استيقظت عالية ، ولم أشأ أن أستيقظ . وهتفت بى :

ـ أتحب أن أحضر لك شيئا تجلس عليه هنا ؟

ـ وأجبت ولم أزل غير يقظان :

ـ أحب ! . . .

كانت الشمس قد غابت وراء الأفق . وكان القمر قد بدأ يتسلل الى الشرفة خلال أوراق الشجر ، فأصبحت أرضيتها مغطاة بقطع فضية متناثرة من الضوء . وجاءت عالية ، بفرو خروف ، ثم انثنت لتفرشه . وتناثرت قطع فضية من ضوء القمر على جسدها . ثم استقامت فتسلل القمر من بين الأوراق الى وجهها . وكان ورق الشجر يتهادى مع النسيم فيتهادى الضوء والظلال على وجهها ، وقالت لى :

ـ تفضل . . اجلس .

ـ ألا تجلسين أيضا ؟

ـ لدى عمل . . أريد أن أجهز العشاء .

ـ لا أريد عشاء . .

- كيف ذلك . . لابّد أن تتغذى ، لقد أنهكك الامتحان .
- هل تتركينى وحدى ؟

كانت العصافير قد آبت الى أغصان الشجر ، بعد يوم من الطيران طويل ، تبحث فيه عن غذائها وغذاء صغارها . واخذت تقدم فى ذلك الوقت سيمفونية حلوة . وأكملت موسيقى الطير الصورة الشاعرية التى منحتنى سعادة غامرة ، أخذ قلبى يخفق معها حتى خلته يريد أن يقفز من صدرى ، ويذهب ليعانق قلبها . يبدو انه قد برم بلسانى وبحيائى ، فازداد وجيبه . وبدا لى انه يريد أن يتولى شئون العلاقة بينى وبين عالية بنفسه !

لم أجرؤ على دعوتها للجلوس الى جانبى على « فروة الخروف » ، اذ ان ذلك فى نظرى كان عملا جريئا لا يغتفر . ووقفت عالـــية برهة . . ونظرت الى . وتخيلت انها تنتظر أن أدعوها للجلوس الى جانبى . ولكن الحياء جمد تفكيرى . وأنقذت عالية الموقف بقولها : سأذهب لاحضار كرسى لأجلس عليه . وجلست على بعد خـطوات منى . وتحدثنا فى موضوعات متنوعة ، كانت فترات الصمت التى تخللتها اجمل منها . على ان القمر ، وعاليه ، والشجر ، واهازيج المساء تصدح بها العصافير ، جعلتنى اعيش لحظات لا تعد من العمر ، نسيت فيهانفسى وشقائى فيما مضى من حياتى . وتركت عاليه تذهب لاعداد

طعام العشاء . فقد نهلت من نبع السعادة كثيرا ، حتى أصبحت فى حالة أخشى فيها على نفسى ، اذا ما استرسلت فى مزيد منها .

٤٠

كان العام التالى (١٩٤٢) حافلا بأحداث كثيرة . فقد نقل مرتجى من المدرسة الى الحرس الملكى . وبذهابه تسرب الوهن الى ندوة الروح المعنوية . فقد دعوت اللجنة ، بعد رحيل مرتجى ، لتنظيم الموسم الثقافى الجديد . وحضر ضباط الصف أعضاء اللجنة ، بينما تغيب الضباط الأعضاء جميعا . وحاولنا أن ندفع الحياة الى أوصال اللجنة ، فاتصلنا بالضباط وقبل أحد الضباط الممتازين ، الصاغ محرم عثمان ، (رئاسة الندوة) . وباشرت الندوة مهمتها ، واستهلت موسمها الثقافى ، والدم المتجدد يتدفق فى عروقها .

على أن الندوة قد اعترض سبيلها حادثان ، لا أدرى ان كانت سوف تتخطاهما : الأول أن « الصاغ محـرم عثـمان » مـرض « فتمارض » معه أعضاء اللجنة من الضباط جميعا . والثانى اننى عينت شاويشا لمكتب القائد :

استدعانى أركان الحرب ليخبرنى ان قائد المدرسة يريد « شاويشا لمكتبه » ، وانه قد اخترنى من بين ضباط الصف جميعا للقيـام بهذا

العمل ، ذلك اننى « صف ضابط ممتاز » فى نظره .

وقع الخبر على كالصاعقة . ولا حظ الصاغ أركان الحرب سكوتى وشحوبى فقال دهشا :

- الست مسرورا ياشاويش ؟

ولم ينتظر حتى أرد عليه . . فواصل الكلام :

- هذا عمل ممتاز، ومريح ، وكل شاويش يتمناه. لكننى اخترتك نظرا لامتيازك .

- أشكر لحضرتك تقديرك لى . . ولكن . . . .

وقاطعنى أركان الحرب :

- ليس هناك « لكن » . . هذا أمر . . انصراف يا شاويش .

- يا أفندم .

- لا مناقشة . . انت فى عسكرية . . انصراف . .

- كلمة واحدة . .

- ولانصف كلمة . . للخلف در . .

ولم أستطع أن أرد على أركان الحرب ، فقد كان عنيفا صارما . . درت الى الخلف . انصرفت كسيفا محزونا .

كان عمل شاويش المكتب ، هو عمل عســـــكرى « مراسلة » تماما ، عسكرى يحمل على ذراعه ثلاثة شرائط . . عــــلى ان

وظيفة « المراسلة » هنا مقصورة على العمل فى المكتب فحسب . حـمدا لله على اننى سأعمل فى مكتب القائد ، ولن أذهب الى بيته لأقوم بالخدمة المنزلية والسوقية ، كما يفعل العساكر المراسلات .

كانت مهمتى تتطلب الاشراف على نظافة مكاتب ادارة المدرسة ، وعلى العساكر المراسلات ، وكذلك العناية بمكتب القائد . على انه كان على أن أقف أمام مكتب القائد ، وأرد على جرسه حين يدق . وكان هذا الجزء من العمل قاسيا على نفسى ، وأحدث جرحا غائرا فى كبريائى ، لم يندمل الا بعد أن غادرت ذلك العمل .

كيف أعمل « مراسلة » حتى ولو كان هذا العمل لدى القائد ؟ هل يتطلب هذا العمل شاويشا ، ويحمل الابتدائية ، معلما ممتازا ، بعد الجنود للدفاع عن الوطن ، ويناضل للحصول على التوجيهية ومـــا فوقها ؟ هل هذه المؤهلات ضرورية لعمل المراسلات ؟ يا لقدرى . . اننى أقود حركة لبث « الكبرياء » بين الجنود . اننى خطيب المدرسة ، ورسولها فى الاذاعة وفى نادى ضباط الصف ، وفى ندوة الروح المعنوية : لقد قدمت للندوة اقتراحا بالغاء نظام المراسلات فى الجيش . فقد كان نظام العساكر المراسلات فى البيوت وفى الشوارع سبة فى جبين هذا البلد . فهل أتجرع أنا أيضا مرارة هذا العمل ؟

لن يغير من كونى « مراسلة » انهم يطلقون على عملى « شاويش

المكاتب ، ولن يصبح هذا العمل ، كريما ، لأننى أؤديه للقائد . ولن يثير احترامى ، لأنهم اختاروا له شاويشا ، ممتازا ، . ولن يحببه الى نفسى اننى سوف لا أقوم بعمل يذكر، فأنا أمقت الكسل والكسالى . ولن يغرينى اننى سأكون قريبا من القائد ، وقد أفيد شخصيا من هـذه القربى . كل ذلك لن يقنعنى ، ولن يضمد جراحى . ونوع العمل هنا هو الفيصل :

- اذا دق القائد الجرس ، من الذى سيلبى نداءه ؟
- أنت . .
- اذن فأنت مراسلة . .
- أين ستجلس ، أو تقف ؟
- أمام مكتب القائد .
- كفى . . أنت مراسلة . .

كيف أستطيع أن أجابه زملائى ، بل كيف أجابه نفسى ؟ ذلك أن مجابهة الانسان لنفسه أكثر عسرا . واذا فقد المرء الاحترام الذى يشعر به بينه وبين نفسه ، فهيهات أن يحظى باحترام الآخرين .

اننى لم أنعم بنجاحى كثيرا ، فقد كانت الفترة التالية له فترة مقبضة : نقل فيها مرتجى ، وقبرت فيه ندوة الروح المعنوية ، وقد تقبر كبريائى فى عملى الجديد .

بدت المكاتب فى اليوم الأول فى أبهى حلة : الطرقات تلمع . وأكر

الأبواب النحاسية تضوى . والأثاث منسق منظم . وزجاج النوافذ البللور . ووزعت الزهور على ، الزهريات ، فى المكاتب المرموقة ، مكاتب القائد وكبير المعلمين وأركان الحرب .

وصل القائد . كان رجلا مهيب الطلعة ، مستدير الوجه ، ممتلىء الأكتاف . وكان فى استقباله كبير المعلمين وأركان الحرب ومساعده وصول التعليم وأنا . وعندما وقفت العربة فوجئت بالأركان حـــــرب ، يشخط ، فى قائلا : افتح باب السيارة ياشاويش بسرعة . . واضطربت بين فتح الباب وبين ، تعظيم ، القائد ، فقمت بحركات مضحكة . وتقدم القائد منصوب القامة شامخ الأنف الى مكتبه .

دق القائد الجرس . قفز مع دقاته قلبى . لم أكن قد هضمت بعد فكرة أن مهمة مراسلة المكاتب لابد أن ينهض بها شاويش متطوع متعلم ومعلم بالمدرسة . ولذلك كنت قد كلفت عسكريا للقيام بهذه المهمة . وتخيرت عسكريا وسيما ـ ان كان فى العساكر وسماء !ـ دفعت العسكرى ليدخل ليرى ماذا يريد القائد . تردد العسكرى رهبة من الموقف . دق الجرس دقا متواصلا بدت فيه ، النرفزة ، . دفعت العسكرى مرة أخرى. دخل المكتب ، دق كعبيه فى صوت يشبه الانفجار صارخا : أفندم . . .

راقبت المنظر من خلال ، البرافان ، الذى يوجد فى مـدخل الحجرة . ورفع القائد رأسه بتثاقل ، ونظر من فوق ، نظارته ، التى تدحرجت على أنفه . **فوجد أمامه عسكريا فقال له :**

- من أنت ؟!
- أنا عسكرى يا أفندم . .

وارتفع صوت القائد فى اشمئزاز وغضب :

- أين الشاويش ؟

وتكثفت حبات من العرق البارد فوق جبينى . . وأجاب العسكرى :

- موجود خارج المكتب يا أفندم . .
- اذهب واحضره . . ثم أردف : . . لا . . نادى أركان الحرب . توقعت كارثة . . .

جاء أركان الحرب . ودخل على القائد وحياه . . وسأله القائد :

- أين الشاويش الذى قلت لك عينه للمكتب ؟

وأجاب أركان الحرب فى لعثمة وخوف :

- موجود يا أفندم . . ألم تلاحظ سعادتك أن المكـــتب يبدو كالبللور . . واصطنع ابتسامة قطعها القائد بقوله :
- أنا لم أحضرك هنا لتقول لى المكتب كالبللور ، أوكالألماظ . . أنا أرسلت فى طلبك لأقول لك أننى دققت الجرس ، وجاءنى عسكرى يقول لى : أفندم . . . !
- كيف يحدث ذلك ؟ ماذا يفعل الشاويش اذن ؟
- تسأل نفسك هذا السؤال . . .

شحب لون أركان الحرب الذى كان « بعبع » المعسكر ، وكانت تعنو له الرقاب جميعا .

سمعت حوار القمة بين القائد وأركان حربه . . توقعت شرا . غاض الدم من عروقى . وعاودنى التقزز الذى يعلق بحلقى ، والذى كان يواتينى بين الفينة والفينة فى مجتمع الوسية . وها هو ذا يواتينى لأول مرة فى الجيش . خرج أركان الحرب من مكتب القائد . كان رجلا ضخما طويلا ، وسيم القسمات ، صارم الوجه . ورآنى . قال لى بصوت أجش ، ولهجة آمرة ، ولكن فى هدوء لم أتوقعة .

- تعال يا شاويش . .
- **وتتبعته الى مكتبه ، حيث بادرنى :**
- ماذا فعلت يا شاويش ؟
- ماذا تقصد يا أفندم ؟
- عندما دق جناب القائد الجرس لماذا لم تدخل المكتب بنفسك ؟

ونكأت كلمة « جناب » جرحا خلته اندمل . فقد كانوا يطلقون على الخواجة مالك الوسية كلمة « جناب الخواجة » أيضا . . هل يشترك الخواجة اليونانى سيد الاقطاعية مع القائد المصرى فى كلمة «جناب» ؟ وما أصل هذه الشركة ؟ تكثف التقزز فى حلقى . وأجبت على أركان الحرب :

- العسكرى دخل ـ يا فندم ـ ليرد على الجرس .

صرخ أركـان الحـرب صرخـة عاليـة مـن صرخـاتـه المشهورة عنه :

- لماذا اذن أحضرناك الى هنا ؟

- ظننت اننى عينت هنا للاشراف على نظافة المكاتب ، وعلى انتظام العمل فيها . . ألم تقل لى حضرتك ان هذا عمل ممتاز ؟

- حقا !؟

- . . . . .

- لقد قلت لك انك عينت هنا لمكتب القائد . وها آنذا أقولها لك من جديد : لقد عينتك هنا لترد على جرس القائد .

ثم سكت برهة أشعل فيها سيجارا طويلا ، وآخذ منه نفسا عميقا ، وتركه معلقا بين شفتيه . ثم واصل الحديث :

- أحب أن أقول لك بصراحة ، طالما لا تود أن تفهم ، انك جئت الى هنا لتكون « مراسلة مكتب القائد » . .

ومع اننى كنت أعرف تماما بينى وبين نفسى ، ان هذه هى مهمتى ، الا ان كلمات أركان الحرب أخذت تمزق أحشائى . . وخرجت من الحجرة خفيض الرأس ، كسير الفؤاد . وما أن وصلت أمام حجرة القائد حتى دق جرسة . دخلت حجرة القائد . أديت التحية العسكرية بنشاط ملحوظ :

- هات لى فنجان قهوة !!

ألهذا العمل يوظفون شاويشا « ممتازا » ، ومن أجله ينخفض أركان الحرب بكبرياء مواطن الى الحضيض ؟!

- حاضر يا « جناب » القائد !

وخرجت واتجهت الى بوفيه الادارة ، الذى كان يعمل فيه جندى يلبس قفطانا أبيض ، وحزاما أحمر ، وطربوشا ، تماما كما كان يلبس عبده طباخ الخواجة اليونانى صاحب المزرعة ! وقلت لــــه : قهوة « لجناب » القائد . .

• مضى اليوم الأول من عملى « كمراسلة لمكتب القائد » ، حسب تعبير أركان الحرب ، على هذه الوتيرة : جرس يدق ، فأدخل على القائد وأعظمه ، ولا يفطن للتعظيم . وتصدر الأوامرالتالية : قهوة ، شاى ، الورقة هذه للأركان حرب ، ناد السائق ، عايز الصول ، هات سجاير ، نظف الطفاية ، هل سقى الجناينى الحديقة ؟ كم الساعة ؟ ارسل عسكريين لتنظيف المنزل ، أحضر كوبة ماء ، كازوزة ، قهوة شاى ، وهكذا !!

كانت هـذه هى المهمة الكبرى التى اختاروا لها شاويشا ممتازا . .

انتـهى العمـل فى المكتب . وذهبـت الى عنبر مخصـص لعساكر « رياسة » المدرسة .

وهنـاك تمددت على سريرى ، وبدأت أستعرض الأعمـال «الممتازة» التى عهد بها الى فى وظيفتى الجديدة .

* * * *

لم يكن هناك مرتجى لأبوح له بآلامى ، كما كنت أفعل فى الماضى عندما تلم بى ملمة . مع من أتحدث ؟ لا أستطيع أن أنفس عن صدرى مع زملائى ضباط الصف . لقد كنت أتيه بينهم ، وأقود حركة الكبرياء فى المدرسة ، فاذا بكبريائى تهون .

وتذكرت إنسانا أكن له الود والاعجاب . هو الصاغ «محرم عثمان» رئيس ندوة الروح المعنوية وبحت له بآلامى ، وبالجروح التى انتابت كرامتى بعملى فى مكتب القائد . ورد الرجل لى ثقتى بنفسى ، ورأب الصدع الذى احدثه اركان الحرب فيها . . وجمل لى الوظيفة التى أكد أنها يختار لها الممتازون من ضباط الصف .

استأنفت عملى فى اليوم التالى بروح تختلف تماما عن اليوم الاول . . اذا كان هذا عمل العناصر الممتازة فى الجيش ، فلماذا لا أقبل قيم الجيش كما هى . فاذا كان الناس جميعا يقولون ان هذا عمل ممتاز

...ام ، فلماذا لا أقبل ما يقولون ، واضع حدا لهذه العذابات التى تود أن ... جراحى من جديد .

بدت المكاتب فى حلة زاهية . اديت الخدمات « المراسلية » اداء ...دا ، بروح عاليه . . ابتدعت لمسات فى تنظيم مكتب القائد وتنسيقه ، ...عل البسمة تضىء وجه القائد . والرضا ينبثق من عينيه . . الأدوات الكتابية نسقت على « ترابيزة » المكتب بشكل علمى ! . الاقلام والريش، والنشاف ، والمحابر ، والممحاة ، وفتاحة الخطابات ، ونتيجة المكتب ، وطفاية السجاير وغيرها ، نسقت بطريقة فنية ، روعى فيها تكامل الألوان والأشكال فى تكوين هندسى أخاذ . وضعت الأدوات كذلك بطريقة لا تتطلب من القائد الا جهدا يسيرا ، تكاد الأدوات تقفز أوتنساب الى يده ! رددت على جرسه . حققت كل طلب بسرعه وكفاية ارضت القائد . وبرضائه يرضى الناس جميعا .

استمر الحال على هذا المنوال اسبوعا . بدأت اكتسب لدى القائد مكانة خاصة . أخذ يخاطبنى مباشرة ، اذا كانت لديه ملاحظات ، ولم يعد يستخدم اركان الحرب كوسيط بيننا .

سألنى القائد يوما عن الحديقة ، وهل أحضروا الرماد من شاطىء ترعة الاسماعيلية لها . أجبته بالنفى ، قلت له ان سعادتك - كلفت أركان الحرب بهذه المهمة .

الواقع اننى أردت ان اركز على كلمة « اركان الحرب » ، لاننى لم أنس له الاهانة التى وجهها الى عندما لقبنى بالمراسلة . دق القائد الجرس لا ستدعاء اركان الحرب . وكان على مكتبه لوحة بها عدة ازرار مكتوب عليها :

١ ـ كبير المعلمين .

٢ ـ أركان الحرب .

٣ ـ صول التعليم .

٤ ـ الشاويش .

الحقيقة ان الزر الرابع ، كان مكتوبا عليه كلمة « المراسلة » .

وقد غيرتها . وضعت بدلامنها كلمة « الشاويش » . . ورآها القائد ذات يوم . ابتسم . وافق عليها ، دون ان يناقشنى فيها ! كان وجود هذه الأزرار يهون على الأمر من الناحية النفسية . فالقائد يضـغط على الزر ، فيأتى كبير المعلمين وأركان الحرب بجلالة قدرهما . ضغط القائد على « زر » أركان الحرب . جاء على عجل ، وكأنه يخرق الأرض ، وينهبها نهبا.

ـ أفندم . . جناب القائد .

ـ أين الرماد الذى قلت لك تحضره للحديقة ؟

ـ لقد عملت الترتيبات يا أفندم . .

ـ أى ترتيبات يا حضرة الصاغ ؟

ثم ارتفع صوت القائد فى حدة :

ـ عندما نقول الرماد يوضع فى الحديقة بالأمس ، يعنى يوضع بالأمس ، وليس اليوم . .

ـ آسف يا أفندم . .

ـ ليس هناك شيء اسمه « آسف » . . الأوامر فقط تنفذ فورا .

وصمت أركان الحرب . . وأردف القائد :

ـ تفضل . .

تفضل أركان الحرب بالخروج . ورأيت لأول مرة لونا من الامتهان على وجهه ، خفف عنى الامتهان الذى سببه لى فى يو م من الأيام . . لم تعد خطواته تخرق الأرض ، ولم تعد قامته تبلغ الجبال طولا !

وهكذا مضت بى الحياة فى العمل الجديد : نوع من الرضا بدأ يتسلل الى نفسى . فالقائد ينظر لى نظرة خاصة ، ويحيطنى بتقدير ملحوظ . وعندما يرضى القائد ، فان جميع المقودين يرضون . تعلو الابتسامة وجوههم اذا ما ابتسم ، و « يكشرون » اذا ما قطب بين حاجبيه . هكذا كان شأن أركان الحرب وغيره من الضباط معى . وغمرنى شعور غريب بدا معه ان « شاويش مكتب القائد » وظيفة

ممتازة حقا .·. الضباط يحترموننى ، وكنت أظنهم لا يفعلون وضباط الصف لا يحترموننى فحسب ، بل يغبطوننى على هذا العمل ، وعلى المكانة المرموقة التى حظيت بها لدى القائد . لهذا سعدت بالعمل وأقبلت عليه بروح أعلى من تلك التى صاحبتنى يوم بدأته .

٤١

كانت فترة السنة التى قضيتها فى مكتب القائد فترة خصيبة منتجة ، عكست خصبها وانتاجها على العقل والقلب جميعا . أقبلت على العمل بحماسة غريبة . بذلت جهدا فى العناية بالمكاتب جميعا . ارتفعت نوعية الخدمات « المراسلية » ، فأصبحت أسنان الريش فى مكتب كبير المعلمين نظيفة ، وتستخدم مواد كيماوية لتلميعها ، لتصبح فى لون الذهب ! ذلك أنه ثار وهاج اذ وجد يوما ، أن سن ريشته تلوثه بقعة من الحبر !

بدا لى هذا العمل ، وأكأن الظروف قد هيأته لى لتسهيل مهمتى الدراسية ، فأنا أنتهى منه فى الواحدة بعد الظهر . ثم أنعم بنـــــــوم « القيلولة » لمدة ساعتين ، حيث لا عمل بعد الظهر . ثم أبدأ الدراسة من الساعة الرابعة حتى الواحدة بعد منتصف الليل . أى عشر ساعات كاملة . وكان هذا العمل مريحاحقا : بضع أجراس يدقها القائد ، وألبيها

فى ثوان . وكان الاشراف على أربعة عساكر أمرا سهلا . هذا بالاضافة الى أن العمل الاشرافى نفسه ، لا يقتضى المرء جهدا كبيرا ، اذا كانت لديه قدرة تنظيمية بسيطة . وكان العساكر يقبلون على عملهم باخلاص ، نظرا للمعاملة التى أعاملهم بها ، فقد كانوا يمثلون دنياى الصغيرة، التى أطبق عليها المبادىء التى أرسيناها فى « ندوة الروح المعنوية » .

اننى لم أعد أستيقظ فى الخامسة صباحا ، كما كنت أفعل عندما كنت أقوم بالتدريس وقيادة الفصائل . ولم أعد آعانى من الطوابير الشاقة التى تبدأ فى السابعة صباحا ، ولا تنتهى الا فى التاسعة والربع مساء حينما ينقذنا البروجى بضربه نوم . لم أعد أتسلل بعد ذلك الى قاعة المحاضرات لأستذكار دروسى . وكان الانهاك اليومى البدنى كثيرا ما يغلق جفونى ، ويسقط رأسى على صدرى وكتبى .

تخلصت من هذه المعوقات جميعا . ومن العجيب أن الضباط النوبتجية قد تجنبونى تماما . فقد كانوا يقتحمون على القاعه التى أذاكر فيها . ويرغموننى على أن أذهب لعنبرى لأنام . وأكبر الظن انهم كانوا يعلمون أننى شاويش مكتب القائد ، فلا أمل لهم فى أن يكسبوا معركة يصرون فيها على أن أنام فى التاسعة والربع عند ضربة نوم !

وكانت هناك فى المكاتب تسهيلات كبيرة تهيىء لى مذاكرة

مريحة : الثريات الكهربائية التى تحيل الليل الى نهار ، الكراسى الجلدية الوثيرة ، الأدوات الكتابية ، المرواح الكهربائية والمكاتب الفـاخرة .

فى هذا المكان استطعت أن أدرس لنفسى أيضا دروس السنة الثانية الثانوية . كان لدى أكثر من أربعة أشهر أستعد فيها للامتحان . اننى أستطيع أن أذاكر ستة عشر ساعة فى اليوم ! فأنا لست منهكا فى الطوابير ، وليس لى فى هذا العام عذر .

وفى هذه السنة لم أنجح فحسب ، بل قيل لى أن درجتى كانت أعلى درجة بين تلاميذ السنة الثانية فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية، ليس الذين يدرسون من منازلهم فحسب ، ولكن التلاميذ المنتظمين كذلك .

رقيت ، باشجاويش ، عام ١٩٤٣ . تعلقت على ذراعى أربعة شرائط حمراء فاقع لونها . . يعلوها تاج يضوى فوقها . وتركت مكتب القائد ، لأعود لقيادة سرية من الجند . وكان الاشراف على مائتين من العسكر ، من حيث تدريبهم فى الميدان ، وتعليمهم فى قاعة المحاضرات ، وبث الضبط والربط بينهم ، والعناية بمظهرهم ، ونظافة عنابرهم ، واعدادهم ليكونوا ضباط صف فى وحدات الجيش المختلفة ، كان كل ذلك عملا مرهقا حقا . أحسست على الفور بالجنة الوارفة

الظلال ، التى خلفتها ورائى ، عندما كنت شاويشا للمكاتب !

كنت أستيقظ مع الجنود فى الخامسة صباحا ، لأتأكد من أن الشاويشية والأنباشية الذين يقودون العساكر قد استيقظوا ، ذلك لا ننى كنت أخشى أن أنام فيناموا . . وكان علينا أن نؤدى تدريبا عنيفا ، قبل أن نغسل وجوهنا ، فقد كانت دورات المياه تبعد كثيرا عن العنابر ، وكان علينا أن نقطع مسافة طويلة للوصول اليها ، نغوص خلالها فى الرمال ، ونصعد هضابا ونجتاز وهادا . وكان جو الصحراء فى الشتاء ، والماء الذى نغسل به وجوهنا أشبه بالزمهرير الذى يصفون به طبقة من طبقات جهنم . ولا أدرى كيف تجمع جهنم بين السعير والزمهرير .

وكنت مسئولا عن العساكر جميعا أمام قائد السرية . فطاقية العسكرى يجب ألا يعلوها العرق ، رغم الشمس الملتهبة والطوابير المنهكة . وبنطلون العسكرى يجب أن يكون مكويا ، رغم انه يستخدمه فى التدريب ، وفى الأكل . وفى النوم ! واذا رأى قائد المدرسة ، أو قائد السرية ، ، عماصا ، فى أعين العساكر ، أو رمالا من الصحراء استقرت فى أذانهم أو خياشيمهم ، كان السؤال التقليدى الموجه للباشجاويش : ما هذا الرمد الذى يوجد فى أعين العساكر ، يا باشجاويش ، وما هذه القذارة فى أذانهم ؟ . . .

على أن هذه الأعمال الروتينية كانت تتطلب من الباشجاويشية

جميعا . ولكننى-تفردت بهم من نوع آخر . لم أستطع أن أتخلص من أساى على موت ندوة الروح المعنوية. ولكن ما هى الندوة ، على أية حال ، وما هى مهمتها ؟ ليست المسألة خطابة فى المدرسة ، أو فى النادى أو فى الاذاعة . وليست الفكرة شعارات تلقى فى ضجيج أو سكون . ولكن العبرة بوضوح هذه الأفكار موضع التطبيق العملى . التطبيق هو الذى يعطى للأفكار قيمة ، ويخلق منها نظما وقواعد نابضة تشكل سلوك الناس . انه يحيل المبادىء الى مخلوقات حية تسعى فى الأرض ، وتقود الانسان الى مجتمع أفضل .

كنت أؤمن تماما بان القدوة هى السلاح الفعال لنشر أية فكرة ، وربط الجماهير بها ، فليس يجدى أن يعظ المرء الناس بمجموعة من المثل والمبادىء ، ويدعوهم للايمان بها ، اذا لم يكن هو نفسه قدوة ، تتجسد فيه وفى سلوكه تلك المبادىء. فمهما كانت بلاغته ، فلن ينفعل الناس بما يقول ، انفعالا مصرا مؤمنا ، الا اذا ضرب لهم المثل بما يدعوهم اليه . هذا المثل الذى يضربه القائد ، والسلوك الذى يسلكه ، هو الذى يجعل مبادئه وأفكاره تسرى فى المقودين ، كما تسرى النار فى الهشيم .

هذه هى الفرصة لأثبت اننى أستطيع أن أبث الروح الجديدة فى مائتين من العساكر ، أتيح لى أن أقودهم . لم يكن ذلك عملا سهلا .

ان العساكر وضباط الصف يتحمسون ثم يستنيمون . ثم ينشطون ثانية بـ جرعات من الحماسة والتوجيه ، فاذا ضاع مفعول الجرعة اذا بهم يسترخون من جديد . ولم تكن المشكلة تكن فى العساكر . كان هؤلاء يستجيبون للمعانى الطيبه التى ننادى بها . ولكن المشكلة كانت توجد فى ضباط الصف المعلمين !

كان على أن أكافح لتطبيق الروح الجديدة فى السرية التى أقودها . واقتضانى ذلك جهدا لا يضارعه ذلك الجهد الذى أبذله فى الطوابير والتدريس منذ مطلع الشمس الى ما بعد الغسق .

وكانت علوم السنة الثالثة الثانوية صعبة للغاية . فقد تعقد الجبر كثيرا ، وأخذت ، الهندسة ، أبعادا جديدة متشعبة . واللغة الانجليزية بدأت تتوغل فى أغوار أدبية ثقيلة . والمقررات الفرنسية بدأت تخوض فى ، جان جاك روسو ، ، وفولتير ، وفيكتور هيجو وغيرهم .

وكنت أصر كذلك على أن كون التلميذ والمعلم معا . ولى رغبة عارمة فى أن أثبت هذه الحقيقة . ذلك انه اذا كانت الدولة قد طردتنى من المدرسة ، وحرمتنى حقى فى التعليم ، فأنا أريد أن أرد عليها . ان كان للدولة آذان يمكن أن تسمع بها هذا الرد ، أو كان لـهـا عقل لتدركه . بأننى سوف أعلم نفسى ، وبهذا لن أكون فى حاجة الى مدرسيها أو الى خدماتها التعليمية .

وقمت برحلة الى شارع الفجالة . اشتريت الكتب المقررة . كانت كتبا قديمة ، تبادلتها أيد كثيرة . ها أنذا أقرأ على صفحاتها أسماء عدة : « بيومى أفندى » . ثم شطب هذا الاسم ، وحل محله تلميذ آخر ، كتب اسمه بالطريقة التالية : « راجى عفو البارى ، محمد الديدمونى البندارى» . ثم مسحت هذه العبارة وكتب تحتها : « هذا كتاب العبد الضعيف ، العشماوى عبد اللطيف » . ثم كشطت هذه الجملة واستبدلت بها الجملة التالية : « مالك ! » هذا الكتاب هو عبد الواحد عبد القهار ، يطلب الستر من الستار فى امتحان الجبر الجبار ! » ومن العجيب ان هذه العبارة تركت كما هى حتى بعد أن تغيرت ملكية الكتاب . اذ وجدت خطا نسائيا وقع تحت هذه العبارة : « مرفت سمير » . حتى انت يـــا « مرفت » ، قد آخنى عليك الزمن ، فتبادلت هذا الكتــاب مع من تبادله ؟! ان فى اسمك رقة ، فكيف أوقعك القدر بين براثن هذه الأسماء الشعبية الجافة ؟

وكنت أنا المشترى السابع لهذا الكتاب . وذلك اذا افترضنا ان ملاكه جميعا قد سجلوا أسماءهم على صفحاته . على انه من المتصور ان هناك أناسا لم يسجلوا أسماءهم على الكتاب ، وذلك خوفا من اتهامهم بأنهم يشترون كتبا قديمة . وهؤلاء هم الفقراء الذين يرون فى الـــفقر عارا . ولذلك يودون أن ينتسبوا الى الغنى ولو فى خيالهم ، ان لم

يستطيعوه فى دنيا الواقع . أو يكونوا مثلى من الفقراء ذوى الــذوق الفنى ، لا يريدون أن تكتب أسماؤهم على هذه الكتب التى لوثتها أصابع الذين تبادلوها ، وذلك ليس من الناحية الجمالية فحسب . فقد كانت هناك اثار لبصمات قذرة ، لا تجد الصابون لتنظيفها ، قبل أن صفحات الكتب .

كانت هناك قصص كاملة من حيوات الطبقات الفقيرة ، تنعكس على صفحات تلك الكتب ، فتطمس معادلات الجبر وتمارين الهندسة . وتلوث ملامح الجغرافيا والتاريخ . وتشوه اللغة الانجليزية والفرنسية والعربية جميعا !

كنت ترى رذاذا أو بقعا كاملة من « الفول المدمس » ، وبقايا من الفجل والطماطم والجبن القريش ! كانت هناك معارك تدور على صفحات تلك الكتب ، لا بين التلميذ والمادة التى تحتويها ، كما أفعل أنا فى المعسكر ، بل بينه وبين البراغيث وغيرها من الحشرات حيث تنجلى المعركة عن دماء ومخلفات ! لقد لفت نظرى « ان البندارى راجى عفو البارى » كتب اسمه على كل صفحة من صفحات الكتاب . وبذلك لم يشوه صفحات الكتاب فحسب ، بل يبدو ان الدروشه كانت قد سيطرت عليه وهو يذاكر . وكانت هناك كتب حفلت صفحاتها بالعذابات التى تعرض لها الذين تداولوها . كانت كل صفحة لوحة من

لوحات المجتمع - ولكنها لم تكن لوحات فنية ، فالفن بطبيعته جميل . ولكنها كانت تعكس قبح النظام الاجتماعى . وعذابات الكثرة الكثيرة التى تعيش فى ظله . كانت هذه العذابات تتساقط على صفحات الكتب فى شكل دموع ، لا يتعرف عليها الا الذين صهروا فى نفس البوتقة ، وبلوا نفس العذاب .

اشتريت الكتب التى تداولتها قبلى عشرات الأيدى . تلك الأيدى التى لست أدرى ان كانت باعت الكتب لتأكل بثمنها الهزيل ، أو لتشترى بثمنها كتبا للسنة التالية . اشتريتها راغما ، فأنا لا أستطيع أن أدفع الأثمان العالية للكتب الجديدة . وأنا أريد أن أقتصد للمستقبل . فالمجتمع العسكرى الذى نعيش فيه صورة عنيفة لوسية الخواجة . وهو كذلك صورة لمجتمع الوسية الكبير ، لا ضمان فيه . فقد أطرد منه ، وتغشانى البطالة والضياع من جديد .

حملت الكتب تحت ابطى ، وكأننى أحمل مأساة المجتمع المصرى كله . لكم عانيت من تلك الكتب . فهى لم تفسد على المتعة الحلوة ، التى تصاحب التحصيل الدراسى فحسب ، اذ كنت أنهل هذه المتعة من معين قذر . بل كانت الصور الاجتماعية الكالحة ، التى تطل على من كل صفحة ، تسبب لى ابتئاسا لا يحتمل . وتشقينى شقاء لا يطاق . وتذكرنى دائما بحياتى الماضـية . كنت أسرح مع هذه الأفكار . وكان

« السرحان » معها لذيذا فى أول الأمر ، ولكنه لا يلبث أن ينقلب الى معاناة ثقيلة . وهو الى جانب ذلك يصرفنى عن الدرس ، وينال من طاقتى التى آتى عليها من قبل يوم طويل من العمل الشاق .

واستأنفت النضال مع الدروس . وكان نضالا مرهقا حقا . كيف السبيل فى هذه الظروف العسيرة ، التى ترهق النفس والعقل والجسد جميعا ، أن أدرس لنفسى الجبر والهندسة والانجليزى والكمياء والفرنسية وغيرها، وبصفة خاصة فى هذه المستويات العالية ؟ ان الكتب لا تشرح المواد شرحا وافيا حتى يستطيع الانسان أن يسيطر على قواعدها جميعا . هل أيأس ؟ لا أظن ان فى اليأس حلا لقضيتى . ان مستقبلك ، وما يمكن أن تقوم به للمجموعة ، يهيب بك أن تستمر . ثم انك قطعت شوطا لا بأس به . ما هذه الكلمة « اليأس » التى تتراقص كالشيطان أمام عينيك ؟ انها سراب ، لا تجرؤ على أن تتجسد أمام عينى خوفا من أن أبطش بها ! ماذا تقول لعالية ؟ ماذا تقول لوالديك وأصدقائك وللناس جميعا ، الذين ابتهجوا بفكرة استئنافك لدراستك ؟ ماذا أفعل اذن ؟ هل ألجأ الى المدرسين ؟ لم لا ؟ . . . لا . ان الانتصار على الجهل والنجاح فى الامتحان والمضى فى دراستى نحو غايتها ، سوف يفقد جزءا من سحره وحلاوته اذا استعنت بالمدرسين . ليس فى اللجوء اليهم اثارة : مدرسون درسوا لك المواد ، ونجحت كما ينجح فيها آلاف التلاميذ .

ولكنك عسكرى ،ومرهق طول النهار ، ولا تستطيع أن تقوم بالوظيفتين معا : المدرس والتلميذ ، وفى علوم صعبة جديدة عليك . ألا يكفيك أنك عسكرى وستنال التوجيهية !؟ ليس هذا كافيا . . ان الاثارة تكمن فى القيام بعمل غيرعادى . ولكن فى ذلك مخاطرة على حساب صحتك وأعصابك . ولكننى لا أعتقد أن الصحة والأعصاب سوف يضنيها أن يقوم الانسان بدور المعلم والتلميذ معا . والمغامرة حلوة ، فسوف تسعد كلما حللت عقدة ، وكلما فتحت فتحا جديدا فى المعرفة . وبدأت أخوض معركة ضارية مع المواد الدراسية .

اجتزت الامتحان بنجاح ، بعد صراع طال مع المواد فى ورقة الاجابة . ولكن للأسف كان نجاحى « على الحركرك » أى على الحافة فى هذا العام . فقد حصلت على الدرجات الدنيا للنجاح فى الجبر والهندســـة . وقد كنت أتوقع ذلك فهم أصدقائى الألداء . ولكن الذى جزعت له ان درجتى فى اللغة الانجليزية كانت كذلك عند الحـد الأدنى . وكان « الانجليزى » بالنسبة لى من المـــواد المرفهة ، فماذا دهانى . . . على أية حال ، لا بأس على ، لقد أصبحت الآن فى السنة الرابعة الثانوية .

٤٢

فى عام ١٩٤٤ ، اجتاحتنى ريح الجيش العاتية . قذفت بى الى قمة الجيش ! . . .

طلب رئيس أركان حرب الجيش باشجاويشا متعلما ممتازا ، ليعمل حارسا له ! . . . وا أسفاه على الامتياز وعلى التعليم : قائد المدرسة يطلب شاويشا متعلما ممتازا ، ليكون مراسلة له فى مكتبه ، فيقع الاختيار على . ويبدى رئيس أركان الحرب رغبة فى أن يختار باشجاويشا ممتازا حرسا له ، فأكلف بهذه المهمة . أحيطت المهمة بهالة كبيرة . اذاع قائد المدرسة أن هذا منصب فريد : حارس أكبر رأس فى الجيش . على اننى كنت أخشى أن يقع الاختيار على ، وأذهب الى وكر الأسد ، حيث لا أمان لأحد .

ولكى تبلغ الدراما قمتها ، اختار قائد المدرسة الثلاث باشجاويشية الأوائل فى المدرسة : عبد المقيت الصيحى ، وزكريا البدرى وأنا . ذهبنا الى رياسة أركان الحرب . وقفنا صفا أمام مكتب الباشا . جاء القائد الرهيب ليختار أحدنا . سأل عبد المقيت عن اسمه ، ومؤهلاته ، فأجابه بانه يحمل دبلوم صنايع وأجابه زكريا بانه معه الابتدائية . وأجبته بان مؤهلى الابتدائية ، ومتقدم لامتحان الثقافة هذا العام . اذا به

يسألنا : يعنى تعرفون القراءة والكتابة ! أمر غريب . هل لا يعرف الفريق أن من يحمل تلك الشهادة يستطيع القراءة والكتابة ! على ان الذى أثار مخاوفى ، هو أن المستوى المطلوب لهذه الوظيفة ، هو القراءة والكتابة فحسب .

فحصنا الباشا بعينين كعينى الصقر . كان يلمح بهما عبد المقيت وزكريا فى لمحات سريعة . . . ويسلطهما على لفترة أطول ، جعلتنى أتنبأ بالقرار الخطير الذى وجل له قلبى أشد الوجل : لقد اختارنى رئيس أركان الحرب حارسا له .

اذا اقتصر الأمر على أن أقوم بمهمة المراسلة فى المكتب ، كما كنت أقوم بها لقائد المدرسة ، فلا غبار على ذلك . حللت مهمتى فى مكتب القائد وقبلتها . القيام بها مع قائد الجيش كله يعتبر ترقية فى نفس الخط ! لكننى اخترت كحارس . هـل سأحرس رئيس الأركان فى مكتبه ، أو فى رحلاته ، أو فى منزله ؟ واذا ذهبت الى المنزل ، فهل سأقوم بالحراسة ، وكذلك بوظائف أخرى ، كما تصنع المراسلات فى البيوت ؟ ان الرجل خطير ، لا معقب على كلمته فى الجيش ، وأى خطأ فى خدمته لايغتفر . كذلك فأنا لا أستطيع أن أتحدث عن الكرامة هنا . ولا أجرؤ على أن أرفـض أى عمل يسند الى فى مكتب الباشا أو فى بيته .

كانت الأيام الأولى فى خدمة الفريق غريبة على . لكن مع مرور الأيام أخذت أتقن الصنعة . وبدأ الغموض الذى لفها أول الأمر يتكشف رويدا رويدا . كانت المهمة سهلة للغاية ، أرافق الباشا فى السيارة أثناء رحلاته فى القاهرة أو خارجها . أركب الى جوار السائق بينما يحتل الباشا الكرسى الخلفى على الجانب الأيمن . وعندما تصل السيارة الى المكان المقصود ، أكون قد قفزت منها قبل وقوفها ، وفتحت الباب الذى يجلس الباشا الى جواره ، وأودى له التحية العسكرية ، وهو يتهادى خارجا من السيارة فى جلال . وقد بالغت فى هذه الحركة فى يوم من الأيام ، فنزلت والسيارة لم تقف بعد ، فصاح الباشا فى قائلا: « أنت مسروع ! على مهلك داهية تسرعك ! » لا تنزل من السيارة الا بعد ان تقف تماما . كشفت لى كلمة « مسروع » عن حقيقة الباشا «الأرستقراطى » ! فهو قد جاء حتما من الأوساط الشعبية ، فهذه هى لغتها ، وليست لغة الأرستقراط .

كنت أتمنطق بحزام جلدى أحرص على أن يكون لامعا ، وأحمل فيه مسدسا يستخدم لحماية الباشا ، ولو اننى لم استخدمه أبدا ولو مرة واحدة . وعندما يعود الباشا الى مكتبه تختلط مهمتى بمهمة مراسلات المكاتب . فكنت أرد على جرس قائد الجيش ، ولا أجد غضاضة فى ذلك . بل كان هذا شرفا كبيرا فى عرف الجميع . وعلى أية حال فهو

عمل مارسته من قبل على مستوى أدنى .

وجاء رئيس أركان الحرب ذات مرة من رحلة رياضية ، كان يمتطى فيها صهوة جواد أنيق . وكان حذاؤه يعلوه الغبار . ودخل المكتب ، وسارع الى أحد العساكر وهو يلهث قائلا:

- خذ .
- ماذا آخذ ؟
- خذ الفوطة هذه .
- لماذا ؟
- لكى تسمح للباشا حذاءه . أنا أمسح حذاء الباشا ؟!
- نعم هذا ما يقوم به زميلك الباشجاويش الآخر .

صمت العسكرى هنيهة ، ثم أردف :

- خذ الفوطة بسرعة ، لان الباشا عصبى ، ولو تأخرت بعض الشيء تحل بنا مصيبة .
- لا يمكن .
- لا يمكن ؟ أتريد أن تحاكم ؟!

دق جرس الباشا دقا عنيفا . دخلت وأديت التحية . نظر الباشا الى حذائه . مد قدمه خارج منضدة المكتب ، لم يقل شيئا . أخذ ينظر فى بعض الأوراق أمامه . خرجت من المكتب بسرعة . دفعت بالعسكرى ،

الذى كان يمسك بالفوطة قلت له : ادخل امسح « جزمة » الباشا . اصفر وجه العسكرى وقال : انه لا يجرو على ذلك . انه سوف يحاكم لو دخل مكتب الباشا . حاولت أن أرهب العسكرى بان هذا أمر ، كيف يتردد فى قبوله . ولما لم يدخل دفعته الى داخل المكتب دفعا . دخل العسكرى يرتجف . لمحته من وراء الباب يمسح حذاء الباشا . لحسن الحظ كان الباشا مستغرقا فى أوراقه . لم يعرف من الذى نظف حذاءه . على أن الباشا لاحظ فيما بعد أن العسكرى يقوم بهذه المهمة فى الأيام التى أتولى فيها الحراسة . ويؤديها الباشجاويش محمد فى الأيام التى يقوم فيها بالعمل . استغرب الباشا لهذه الظاهرة غير المألوفة . سأل العسكرى : أين الباشجاويش. أجابه باننى أقف خارج المكتب . يبدو ان الباشا قد رضى ضمنيا بأن يقوم العسكرى بهذه المهمة . . ومن يدرى لعله قد أسرها لى فى نفسه !

٤٣

مكننى عملى كحارس لأركان حرب الجيش من أن أقترب بعض الشيء من وكر الأسد . كان الفريق يستمد جبروته لا من وظيفته كرئيس لهيئة أركان الحرب، بل من منصب « خطير » آخر . كان لقبه الرسمى هو: « ياور حضرة الجلالة الملك المعظم ورئيس هيئة أركان

الجيش ، . كانت وظيفته كياور للملك مقدمة على قيادته للجيش . كان يختال بوظيفة فى السراى وتنتفخ لها أوداجه . عمل الياور كان يماثل عمل ، مراسلة المكتب ، ! الفارق هنا فى الشكل فحسب وليس فى المضمون الموضوعى للوظيفة . فكلا العملين ينصب على الأعمال الشخصية للمخدوم : العسكرى أو الشاويش أو الباشجاويش مراسلة المكتب يقوم بالأعمال البسيطة أو ، القذرة ، كما يسمونها فى الكتابات الغربية : كتنظيف المكتب ، والرد على جرس المخدوم ، وطلب القهوة غيرها . والياور يؤدى كذلك الأعمال الشخصية للمخدوم ، ولكنها الأعمال الأكثر رقيا . فهو يرد على التليفونات ، ويحول الخط للمخدوم . ويحضر له الصحف ويضع خطا تحت الأخبار الهامة . ويشرف كذلك على نظافة المكتب ، وعلى سير السيارات . وينظم مواعيد المخدوم الرسمية والخاصة ، سواء مع الرجال أو النساء ! وهو يتـولى شئون المنزل ، وطلبات الست والأولاد ، والبريد الخاص الى غير ذلك . وكان الفريق يفخر بأداء هذه الأعمال وغيرها للملك . واستمر يباشرها وهو أركان حرب الجيش . فكانت المكالمة التليفونية التى تأتى من ضابط أو موظف صغير بالسراى ترعشه . يجيب عليها بحماسة كبيرة . بينما كان يستأسد على ضباط الجيش جميعا أيا كانت درجاتهم .

من الغريب ان وظيفة الياور فى الجيش ، رغم نوع العمل الذى

يقوم به ، كانت تمنح لأبناء الطبقة الأرستقراطية من الضباط .

تبينت عندما عملت فى رياسة الجيش ان الضباط أنفسهم ينقسمون الى طبقتين : الطبقة العادية وهى التى تضم الأغلبية الكبرى من الضباط ، والطبقة الأرستقراطية ، وهى التى تضم ذلك الفريق من أبناء ، الباشوات ، الأصليين ، والأسر ، الأرستقراطية ، عريقة الثراء . كانوا يتخيرون لوظيفة الياور فى الجيش أبناء هذه الفئة الأخيرة . فعمل الياور مريح، يجلس فى مكتب وثير بين التاسعة صباحا والواحدة بعد الظهر ، لا عمل له تقريبا الا اذا اعتبرت الرد على التليفون ، وتحويل السكة للباشا ، والتسلية مع أصدقاء الباشا وصديقاته عملا . فلاشأن للياور بالعمل الشاق فى الوحدات العاملة ، حيث الطوابير والمناورات والتدريب وقيظ الشمس وقسوة الصحراء ، التى لا تستطيع أن تتحملها الأجساد الأرستقراطية .

كانت هناك ظاهرة طريفة : كلما كبرت شخصية القائد كلما كان ياوره ينتمى الى الشريحة العليا من هذه الفئة الأرستقراطة !

انتابنى لون من الحيرة : كيف يقبل الضباط من أبناء هذه الأسر هذا العمل المهين ؟ على أن الأرستقراطية لا تعبأ بنوع العمل مهما كان تافها . طالما كان العمل مترفا ومريحا . ويضمن لـــهم البقاء فى القاهرة . بل ان الأرستقراطية استطاعت أن تخلع على هذا اللون الهزيل

من العمل هالة فخمة . فأصبح لا يستطيع القيام به أو الوصول اليه الا الممتازون من أبناء هذه الطبقة الرفيعة .

ومن عجائب التقسيم الطبقى فى مصر فى ذلك الوقت ان الباشاوات كانوا ينقسمون الى فريقين : الباشوات الأصلاء الذين يستمدون « باشويتهم » من ثرائهم ، وفريق باشوات الجيش الذى كان يطلق عليهم أحيانا « باشوات من الصف » وكان الباشوات الأرستقراطيين ينظرون الى هؤلاء كباشوات جيش منحوا اللقب لا لعراقة أسرهم ، ولكن لانهم تدرجوا من رتبة الملازم الى رتبة اللواء .

كان عملى فى هذا المكتب الخطير قد لمسنى بلمساته ، وبقيمه وانشغالانه . كان الباشا يغيب كثيراعن مكتبه . وكان الباشجاويش الآخر يرافقه ، وأبقى أنا لأقوم بالاشراف على المكتب . وفى يوم من الأيام ، ولم يكن الباشا فى مكتبه ، دق جرس التليفون . واندفعت الى داخل المكتب . وكان هناك نحو عشرة تليفونات . ما هو التليفون الذى يدق ؟

- آلو . . لا . . ليس هذا . . آلو ، ولا هذا . . الو لا فائدة .

لا يزال الجرس يدق وازداد اضطرابى . حاولت رفع سماعات تليفونات أخرى وانقطع صوت الجرس . اشتدت بى الحيرة وغطى جسدى عرق غزير . . أخذت طريقى الى خارج المكتب وما أن وصلت

الى باب الحجرة ، حتى دق الجرس من جديد وكانت العملية سهلة هذه المرة . . لابد أن يكون أحد هذه التليفونات الباقية . . ورفعت السماعات الباقية دفعة واحدة . . وسمعت فى احداها صوتا نسائيا رقيقا ، فيه نضوج وأنوثة ، ورقة مثيرة تتأرجح بين الأرستقرطية والشعبية .

- آ آلووو . .

- أفندم .

- الباشا موجود ؟

- لا يا أفندم غير موجود .

- أمال راح فين « نطقت الراء » كما تنطق بالفرنسية أى غين .

- لا أعرف لقد خرج منذ الصباح . . أى أوامر يا أفندم ؟

- من أنت؟

ونز عرقى من جديد . . من أنا وماذا أعمل ؟ هل أقول لها أنا الباشجاويش ؟ هل هذا الصنف يعرف ما هو الباشجاويش ؟

- أنا يا أفندم أعمل هنا فى المكتب مع معالى الباشا .

- آآآه .

قالت : آه هذه بطريقة فيها موسيقى القرب والجاز والموسيقى الكلاسيكية جميعا . فيها عذوبة صوت أخذ على لغة الباشوات فيها كذلك فرقعة الجنس . ودغدغة الاغراء . . ثم أكملت :

- انت تعمل فى « الياوغان » أى الياوران مع الباشا .

- شيء من هذا القبيل !
- ما اسمك ؟

رحت فى داهية ، وألحت مرة بصوتها المثير .

- انت مكسوف تقول لى اسمك ؟
- لا ياأفندم ، فقط ليس هناك داع .
- كيف تعرف ؟ هناك داع !

كنت أرد عليها بأدب بالغ ، وبعبارات منتقاه . ويبدو ان نغمة صوتى الجمهورى ونبراته الفجة ، وقد أوحت لها باننى انسان خام أو مادة أولية يمكن أن تصقل وتشكل حسبما تشاء .

- أنا اسف يا فندم ممنوع على أن أذكر اسمى .

وضحكت ، فرنت ضحكتها فى أعصابى:

- من الذى منعك ؟ الباشا ؟ أنا أقول له لا يمنعك !
- اذا كنت ، سعادتك ، . . . .

كان على أن أستخدم هذا اللفظ ، فصديقات ، سعادة ، الباشا لابد أن يكن ، سعادات ، كذلك !

- اذا كنت ، سعادتك ، تريدين أن تتركى رسالة للباشا فأنا تحت أمرك .
- لا . . ليس لدى رسالات .
- هل هناك خدمة أستطيع القيام بها ؟

- لا أريد خدمات .
- طيب . . مع السلامة يا أفندم .
- كيف تقول لى مع السلامة ، وأنا لم أنته من الكلام ؟
- التليفون الثانى . . يدق . . فلو سمحت أن تضعى السماعة لاننى أريد أن أرد عليه . .
- رد ثم كلمنى بعد ذلك .
- يجب ألا أترك السكة مفتوحة فقد تكون هنا أسرار

وقرقعت فى أذنى ضحكة ناعمة متماوجة النغمات :

- أية أسرار !؟ . . انت يظهر عليك طيب ، على نياتك ، هل هناك أسرار على أنا !؟
- أرجو أن تسمحى لى بوضع السماعة .
- طيب .

ووضعت السماعة . وتنفست الصعداء . ورددت على التليفون الثانى :

- آلو . . .

كان الصوت فى هذه المرة نسائيا أيضا ، ولكنه أجش . يشخط تماما كما هو الشأن فى العسكرية . خلا تماما من الرقة والعذوبة التى كانت فى الصوت الأول :

- من أنت ؟

هذا الصوت الأجش المتقدم فى السن ، ليس من الضرورى أن أخفى على صاحبته وظيفتى . فأنا لا أحب أن أسمعه مرة أخرى ! ولم أشأ أن أكشف عملى مرة واحدة فقلت لها :

- أنا أعمل هنا فى المكتب .
- أنا أعرف ذلك . . ماذا تفعل : عسكرى ، شاويش ، صول ، ضابط ؟

أيقنت أن هذه السيدة تعرف خبايا العسكرية ورتبها .

أجبتها فى الحال :

- أنا يا أفندم ، باشجاويش حرس معالى الباشا .
- آه ، أنت الباشجاويش ، الحارس الجديد .
- نعم يا أفندم .
- ومعك شهادة الابتدائية ، وستدخل امتحان الثقافة هذا العام ؟!
- تمام يا أفندم .
- وتعرف تقرأ وتكتب ؟ !!
- بالضبط يا أفندم .
- أين ابراهيم ؟!
- ابراهيم ؟!
- أقصد الباشا .
- خرج يا أفندم .

- خرج الى أين ؟

قالت هذه العبارة بشخط واضح . .

- لا أعرف الى أين .
- كيف يخرج !؟ لقد قال لى انه سيبقى طوال اليوم بالمكتب .
- . . . . . .

كنت قد استنتجت من هى المتكلمة ، قبل أن تقول لى الجملة الأخيرة فى المحادثات . .

- عندما يحضر ، تقول له يطلب البيت فورا . . فاهم ؟
- فاهم يا أفندم .

ووضعت السماعة فى عصبية واضحة . . وقبل أن أضع السماعة ، دق جرس تليفون آخر :

- أفندم . .
- هو انت ثانية ؟
- نعم يا أفندم .
- هل حضر الباشا ؟
- لا يا أفندم لم يحضر .
- ألا تقول لى اسمك ورتبتك ؟

اه . . « جاءك الموت يا تارك الصلاة » . انها تتخيل اننى من الياوران ، وأن صوتى يدل على أننى فى ريعان الشباب ، فأنا ملازم

ثان أو أول . وأنا أعمل فى الرياسة ، فلابد أن أكون من المحظوظين المقربين . وقد أكون من الأرستقراطيين . والباشا رغم انه ضخم فارع ، يبدو كالأسد الغضنفر ، الا أنه أسد عجوز ، لم يبق له من لقب ، سيد الغابة ، الا الاسم والرتبة . وقلت لها :

ـ لاضرورة لذكر اسمى ودرجتى .

ـ اننى أهتم بهما كثيرا .

كان وضعى شائكا ، وكأننى على كـــف عفريت . اذا عاملتها بجفوة ، فهى صديقة الباشا ، ومستقبلى وعيشى فى يدها وفى يده واذا عاملتها برفق فهناك خطورة أن تستمر فى متابعتى . واذا استجبت لها ، قد ينكشف أمرى . . لا . لا ان هذه مغامرة خطيرة : بل مقامرة ضررها محقق . . وجزعت من هذا الاتجاه . انها صديقة الباشا ، وأنا ألقى بنفسى فى فم الأسد . يجب أن أضع حدا لهـذا والا ازدردنى الأسد . لكن كيف ؟

ليس هناك الا طريقة واحدة . وأدرت الفكرة فى رأسى ، فوجدت ألا منقذ لى سواها وأجبتها :

ـ ممنوع على أن أذكر اسمى . . لكن ليس ما يمنع من أن أذكر لك وظيفتى : أنا الباشجاويش حرس الباشا ! (ولم أسمع من الجهة الأخرى

الا قرقعة السماعة ، يقذف بها فى قوة آلمت أذنى . ولم أسمع صوتها مرة أخرى بعد ذلك !

ما أن وضعت السماعة على التليفون حتى دخل الباشا المكتب يتبعه الياور ومدير المكتب . بادرنى بقوله :

ـ ماذا تعمل هنا ؟

ـ كان التليفون يدق فجئت أرد عليه . وهذه قائمة بمن تكلموا : هناك سيدة تكلمت فى التليفون الأحمر ثلاث مرات ولم تذكر اسمها . وأخرى تحدثت فى التليفون الأزرق وتركت هذا الرقم (. . . . . .) لكى تكلمها معاليك . . وهناك سيدة ثالثة طلبتك فى التليفون الأسود وقالت : عندما يحضر معالى الباشا يطلبنى فى البيت .

رمقنى بعينين كعينى النمر . كان فى نظرته زجرا واشمئزازا ثم قال :

ـ من قال لك ترد على التليفونات ؟

ـ لا أحد .

ـ لا ترد على التليفونات مرة أخرى !

ـ حاضر يا معالى الباشا .

طلب الياور وكرر له الأمر . . استدعانى الياور وقال لى أن أرد على تليفوناته هو وأن أترك تليفونات الباشا ـ وكان الياور أرستقراطيا

من ناحيتين : كان من أسرة باشوات معروفة من ناحية ، وزوج أميرة من البيت المالك من ناحية أخرى .

فى مكتب الياور قمت بمهمة « التليفونجى » فى غيابه . كان صوت الأميرة زوجته يرهبنى ، ويثير القشعريرة فى كيانى . . اننى أتحدث مع واحدة من اللائى يملكن مصر . ويدرنها كوسية كبرى . لكن صوتها لم يكن يماثل الصوت الأنثوى الصارخ ، صوت صديقة الباشا . استمعت لأصوات أميرات أخريات وحادثتنى صديقات الياور وصديقات الباشا اللائى كان الياور واسطة بينه وبينهن . أكبر الظن أن بعضهن كان شركة بينهما .

كان معظم المتحدثين فى التليفونات من النساء ! وكان من يتحدث من الرجاله قلة . فلم يكن الرجال فى الجيش يجرؤون على مخاطبة رئيس أركان الحرب أو ياوره . سألنى الياور يوما هل ترك هؤلاء النسوةاللاتى تحدثن اليوم رسائل . . أجبته بانهن لم يتركن شيئا . . رد على بان هؤلاء محترفات ، كيف يتركن أسماءهن ؟!

هل هذه هى الطبقة التى تحكم مصر ، وتنعم بخيراتها ، وتستذل شعبها ، وتفرض عليه الفقر والجهل والتخلف ؟

٤٤

قبل أن تستبد بى هذه الأفكار فى هذا المكان الخطير ، الذى قد تكون فيه وسائل لرصد خلجات النفوس قبل أن تظهر للوجود ، دلفت الى حجرة تبعد بضع أمتار عن هذا العرين . كانت هذه الحجرة بمثابة مأوى شعبى ، أسترد فيه الثقة بنفسى ، وبالقيم الشعبية الأصيلة ، مع رفاق أتوا من نفسى المجموعة الكبرى التى أتيت منها . كنت أتخفف فيه من قيم غريبة على ، وأتهرب فيه من ألم يعتصرنى ، وأنا أشهد سلوك المجموعة التى تقود جيش مصر .

كانت الحجرة مكتبا من المكاتب التى تعمل فى خدمة رياسة أركان الحرب . وكان من بين العاملين فيها « بلوك أمين » (أى كاتب عسكرى) . كان هذا « البلوك أمين » شابا يتشابه حالة مع حالى . تطوع فى الجيش كما تطوعت . ولكنه كان يحمل البكلوريا . تخرج فى مدرسة الكتاب العسكريين . وهى تماثل مدرسة ضباط الصف . لكن خريجيها يقومون بالأعمال الكتابية ، ونحن نقوم بالأعمال الحربية ! عاش صاحبى عيشة ضنكا كالتى عشتها فى مدرسة كفر صقر الابتدائية ، وفى الزقازيق الثانوية . ثم عمل ساعيا للبريد . كانوا يدفعون له أربعة جنيهات ليطعم بها أسرة مكونة من عشرة أفراد . ثم

عليه أن يعول أطفاله ، ليبلغ البشر الذى يعتمد عليه ستة عشر انسانا . وأنجب هو أربعة فى لمح البصر ، بهذا بلغ الجيش الذى يطعمه عشرين نفرا !

بدأ فى الجيش عملية تثقيف من نوع غريب رهيب . حاول أن يتقدم لكلية الآداب بجامعة القاهرة ، فرفضت قبوله الا اذا تفرغ . كان طلبا مستحيلا . اذا تفرغ من يتفرغ لاطعام الافواه العشرين ؟

طلبت منه أيضا أن يدفع مصروفات جامعية قدرها أربعون جنيـــها . وهذا طلب أكثر استحالة من الطلب الأول . برم بنظام التعليم فى مصر كما برمت . أما أنا فلم أستطع الا أن أتحايل على ذلك النظام لأستأنف دراستى . ذلك أننى لم أكن أستطيع أن أجاريه فى خياله . اذ قرر أن يكمل دراسته الجامعية عن طريق لندن ، لا عن طريق القـــاهرة . كانت لندن التى تبعد خمسة آلاف كيلومتر أقرب له وأطوع من القاهرة ، التى يعيش فى قلبها ، ويعتبر أحد ابنائها . قطع صاحبى مراحل شاقة فى هذا المجال . اجتاز امتحانى « الثقافة » و « البكالوريا » من لندن بالمراسلة ! اجتازهما بمرتبة الشرف ، وهو مقيم فى القاهرة . تقدم الى كلية الاداب بجامعة لندن ، فقبلته طالبا بها . كانت هذه الملامح المشتركة بين حياتى وحياة صاحبى قد أنشأت بيننا أخوة نضالية قوية ، جعلت الجلوس اليه والحديث معه من أكثر اللحظات التى

مرت بى فى الجيش خصوبة ومتعة وانتاجا . ان النضال العنيد الذى قام به وهو يحمل على كتفيه النحيلتين عشرين انسانا ، ثم هذا الخوض فى لغة أجنبية ليجتاز عن طريقها ، وهو فى القاهرة ، امتحانات الجبر والهندسة والمنطق والفلسفة والجغرافيا والتاريخ وغيرها ، جعلنى أتمثل فيه صورة بطولية لانسان لا يقهر الجهل فحسب ، بل يقهر النظام الاجتماعى الذى عاقه عن أن يتم دراسته .

كان صديقى مثلى نحيلا ، ضامر الوجـه . له شارب يماثل شاربى . عيناه قويتان ، تعكسان ذكاء خارقا ، وارادة من حديد . أنفه دقيق ، مدبب الذقن ، كث الحاجبين ، له قبضتان ضخمتان ، يفاخر بقوتهما كثيرا . قص كل منا على الآخر قصة كفاحه . جمعتنا الملامح المشتركة فى حياتنا . قربت بين قلبينا . اصبحنا لا يفترق أحدنا عن الآخر . وعلى الرغم من اعجاب كل منا بزميلة ، ثار بيننا نوع من المنافسة الصديقة . أخذ كل منا يروى للآخر تفاصيل حياته فى تفـــاخر عجيب . كان الناس بعد خطوات منا يتفاخرون بالــغنى ، والأرستقراطية ، والجاه والسلطان ، بينما كنا أنا وصديقى نتباهى بما عانيناه من بؤس وفاقه وحرمان . كنا نفخر بالبؤس وكأنه شيء يمكن أن يفاخر به الانسان . نروى قصص الجوع ، وكأنها قصص للبطولة . لم نكن نأبه لمظاهر الثراء والترف تتجمع على بضعة أمتار منا ، كأن

دنيانا هى الدنيا الأصيلة . أما دنيا الرخاء من حولنا ، فهى تافهة لا تثيرنا . وهى سطحية لا ترضى ما فينا من طموح ونضال .

عندما أخذت أقص على صديقى طرفا من حياتى ، اذا به يصوب نحوى عينيه النفاذتين ويقول : أعتقد أن هذا النوع من الحياة يجب ألا نتجرعه دفعة واحدة . فهو كالشراب يجب أن يحتسيه الانسان رشفة رشفة ، حتى تطول متعته ، بقدر ما الكأس من رشفات . كم أتمنى لو لم ينضب هذا المعين . ان حياتى تبدو لى وكأنها توأم لحياتك ، وسوف أعرضها عليك قطرة قطرة . ثم تلمظت شفتاه تحت شاربه الذى كان يتركه من غير تهذيب ليقول :

لا مراء فى أن القصص الخالد يكون أكثر امتاعا لو استمع الانسان اليه وهو يتناول الخلد .

- يتناول الخلد ؟ هل يمكن للمرء أن يتناول الخلد ؟

- طبعا ان كل شىء فى متناول الانسان !

- أفصح .

- ان الخلد هو الشىء الخالد . . واذا كان الشىء خالدا فهو الخلود نفسه .

- أتحسبنى فهمت ؟

- انك لن تستوعب الخلد الا رأيته بنفسك وتذوقته !

امهلنى **صديقى لحظة وقال :**

- انتظر بضع دقائق ، فسأذهب لأشترى الخلد ثم أعود بسرعة !

- كيف يمكن أن تشترى الخلد ؟!

- كل شىء يمكن أن يشترى فى مصر حتى الخلد !

- انك تستخدم لغة غريبة على .

- لا تتعجل انها بضع دقائق ، وتتكشف لك الحقيقة صارخة .

تركنى صديقى لحظة قصيرة ، ثم عاد يحمل أثقالا : بصلا أخضر يمسك بنواصى رؤوسه البيضاء ، وتتدلى أعواده الطويلة الخضراء فى فوضى حبيبة . فجل وجرجير ، وطماطم . كل ذلك كان يحمله فى يد واحدة . ويمسك باليد الأخرى « قروانه » مغطاه وتحتها ستة أرغفة من الخبز البلدى الأبيض الكبير . أخذ يقطع الطماطم والبصل والجرجير ، ثم يخلطها بالفول الذى كانت تحويه القروانه ، ويضيف ملحا وفلفلا وطحينة . التفت لى صديقى قائلا : تفضل هذا هو الخلد ! وأكلناخلدا شهيا ، لم أذق طعمه فى حياتى من قبل . لم أسأل صاحبى لماذا أطلق الخلد على هذا « الطبق » فقد كان واضحا أنه يستمد خلوده من أننا كنا نأكله كل يوم فى الفطور والغذاء والعشاء . ويرجع خلوده كذلك الى انه كان لذيذا يثير شهيتنا ولعابنا بصفة دائمة . كانت جلساتنا حول طبق الخلد غنية ، زادت عقولنا وأرواحنا ، وبطوننا بطبيعة الحال ، ثراء من

فوقه ثراء . كانت تحفل بالانطلاقات والنكت والقفشـات . فكان الضحك يجعل الطعام ينزل الى معداتنا مهضوما . لذلك كنا نستهلك كميات كبيرة من الفول ، وملحقاته من مكونات الخـلد .

كانت تحلو لى المساجلة مع صاحبى حول مائدة الخلد فقد لمحته مرة يصوب نظراته الخارقة الى ، وهذه عادته عندما يريد أن يرمى بالقفاز فى وجهى . وقلت :

ماذا يشغلك ؟

- لقد حدثتنى عن كسر الخبز وبقايا الطعام التى كنتم تسرقونها من مطعم مدرسه الزقازيق الثانوية . ولا مراء فى ان هذا حدث فريد فى دنيا البؤس . ولكن هل سمعت عن السندوتشات الهوائية ؟

- اعرض على بضاعتك !

- لقد عشت عليها فترة طويلة . كنا لا نستطيع أن نشترى شيئا غير الخبز . ولكى أسخر من حياتى ، وما فيها من شظف ، كنت أفتح فى الرغيف فتحة صغيرة ، ثم أعرضه للهواء حتى يمتلىء به ، ثم أقفل الفتحة وأبدأ تناول طعامى !

- انك فيلسوف بائس . . ألم يكن من الأجدى أن يزيد الله لك المال وينقص منك الخيال ؟

أخذت المباراة تتصاعد بينى وبينه ، والتفاخر بالشقاء يحتدم .

..اجهه متحديا :

- هل خضعت فى حياتك لنظام الوجبة الواحدة فى الأربعة ..عشرين ساعة ؟ لقد مكثت فى الزقازيق الثانوية شهرين كاملين أعتمد ..يها اعتمادا تاما على وجبة واحدة هى وجبة الغذاء ، التى كانت تقدمها المدرسة لنا .

- هذه نقطة لصالحك .

- فاذا قلت لك اننا كل خميس وجمعة كنا نمكث ثمانى وأربعين ساعة ، وأحيانا اثنين وسبعين ساعة ، دون طعام ، حيث كنا نتناول الغداء فى المدرسة ظهر الأربعاء ثم نصوم الى وقت الظهيرة من يوم السبت ، حيث لا غذاء فى المدرسة فى يوم الخميس

- وهذه نقطة أخرى تكسبها .

ولما كان صاحبى لا يرتضى الهزيمة، اذا به يندفع قائلا :

- هل تستطيع أن تطعم عشرين ادميا من مرتب قدرة أربعة جنيهات فى الشهر وتدفع منه ايجار السكن ؟

- أعترف لك أن هذا فوق طاقتى .

ولم يكن حرصى على كسب المباراة أقل من حرصى صاحبى ، فوجهت له اللطمة التالية :

- انني كنت أعول وأنا فى الثالثة عشرة من عمرى أسرة مكونة من ثمانى أفراد من مرتب شهرى قدره خمسة وأربعون قرشا . كانت كل نصيبى من وسية الخواجة التى كنت أعمل فيها .

شحب وجه صاحبى . بدأت ملامحه القوية تخور . كان الشحوب الذى أصاب وجهه أثرا للضربة القاضية التى وجهتها اليه . كان كذلك راجعا الى وقع الشقاء الذى ألم بى على نفسه الرقيقة .

عرض صاحبى أن نقتسم زعامة البؤس . اقترح أن يسلم لى بزعامة البؤس فى الماضى ، على أن أعترف بانه يتربع على عرشها فى الوقت الحاضر . حدث أن ذهبنا معا لنرى فيلما سينمائيا فى سينما حديقة الأزبكية ، وجلسنا جلسة زعيمين خليقين بزعامة البؤس كان مظهر الزعامة أكثر وضوحا على ملامح صاحبى . وقد التقط لنا المصور صورة تذكارية أهديتها الى صاحبى وعليها العبارة التالية :

« من زعيم البؤس الغابر الى زعيم البوس الحاضر ، اعترافا من الأول بتربع الثانى على عرش الزعامة . ولست أدرى أيبتسم الغابر أسسى على عز قضى ، أم رضا عن خليفة تتبدى بصمات الزعامة على محياه » .

كنا نتخذ من المكتب الذى يعمل فيه صاحبى منتدى ومطعما ومشربا ومناما .

وكان هناك عسكرى للبوفيه ، رخيم الصوت ، مليح الصورة ، متسق الهندام . أسفت له كثيرا فهو فى الصباح شخصية مهمة تشغل مكانا قياديا بين عساكر الميز والبوفيهات فى الجيش . فهو يقدم القهوة لأكبر قائد فى الجيش ، ولباشوات الجيش من حوله . كان يتباهى بهذه الوظيفة . ويختال لها اختيالا تحسه فى مشيته ، وفى ثيابه المزركشة ،كأنه الطاووس . وما أن ينفض السوق وينتهى العمل فى المكاتب فى الساعة الواحدة ظهرا ، حتى يضع نفسه فى خدمة زعامة البؤس . وينقلب فى لحظة واحدة من خادم للباشوات الى خادم للسوقة ، أى خادما لى ولصاحبى . كنت أرثى له ، فقد كان العز بالنسبة له دوريا : دورة العز تبدأ كل يوم فى الساعة الثامنة صباحا ثم تنتهى فى الواحدة ظهرا ، لتبدأ دورة سلبية للعز ، أو دورة ايجابية للذل ! كرمناه بأن منحناه لقب « رسول الخلد » ، الذى كان يحضره لنا ثلاث مرات فى اليوم .

٤٥

كان وجودى الى جوار صاحبى قد زاد من حماستى للدراسة . كانت هذه السنة هى قمة السنوات الماضية . فأنا متقدم فيها لشهادة الثقافة ، وهى شهادة عامة مستواها عال ، يتطلب جهدا كبيرا . ولم يبق

من الزمن غير أربعة أشهر ، ويأتى الامتحان .

بدأت الدراسة بحماسة مزدوجة ، أصبح لها مصدران : صاحبى وأنا . ان صديقى اللدود الجبر يثير العراقيل فى طريقى ، ويمتص جهودى . ما زلت أتبع أسلوب حل نحو أربعين تمرينا فى الليلة . يستعصى على من الأربعين عشرة . ولكن التمارين التى تعلن العصيان يزداد عددها : فهى اليوم عشرة ، وفى الغد خمسة عشر ، وعشرون فى اليوم الذى يليه . لماذا لا استعين بصاحبى فى حل المسائل الصعبة ؟ انه صديقى ورفيق كفاحى . وفوق هذا وذاك فقد اكلت معه ، خلدا ، بكميات هائلة . ان قاعدة ان أظل ، المعلم والتلميذ ، سوف لاتخدش إذا ما فك لى صاحبى رموز المسائل العنيدة . كانت معاونته مفيدة للغاية . خففت من حدة الصراع مع الجبر . فاحتفظ ببعض قواى للعلوم الأخرى بدلا من أن يستهلكها الجبر كلها .

على أن استفادتى من صاحبى لم تكن خالصة دون ثمن . كانت أحاديثنا الجادة والساخرة تطغى على وقت المذاكرة. كانت أحاديث الشقاء تسعدنا . لست أدرى كيف يسعد البؤس أولئك الذين لا يزالون يرزحون تحت أعبائه .

مضت بى الريح رخاء فى حياتى الجديدة. لكن الرخاء لم يدم طويلا . صدر لى أمر بأن أرافق الباشا الى الاسكندرية .

- وتركنى هذا الأمر المفاجىء موزع النفس ، مقسوم الفؤاد : كيف أترك صاحبى والخلد ورسوله . كيف أترك دروسى والامتحان أصبح قريبا ؟ لكن الرحلة الى الاسكندرية مثيرة فلم أشهد هذا الثغر الجميل فى حياتى الا فى المجلات .

استيقظنا فى ساعة مبكرة . أخذت السيارة الكلاديلاك الحمراء طريقها الى الاسكندرية . كانت الدولة تخصصها لرئيس أركان حربها فى الصيف فحسب . الفصول الأخرى لها ألوانها وسياراتها : فالقائد له ، بويك ، ليمونى فى الخريف ، ورولزويس ، سوداء للشتاء ، ، وبونتياك ، زرقاء سماوى للربيع . ولم يكن من بين هذه العربات واحدة بلون الكاكى ، الذى يلون دائما سيارات الجيش ، والذى أختير ليكون تمويها ، حتى لا يكتشف العدو وسائل النقل فى الجيش .

انسابت السيارة الأنيقة تمرق بين الأشجار الباسقة التى تحف الطريق من جانبيه . كنت أجلس بجوار السائق جلسة ، انتباه ، . لا يكاد ظهرى يلمس مسند المقعد الذى أجلس عليه . ، فالباشا ، يجلس ورائى فى المقعد الخلفى . ومع ذلك فقد انداح فى كيانى شعور رضى . فركوب العربة الفارهة ، حتى ولو لم تكن عربتك ، يثير لونا من التميز ، يتردد صداه فى شعورك ، فتعتقد معه انك أعلى من الاخرين ! ولكن يبدو أننى ، غاوى غلب ، حقيقة : ان عينى تنجذبان الى

الفلاحين فى الحقول المطلة على الطريق الزراعى . كانوا يحرثون الأرض : أجسام هزيلة ، تقود محاريث يجرها بقر وجاموس هزيل . هؤلاء هم الفلاحون الذين يؤخذ أبناؤهم الجوعى الحفاة ، ليؤدوا الخدمة العسكرية فى الجيش الذى يقوده هذا الرجل السمين المترف : الذى عينوه ليقود الجيش ، لانه اتقن قيادة الخدمات الشخصية لمولاه وولى نعمته . اقتربت السيارة من ضواحى الاسكندرية . صدورنا تستروح نسمات البحر الرطيبة المحملة باليود . صورة الفلاحين تتمزق فى مخيلتى . « فلل » الاسكندرية تكاد ألوانها تذهب بأبصارنا ، تحيط بها حدائق غناء . يتسلق الشجر حوائطها . وتغطى الورود نوافذها وشرفاتها . انطلقت الكاديلاك الى الكورنيش . أطل البحر علينا من بعيد . تهللت لمنظره . لا للونه « اللازوردى » الجميل . ولا لجلاله ولا نهائيته . ولا للنسمات المخضلة بأنفاسه التى أنعشتنى ، وأثارت فى نفسى الأمانى فحسب . ولكن لا نى أرى « البحر المتوسط » لأول مرة . كنت لا أراه الا فى خرائط الجغرافيا . كان لهذا المعنى الأخير لذة خاصة لم يبزها الا حينما شاهدت بحيرة « فكتوريا نيانزا » فى وسط افريقيا بعد نيف وعشرين عاما ، حينما كنت أعمل فى افريقيا . . لقد انساح فى وجدانى ، حين رأيتها ، شعور فريد لا يحسه الا تلميذ كان أول درس تلقاه فى الجغرافيا ، هو نهر النيل ، الذى ينبع من بحيرة

الوسيـة

فكتوريا . كان الناس فى القرية ، ولا يزال بعضهم ، يعتقدون ان النيل ينبع من الجنة . ولم يكونوا يعلمون انه ينبع من منبعين : أحدهما بحـــيرة فكتوريـا فى أوغندا ، والثانى فى الحبشة . وفى كلا هذين البلدين كان يقوم نظام اجتماعى واستعمارى يجعل هذه المناطق جحيما بالنسبة لإهلها !

وتختال بنا السيارة الرشيقة على طريق الكورنيش . ثم تتوقف أمام بناية مرتفعة حيث ينزل الباشا . لم تصدر لى تعليمات ما . سألت السائق هل لديه معلومات ؟ فأجاب بالنفى اقترح أن أمضى اليوم على الشاطىء . انطلقت الى البحر . بهرنى لونه . أخذت أداعب الموج قرب الشاطىء . فأنا أرهب هذا البحر اللجى . رأيت رأى العين اللوحات الحية التى كانت ترسمها المجلات للمصيفات : غيد يستلقين على الشاطىء فى أوضاع تذهب باللب ، ويتهادين على الرمال ، ليعرضن فى سخاء على الناس ما حباهن الله من جمال . انهن يطفرن مع الموج فأطفر معهن ، ويتصايحن جذلا ، فينساب الجذل الى فؤادى . كم حمدت للموج أنه كان يحمل أحيانا الى جسدى الجاف لمسات من أجساد ناعمة بضة . كان يقذف بها على فأنعم بالمسة الكهربية ، وبالضحكة الشجية . كانت الحسان يعتذرن أحيانا اذ يمسسننى ! كيف يعتذر المرء عن فعل يسعد به الآخرين !؟ نسيت الفريق والجيش .

ونسيت شهادة الثقافة ، بل نسيت صاحبى وخلده . لا ريب انه لم يشهد ما أشهده الآن ، والا لكان غير نظريته فى الخلد .

فى أصيل ذلك اليوم كنت أتهادى على الكورنيش مع المتهادين لبست حلتى « المدنية » الأنيقة . لم أبعد عن المنطقة التى بها منزل الباشا . كنت أمعن النظر كثيرا فى المصيفات . وتقع عيناى عرضا على المصيفين ! كان الكرنفال الملون الذى يقيمه المصيفون ـ أو بعبارة أدق المصيفات ـ على الكورنيش أصيل كل يوم ، شيئا حبيبا الى القلوب . بل كان جزءا أساسيا من عملية التصييف نفسها ، وعنصرا جماليا لا غناء عنه للمصيف . لذلك يحرص الجميع على أن يتهادوا على الكورنيش وقت الأصيل . حيث يعطى ذهب الشمس للوجوه البرونزية سحرا يلهب المشاعر ، ويحرك الشجون . فى هذا الكرنفال تتلاقى العيون ، وتبتسم الشفاه . ثم يحدث لون من المتابعة أو المطاردة . وتبرم علاقات بعضها حلو وبعضها مرير .

بينما كنت هائما فى ذلك الجو الأخاذ ، اذا ببصرى يقع على انسان فارع الطول ، قوى البنية ، يطيل النظر الى . ويحدق فى وجهى بعيون قوية نفاذه . يا للهول ! انه الباشا رئيس اركان حرب الجيش . كان يلبس الملابس الملكية . ويأخذ بنصيبه من مهرجان الأصيل . طالت نظرته الى . لست أدرى ماذا دهانى ، لم أحدثه فأنا لا أجرؤ على الحديث

معه . ولم أحيه التحية العسكرية فأنا أرتدى الملابس المدنية وهى ممنوعة على العساكر . مضيت فى طريقى تائها لا أدرى ماذا أفعل . كان ذلك كافيا لكى ينتهى الكرنفال بالنسبة لى . عدت على الفور الى الحجرة التى خصصوها لى أنا والسائق فى « بدروم » العمارة . أخفيت على السائق اننى رأيت الباشا على الكورنيش ، وانه رآنى بالملابس المدنية . أمضيت الليل ساهرا قلقا .

فى الخامسة صباحا جاءنى أنباشى يعلق شريطين سوداوين على كتفه وسألنى :

ـ أنت الباشجاويش خليل حرس الباشا ؟

ـ نعم .

ـ هناك أمر أن تسافر الى القاهرة فورا !

ـ خيرا لماذا ؟!

ـ أوامر الباشا !

ـ هل لا تعرف السبب ؟

ـ وهل يعطى الباشا ايضاحا لأوامره ؟

ـ متى سأسافر ؟

ـ فى قطار الساعة السادسة .

ـ الساعة الان الخامسة .

ـ لدينا وقت كاف . . تلبس فى عشرة دقائق وآخذك فى سيارة الى محطة سيدى جابر فى خمس عشرة دقيقة ، لتصل قبل قيام القطار بنصف ساعة .

رافقت الأنباشى الى محطة سيدى جابر . أعطانى تذكرة فى الدرجة الثالثة ! تبينت فى الحال ، ان فترة العز وركوب الكاديلاكات ، قد انتهت الى غير رجعة .

فى القاهرة كان هناك قرار قاتل ينتظرنى ، ينقل الباشجاويش خليل من رياسة الجيش الى لواء الأساس ، ومن المعروف ان رياسة أركان حرب الجيش هى أعلى مكان فى الجيش ، وان لواء الأساس هو أدنى وحدة من وحدات الجيش . بهذا هبطت من القمة الى الحضيض . حمدت الله ان كان هذا هو الجزاء . على اننى كنت فى حيرة من أمرى . . هل طردنى الباشا من رحمته لاننى تعاليت فلم أمسح حذاءه فأسرها لى فى نفسه ؟ أم لا ننى رددت على الطالبات له فى التليفون ؟ أيكون قد غضب لاننى لم أعظمه عندما رانى على الكورنيش ؟ ولكن كيف أفعل وقد كنت أرتدى الملابس المدنية . أتكون هذه الملابس هى التى أغضبته أغضب لاننى ارتديتها . وهى ممنوعة على العساكر ، أم لأن حلتى أكثر أناقة من تلك التى كان يرتديها ؟ !!

٤٦

كان نقلى الى لواء الأساس ضربة قاضية . هذا هو المكان الذى يستقبل فيه المجندون ، ويعاملون معاملة قاسية . تجعل العساكر يكرهون الجندية ، وتجعل أهلهم يقيمون عليهم منادب خارج أسوار المعسكر . وبمعونة قائدى القديم عدت الى مدرسة ضباط الصف مرة أخرى .

لم يكن طردى من رياسة أركان حرب الجيش بفاجعة ، فهذا النوع من العمل الذى أثار خيال الناس جميعا لم يثرنى مطلقا من الناحية الموضوعية . لقد وضعونى وجها لوجه أمام الطبقة التى تستغل شعب مصر ، وتملك أرضه . وتفرض عليه صنوفا من الذل والهوان . وما الوسية التى يملكها الخواجة اليونانى الا قطاع من الوسية الكبرى التى تحكمها هذه الطبقة التى أحرس كبير حراسها . وعلى أية حال ، فالعمل لم يكن مثيرا حتى دون الولوج فى تلك المعانى . فأنا أعمل مع شخصية كبيرة سوف أعيش معها على أعصابى . وأى خطأ قد يؤدى الى محاكمتى . هذا الى جانب ان هذا العمل يذكرنى دائما باننى من طبقة أدنى ، وهو شعور بغيض لا أود أن يظل يزهق أنفاسى . انه يذكرنى بأن أرضنا لو لم تكن قد سلبت منا ، فانه كان يمكن أن أكمل تعليمى، وأنتمى الى هذه الطبقة المسيطرة !

عيننى القائد الجديد « للمدرسة » باشجاويشا لسرية الرياسة ، أو سرية المراسلات والحلاقين وغاسلى المراحيض . لم أبتئس لذلك . فقد علمتنى التجربة القصيرة ، التى قضيتها فى رياسة الجيش ، ان العسكرى عسكرى متطوعا كان أم مجندا ، نفرا أم باشجاويشا ، يحمل شهادة او لايحمل . فلو كانت لديه الابتدائية أو دبلوم صنايع أو البكلوريا فان رئيس أركان الحرب سوف يسأله هل يقرأ ويكتب ؟ وطالما كان عسكريا ، علق على ذراعه شرائط أم لم يعلق ، فيجب أن ينظف أحذية القادة ، وان لم يفعل أصبح على كف عفريت .

لم يكن تأخرى فى استذكار دروسى ، والاستعداد لامتحان شهادة الثقافة بفاجعة . فعلى الرغم من انه بقى شهران فحسب على الامتحان ، الا ان الثقة بالنفس ، التى تواتينى أحيانا ، تقوم بدور المنقذ . ولهذا ما زالت لدى ثقة غريبة باننى يمكن أن أعمل شيئا فى هذين الشهرين . لم تكن هذه المسائل كلها بفواجع ، ولكن الفاجعة الحقة كانت تنتظرنى :

فبعد أسبوع واحد من استقرارى فى المدرسة وبعد أن بدأت أستأنف دراساتى ، اذا بى أتلقى خطابا ، عرفت من الخط المكتوب على غلافه انه من والدى . وفضضت الغلافة وقرأت :

« ولدى الحبيب خليل » . . . .

« لقد سمعت نبأ ، وقع على نفسى وقعا أليما ، وسبب لى أرقا بالليل ، وهما بالنهار . . كنت أود أن أخفيه عنك لولا اننى أحببت أن أسوقه بنفسى . فقد تكون النغمة الحانية التى أكتب لك بها ، والتى تصدر من قلب أب يحب ولده ، ويرى فيه الدنيا بأسرها ، وعوض الأسرة عن أرضها . بل هو ماضيها وحاضرها ومستقبلها . قد تكون هذه النغمة خفيفة الوقع عليك . . لقد علمت أن عالية خطبت، فهل عرفت ؟ نقل الخبر الى أحد أقاربنا .. أنا لا أريد أن أجزم بأن الخبر صحيح . . لكننى أتساءل : هل كانت لديك فكرة عن هذا الموضوع ؟ وهل تريد أن تتأكد منه؟ اننى أعلم انك تستعد للامتحان ، الذى يجب أن تتفرغ له بكل قواك . وخشيت أن تتلقى الخبر بطريقة مفاجئة قد يفرق لها قلبك البكر . وقد توثر على الهدف الكبير الذى تسعى لتحقيقه » . ان دعواتى كلها لك، وان قلبى كله معـك . . .

والدك

السيد حسن خليل

لا أدرى لن كان الخبر صعقنى أم لا . ولكن يبدو انه لم يصعقنى لاننى ما زلت حيا ! لم أذكر أثرا لهذه الخاتمة لمآساتى ، الا انها خلفتنى فى شبه غيبوبه . ظللت صامتا مستلقيا على سريرى يومين متتالين . لم أشعر بألم . ولكننى شعرت بشىء أشبه بانعدام الوزن . اننى أحس بوجودى ، فأنا أنظر الى السقف نظرة ثابتة مستمرة لا تقطعها حركة من أهدابى أو جفونى . ومع ذلك كأننى لا وجود لى ، اذ لا أشعر بوجود جسدى !

تجمع العساكر المراسلات والخدم وعساكر المراحيض من حولى . تلك المجموعة التى شعرت شعورا عارضا بان أعمالهم وضيعة . عندما أفقت بعض الشىء واستردت حاسة الشم لم تفح منهم رائحة المراحيض . كانت أنفاسهم عطرة ، تنساب من صدورهم فى اخلاص وصدق . لم تنل أعمال الخدم التى يقومون بها من رجولتهم وشهامتهم . علمت انهم كانوا يتناوبون العناية بى فى اليومين الماضيين . أثارنى هذا الشعور الانسانى ، فأطلق لسانى . فرحوا اذ تكلمت . وسعدوا اذ يروننى أبعث من جديد .

عندما أفقت لم أشأ أن أتعب نفسى فى البحث عن صحة الخبر ، أو عدم صحته . فقد اتبع والدى هذا الأسلوب ليخفف عنى ، ولأتلقى الخبر شيئا فشيئا . ذلك أن من الواضح انه تأكد من الخبر ، ولهذا فهو

ب لى لينبئنى به . والحق ان هذه الفكرة بأن الخبر غير صحيح قد الحت على . وكأن النفس البشرية تبحث عن مخرج مصطنع للأزمات التى تعصف بها . لا . دعك من التمنى . ان الخبر صحيح .

هذه أفكار لا جدوى من ورائها . اقرأ كتبك ، لعلك واجد فيها سلوى . ولم أستطع القراءة ، فقذفت بالكتب . وخرجت من « العنبر » . أخذت طريقى الى حديقة المدرسة ، أتلمس فيها نسمة ترطب ما فى صدرى من لهيب .

كانت حديقة المدرسة هى المكان الوحيد الذى يشعر الانسان فيه بان هناك نسمات تهب على الصحراء . فالنسمة حينما تداعب أوراق الشجر ، ينساب الى أذنك ما فى حفيفها من موسيقى ، وعندما تفتح أوراق الزهور يتبدى لعينيك ما فيها من نضارة ، قد لا تكون فى مثل روعتها اذا لم تمسسها أجنحة النسيم .

هدأ روعى قليلا . خيل الى ان مايسمى بقوى العقل ، انتهزت هدوء العاطفة ، فهاجمت القلب هجوما لا هوادة فيه . جاء القرار سريعا ، على غير ما توقعت : عد الى دروسك ، فالامتحان أصبح وشيكا . والاضاع الحلم الذى روادك طول حياتك ، وتلاشت الأمانى بعد أن أصبحت قطوفها دانية .

٤٧

بدأت مع مواد « الثقافة » عملية صراع رهيبة . يجب أن أدرس ثماني مواد فى ستة أسابيع . وعلى ذلك لم يكن هناك أمامى الا خمسة أيام أخصصها لكل مادة . وكان من الممكن أن تكون هذه المدة كافية ، لو كانت هذه الأيام الخامسة مخصصة للمراجعة فقط . بعد أن تكون المادة قد هضمت ، ولم يبق الا « اجترارها » . كان على أن أقوم بمهمة « المدرس والتلميذ » . أى ان الأيام الخمسة كان يجب أن توزع بين المدرس والتلميذ : الأول يشرح ، والثانى يستوعب . دارت معركة عنيفة بين ثقة قديمة بالنفس ، وبين مواد جديدة معقدة . لم أقرأ معظمها حتى قراءة عادية . توغلت فى الدروس توغلا خيل الى معه اننى سيطرت على المادة . وما كان ذلك الا سرابا .

بدأت كلمة اليأس تختلط حروفها بسطور المواد المتمنعة . لكن كلمة « العزيمة » هى الأخرى تبرز مشجعة بين السطور ، فأعاود الكرة مرة أخرى . وقد ساعدنى فى هذه الفترة تعيينى باشجاويشا لسرية الرياسة . فالعساكر والفنيون والحرفيون والخدم ينهضون مبكرين ليذهبوا الى أعمالهم . وليس هناك طوابير أو تدريب ، وبذلك خصصت اليوم كله للمذاكرة من الصباح الباكر الى الثالثة بعد منتصف الليل . لم يكن

يعرض هذا التفرغ الا ان هذه المجموعة من العساكر كانت مهملة أشد الاهمال . فالعسكرى الحلاق شعره ولحيته طويلة . والعسكرى الذى يمسح المراحيض والحمامات لا يستحم . والعسكرى الذى يعنى بسرائر المخدومين عاجز عن تنظيف سريره وهكذا !

كانت لى فى سرية الرياسة امتيازات أخرى : كان شاويش المطبخ وعساكره يأتون لى فى الصباح وفى الظهيرة بالعدس « الرائع » . وكانت روعته ترجع الى انهم يحضرونه من على وش القزان ، أى الوعاء الذى يطهى فيه العدس للمدرسة كلها ، حيث يتركز السمن والبصل والبهارات . لم يكن لى حق فى هذا العدس . كنت أتقاضى « بدل تعيين » . ولا حق للذين يتقاضونه فى أن يأكلوا طعام الجيش . كانت وجبة العشاء حافلة بألوان من « اليمك » ، اللحم اللذيذ والخضار « بالبهريز » . تقبلت هذه المنح ، « كامتيازات عادية » تقدم دائما لباشجاويش الرياسة ، أيا كان شخصه !

ذكرتنى هذه الأكلات الشهية المسروقة من الجيش بمجتمع الوسية . كان أبو حطب الخولى ومحمد خطاب الخفير ومقاولو الأنفار ، يقدمون لى أيضا أكلات شهية مصدرها أموال الخواجة . هل الجيش وسية عسكرية ، تماثل الوسية التى تركتها ورائى فى مزرعة الخواجة ؟ رحبت بالهدية غير المشروعة . . وهناك دائما تبرير ! ان الجبن

والحلاوة التى اشتريها من الكانتين ، غير كافية . والجبن ، الذى لم يكن قريشا ، سيثير ذكريات بغيضة الى . وعلى ذلك فهذا اللون من السرقة لم يثقل على ضميرى . فلم يكن لدى وقت أفلسف فيه هذه المنح ، أو حتى أفكر فيها . بل اننى شكرت للقدر اختيارى باشجاويشا للرياسة فى هذه الظروف العصبية .

بررت كذلك السطو الذى يقوم شاويش المطبخ وعساكره على « زيد الطعام » ، بأنهم يأكلون فحسب . فهم لا يسرقونه ليبيعوه ، ويكسبوا منه كسبا حراما . لم يكن لدى اعتراض عليه ، فيما عدا انه اعتداء على غذاء العساكر الاخرين . وهم من الطبقات المحرومة . وكأن فريقا من المحرومين يفتك بحقوق فريق آخر من المحرمين . طافت بذهنى فكرة « أحرار الوسية » ، التى نادى بها الخفير محمد خطاب فى مزرعة الخواجة اليونانى . اخذت أقارن بينها وبين أحرار مجتمع الوسية العسكرية . وهم فى هذه الحالة شاويشية المطبخ وعساكره ، وكذلك القائمون على مخازن التعيين ، وغيرها من الخدمات والمرافق العامة بالقشلاق . جاءنى عسكرى من مخازن المهمات يقول لى :

- يا أفندم ، مهماتك قديمة ، والمخازن مليئة بالملابس والبطاطين الجديدة .

حمل المخلاة وعاد بها، بعد فترة قصيرة ، محملة بملابس

وبطاطين ، ومهمات جديدة وضعها أمامى قائلا :

- هل يجوز أن تكون باشجاويش ، وترتدى ملابس قديمة . . ألا ترى « الهيصة » من حولنا ؟

- أية « هيصة » ؟

- ما يدور فى المخازن . . ألا تدرى ماذا يفعل يوزباشى المخازن، وصول التعيين ؟

- لا . . . .

- يظهر يا أفندم ، أنك تجيد الكلام الحلو ، والروح المعنوية ، وكرامة العسكرى ، ولا تجيد شيئا اخر . . ان باشجاويش سرية الرياسة يجب أن يعرف أسرار « الرياسة » !

- البركة فيك . . تزود معلومتى .

- المخازن يا أفندم وسية !! كل يوم العربات تخرج منها محملة بالملابس والمهمات ليبيعها اليوزباشى والصول .

- أليست هذه الأشياء عهدة ؟

- ألا تعرف ان هناك ما يسمى « بالكهنة » ، أو عملية «التكهين» . . المهمات تكون جديدة ، فتؤلف لجنة لتقرر أنها قديمة أو « كهنة » ! وتباع الكهنة مثلا بيعا صوريا بثمن اسمى . . فتباع حمولة اللورى بخمسة جنيهات ، وقيمتها مائتا جنيه . ويدفعون الجنيهات

الخمسة من ثمن « الملابس الكهنة » ويأخذون الباقى !

- من أنبأك بهذا ؟

- أنا أعمل فى المخـازن ، وأفهم كل شىء ، وأحمل اللورى بنفسى!

تماما كما كان الفـلاحون يحملون الحمير سرقات حسين الباشكاتب ، وأبو حطب الخـولى ومحمد خطاب الخفير فى وسية الخواجة . الفارق هنا فى وسائل النقل والمواصلات !

استطرد العسكرى :

- هل أكشف لك سرا آخر ؟

- قل . .

- « التعيين » الذى تتضرر أنت منه ، حينما يأتى لك عسكرى المطبخ بطاسة عدس ، هذا العدس يؤخذ من المخازن ويباع ويقبض اليوزباشى والصول ثمنه . . والأمر ينطبق تماما على الأرز والفول والبصل والسمن وغيرها .

- أليست هناك رقابة على هؤلاء الناس ؟ ماذا يفعل أركان الحرب ، وكبير المعلمين وقائد المدرسة ؟

ضحك العسكرى وقال :

- انت طيب جدا يا باشجاويش !

قال العسكرى هذه العبارة بطريقة ساذجة ، تكـاد تعنى اننى « عبيط » ثم أردف :

- التعيين يحمل أيضا الى بيوت الضباط الكبار الذين ذكرتهم الآن!

- كيف ؟

- « أجولة العدس » والفول والبصل وصفائح السمن والجبن تذهب الى منزل القائد وأركان الحرب وكبير المعلمين !

- هل يأكل هؤلاء الناس « عدسا » فى بيوتهم ؟

- طبعا . . عندما يعمل العدس « شوربه » ممتازة يأكله الذوات !

- هل يرضى هؤلاء الناس بهذا ، وهل هم محتاجون ؟ ان مرتباتهم كبيرة ولديهم أموال وأراض .

- الانسان شره . . . « والبحر يحب الزيادة » . . وهذه وسية . . وهم المشروفون عليها. . أنا لا أريد أن أقول لك أيضا أن الطماطم والخضروات الطازجة واللحم يحمل بكميات كبيرة الى هذه المنازل .

- ألا يتسلم « أمناء » المخازن هذه المواد بالوزن ؟

- نعم . . لكنهم هم الذين يزنونها عندما يتسلمونها ، وعندما تخرج من المخازن . . هل يزن العسكرى نصيبه من الطعام ؟ انه لا يعرف ما هو نصيبه . . وأكبر الظن انك أيضا لا تعرفه رغم انك باشجاويش !

- عجبا ! -

وقفزت الى ذهنى صـورة ، الباشكاتب حسين ، فى مزرعة الخواجة ، حيث كان يزن الحبوب والأقطان عند دخولها وعند خروجها منها. وكانت عملية السرقة تتم تماما بالوسائل نفسها . وبهذا فمجتمع الوسية لا يختلف : عسكريا كان أم مدنيا .

أراد العسكرى أن ينصرف فقال :

- قم يا أفندم ذاكر ، لقد أخذت كثيرا من وقتك .

- انتظر لحظة .

- دعك من ، التكية ، التى نعيش فيها ، ولا تفكر فيها كثيرا . ولا تتعب نفسك فى اصلاحها !

- هل لديك أسرار أخرى ؟

ابتسم العسكرى ابتسامة فيها سذاجة ، بقدر ما فيها من خبث :

- والمذاكرة ؟

- خمس دقائق فقط .

- خذ هذا السر . . لكن احتفظ به بينى وبينك . . انت تذهب لبيت القائد لكى تدرس لأولاده . . الملابس الداخلية التى يرتدونها من مخازن المدرسة !

أسرعت صورة مماثلة الى ذهنى عندما كنت حارسا لرئيس أركان الحرب . كنت أرافقه الى منزله ، وأنتظر أحيانا فى المنزل لأرافقه فى رحلة أخرى . وخلال انتظارى كنت أشهد أحداثا ، لم يدر بخلدى انها من نفس الأحداث التى قصها على عسكرى المخازن . كانت ، لوارى ، الجيش وعرباته المختلفة ، تأتى الى منزل الباشا محملة . ويفرغ العساكر العاملون فى منزل الباشا حمولتها . فاذا العجول والخراف المذبوحة . واذا بالزكايب والأجولة يتساقط منها العدس والفول والأرز . واذا بصفائح تنز سمنا وزيدا وعسلا . وما تلبث هذه أن تتبعها لوارى أخرى محملة بالملابس والملايات والبطاطين والأغطية وغيرها .

ارتسمت علامة استفهام كبرى أمام عينى : هل يعتبر الباشا كبير ، أحرار ، الوسية العسكرية؟

أرأيت أنه على الرغم منى ، فانه قـد أضيفت الى المعوقات السابقة ، التى اعترضت طريقى ، مشكلتى الاجتماعية الخالدة ، التى اقتحمت على الأسابيع القليلة الباقية على الامتحان . على اننى عدت الى الصراع مع الدروس ، زدت عدد ساعات الاستذكار الى ثمانى عشرة ساعة فى اليوم !

وأمام أوراق الامتحان ، كانت الثقة ، الزائدة ، التى كانت احدى

عيوبى ، قد تبخرت . وتوارت معها الثقة العادية نفسها . تركت مكانها لشعار اخر : انقاذ ما يمكن انقاذه !

ظهرت نتيجة الامتحان . وعلى الرغم من اننى لم أكن واثقا من نجاحى ، الا اننى جزعت حقا ، اذ قرأت العبارة التالية فى احدى الجرائد ، وكأن حبر المطبعة قد ضخم من حروفها:

« لجنة فؤاد الأول الثانوية بالعباسية »

« المتقدمون من منازلهم »

لم ينجح أحد !

لم يكن جزعى لأن جهودى لم تكلل بالنجاح . لكننى جزعت لأن هذه كانت أول مرة فى حياتى أسقط فى امتحان . سواء فى دراستى المنتظمة عندما كنت صبيا ، أو فى دراستى من القشلاق بعد أن أصبحت جنديا . ذلك أن سقوطى فى ذلك العام ، قطع تفوقا مستمرا ، ونجاحا متواصلا ، كنت أود أن أظل أفخر به وأتيه .

كما توقعت سقطت فى مادة « الجبر » ، صديقى اللدود . لم يبئسنى ذلك كثيرا . لكن الذى أحزننى حقا ، أن اكتشفت اننى سقطـــــت فى «اللغة الانجليزية » ، تلك المادة التى كنت أعتبرها من المرفهات ، فاذا بها تنضم الى المعوقات .

لم أستسلم . فلم يكن الاستسلام كلمة فى القاموس الذى وضعته لنضالى . ان امتحان الدور الثانى بعد شهرين . وشهر لكل مادة كاف لا جدال . لن يمسح هذه « السقطة » من سجل تفوقى ، الا أن أصر على أن أمضى فى الدراسة دون مدرس . . لابد أن أقوم بهذا الدور المــزدوج : المدرس والتلميذ . . ذلك أننى كنت أميل إلى أن أعتبر ان المسئول عن سقوطى هو « المدرس » ، فقد بذل التلميذ ما يطيق . ومع ذلك فاننى أثق أن المدرس والتلميذ ، سوف ينتصران معا هذه المرة !

دخلت الامتحان . . ونجحت . . حصلت على شهادة الثقافة . بهذا أكون قد اجتزت مرحلة حرجة من مراحل دراستى .

جاء دور التوجهية أو البكالوريا . . ومع التخطيط لدراسة التوجيهية ، أخذت حياتى فى الجيش اتجاها جديدا . .

٤٨

كانت سنة البكالوريا (١٩٤٥) آخر سنة لى فى مدرسة ضباط الصف . وكان الدرس الذى تلقيته فى امتحان الثقافة مفيدا . فقد بدأت الاستعداد للامتحان فى وقت مبكر . وقد أعددت لذلك خطة بعيدة المدى . وتخلصت من معوقات كثيرة ، كانت تعطل انطلاقى . فقد

أصبحت صورة مجتمع الوسية العسكرية واضحة فى ذهنى تماما ، بعد أن علمت ما يجرى فى سرية « الرياسة » بالمدرسة ، وفى « رياسة » الجيش . وقد بلغ تقززى من « الوسية » العسكرية أقصاه ، عندما أصدر رئيس أركان حرب الجيش أمرا بتغيير شعار الجيش : الله . . الوطن . . الملك . ليصير : الله . . الملك . الوطن ! مما لا جدال فيه أن ذلك كان منسقا مع مشاعر « الفريق » . فالملك رب نعمته ، فلماذا لا يكون رب نعمة الوطن كله ، وبهذا يتقدم عليه ؟ قيل فى تبرير ذلك ، ان الملك هو رمز الوطن ، فلا بأس من أن يذكر قبل الوطن . ولم يفطن هؤلاء القوم الى أن المرموز اليه موجود ، وهو الوطن . فـليس هناك داع للرمز ! لكن علام الدهشة : الملك يملك الوطن ، ولهذا يجب أن يتقدم المالك على المملوك ! لا شك أن فى هذا كسبا كبيرا ، إذ يرضى المالك أن يذكر المملوك معه فى شعار الجيش ! لست أدرى لماذا لم يطبق القوم منطقهم حتى نهايته . فالملك ـ عندهم ـ « ظل الله فى الأرض » . وما داموا لا يرون غير الظل ، فلماذا لم يضعوا الظل قبل مصدره ؟!

كانت هذه الحادثة هى قمة الغثيان الذى أصابنى فى الوسيـة «العسكرية » . فاتخذت قرارا حزنت له أبلغ الحزن : لن أبذل أى جهد فيما أسميته بالروح الجديدة ، وكرامة الجندى ، وشرف الخدمة

والاخوة بين الضباط والعساكر . فكيف يقيم عسكرى فى أسفل السلم «الدين فى مالطة » كما يقولون .

قضيت فى مدرسة ضباط الصف شهرين ، بعد أن أصبت بذلك الفتور . بدأت أقرأ فيها دروس البكالوريا . على أن الفتور ليس من طبيعتى . أصبح البقاء فى المدرسة مملا ، فقد نكهته . ولما كانت البكالوريا قد أصبحت الهدف ، فيجب التخطيط لها مبكرا . بل يجب التخطيط لما بعدها ! ولما كانت معركتى « الخاصة » ، أى فرض مكان لى فى هذا المجتمع ، قد أصبحت هدفا أساسيا ، اذن فاتمام التعليم الجامعى أصبح لا غناء عنه للوصول الى هذا الهدف .

ولما كان النضال العام ضد نظام « الوسية » لا يمكن الاسهام فيه الا اذا تسلحت له علميا ، لهذا تكون الشهادة الجامعية من بين أسلحتى فى ذلك النضال . ولما كانت الكارثة التى ألمت بى وبأبى وبأسرتى ، حينما نشل الخواجات أرضنا ، وحينما « نشلت » الدولة حـقى فى التعليم ، هى أننى لم أتمكن من الوصول الى الجامعة ، لهذا لابد من أن ترسم الخطة منذ الان لا للبكالوريا فحسب ، ولكن للدراسة العالية .

ولكن كيف أدرس فى الجامعة ، وأنا فى الجيش ؟ وبصفة خاصة ، وأنا فى مدرسة ضباط الصف بموقعها فى وسط الصحراء ، وبالعمل

الشاق فيها . هلّ أستقيل ؟ . . ومن يطعم أسرتى ، ويسقيها ؟ حقا اننى اقتصدت مبلغا خلال عملى بالجيش . لكنى اشتريت به فدانين من الأرض ، التى كان الخواجة قد اغتصبها منا ! بهذا حققت أمنية جزئية لوالدى ، اللذين كانا يعلقان أملا فى استرداد الأرض المغتصبة . وبشراء هذه القطعة من الأرض أصبحت « برجوازيا » صغيرا ! وقد كفلت هذه الأرض بعض القمح وغيره من المنح التى انقطعت عن أسرتى منذ أن غادرت وسية الخواجة .

لهذا كان على أن أبقى فى الجيش ، أو أبحث عن عمل مدنى ، وقد أصبح لدى موهل « الثقافة » . على ان فكرة البحث عن عمل مدنى ، كانت ترتجف لها أوصالى . فمعناها أن ألقى بنفسى مرة أخرى بين أنياب مجتمع الوسية الكبير . اذن لا مناص من البقاء فى الجيش . فعلى الرغم من ان المجتمع العسكرى هو امتداد لمجتمع الوسية الكبير ، بل هو الحارس للوسية الكبرى ، الا ان فيه بعض الضمان . وطالما وطدت نفسى على ألا أتعذب من قيم مجتمع الوسية ، مدنيا كان أم عسكريا ، الى أن أنتهى من دراستى ، فالبقاء فى الوسية العسكرية لن يثقل وجدانى .

على أن الدراسة فى الجامعة تتطلب مصروفات . وكلية الحقوق

التى أفكر فى الأنتماء اليها ، تبلغ رسومها أربعين جنيها فى السنة . ولهذا فالبقاء فى الجيش أصبح ضرورة لا فكاك منها . . فسوف يتبقى لى ولأسرتى ، بعد دفع النفقات وغيرها ، فتاتا تقتات به .

وومضت فى خاطرى فكرة أخرى : لماذا لا أتفوق فى التوجيهية ، وأحصل على أكثر من ٧٥٪ من مجموع الدرجات . وبذلك أتمكن من الحصول على المجانية ، وأعفى من المصروفات فى الجامعة . على أن هذه الفكرة ، وجل لها قلبى . انها تذكرنى بقصة المجانية التى حرمت منه ، وطردت بسببها من مدرسة الزقازيق الثانوية ، ورغم حصولى على ٨٧٪ من مجموع الدرجات . لكن هناك احتمال بأن احصل على المجانية . أنا كذلك لا يرضينى غير التفوق ، والنجاح العادى لا يثير خيالى .

لكن التفوق يتطلب جهودا كبيرة ، ودراسة منتظمة . كيف يمكن توفير هذه العوامل ؟ الجهود يمكننى السيطرة عليها . ولكن الدراسة المنتظمة ، وشرح المواد المعقدة ، واستيعابها لتحقيق التفوق المرجو ، كيف يمكن الوصول اليها . هل أستعين بالمدرسين الخصوصيين؟ عملية صعبة من حيث الوقت ، والانتقال من الصحراء الى المدينة ، والأجور العالية التى لا أستطيع دفعها . كذلك كيف أتنازل عن غرامى

الجمع بين « الأستاذ والطالب » .

برقت فى ذهنى فكرة غريبة وجريئة . كان قد انقضى من العام الدراسى نحو أربعة شهور ، وبقيت أربعة شهور أخرى فحسب . ويجب العمل بسرعة قبل أن يفوت الأوان.

. . . . .

انطلقت الى قلب القاهرة . الى شاطىء النيل . حيث توجد ثكنات قصر النيل الحمراء ، التى كان يحتلها العساكر الانجليز ، والتى طليت باللون الأحمر الذى يماثل لون الجزر البريطانية فى خرائط الجغرافيا . انه يماثل كذلك الدم الذى امتصه الاستعماريون من شرايين الشعوب. كانت الثكنات قد أخليت من الانجليز ، الذين ذاهبوا الى ثكنات حول قناة السويس ، وذلك للمحافظة المظهرية على الكرامة المصرية . كأن قناة السويس ليست قطعة من جسد الوطن ! كان ذلك طبقا لمعاهدة ١٩٣٦ ، التى أبرمت بين مصر وبريطانيا .

انتقلت الى تلك الثكنات بعض ادارات الجيش المصرى . وكانت تلك الثكنات ، التى كنا نرهبها من الخارج ، خربة من الداخل . وفى ركن مطل على النيل ، احتلت ادارة من الجيش غرفتين صغيرتين ، كتب على احداهما من الخارج « ادارة التدريب العسكرى الجامعى » .

ودخلت على قائد التدريب العسكرى . وقدمت له نفسى وقلت له :

ـ أريد أن أنتقل للعمل معك فى ادارة التدريب العسكرى .

ـ لماذا ؟ . . أنت باشجاويش تملأ الدنيا نشاطا فى مدرسة ضباط الصف .

ـ « سعادتك » تعلم أننى حصلت على الثقافة .

ـ مبروك .

ـ وأنا متقدم للبكالوريا هذا العام . وأريد أن أدخل الجامعة فى العام القادم . ولست أستطيع أن أستقيل من عملى ، فأنا فى حاجة للمرتب . كذلك أريد أن أحصل على الليسانس وأنا عسكرى ؟

ـ جميل .

ـ ولأننى لا أستطيع دفع المصروفات الجامعية ، فاننى أريد أن أحصل على تفوق يمكننى من الدراسة مجانا . وهذا يتطلب أن أحصل على مجموعة درجات عالية . ووجودى فى مدرسة ضباط الصف ، فى قلب الصحراء ، لن يمكننى من ذلك . لهذا أرجو أن تقبل نقلى للعمل معك .

ـ بكل سرور . . فيما عدا أن هناك أمرا قد لا توافق عليه .

ـ ما هو يا أفندم ؟

ـ نحن نقبل أونباشية فقط ! وانت باشجاويش . ومعنى هذا أن تتنازل عن رتبتين : رتبة الباشجاويش ورتبة الشاويش . وأن ينقص مرتبك ثلاثة جنيهات كاملة . . فتحصل على خمسة جنيهات فقط بدلا من ثمانية .

وتجمع العرق على جبينى فى حبات ثقيلة سالت على جوانب وجهى ، وتسللت الى عينى . كان على أن أفكر بسرعة . . الرجل مستعد لقبولى . ولكن ما العمل فى هذه التضحية المالية؟ . . وكانت هناك تضحية أدبية أخرى ، هى أن أتنزل من عليائى كباشجاويش الى درجة دنيا ، هى درجة الأنباشى . . وبهذا يضيع السلطان والصولجان . الصولجان لا قيمة له . ولكن المرتب الذى انسكب عرقى ، وحفيت أقدامى من أجله ، وتمزقت فى سبيله ، أحذية ، بيادات ، كثيرة فى الصحراء ، فى الطوابير والمناورات . وحمدت الله أن ، عالية ، لم تخترنى زوجا لها . وشكرت لأبيها أن أعطاها لصاحب الأثنى عشر جنيها . فقد دارت بينى وبينه مناقشه غير مباشرة حول الزواج ، اتضح منها انه يفضل لابنته زوجا يتقاضى اثنى عشر جنيها ، ولا يزوجها لمن يتقاضى ثمانية جنيهات . فالفارق الان بين هذه والخمسة جنيهات التى

سبح مرتبى ، لا جدال ، كبير .

ولا حظ قائد التدريب العسكرى ترددى ، فقال لى : لا تقرر شيئا الآن ، وفكر فى الموضوع مليا . أمـــا من ناحيتنا ، فنــحن نقـبلك انباشى ، على الرحب والسعة .

ـ شكرا يا سعادة القائد . لقد فكرت وقررت : قبلت أن أعمل معـك بدرجة أنباشى ! كانت هذه هى الخطوة الأولى فى استراتيجية الخطة .. وما زالت هناك خطوات لابد أن تتبعها حتى يقوم بناء الخطة قويا متكاملا .

أسرعت الى الترام ، فركبته الى شبرا ، اكى أنفذ الخطوة التالية . انطلق الترام يضرب بعجلاته القضبان ، ويتأرجح هيكله الخشبى ذات اليمين وذات الشمال . كان هيكل الترام قد امتدت اليه أصابع الزمن ، والاستعمال المتواصل ، فبعثت بخشبه وبرت حديده ، ونحلت أسلاكه . ومع ذلك فلا تريد شركة الترام الأجنبية ان ترحمه ، او ترحم راكبيه الذين جمعت منهم أرباحا طائلة . طلبت من كمسـارى الترام أن ينبهنى اذا ما جاءت محطة التوفيقية ما أن وصلنا الى المحطة ، حتى انسابت ، زمارة الكمسارى ، ، تأمر السائق بالوقوف . ثم نادى الكمسارى بصوت فيه تنغيم شعبى لطيف . ، تفضل يا باشجاويشـــنا ، ، . . . ،

التوفيقية ، . ورددت عليه بنفس التنغيم ،متشكرين يا باش كمسرينا ! ، ضحك الرجل . اطلق زمارته بالتنغيم المألوف . دق السائق جرس الترام التقليدى بقدمه . انطلقت عربة الترام فى جلبة قوية جمعت بين صوت الخشب والحديد والزجاج والكهرباء .

دخلت مدرسة التوفيقية الثانوية بشبرا . اتجهت فى الحال نحو مكتب ناظر المدرسة . سألت الـفراش الذى يجلس على باب الغرفة قائلا :

- ، البيه ، الناظر موجود ؟

- نعم .

- أريد أن اقابله لو سمحت .

- هل اخذت موعدا سابقا .

- لا .

- هل معك ، كرت ، أو خطاب توصية ؟

- لا . لقد حضرت هكذا بطولى !

كان الفراش شابا فى العشرين من عمره ، ابيض اللون شاربه أصفر ، وعيناه خضراوان . لو كانت الوظائف ، أو الارزاق فى هذه الدنيا توزع حسب وسامة الوجه ، ما صار هذا الشاب فراشـا ، بأية حال

! هرش الفراش شاربه النحيل ، ونظر الى نظرة بـدت لى صديقه . . خيل الى انه اعجب بالشرائط الحمراء الأربعة والتاج الأصفر اللامع الذى يعلوها ! وقال لى : انتظر قليلا يا باشجاويشنا ! دخل الفراش الى الناظر ، ثم خرج بعد لحظة ليقول لى :

لقد رجوت حضرت الناظر . وسيقابلك .

دخلت غرفة الناظر . وجدته على غير ما توقعت : شابا ، وسيما ، لا تبدو عليه سيماء النظارة التقليدية . كان يتدفق حيوية ، يشع الذكاء والطموح من عينيه . تنساب عبارته مهذبة عذبة استقبلنى الرجل واقفا . شد على يدى كما يشد الصديق على يد صديقه :

- أهلا وسهلا . . تفضل اجلس .

وجلست

- أى خدمة ؟

- لى طلب لديك قد يكون غريبا بعض الشىء .

- خيرا .

وعرضت عليه الملامح العريضة لقصتى . وانتهيت الى اننى أود أن أحصل على البكالوريا بتفوق لأتمكن من دخول الجامعة مجانا .

- عظيم .

- اننى لا أستطيع أن أستقيل من الجيش لحاجتى الى المرتب . ولا أستطيع أن أبقى فى مدرسة ضباط الصف ، وأدرس لنفسى كما فعلت فى سنوات « الثقافة » ، فاننى أبغى أن أحصل على أكثر من ٧٥٪ لأواصل تعليمى العالى بالمجان .

- ماذا يمكننى أن أقدم من عون ؟

- انى أود أن أنقل من مدرسة ضباط الصف الى التدريب العسكرى. ولكن قبل أن أفعل ذلك ، وددت أن أقابلك ، لتقبل ، بعد تعيينى فى التدريب العسكرى ، أن أعمل هنا فى المدرسة التوفيقية مع العسكريين الذين يدربون الطلاب تدريبا عسكريا . وهذا الجانب العسكرى سأتولاه أنا مع المسئولين . ولكن أرجو أن تعاوننى على أن أحضر الدروس مع طلاب السنة الخامسة « شعبة الآداب » . بهذا أتمكن من أن أستمع للمدرسين ، وأحقق التفوق الذى أتطلع اليه . فكر الرجل مليا . . تابعت كلامى قبل أن ينطق الرجل بقراره ، الذى يتوقف عليه نجاح الخطة أو فشلها .

- أحب أن أقول لك أنه قيل لى أنه لن يقبل طلبك الا الأستاذ عاطف البرقوقى ناظر التوفيقية . ابتسم الناظر ابتسامة عريضة ثم قـــال :

- من قال لك هذا ؟

حاولت ذلك فى مدارس كثيرة . . ونصحنى زميل لك مدرس العلوم بالعباسية الثانوية أن ألجأ اليك . قال لى انك شاب ثائر على المدرسة الكلاسيكية فى النظارة . وانك تجمع الى الأصالة المصرية ، القيم الحضارية المتقدمة الى اكتسبتها أثناء دراستك فى الخارج . . فى عبارة واحدة ، قال لى انك انسان . وسوف تشجع انسانا مناضلا جاء اليك لتعاونه فى الوصول الى هدفه .

كان الرجل يستمع الى حديثى ، وبدا فى عينيه ، وفى ابتسامته ، أنه لا يريد أن يخيب رجائى ، بل تبدو فى نظراته حفاوة بالصورة النضالية التى يشهد احدى مراحلها ، والتى يطلب منه أن يباركها . وجاء القرار :

- أنا لا أستطيع الا أن أشجع هذا المثل الذى تضربه للشباب اننى أقبل طلبك ، فمرحبا بك .

قبل الرجل الشهم طلبى. رغم ان وزارة المعارف لا تزال تطاردنى . أنها - كما قال الناظر - تمنع الاستماع الى العلم ! اقترح أن أحضر بالملابس المدنية . وأن أتجنب دخول الفصل ، اذا كان بالمدرسة مفتشون ! وهكذا عاوننى أستاذ جليل على سرقة انسانية من نوع عجيب ، وهى

أن أسرق حقى فى التعليم من وزارة المعارف . ولا يماثل هذا العمل الجليل الا ما فعلته حينما سرقت الأذرة من مخازن الخواجة ، وأعطيتها للفلاح الجائع محمد محمود .

عدت الى مدرسة ضباط الصف ولم أضيع وقتا . قدمت الى القائد التماسا بنقلى الى التدريب العسكرى . وبعد حوار ثقيل متردد ، وافق قائد المدرسة . على انه خلال حوارى معه ، سألنى لماذا لا أتقدم الى الكلية الحربية . . كانت هناك دفعة من حملة الثقافة مطلوبة للكلية الحربية . وكانت وزارة الوفد فى الحكم . وعلى الرغم من نظرتى الى الوسية العسكرية ، الا أن رتبة الضباط ، كان لها بريق . والنجوم التى تضوى على كتفيه قد لعبت بخيالى . أليس أخو عاليه ضابطا ؟ لماذا لا أكون مثله ؟ ونسيت حينئذ جماهير العساكر .

ذهبت إلى الأميرالاى عبد الوهاب حافظ ، قائدى السابق ، فى ادارة الجيش . ودخلت عليه فى مكتبه . بادرنى بابتسامته العريضة ، وصوته الجهورى العميق .

ـ أهلا ، خليل .

ترك القائد الجليل مكتبه ، وجلس الى جوارى على أريكـة فـــاخرة . . وسألنى :

ـ كيف حالك . . ماذا عملت فى « الثقافة » ؟

ـ نجحت يا أفندم والحمد لله

ـ مبروك . . لماذا لم تنبئنا لنهنئك ؟ ما هى الخطوة التالية يا عـــم ؟

ـ أنا جئت اليك من أجل الخطوة التالية .

ـ خيرا .

ـ أريد أن أدخل الكلية الحربية !؟

فوجىء الرجل . لكنه تقبل المفاجأة ببشاشة وبجدية . . ثم حك جبهته التى بدأت ثنيات خفيفة تظهر على سطحها . ورد على قائلا :

ـ الحقيقة أنت فاجأتنى . . دائما أنت تجيد المفاجآت ! وليس مصدر المفاجأة انك غير جدير بالكلية الحربية . فعلى العكس ، أنت أكثر امتيازا ممن يدخلونها . وها أنت ترى أنهم عملوا « دفعة » خاصة ، لأولئك الذى حصلوا على الثقافة ، حتى فى الدور الثانى ، وأكبر الظن أن الأسماء التى ستقبل فى الكلية معروفة ، ومحضرة من قبل . أولاد الباشوات ، وأقاربهم ومحاسيبهم . . ومع ذلك ، فسأبذل جهدى لكى تدخل الكلية الحربية . ولو أننى كنت أود أن تدخل الجامعة ، فمستقبلك فيها .

كانت صورتى ، وأنا ضابط قد ملكت على كل حواسى . كنت أريد

أن أثبت للملأ، ولعالية بصفة خاصة ، أن وظيفة ضابط فى متناول يدى وأن أخاها الضابط ، مثلهم الأعلى ، ليست حلته ونجومه بممتنعة على رغم كونى « عسكرى » !

نهض قائدى القديم ، وتوجه الى مكتبه . وأخذ بطاقة من بطاقاته ، وكتب عليها هذه العبارة :

« عزيزى حافظ ، (الصاغ حافظ أبو الشهود ، ياور وزير الدفاع)

« أقدم لك أحد رجالى ، ورجال الجيش الأفذاذ . له طلب سيتقدم به اليك . وانى واثق انك ستحقق له أمنيته . ذلك أن الجيش سوف يعتز به ضابطا ممتازا بين صفوفه ، كما كان يفخر به ضابط صف من أبرز ضباط صفه كفاية وتفوقا » .

انه تلميذى ، كما كنت أنت تلميذى . وانى أقدمه لك ، لكى تقدمه أنت للجيش هدية ، كما قدمتك أنا هدية للجيش من قبل » . .

ولك تحياتى الصادقة .

المخلص

عبد الوهاب حافظ

تناولت البطاقة من الرجل . وقال لى ان الوزارة تصيف فى الاسكندرية . وان الصاغ حافظ أبو الشهود ياور وزير الدفاع ، يوجد فى الاسكندرية مع الوزير « حمدى سيف النصر » . ليس هناك وقت . تأخذ قطارالساعة الثانية عشرة « السريع » . ستجد العسكرى . سائق عربتى ، ينتظرك . سيوصلك الى محطة باب الحديد . أمامك نصف ساعة . العربة ستوصلك فى عشر دقائق .

وددت أن أشكر الرجل كبير القلب ، فلم أستطع ، رغم الذلاقة التى أشتهر بها لسانى . تراكمت الكلمات عليه . فلم أدر بأيها أبدأ . . وفر على الرجل الكلام ، فقال انه ليس هناك وقت للشكر . أخذنى السائق الى المحطة . أسرعت الى القطار ، الذى مرق ينهب الأرض ، وكأنه يستبق الزمن .

وقف القطار فى محطة سيدى جابر بالاسكندرية . هبطت من القطار ، والأمانى تحثنى أن أسرع الى مبنى الوزارة « ببولكلى » . رأيت حركة غير عادية فى المحطة . . بائعو الصحف يهرولون يمينا ويسار ، ليوزعوا صحف المساء . . انني أسمع صيحات هسترية . . اقالة الوزارة !! اقالة الوزارة !! الملك يقيل النحاس باشا ! وتوقفت أراجع سمعى . فاذا الأصوات تؤكد من جديد . اقالة الوزارة . سقوط الحكومة

. . تشكيل الوزارة الجديدة . اشتريت نسخة من البائع ، فاذا العنوان عريض بالبنط الكبير وباللون الأحمر القانى « اقالة حكومة الوفد » .

تدلى ذراعى بالجريدة ، وتدلت معه الأمانى ، لترتطم بالأرض ، ولتذروها الرياح ، ولتصير هباء !

استيقظت مع الصوت الذى أحدثه ارتطام الأمانى بالأرض ! ويدور فى ذهنى ما يدور فى أذهان الناس عادة فى مثل هذه المواقف : هل هناك رابطة بين الأحداث التى مرت بى فى حياتى ؟ هل أنا سيىء الحظ ؟ أو أن القدر يترصد لى . هل هناك قدر ؟ . . واذا كان هناك قدر ، فلماذا يمعن فى تسليط قوى الشر فقط على الناس ؟

ومن الطبيعى أن يعقب ذلك أن تخفف النفس الانسانية من الكوارث التى تحيق بها ، فاذا بى ألجأ الى تفسيرات عجيبة :

ان وظيفة ضابط لا تروقنى !! . . أرأيت ماذا قال الأميرالاى عبد الوهاب حافظ عن الجامعة ؟ ان الجامعة فيها مجال أكبر ، لمن يريد أن ينهل من المعرفة . ولمن يريد أن يستخدم هذه المعرفة فى اسعاد بنى الانسان . . ماذا يفعل الضباط ، ألا يهتفون للملك كل يوم ، ويضعونه قبل الوطن فى شعارهم ؟

أليسوا حراس الوسية الكبرى ، التى تئن تحت مظالمها الملايين من

زملائك المواطنين ؟ عد فورا الى القاهرة . هناك قطار سيغادر المحطة بعد عشرين دقيقة . . وعدت الى القاهرة .

تنازلت عن درجة الباشجاويش . على الرغم من حماستى للدراسة ، فقد كان منظر الشريطين يطيران من على ذراعى ، ويطير معهما « المجد » الذى كانت رتبة الباشجاويش تخلعه على ، قد عز على كثيرا . على أن الذى فقدته حقيقة كان الجنيهات الثلاثة . التى اقتطعت من عيشى وعيش أسرتى . ولهذا كان الألم الذى سببته لى هذه الجنيهات الثلاثة أقسى بكثير من ألم « المجد » . ففى مجتمع الوسية يستوى العسكرى والباشجاويش .

عيننى قائد التدريب « أنباشيا » معلما للتدريب العسكرى فى مدرسة التوفيقية الثانوية .

فى اليوم التالى كنت أجلس مع طلبة السنة الخامسة « شعبة الاداب » أستمع لدروس الفلسفة ، والمنطق ، وعلم النفس ، وهى مواد جديدة على .

٤٩

كان للجلوس مع طلاب التوجيهية فى الفصل ، والاستمتاع الى

المدرسين يشرحون الدروس ، نكهة خاصة . لا يستطيع أن يتذوق حلاوتها الا من حرم منها . لا ينتشى بمذاقها الا من انتزاعته وزارة المعارف ومدرسة الزقازيق الثانوية من هذا الجو الحبيب . وأبتا عليه أمنية كانت كل أمانيه . كان قد مضى على حرمانى من هذه المتعة نيفا وعشر سنين . حقيقة اننى بدأت دراستى فى الجيش . لكننى لم يضمنى والتلاميذ فصل واحد . لم أشعر بشعور التلمذة الحقيقى ، وتلقى العلم بانتظام ، وفى المدرسة ، وعلى يد أساتذة . تلك الأمور التى حرمت منها صبيا ، هأنذا يتاح لى أن أعيشها شابا عسكريا !

كان هنا فارق فى العمر بينى وبين التلاميذ ، يبلغ نحو سبع سنوات ، عشتها فى مزرعة الخواجة وفى الجيش. ولكننى لم أستشعر هذا الفارق . بل ان ماكنت آتيه من حركات ، وما أطلقه من ضحكات ، كانت تذوب معها هذه السنين السبع .

* * * *

مضت بى الحياة فى التوفيقية الثانوية فى الأشهر الثلاثة السابقة على امتحان البكالوريا رضيه غنية . أستمع للدروس فى شغف فى الصباح وبعد الظهيرة . وألتهمها التهاما فى المساء الى أن ينبلج الفجر . وعشت عيشة التلميذ كاملة ، بكل ما فيها من نشاط ، وبراءة ، وانطـــلاق .

توطت علاقة قوية بينى وبين زعماء الطلبة . كان الشعور الوطنى تصاعد فى تلك الفترة ، ضد الانجليز ، سادة الوسبة الكبيرة ، حماتها الأجانب ، والمشتركون فى ملكيتها وادراتها والاستمتاع خيراتها . دعانى الطلبة للخطابة والاشتراك فى الحركة الطلابية التى تريد أن تعبر عن نفسها فى شوارع المدينة لتوقظ الرأى العام . ولتسهم مع التجمعات الشعبية فى الثورة على الاحتلال الأجنبى . وعلى الطبقة التى تكتم أنفاس الشعب ، وتعوقه عن التقدم. اندمجت فى هذه الحركة بكل ما أوتيت من قوة . وبكل ما تجمع فى وجدانى من عذاب . زاد هياج الطلبة ، وتدافعوا الى الشوارع ، يهتفون لمصر ولشعبها ، وينذرون المغتصبين لحريتها وخيراتها ، أجانب أم غير أجانب .

دهش الناظر اذ وجدنى أندمج فى حركة الطلاب الوطنية هذا الاندماج . . استدعانى ليسألنى :

ـ لماذا تخطب فى الطلاب ، وتحثهم على التظاهر ؟

ـ أليست هذه حركة وطنية ضد الانجليز ، وقوى الطغيان ؟

ـ نعم .

ـ انك وطنى كبير ، ونحن ننفذ ما يجول فى خاطرك من ثورة على الانجليز .

ـ أنا أتفق مع الطلاب فى ثورتهم على الانجليز . لكن الانقطاع عن الدروس ليس وسيلة لكسب المعركة ضدهم . ان الحركة الوطنية لابد لها من تنظيم . ويجب أن يعد الطلاب أنفسهم ، عن طريق العلم ، للنضال ضد المستعمر .

لكن دور الطلاب هو أن يثيروا الوعى العام . ودون هذه الاثارة قد ينام الناس . هذا هو دورهم المؤقت على الأقل الى أن يتم التنظيم الذى تعنيه .

ـ دعنى احدثك فى صراحة : انت مركزك دقيق بين الطلاب . ويبدو أنك نسيت أنك لست تلميذا حقيقة . وانك أنباشى فى الجيش . واسهامك فى هذه الحركات قد يكون ضارا بمستقبلك . ثم هو ليس حاسما فى موضوع طرد الانجليز .

ـ أنا لا أستطيع أن أشهد هذه الحماسة الوطنية ، دون أن تتحرك مشاعرى ، وأسهم فيها .

ـ كلنا وطنيون ، وكلنا مثارون . ولكننا لنا وظائف . والدولة تطالبنا بأن نحافظ على النظام بين الطلبة ، لا أن نسهم فى تأجيج ثورتهم كما تفعل أنت .

سكت لحظة أردف بها :

ـ وأحب أن تعلم أننى كنت أتوقع منك ، بحكم عملك ، أن تعاوننا

على استقرار النظام ، وأن تقف فى صفنا ، لا أن تندمج فى صفوف التلاميذ . . واذا كنت حقيقة تريد أن ترد لى جميلا قلت أننى أسديته اليك ، أرجو أن تعاوننا على أن يهدأ الطلبة ، وأن ينصرفوا الى دروسهم .

ـ ان جميلك لن أنساه ما حييت . وأتمنى أن أرده لك فى يوم من الأيام . لكننى ، وأنت أستاذى فى الوطنية والعلم ، لا أستطيع أن أسهم فى تهدئة الطلبة . فالهدف الذى يسعون اليه هو تحرير الوطن . ويجب ألا يهدأوا حتى يتحقق هذا الهدف المقدس .

ـ لقد جئت الى هنا لكى تستمع الى المدرسين يشرحون الدروس ، ولتحصل على درجات عالية ، فكيف لا تسهم فى انتظام الدروس التى ستفيد منها ؟

ـ اننى لا أستطيع أن أسهم فى أن يهدأ الطلاب فى نضالهم ضد الاستعمار والمستعمرين . فالعلم فى وطن ذليل لا قيمة له . ودور الطلاب أساسى فى ايقاظ الجماهير . واذا ما استيقظت الجماهير ، فاننى أتفق معك فى انه لابد للمعركة من تنظيم ، تقوده قيادة واعية مخـلصة .

ـ يبدو أنك عنيد . . وأنا ما كنت أتوقع ذلك منك . وعلى أية حال ، اذا كنت لاتريد أن تشترك فى التهدئة ، فلا تسهم فى الاثارة على

الأقل . فأنت رجل عسكرى ، تحتاج لوظيفتك ومرتبك .

ـ أعد بذلك : لن أسهم فى الاثارة ، ولن أشترك فى التهدئة .

وجاء امتحان البكالوريا :

الأسئلة جميلة ، والمواد أجمل منها . . والأساتذة الذين درسوها لنا أسهموا فى صقل ذلك الجمال . كان « التاريخ » يدرسه لنا أستاذ أديب ، بارع الأسلوب ، رشيق العبارة ، حلو الصوت ، وسيم المنظر ، هو الأستاذ « محمود الخفيف » لقد تثقفت على يديه قبل ذلك ـ دون أن أراه ـ حينما كنت أقرأ مقالاته الأدبية الرائعة فى مجلة الرسالة . كان يدرس لنا « تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر » . أثارنا كما أثارت الثورة الفرنسية الجماهير فى كل مكان فى العالم . وقد عرض علينا صورا من الثورات الأوربية ، وحركات التوحيد والتحرير فى ايطاليا وألمانيا والبلقان . وبهذا أشعل خيالنا وألهب حواسنا ، فى وقت كانت فيه عواطفنا نارا على المستعمرين .

وكانت « الفلسفة » توسع مداركنا ، فنحاول فهم الكون الذى نعيش فيه . وكان المنطق ينظم أفكارنا . أما الجغرافيا فكانت على صعوبتها غنية ، غنى المعرفة التى يملكها الأستاذ الممتاز الذى كان يدرسها لنا ، ويحببنا فيها . وبدأنا نعرف صورا كثيرة من الأدب الانجليزى . وأخذت أقارن فى دروس « الفرنسية » بين صور البؤس يعرضها

علينا « فيكتور هيجو » بأسلوبه الأخاذ ، وبين ملامح البؤس الذى شهدته عيناى ، وتعرضت له مع الفلاحين ، فى مجتمع الوسية . ان قسمات البؤس فى بلادنا أكثر قبحا وبشاعة ، لولا أن هيجو رسم بقلمه صورة فنية جعلت بؤس الفرنسيين يبدو أكثر قسوة ، وأشد ضراوة . ليت هيجو جاء لمصر ليرى ما نرى ويعانى ما نعانى .

حاولت أن ترقى اجابتى الى جمال المواد وجمال الأسئله . . وانتهى الامتحان . كأنه رحلة ذهنية ممتعة . ظهرت نتيجة البكالوريا . تحقق الهدف . حصلت على ٨٣٪ من مجموع الدرجات . كنت الرابع فى مصر كلها ! وكنت الأول فى مدرسة التوفيقية الثانوية !

وبدأ الطريق الى الجامعة تحف به الورود خالصة ، فقد اجتزت بتفوقى فى التوجيهية ، ما كان فى الطريق من أشواك . .

٥٠

اشتد اغراء الاسكندرية لى بعد أن أمرت بمغادرتها قسرا بواسطة رئيس أركان حرب الجبيش ، بعد نصف يوم من وصولى اليها ، دون أن أروى ظمئى من بحرها وغيدها وهواها . وزاد من اغرائها لى أن التدريب العسكرى نظم فيها معسكرا صيفيا لتدريب طلاب الجامعة ، واختير له شاطىء سيدى بشر .

قدمت طلبا لنقلى الى التدريب العسكرى بجامعة الاسكندرية .
وألحقت للعمل فى تدريب طلاب كلية الحقوق ، التى اخترتها لدراستى الجامعية .

* * * *

سبتمبر ١٩٤٥ . . .

كان أول يوم لى فى الجامعة يوما حلفلا ومثيرا . فى الصباح الباكر اشتركت فى تعليم الطلبة فى طابور التدريب العسكرى . وفى الساعة التاسعة كنت أجلس معهم فى قاعة المحاضرات : قاعة فسيحة تتدرج مقاعدها الى أعلى كلما ابتعدت عن المنصة التى يجلس عليها الأستاذ المحاضر . الطلبة يبدو عليهم النضوج والجد . كان بعضهم يحمل محفظة أوراق ، توحى بأنهم أصبحوا طلابا فى الجامعة . وجاء المحاضر يرفل فى روبه الجامعى الأنيق ، ذى اللونين الأسود والأزرق الفاتح المخصص لأساتذة جامعة الاسكندرية . وجلس على المنصة تحوطه هالة من جلال العلم ، ووقار الأستاذية . كان هو يضيف اليهما بعض المظاهر المقبولة . فينسق الروب الذى يرتديه بين آونة وأخرى .
وبدأ الأستاذ محاضرتة . وأنصت الطلبة ، وكأن على رؤسهم الطير .
استمتعت بمادة المحاضرة ، بقدر ما أخذت بالجامعة ، وبالجدية التى سادت الطلاب .

وعندما انتهت المحاضرة ، التف الطلاب حولى :

ـ لماذا أتيت الى المدرج يا شاويشنا : هذه محاضرة فى القانون ، ليست فى التدريب العسكرى !

ـ هل لديكم مانع ؟

ـ اطلاقا . . لكننا نرى شاويشا يستمع للمحاضرة معنا لأول مرة .

ـ نحن زملاء !

ـ غير معقول . . كيف نكون زملاء ، وأنت معلمنا فى التدريب العسكرى .

ـ هذا فى الصباح فحسب . . لانى فى الصبح شاويش ، وبعد الساعة التاسعة تلميذ !

ـ أفصح بعض الشيء .

ـ حصلت على التوجيهية فى العام الماضى ، وأنا فى الجيش ، ثم دخلت كلية الحقوق .

وأخذت القصة تنتشر بسرعة بين الطلاب .

كنت قد تقدمت بأوراقى الى ادارة الكلية ، طالبا المجانية .

وكنت واثقا من حصولى عليها فقد نلت ٨٣٪ من مجموع الدرجات ، وأنا أنباشى فى الجيش ، أتقاضى خمسة جنيهات مرتبا ، أعول بها ثمانية أفراد . فشروط الاعفاء من المصروفات متوفرة . قابلت

« مسجل الكلية ». وشرحت له الموقف . فقال لى ان لك حقا واضحا فى المجانية . قد يعطيك اعفاء كاملا أو اعفاء جزئيا . اقترح على أن أقابل العميد ، وجل قلبى لفكرة الاعفاء الجزئى من المصروفات . فقد منحت نصف مجانية فى مدرسة الزقازيق ، ولم تجدنى نفعا فى ذلك الوقت .

قابلت عميد الكلية . كان رجلا قصير القامة ، ممتلىء الجسم ، مستدير الوجه ، تعلو النظارات عينيه الواسعتين ، اللتين تشعان ذكاء وعلما . قابلنى العميد مقابلة محافظة . ثم استمع الى قصتى وبدا عليه بعض الاهتمام . أنهيت حديثى ، بأننى حصلت على ٨٣٪ من المجموع . والكلية تطلب ٧٥٪ لمنح المجانية . وأجابنى العميد : نحن نشترط الى جانب التفوق ، العجز عن دفع المصروفات .

- كأن التفوق وحده لا يكفى ؟
- لا يكفى .
- لكن العجز عن دفع المصروفات واضح فى حالتى .
- كيف ؟!
- أنا أنباشى فى التدريب العسكرى ، ومرتبى خمسة جنيهات ، اتفق بها على نفسى وعلى أسرتى المكونة من ثمانية أفراد .
- هذا هو المطلوب ، عليك أن تحضر لنا شهادة فقر !

نطق الرجل بالكلمة ، وكأنه لا يحس وقعها على نفسى ، وكأنه لا يعى أن كلمة فقر مذلة وجارحة ، وتحط من شأن الأفراد والمجتمعات والأوطان .

- هل يتحتم على أن أقدم للدولة ، أو للكلية ، شهادة فقر ، لأستطيع أن أتعلم ، حتى ولو كنت متفوقا تفوقا واضحا ، وترتيبى الرابع فى القطر ؟
- يتحتم ذلك . ولا داعى للفلسفة ! هل تريد الحصول على المجانية أم تريد تتفلسف ؟
- أريد المجانية .
- اذن تحضر شهادة فقر ، وترفقها بالأوراق .
- شكرا يا « سعادة ! » العميد .

عاوننى شاويش زميل على الحصول على شهادة « الفقر » من أحد مشايخ الحارات. قدمت الأوراق الى عميد الكلية . ثم اجتمع مجلس لكلية ، وقرر بعد أن استعرض مؤهلاتى من الفقر والتفوق منحى المجانية . وكان مجلس الكلية أكثر عدلا ، و « تقدمية » من وزارة المعارف عام ١٩٣٣ ، حيث عرضت عليها نفس المؤهلات ، فمنحتنى نصف مجانية ، لا تغنى ولا تنقذ من جهل !

لقد أصرت الكلية أن تصمنى بالفقر فى وثيقة رسمية ! اذ لم تكتف بالفقر واضحا أحمله على كتفى . وألبسه على جسدى . وأعلق دليله على ذراعى : شريطين أسودين هما علامة الأنباشى فى التدريب العسكرى ! ذلك أن التدريب العسكرى ، لم يكتف بأن أهبط من رتبة باشجاويش الى رتبة أنباشى دفعة واحدة فحسب ، بل أحال لون الشرائط الحمراء الى لون أسود داكن ، وكأننى ألبس الحداد على رتبة الباشجاويش !

كانت الكلية متسقة تماما مع دورها فى مجتمع الوسية . فقد أخلصت لمهمتها كممثلة للوسية العلمية . أجبرت الطلاب على شهر الفقر فى وثيقة رسمية . تماما كما تشهر ملكية المالكين فى الشهر العقارى . وهو احدى المواد التى تدرس بالكلية . كأنها شاءت أن تخلع على الفقر لمسة علمية . بل انها اعتنت بالفقر عناية خاصة . فجعلت شهره ، واعلانه ، على مراحل ثلاث : الأولى لدى شيخ الحارة ، والثانية عند مأمور القسم ، والثالثة أمام مجلس الكلية !

اقترح الزملاء الشاويشية أن أسكن فى غرفة السلاح المخصصة للتدريب بالكلية تخفيفا لأعبائى . أعدوا لى سريرا ، لوحا من الخشب ، وضع على قوائم حديدية . فرشت عليه بطانية ، خصصت بطانية

أخرى للغطاء . لكن الغرفة كانت مقبضة . كانت البنادق التى يتدرب عليها الطلبة تشغل الجزء الأكبر من الحجرة ، ولا تترك الا ركنا صغيرا وضع فيه السرير . كان خشب البنادق ، وحديدها ، والشحم والزيت اللذان يغطيانها ، تكتم أنفاسى . ولم يكن بالحجرة نوافذ . كانت مقفلة تماما للمحافظة على البنادق . لهذا كانت مظلمة ليلا ونهارا ، حيث تضاء دائما بلمبة كهربية .

على الرغم من اعترافى بجميل زملائى الشاويشية بتوفير هذا المسكن المجانى لى ، الا ان المنحة لم تكن خالصة : فطالما أننى أبيت فى غرفة السلاح ، اذن على أن أحرس السلاح ! ولا ضرورة اذن أن يتبقى شاويش من الزملاء بالتناوب لحراسة السلاح ليلا . بذلك تحرروا من هذا العمل المضنى ، وأصبحوا يبيتون فى بيوتهم . وتقبلت المنحة بخيرها وشرها .

أثناء تجوالى فى الكلية ، وجدت غرفة صغيرة خالية بجوار المسرح الذى يباشر الطلبة عليه نشاطهم الفنى . كانت الغرفة صغيرة أنيقة . وكان فيها حوض وصنبور مياه يهيىء للانسان أن يغسل وجهه بدلا من المشوار الطويل الذى كنت أقطعه بين غرفة السلاح ودورات المياه . وكانت لها نافذة واسعة تطل على منظر رائع مهيب !

كانت الحِجرة تطل على مقابر الخواجات ! اعوذ بالله .

« الخواجات امامى فى الدنيا والآخره » كانت المقابر مصنوعه من الرخام الفاخر الذى يعكس فى هدوء أشعة الشمس . وكانت الزهور اليانعة تحوط المقابر التى نسقت وسط حديقة غناء . باقات الزهور النادرة التى زينت بها المقابر ، تتدلى من جوانبها اشرطة حريرية فاخرة ، تحيل المكان الى ما يشبه « جنات عدن » ! يبدو أن أقارب الاموات قد تخيلوا الفردوس هكذا من الصور التى رسمتها لهم كتب الانجيل والتوارة والزبور .

على الرغم من أننى كنت أبحث عن غرفة اوى اليها ، لتنقذنى من غرفة السلاح ، التى تشبه قبرا مظلما مقبضا ، الا إن ذلك لم يل دون ان تقفز الى ذهنى صورة المقابر فى قريتى ! أنا لا أقصد « المقابر » التى يسكنها الأحياء هناك ، فهذه قصتها معروفة . ولكننى أقصد مقابر الأموات . انها مبنية من الطين الذى هدمته الرياح ، وشققته الشمس ، وعبثت به أصابع الزمن . بل ان الطبيعة أرادت أن تزين القبور الفقيرة فأنبتت فى جنباتها ، وفى الطريق اليها ، « أشواكا وحلفاء » . كانت تخترق أقدامنا العارية عندما كنا نذهب لزيارة موتانا . طردت هذه الصورة من ذهنى، قائلا لنفسى : عالج

تشردك أولا ، ثم بعد ذلك فكر فى هذه الصور !

فى اليوم التالى ، شكوت للشاويش صابر صديقى ، أن غرفة السلاح تثقل على صدرى ، ولا أستطيع المذاكرة فيها . ثم وصفت له الحجرة الأنيقة بجوار المسرح . رد الشاويش صابر:

ـ لكن ليست هذه حجرتنا .

ـ اننى اصبحت صديقا للفراشين ، فهل أكلمهم فى الموضوع ؟

هرش صابر فى شاربه ، الذى شاب رغم انه لا زال فى مقتبل العمر . ثم قال :

ـ لدى فكرة أحسن : أن ننقل سريرك الى هذه الحجرة دون أن نقول لأحد . ذلك لاننا لو كلمنا الفراش ، فسوف يستأذن رئيس الفراشين ، وهذا سوف يتحدث مع المعاون ، الذى سوف يعرض الأمر على المسجل . وهذا بدوره لن يبرم فى الأمر دون أن يناقش الموضوع مع العميد !

ـ أنا أعرف اجابة العميد !

ـ هل سيقبل ؟

ـ لا . . سيطلب منى شهادة فقر ! ثم يعرض الأمر على مجلس الكلية !

ـ اذن ، سياسة الأمر الواقع أكثر فعالية . . تحتل الحجرة ، ويصبح من الصعب اخراجك منها . . وحتى تصعب عملية طردك منها ، سأضع فيها منضدة مكتب ، نتظاهر باستخدامه فى الأعمال الكتابية الخاصة بالتدريب العسكرى . . ويمكنك أن تذاكر عليه .

ونقل صابر السرير الخشبى ، ومنضدة المكتب الى الحجرة . استلقيت على سريرى ، الذى استطيع ان ارى منه « الروضه » التى يحتلها الخواجات الاموات . انهم لا يقنعون بأن يسودوا مجتمع الوسية فى هذه الدنيا ، بل يصرون على ان يجعلوا من الآخرة مجتمع وسية خالد !

قضيت فى غرفة المسرح أجمل أوقات وجودى فى كلية الحقوق فمنها كنت أرى البحر من وراء المقابر الفيحاء . وفيها كنت أدرس ليلا ونهارا دون كلل فى دراسة منتظمة تماما . كان العمل مريحا. طابور يستغرق ساعة فى الصباح قبل المحاضرات . ومحاضرات حتى الظهيرة ، ثم مذاكرة من العصر الى منتصف الليل .

كان يخدمنى فى هذه الحجرة « سيد » الفراش . كان قصيرا لا تعلو قامته عن المتر الا قليلا . وكان نحيلا ، ذا وجه حلو الملامح ، لولا شحوب مصدره سؤ التغذية . يرتدى بدلة وطربوشا . له دراجة . كان

سيد يشترى لى الطعام من المدينة . الفطار فى الصباح هو الفول . . ذكرنى سيد والفول بالخلد ، وبرسول الخلد وبزميل الخلد . لكن الخلد يبدو انه لا يستقيم لانسان فرد ! . حاولت أن أعد طبق الخلد ، أى طبق الفول ، بالطريقة التى يعدها به صاحبى . لكن هيهات . ليس هذا مذاق الخلد . . يبدو أن الخلد الذى كنت التهمة مع صاحبى ، قد اتينا عليه جميعا ، فهو لن يعود .

رأيت سيد يرعش البرد أوصاله . أعطيت له حلة عسكرية ليلبسها ، طلبت منه ان يعيدها لى بعد سنة أو سنتين لا سلمها كهنة للتدريب العسمكرى . . . ذهب سيد بالهدية الى أهله جذلا .

لا أدرى لماذا ذكرنى سيد « بمحمد محمود » الفلاح بمزرعة الخواجة اليونانى . ايكون ذلك لشدة الشبه بينهما فقد كان سيد قصيرا نحيلا مثله . ام يكون ذلك لأن تصرفى معهما كان واحدا : « سرقت » الذرة لمحمد محمود من مخزن الخواجه ، لكى ينقذ نفسه وبناته من عضات الجوع ، و « سرقت » كذلك « بدلة » التدريب العسكرى ، وأعطيتها لسيد ، لكى يحمى نفسه من عضات البرد . أو بتعبير اخر لقد « سرقت » له حق استخدامها ، بدلا من أن استخدمها أنا !؟

جاءنى سيد فى اليوم التالى فرحا يطفر مسرورا :

ـ صباح الأنوار والسعادة يا أفندى !

- يا سلام !انوار وسعادة معا .

- ونهارك لبن كذلك .

- ما الحكاية ؟

- انا رقيت .

- رئيسا للفراشين ؟

- لا ، لم يبلغ طموحى هذا المبلغ .

- لماذا ؟

- هذا المنصب للمحظوظين ، والمقربين ، وليس لنا .

- مقربين من من ؟

- من الادارة .

استدرك الرجل فى الحال : دعنا فى حالنا . ولا تجعلنى ادخل فى موضوع يضيع الفرحة على .

- طيب . حدثنى عن ترقيتك .

- لقد منحت علاوة .

- مبروك ، علاوة كبيرة ؟

- جاءتنى علاوة نصف قرش ! !

فوجئت بعبارته . لكننى وددت أن اشترك معه فى فرحته

فقلت :

- عال : ان شاء الله المرة القادمة تأخذ القوش كله ! ألديك اولاد ياسيد ؟

- عندى سبعة ، وابى ، وامى ، وامرأتى . كذلك اختى : طردها زوجها ، فتقيم معى هى واولادها الثلاثة !

- يعنى اسرتك مكونة من خمسة عشر فردا .

- والله لا اعرف كم عددهم !

- وما هو أجرك ؟

- مائة وخمسون قرشا فى الشهر ، يخصمون منها الدمغة ؟!

- يعنى خمسة قروش فى اليوم ؟

- نعم . لكن بعد العلاوة ستصبح خمسة قروش ونصف !

ثم قلب سيد يده وقبلها ، وتطلع الى السماء وقال : رضا !

مرت بخاطرى فكرة زعامة صاحبى ، رفيق الخلد ، للبؤس . انه يطعم عشرين بستة جنيهات فى الشهر . وسيد يطعم خمسة عشر بمائة وخمسين قرشا . وكأن الفرد يأكل ويلبس ويسكن ويلهو ! بعشرة قروش خلال ثلاثين يوما ، أى أن الفرد ينفق على هذه الأمور جميعها وعلى غيرها ثلاثة مليمات فى اليوم . اننى سوف أخلع زعامة البؤس على « سيد » دون أن أستشير صاحبى !

دار بخلدى خاطر آخر : اننى أعطى « سيد » قرشا كاملا كل يوم تقريبا ، رغم انه يحضر لى الأكل فحسب . والدولة تعـطيه نصف قرش ، بعد خدمة خمسة عشر عاما . قضاها ينظف لها كليتها الجامعية التى تنشر العلم والتقدم فى البلاد . أيتابعنى مجتمع الوسية حتى هنا فى الجامعة ، وفى الاسكندرية ؟ لقد تركته فى عزبة الخواجة ، وفى القرية ، وفى كفر صقر ، وفى الزقازيق ، وفى القاهرة ، فلماذا يصر على اللحاق بى فى هذا الميدان الذى رسمت لـه صورة رائعة فى خيالى . لك الله يا « سيد » ، لماذا سموك « سيدا » ، ومن هم أولئك الذين تسود ؟

٥١

كانت العلوم لذيذة لأول وهلة : « المدخل الى القانون » مدرسه أستاذ شاب رقيق ، مرهف تكاد النسمة تجرح خدية ! فقد جاء لتوه من باريس ، حيث طبعته الثقافة الفرنسية بطابعها الخاص . وتركت الحياة الفرنسية ملامحها على وجهه ، وفى طريقة تعبيره ، وعلى الموسيقى الحانية التى تلون صوته . كان وسيما ، دقيق التكوين ، يلبس الروب الجامعى ، الذى أراده أن يخلع عليه مظهر العلماء ، فاذا بالروب

الحريرى يضيف رقة جديدة الى رقته . ويسهم فى جمال مظهره ، وأناقته ، أكثر مما يسهم فى جلاله العلمى !

لامراء أن أستاذ « مدخل القانون » كان على مستوى علمى عال . كنت أهوى الاستماع اليه ، فهو يعرض العلم الغزير بصوت خفيض عذب . وبقدر الرقة التى كانت تنساب من صوته فى المحاضرات ، بقدر ما كان عصبيا ، مرهف الحس ، تضطرب أعصابه لأية همسة . لقد كان فى فرنسا ، والسلوك الرفيع الذى اكتسبه هناك ، أو الذى تطور مع دراسته للدكتوراه ، كان السلوك الوحيد الذى يتوقعه من أى انسان . وكان ، وهو يدرس فى فرنسا ، ينظر الى أساتذته نظرة اجلال واكبار ، ويعاملهم بأسبوب مهذب ، ويستمع اليهم ، وقد حبس أنفاسه طوال المحاضرة ، حتى لا تقاطع أنفاسه الأستاذ وهو يحاضر ! وكان يتوقع، وقد عاد الى بلده ، يحمل أرفع الألقاب العلمية ، ولا يزال شابا يتراءى له المستقبل مليئا بالورود والرياحين ، كان يتوقع أن يستمع له تلامذته بنفس الطريقة التى كان يستمع بها الى أساتذته ، وأن يقبلوا على العلم اقباله عليه . وكأنه نسى انه أتى الى مصر !

كان الطلاب فى الأسابيع الأولى من بدء الدراسة قد تقمصوا شخصية الرجال . ينفخ الشعور بالانتماء الى الجامعة فى أرواحهم ،

فسلكوا فى المحاضرات سلوك الكبار ، وأقبلوا على الأساتذة ، واستمعوا اليهم بكل جوارحهم . لكن ما أن انقشع الجلال الذى كانوا يتمثلونه فى الجامعة . وزالت البهرة الأولى لانتمائهم اليها ، حتى اخذت انماط السلوك المتخلفة تعود اليهم . ذلك أن تلك الأنماط من السلوك ، والاستخفاف ، وانعدام المسئولية ، كانت رابضة فى شعورهم أولا . اكتسبوها من القيم ، التى تسود المجتمع الذى يعيشون فيه : فى المنزل والمدرسة ، والاماكن العامة ، وفى الشوارع والحوارى ، بل من تنظيم المجتمع نفسه .

الحق ، أن استاذنا الشاب كان يأتى بحركات ، لاشك أسهمت فيما آلت اليه الأمور . كان يلون صوته بألوان كنت استمتع بها . لكنها كانت مبالغا فيها بعض الشيء . كان صوته رقيقا موسيقيا . كيف يمكن أن يصل الصوت الرقيق الموسيقى الى آذان أخذت على قرع الطبول ! كان ينطق بالعبارة على « طبقات » يعلو ببعض المقاطع ، ثم يهمس ببعضها الآخر . زاد الطين بلة أنه كان يحشو عبارته بجمل فرنسية ، يفسر بها المصطلحات القانونية . كان الطلاب لا يفهمون منها حرفا واحدا.

وبدأ الهمس . كانت الهمسة تجرح مشاعره . و « تنرفز » أعصابه . أصيب بخيبة أمل . شوهت الصورة الحلوة التى كان يرسمها العلم

والشباب امام عينيه . كان انعكاس الهمس على سلوكه ، مثيرا للطلاب . فكان يتوقف فجأة ، رافعا رأسه الى أعلى . ثم يركز عينيه علـى الطلاب . ويظهر الامتعاض على وجهه . كان ذلك كله مصدر تسليه للطلاب . ثم جاءت جملة ، استخدم الاستاذ فيها كل فنونه فى الالقاء : الموسيقى العالية والهامسه ، الرقيقة والصاخبة ، المتقطعة والمنسابه . ثم انهاها بعبارة فرنسية طويلة . لم يستطيع « التلاميذ » معها الا أن ينقلب همسهم ضحكا ، وضحكهم الى قهقهه عالية . أسهمت أنا من غير وعى فى القهقهه . كان الاداء جميلا حقا ، يسعد ، ويمتع ، ويضحك، !

بلغت الأزمة بالاستاذ منتهاها . فاذا به ينتصب واقفا . واذا بالضحك ينحسر . واذا بهذا الانسان المرهف الحسى يخاطب الطلاب ، بطريقة مختلفة . فقد الرقة المكتسبة . عادت له تلك النغمة الجافة التى عاشت معه نيفا وعشرين عاما ، قبل أن يرتحل الى فرنسا .

وقذف فى وجه الطلاب بالعبارة التالية :

« ان قومـا بهذه الاخلاق المنحطة غير جديرين بالجامعة »

تصاعد الموقف الى ذروته . تراكم غضب الطلبة تراكما تجمع فيه كل ما فيهم من صغار واستخفاف وثورة ساذجة للكرامة . زاد صراخهم

وهياجهم . اختلطت الاصوات والصيحات . انقلب المدرج الى فوضى . انسحب الاستاذ . اصر على عدم القاء محاضرات الا اذا اعتذر الطلاب جميعا فى اجتماع خاص .

أما استاذ « الشريعة الاسلامية » فقد كان جليلا جلال المادة التى يدرسها . لا مراء فى أن الرجل كان على علم . وكان يتميز باسلوب انيق ، وعبارة جزلة . وهو اذ يطعم الاسلوب والعبارة ، بأى من الذكر الحكيم ، وبنماذج من الاحاديث الشريفه . يمكن للمرد أن يتصور تأثيره كمحاضر على الطلاب .

كان مظهر الرجل أكثر أناقة من أسلوبه وعبارته . كان وجهه مستديرا ، أبيض اللون ، مقبول القسمات . وكان حليق الذقن والشارب جميعا ! لكنه لم يكن يستمد أناقته من وسامته ، بقدر ما كان يستمدها من ملابسه . فالعمامه البيضاء الناصعة تزين رأسه ، وشراريب العمة ، التى فتلت بدقة ، جعلت العمة أشبه بالتاج الذى يلبسه الملوك ! وكان أروع من عمته ، الجبب والقفاطين التى يرتديها . فهو يرتدى جـــبة « فسدقية » اللون بينما كانت جبته بالأمس برتقالية ، وهى فى اليوم التالى بنفسجية ! كان يفاجئناكل يوم بلون جديد . وكان مغرما بالألوان الفريدة ، كالزيتى والطحينى « والكريم » وغيرها . . لم تكن تلك الجبب

الفاخرة المتعددة الألوان ، تنم عن ذوق مبتذل ، بل على العكس ، كان هناك تكامل « أو تناقض » لونى بين الجبب والقفاطين ، فخطوط القفاطين الشاهى الحريرية تتكامل ، أو تتواءم ، أو تكون تعارضا فنيا جميلا مع ألوان الجبب . كان حزامه الحريرى كذلك قطعة متسقة مع اللوحة الحية .

الى جانب المادة الأصيلة التى كان يدرسها ، وتمكنه منها ، وعرضه لها بعبارة جزلة رشيقة . والى جانب أناقته الشخصية ، كان حلو النكته ، حاضر البديهة . يلون محاضرته بصور مشوقة ، وأمثلة مثيرة . وكان ميدانه المفضل الذى يلجأ اليه لاقتباس أمثلة توضح قواعد الشريعة الاسلامية وأصولها هو ميدان النساء ! وهو بصفةخاصة موضوع « النكاح » ! ولا أدرى هل كان الرجل خبيرا بنفسيات الشباب ، فأراد اثارتهم ، فاستخدم العبارات ، واختار الموضوعات التى تشد انتباهم الى المحاضرة ، أو انه كان شخصيا مغرما بهذا الحديث . كان يقتبس أمثلته منه بصفة دائمة ، حتى خيل الينا ان القرآن ، الذى يحوى أصولا خالدة كثيرة ، لم يعد فيه غير النساء والنكاح !

٥٢

عام ١٩٤٦ ، وأحداث رهيبة يأخذ بعضها برقاب بعض . هبت القوى الشعبية من طلاب وعمال ومثقفين تطالب بجلاء الجنود الأجانب عن البلاد . واندلعت الثورة أولا فى القاهرة . ثم انتشرت فى معظم عواصم الأقاليم . واتخذت شكلا عنيفا فى الاسكندرية .

كان هناك موقع يحتله العساكر الانجليز فى ميدان محطة الرمل . اكتظ الميدان بالجماهير ، التى أخذت تتجمع ، وتستمع الى خطباء فى عمر الزهور . تصاعدت العواطف الجياشة . أخذت هذه الجحافل تتحرك للهجوم على الموقع . بدأوا يقذفونه بالحجارة . دوى الرصاص الغادر . سقط الشباب الغض مضرجا فى دمائه أزت رصاصة الى جوار أذنى مباشرة . انطرحت على الأرض .

وجدت بجوارى زميلا جريحا . ما زال يتقد حماسة على الرغم من الدماء التى نزفت منه . انه يزحف نحو الموقع الانجليزى .

قلت له :

ـ دعنى أربط جرحك بهذا المنديل .

ـ ليس هناك وقت . . لدى مهمة يجب تنفيذها .

ـ ما هى ؟

ـ سوف ترى حالا .

بدأ يزحف متجها الى المواقع .

على الأقل ، دعنى أمنع بيدى هذا الدم الغالى من أن يسيل كله على الأرض.

ـ اصنع ما تشاء ، ولكن لا تعوق حركتى .

وضعت يدى على الجرح . أحسست بالدم الشاب حارا . منعت الدم من أن ينضب من عروق هذا الفدائى العظيم . زحف وزحفت معه ممسكا بجرحه . كانت عملية الزحف عسيرة منهكة ، قمنا بهذا ، والرصاص يعوى من فوق رؤوسنا . والجرحى والشهداء يعـوقون تقدمنا .

أبعد الفدائى يدى عن جرحه ، وضع يده فى جيبه . أخرج قنبلة يدوية . قذفها على الموقع . يدوى الانفجار الرهيب . يتصاعد الركام والدخان ، يسكت الرصاص الغادر . تهيج الجماهير ، ويشتد صخبها وثورتها .

لا تمضى ساعة ، أو بعض ساعة ، شعرت فيها بسعادة عميقة ، رغم الأسى الذى غشى فؤادى على المناضلين من الشهداء والجرحى .

كان هتاف الجماهير وهياجها تعبيرا عن انتصارها على قوى الشر ، بعد انفجار الموقع الذى يشغله جنود الاحتلال .

وبينما كانت الجماهير جذلة بهذا الانتصار ، اذا بقلة من العساكر الانجليز تحملها عربات مصفحة ، تفاجىء الجماهير بوابل من الرصاص ، ليسقط صرعى جدد ، ولتسيل دماء جديدة.

كان ذلك طبيعيا من قوى الاحتلال . لكن الأمر الذى صب علقما فى فؤادى ، هو أن قوة أخرى من البوليس المصرى احتلت ركنا آخر من أركان ميدان محطة الرمل . صوبت بنادقها الى صدور مواطنيها ، الذى يضحون بأرواحهم ، ويسكبون دماءهم زكية على اديم مصر . لتطهيرها من المغتصب الأجنبى ، الذى يلوث شرفنا ، ويبتز مواردنا ، ويعمق من فقرنا وتخلفنا .

انهم يناضلون لتحرير رجال البوليس والجيش أنفسهم وأبنائهم وبناتهم من القهر والجوع والتخلف . انهم يريدون أن ينتزعوا الاستقلال لبلدهم ، والقضاء على استغلال الانجليز ، وقلة من المصريين لهم . . .

تفرقت الجماهير . . وساد الظلام . .

رجعت الى غرفتى بالكلية فى الشاطبى . .

قضيت الليل منبطحا على سريرى أستعرض أحداث النهار .

التصقت بذهنى صورة الشهداء والمناضلين الجرحى . ان فى وجوههم تصميما على النضال ضد أولئك الذين يستذلون الانسان فى مصر .

كانت أنات الجرحى حية ايجابية ، تنطق بالغضب واللعنة على المستعمرين وحلفائهم . وتتوعد الغاصبين بحرب لا هوادة فيها .

لم يطل بى الاستعراض لأحداث النهار . ذلك ان حركات وأصوات أخذت تصل الى من نافذة الغرفة . وأنهض من سريرى . فاذا جحافل الطلبة تتدافع نحو الكلية ، مع ضوء الفجر . وتنظم جموعهم فى ميدان كرة القدم بالكلية . لعلهم يتجمعون للقيام بالجولة الثانية فى نضالهم ضد العدو . والتحمت بالطلاب .

مع مطلع الشمس كان الخطباء قد أعدوا الطلاب للنضال فى اليوم الجديد . كانت الخطب مثيرة منعشة . تبعث الأمل فى النفوس . وتوحى بأن فى البلاد شبابا لن يرضى بغير الاستقلال ، وتحرير الانسان فى مصر . أغرتنى الخطب بأن أسهم مع الخطباء . لكننى ما زلت أنباشى فى التدريب العسكرى . حرام علينا أن نسهم فى الحركة الوطنية . ان هؤلاء الشباب يثورون على الوسية ، وعلى حماتها الأجانب ، وعلى حراسها المصريين كذلك . المفروض أننى أنتمى الى حراس الوسية : ألست أنباشيا فى الجيش الذى يستدعى ليسهم مع الانجليز فى ضرب

الشباب الأحرار الذين يطالبون بجلاء المحتل عن البلاد .

ان الخطباء يهيبون بالطلاب أن يتجهوا الى الشارع لمواصلة النضال ضد قوى الظلام . هلى يعنى ذلك سقوط شهداء جدد من هذا الشباب الغض . أليست هناك وسيلة أخرى ، بحيث يسقط من العدو أضعاف ما يسقط منا .

بدأت الجموع تزحف الى الكلية . قوى البوليس والجيش . أحاطت بالجامعة من كل مكان : الوجوه السمراء نفسها ، التى تنتمى الى نفس الوطن ، تأتى لتضرب شباب الجامعة ذى الوجوه السمراء . ألا يعلم العساكر السمر أن شباب الجامعة يخوضون معركة وطنية من أجلهم ، ومن أجل آبائهم وأبنائهم ؟ ألا يدرك الجنود الوطنيون أنهم جاءوا من مجتمع الوسية ، الذى يستغل فيه آباؤهم . ويجوع اخواتهم . ويفرض الفقر والقهر فيه على أبنائهم وبناتهم ؟ ألا يعون أن آباءهم وأخوتهم يكدحون وينتجون الخيرات ، لتنعم بها القلة المالكه لمجتمع الوسية : الملك والانجليز والباشوات والخواجات ؟

كيف اذن يمكن أن يدافعوا عن هذا النظام ، ويقوموا بحراسة ملاك الوسية ؟ كيف يضربون الشباب الذى يريد أن يحـررهم وأهلهم والوطن ، من ملاك الوسية الأجانب وغير الأجانب ؟

تلاحقت الأحداث سراعا . اندفعت جموع الطلبة نحو باب الجامعة أصدرضابط من البوليس ، أمرا للعساكر باطلاق النار . فتح العساكر النار على الطلاب . هاج الطلاب ، اقتحم بعضهم البوابة عنوة . أخذ البعض الآخر يقذف البوليس بالحجارة . . ضرب العساكر الطلاب « فى المليان » ، سقط شهداء جدد ، بأيدى العساكر « المصريين » وأمر الضابط « المصرى » ! غلى الدم فى عروق الطلاب . غذى العنف عنفا جديدا . تصاعدت صيحات الانتقام . أطلقت رصاصة . . سقط ضابط البوليس . استولت الحمى على العساكر « حراس الوسية » فتحوا فوهات بنادقهم بسيل منهمر من الرصاص يحصد شباب الجامعة . عز على قيادة « حراس الوسية » أن يسقط ضابط . فصدرت آوامر بربرية بالضرب فى « المليان » . سقط صرعى جدد .

أصابنى تقزز أشد وقعا من ذلك الذى كان يصيبنى أثناء صراعى فى الوسية المدنية والعسكرية . أيمكن أن يقتتل المواطنون ؟ هل اذا استخدمت قوى الطغيان والرجعية ، أجنبية كانت أم محلية ، قلة من المواطنين لحمايتها والدفاع عنها ، هل تكون دماء هذه الفئة الأخيرة ، طاهرة تماما كدماء الشباب الذى يصطرع مع هذه القوى لكى يتنفس الشعب ويتحرر ؟ . هل دماء هذه الفئة تعتبر دماء وطنية تماما كدماء المناضلين ضد قوى الظلام ؟

ما بالى وهذه الأفكار ، والرصاص تتقصف تحت طلقاته الأعواد الغضة . ألا يمكن عمل شيء ؟ . . زحفت بين الطلبة . افترحت عليهم أن ينبطحوا على الأرض ، ويتخذوا من الأسوار والأحجار ساترا يقيهم الرصاص . وأن يصعد بعضهم الى سطوح المبانى وغير ذلك من المواقع ، فيمكنهم أن يتقوا الرصاص . وأن يقذفوا « حرس الوسية » بما لديهم من معدات ساذجة : الطوب وكرات النار البدائية .

أخذت المعركة شكلا منتظما بعض الشيء . تمكن الطلبة من احتلال الجامعة فترة طويلة ، وأن يمنعوا حراس الوسية من اقتحامها .

هدأت الحوادث فى القاهرة والاسكندرية . سحبت القوات الانجليزية الى القنال لتعسكر على شواطئها ، ولكى تتجنب التحدى المباشر لمشاعر المصريين . بدأنا نستأنف الدراسة . ونستعد لامتحان النقل الى السنة الثانية .

أدخلت هذه المحادثات ملامح جديدة على لصورة التى تمثلت لمجتمع الوسية فى ذهنى . لم تعد ملامح ذلك المجتمع مقصورة على قلة من الخواجات والباشوات تمتلك ثروته . وملايين تنتج للمالكين الخير وهى محرومة منه ، وعلى فريق من « أحرار » مجتمع الوسية يسرقون شيئا من الخيرات من المالكين . ولكن دخل على الصورة عنصر نشيط وثاب ، هو الطلاب والعمال .

انى لأثق أن هذا العنصر « الديناميكى » الخلاق ، يمكن أن يحقق الأمانى ، ويقود الصراع . انه لابد سيوقظ هذه القوى الرهيبة النائمة فى القوى . ويكون جبهة تقهر أعداء الشعب . انى أراه يحمل شعارات جديدة أصلية جادة ، وهو يخوض المعركة ضد حماة الوسية الأجانب ، وحراسها المحليين . الصيحات لا تقتصر على خروج الانجليز ، وسقوط الاحتلال ، بل ان فيها جرأة خارقة : انها تهتف بسقوط الملك ! انهم يحملون صورة الملك مقلوبة ، ويعلقون عليها نعالا قديمة ! . . لم يقتصر الأمر على الملك بل امتد الى النظـام نفسـه : « تسقط الرأسمـاليـة . . يسقط الاقطاع . . تحيا الاشتراكية ! . . » .

كانت هذه الملامح الجديدة التى بدأت تشكل مجتمع الوسية فى ذهنى تشكيلا جديدا ، قد أنعشتنى كثيرا . رد الطلاب والعمال الى الثقة فى مجتمعنا . أثبتوا أن هناك عناصر قوية منطلقة ، سوف تعمل على بناء الوطن ونظامه الاجتماعى بناء جديدا . وبذلك يصبح مجتمع الوسية جديرا بالحياة فيه ، وبالنضال من أجل تغييره . انتشيت لهذه الأفكار ، بعد أن كانت الضحايا من الشباب الذين سقطوا برصاص الغدر الانجليزى والمحلى ، قد هبطت بمعنوياتى الى الحضيض .

لهذا أقبلت على الدروس ألتهمها التهاما . لم يبق الاشهران على

الامتحان . واصّلت الليل بالنهار للاستعداد له . وجاءت النتيجة طيبـــة . كان هناك ثلاثة من الطلاب من بين الخمسمائة طالب قد حصلوا على درجة جيد جدا ، وكنت أنا أحد هؤلاء الثلاثة .

٥٣

عام ١٩٤٧ ، وفيه بلغت معنوياتى القمة : العناصر الثوريه الشابه الثائرة على الوسية ، وحركاتهم الايجابية ، التى يسكبون فيها دماءهم للثورة ضدها والقضاء عليها ، رد الى أملا ، كدت أفقده فى مزرعة الخواجة . وفى معسكر حراس الوسية . المجموعة الممتازةمن أصدقائى، الذين يخلعون على حياتى لونا جديدا . انخفضوا بعمرى ثمانى سنوات ! ضحكتُ معهم ، وصخبت . انطلقت فى أجواء التلمذة الحبيبة ، التى أبتها على وزارة المعارف فيما مضى . زملائى شاويشية التدريب العسكرى ، الذين كانوا كراما معى . دغدغ أعصابى كذلك ، صيف جميل أمضيته مع عذراء سيدى بشر يتموج لون البحر فى عينيها . المتعة البكر ، والقبلات المستعرة ، واللمسات العابرة ، واللقاءات الملهوفة، غسلت كثيرا من الجدب والموات اللذين علقا بجسدى سنوات طويلة .

عشت هذه السنة كذلك فى نشاط طلابى مثير : نظمت « جماعة

الثقافة » بالكلية مناظرة موضوعها « الاشتراكية والدين » طلب الى أن أنضم الى الفريق المؤيد لفكرة ان أصول الاشتراكية تتسق مع أصول الأديان . بينما عارض فريق آخر هذه الفكرة ، مصرا على أن الاشتراكية لها أصول علمية تطورت مع الفكر الانسانى والجماعة الانسانسة . وكانت ثمرة للعلاقات الانتاجية بين القوى التى تعيش فى مجتمع معين ، وليس هنك رابطة علمية بين التحليل الاشتراكى والأديان .

ولم أفطن حينئذ ، ان رئيس جماعة الثقافة ، الذى اختار لى هذا الدور ، كان يهدف الى أن تكون المناظرة بين اليمين واليسار . فقد كنت فى ذلك الوقت لا أدرك يمينى من يسارى ! ، ولم يكن فكرى السياسى قد تبلور بعد ، اللهم الا اذا اعتبرت العذابات التى تعرضت لها فى الوسية ، والآلام التى تجرعتها مع الذين يحرسونها ، والأمل الذى حركه فى الطلاب والشهداء والجرحى الذين ثاروا عليها ، اللهم الا اذا اعتبرت ذلك لونا سياسيا أخذت ملامحه تتحدد فى وجدانى ، يضاف الى القراءات الكثيفة التى شغفت بها شغفا بالغا .

وبدأت المناظرة :

وكان فى حديث الفريق الآخر ، الذى يمكن أن نطلق عليه تجاوزا كلمة « الاشتراكيين العلميين » ، منطقا ، وكان فى منطقهم قوة .

ولا ريب اننى ، على الرغم من موقف جمهور المستمعين منهم ، قد أعجبت بما يقولون .

على ان هذا الفريق المنافس قد ارتكب خطأ فنيا أساسيا . لجأوا الى التحليل العلمى الجاف ، والمنطق المجرد . ويبدو أنهم كانوا على علم قليل بنفسية الجماهير . خيل اليهم انهم يخاطبون جماهير جامعية . نضجت عقولهم . فهم لا شك تواقون الى نوع عال من المعرفة . وان جمال النظريات التى يدافعون عنها ، لابد أن يجذب اليهم عددا كبيرا من ذلك الجمهور المثقف . حدث العكس تماما . فمعظم الحاضرين كانوا بالأمس فقط تلاميذ فى المدارس الثانوية !

فطن فريقنا الى هذه الثغرة ، أفاد منها . استغل بعضنا العاطفة الدينية ، فأشبعنا الجماهير أحاديث شريفـــة ، وقرآنا كريما ، ألهبت أكفهم ، ومكنتنا من كسب المباراة . اذدادت شعبيتى فى الجامعة بعد المناظرة ، فجاءتنى الفرق السياسية المختلفة . وقد بدأ « المتدينون » بزيارتى ، وبادرونى بالقول :

ـ ان الله نصرك بالأمس ، وأعز بك الاسلام !!

ـ ما هى الحكاية ؟

ـ كانت خطبتك عظيمة ، وكان الأمس انتصارا للاسلام .

ـ لقد كنت أتحدث عن العلاقة بين الاشتركية والأديان بصفة عامة، ولو كنت أعرف شيئا عن تعاليم الانجيل أو التوارة أو الزبور ، لكنت اقتبست منها كذلك .

وأخذوا بالمفاجأة . وأجاب أحدهم :

ـ لكن حديثك عن الاسلام كان كافيا ، واقتباسك من القرآن والسنة وسيرة عمر كان عظيما .

ـ شكرا .

تريثت قليلا قبل أن أفاجئهم :

ـ أرجو أن تسمحوا لى بالقول باننى لم أقصد تأييد فكرتكم السياسية . . ولكنى اقتبست من القرآن والسنة ، وكان ذلك اقتباسا علميا لأدعم به وجهة نظرى .

وقال كبيرهم :

ـ نحن لا نريد أن نتدخل فى أفكارك السياسية ، ولا حتى نحاول أن نجتذبك الى صفوفنا ، فأنت سوف « تنجذب » من تلقاء نفسك !

ـ ما هذه الثقة ؟

ـ . . . وكل ما نريده منك ، ونحن نعتقد انك مؤمن بما قلته بالأمس فى المناظرة ، أن تقبل دعوتنا لتخطب فى اجتماعات مماثلة ، سواء فى

المدينة ، أو فى كليات أخرى فى الجامعة .

- هل أنتم الذين تنظمون هذه الاجتماعات ؟

أجاب بعد تردد :

- نعم . .

- اذن ، أعتذر عن قبول الدعوة .

انصرف الفريق « المتدين » ، ليحضر بعده فريق آخر . كان زعميهم ، يلبس طربوشا ، ويمسك بمسبحة وعصا ، تماما ، كان يفعل زعيم الحزب الذى ينتمون اليه . كان يقلده فى كلامه وحركاته ، وطريقته فى الخطابة . بدأ يخاطبنى وكأن الزعيم هو المتكلم :

- أحب أولا أن أهنئك بالخطبة الرائعة التى خطبتها بالأمس .

- شكرا . .

- ولكننى أود أن أجابهك بحقيقة مرة ! . .

ارتفع صوته وتهدج ، كصوت زعيمه . وضرب الأرض بعصاه ، واستمر :

- هذه الحقيقة ، هى أنك نصرت « المتدينين » بالأمس . وقد استغلوك لأغراضهم السياسية .

- لكننى ما قصدت الى ذلك .

- كان تمثلك بالقرآن وغيره ، جعلهم يطلقون اشاعـات بأنك منهم.

- هل القرآن والحديث وسيرة عمر احتكار لفريق معين ؟ أو أنها تراث يمكن لكل مسلم ، بل ولكل مثقف مستنير مهما كان دينه ، أن ينهل منه ، لتدعيم القيم الانسانية ، التى لا أعتقد أنها مقصورة على المسلمين فحسب ، فهى ملك للبشرية .

حاول الزعيم « المصغر » أن يدعو لحزبه :

- اننا حزب الجماهير الشعبية .

- وحزب الرأسمالية فى أعلى صورها .

- لكن الزعيم فقير لا يملك شيئا .

- ولكنـه زعيم الحزب الذى يضم أكبر عدد من الأسـر فاحشـة الثراء . . وعلى ذلك فهو أداة من أدوات البرجوازية فى مصر .

- اننى أومن بالزعيم الجليل ايمانى بالله !

- ألا ترى فى هذا مبالغة ؟

- أبدا . . هو زعيم الأمة . والأمة مصدر السلطات . . ألا تشهد كفاحه مع السراى لتثبيت حكم الأمة ؟

- هذا صحيح ، اذا اعتبرنا أن ذلك الحزب هو ممثل الأمـة الحقيقى.

وهل فى ذلك شك ؟ اننا نفوز دائما فى الانتخابات الصحيحة .

ـ لم أقصد الانتخابات الصحيحية أو المزيفة . . ولكن ممثلى الشعب، الذين ينتمون الى حزبكم ، هم الباشاوات وأصحاب الوسايا ، والأغنياء ، والذين ينفقون آلاف الجنيهات على المعارك الانتخابية .

نظر الى بعينيه الضعيفتين المغروقتين دائما بالدموع ، ثم قال :

ـ ولكن حزبنا يمثل الأمة الفقيرة فى كفاحها لتثبت دعائم الدستور . ويكفيه انه الحزب الوحيد الذى يتصدى للملك ، ويمنعه من الاعتداء على حقوق الأمة .

ـ ان كنت تقصد التمثيل الشكلى للأمة ، فهذا صحيح . . ولكن التمثيل الحقيقى الموضوعى لا وجود له . . هل يقبل عقلك أن الباشوات يمثلون مصالح الفلاحين العاملين فى وساياهم ؟ وهل يمكنهم أن ينوبوا عن أولئك الذين يكدحون فى الأرض ، التى تنتج عسلا ولبنا وثراء ينعم به ممثلو « الأمة » بينما الأمة نفسها تلعق العرق ، وتمضغ الجوع ؟ ألم تسمع عن « العيش الأحمر » والمخلل الأسود ؟ انه غذاء الفلاحين فى العزب التى يملكها أعضاء الحزب .

لكن أعضاء حزبنا أرحم بفلاحيهم من غيرهم ن الباشوات .

ـ أنا لا أفرق بين باشا ينتمى الى حزبكم أو الى حزب آخر . . انهم جميعا « ملاك الوسية » ، والفلاحون هم رقيقها . . وأنا أخشى مع احترامى الكبير لك ، أن أكون أنا وأنت رقيقين فى الوسية ، أو من أبناء ذلك الرقيق .

خلع صديقنا نظارته ، وأخذ يمسح ما تساقط عليها من ماء عينيه ، **ثم وضعها على عينيه مرة أخرى وقال :**

ـ لكن حزبنا أحسن من غيره . . ألا ترى موقفه من الملك وإسرته، وهم غرباء تسيدوا على هذا الوطن .

ـ موقف لا بأس به . . لكن يجب أن نفهم مضمون المبارة : الملك ومعه فريق من الباشوات فى صف ، وحزبكم بما فيه من باشاوات فى صف آخر . . فالشعب يفترسه الملك من ناحية ، وحزبكم يدافع عنه دستوريا فحسب ، ثم يفترسه باشواته اقتصاديا من ناحية أخرى . . فكلا الفريقين شركاء فى ملكية الوسية . وسيظل الشعب مستغلا هنا ، ومستغلا هناك طالما بقى الحكم فى يد الفئة التى تملك الأرض و رأس المال .

هرش الزعيم المصغر فى قفاه ! انتفض واقفا . كأنه خشى على ايمانه أن يتنزعزع . فقال بلهجة « زعامية » **أعادت اليه بعض**

الثقة التى هزتها المناقشة :

- على كل حال ، نحن نشكرك لرفضك الانضمام الى «المتدينين» .

انصرفت تلك «المجموعة» . كانت الساعة قد بلغت الواحدة ، كان سيد «رسول الخلد» قد احضر الطعام . فاقبلت على الخلد ألتهمه ، وكأن الحوار قد أثار شهيتى .

فى اليوم التالى جاءنى فريق من اليسار ، وكأن غرفتى الملحقة بمسرح الكلية قد انقلبت الى منتدى سياسى . كان فى اليساريين هواة ، كما كان فيهم ، علـى ما يبدو ، محترفون . كان بعضهم متحمسا هائجا ، وبعضهم متئدا رزينا . يبدو كذلك ان يساريتهم كانت على درجات . على أنه لم تكن لهم زعامة ، كما كان حال الفرقتين السابقتين . لهذا أدلى كل فرد منهم بدلوه فى الحوار ،

بدأه أحدهم بدءا عنيفا ، دون مقدمات :

- لم نكن نتوقع أن تقف فى صف الرجعيين .
- أى رجعيين ؟
- لقد وقفت مع اليمين فى المناظرة .
- أحب أن أعترف لك بجهلى ، فأنا لا أدرى من هم أصحاب اليمين ، ومن هم أصحاب الشمال !
- انك ناصرت «المتدينين» واليمينيين .
- صدقونى اننى لم أكن أدرى من هم المشتركون فى المناظرة ،

وما هى اتجاهاتهم السياسية . . فقد حدد لى رئيس «جماعة الثقافة» الطريق الذى أنضم اليه . . وليست لى نظرة سياسية محددة بعد .

- لابد لك من موقف سياسى .
- أنا أنباشى فى التدريب العسكرى !
- غير معقول ! ان الذى أستمع الى خطبتك القوية بالأمس ، والى المعانى المنبعثة منها ، والحرارة التى تدفقت بها عباراتك لابد مدرك ان لك لونا سياسيا .
- اذا كنتم تصرون على معرفة لونى السياسى، فأنا ثائر على مجتمع الوسية .
- وما هو مجتمع الوسية ؟

وشرحت لهم خصائص ذلك المجتمع ومنظماته : وسية الخواجة اليونانى ، مجتمع الوسية الكبير ، معسكر حراس الوسية . . وتهللت وجوهم جميعا . **صاحوا فى وقت واحد :**

- هذا هو المجتمع الذى نهاجمة نحن .
- ومن أنتم ؟
- نحن «اليساريين» .
- ما هو اليسار ؟

كانت الاجابات مختلطة ، فقد حاول كل فريق أن يعبر عن خطة السياسى فى وقت واحد ، فلم يصل الى أذنى أو ذهنى شىء .

وأنهيت هذا الخلط قائلا :

- يبدو أن هذا سؤال تصعب الاجابة عليه اجابة سريعة ودقيقة . . فهو يتطلب دراسة واجابات هادئة متمكنة . . فاليسار يضم فرقا كثيرة ، تتروح بين الاعتدال والتطرف . . فبعض الناس يعتبر الأحـــــزاب « الديمقراطية الاجتماعية » أحزابا اشتراكية ، فالانجليز مثلا ، يطلقون لفظ « الاشتركيين » على العماليين المنتمين الى حـزب العمال الانجليزى . . فهل أنتم ديمقراطيون اجتماعيون ؟

وسكت فريق ، وأجاب آخر :

- لا . .

- تلك أحزاب « اصلاحية » ، لم تغير كثيرا من مجتمعات الوسايا الأوروبية !

لازال فريق صامت ، وفريق مجيب :

- نحن لا نعتبر هذه الأحزاب أحزابا اشتراكية ، أو يسارية .

- لا أستطيع أن أعمم معكم هذا التعميم . . فحزب العمال البريطانى كان يساريا عند نشأته ، ثم انحرف الى اليمين . . وحزب جى موليه فى فرنسا ، أقرب الى اليمين منه الى اليسار ، الا أن حزب «بترونيتى» فى ايطاليا ذو اتجاه يسارى وهكذا . . وعلى أية حال ، اذا لم تكونوا من

هذا اللون ، فهل أنتم شيوعيون مثلا ؟

. . . .

ولم يجب أحد ! وحتى أعفيهم من الاجابة قلت :

- اننى أعترف لكم بجهلى بالشيوعية . . فكلما تعلمون لقد درس لنا أستاذ الاقتصاد نظريات كارل ماركس ، وكتابه رأس المال فى نصف محاضرة ! وشغلت نحو ثلاث صفحات من كتابه الذى بلغ الألف صفحة . . وكانت صفحتان منها لنقد ماركس .. فلابد لى أن أقرأ لأفهم ما هو اليمين وما هو اليسار . . وما هى الشيوعية والماركسية اللينينية . وهذه موضوعات تتطلب جهدا ووقتا لكى يمكن أن نحكم لها أو عليها .

- لكن النظرية واضحة تماما ، ويعلمها الكثيرون .

- انها ليست واضحة لى ، ولا علم لى بها . . فلابد لى من دراستها حتى أصلح لمناقشتها .

- لكنها تشبه تماما نظريتك فى الثورة على مجتمع الوسية .

- لا تغرينى بهذا التقريظ !

- أنا مخلص فى هذا التشبيه .

- سأرى عندما أقرأ .

- اقرأ ما شاءت لك القراءة . . ولكن لنا رجاء ألا تناصر «المتدينين» فى دعوتهم .

- لا تقلقوا فأنا لا أثق فى الحكومة الدينية . . فتاريخ الأديان ، واستغلال الحاكمين باسمها للشعوب يعطى صورا غير مشجـــعة فى هذا المجال . .

قاطعنى أحدهم :

- هذا هو نفس الكلام الذى تقرره نظريتنا !

- سوف نرى بعد القراءة ولا تحاول أغرائى . فأنا لا أغرى بسهولة! سكت، فساد الغرفة سكون تام ، شرد فيها ذهنى للمناظرة ، **ثم عن لى أن أسأل اليسارين سؤالا :**

- لماذا تتحرجون من الأديان فى جدلكم . . لقد لا حظت فى المناظرة أن بعضكم قد هاجم الأديان .

واندفع أحدهم قائلا :

- ان الاشتراكية نظام علمى لا شأن للأديان به .

- لا أستطيع أن أغوص مـــعك فى العلاقة بين الاشتراكية والدين.....

وقاطعنى أحدهم :

- انك غصت فيها فعلا فى المناظرة . . وكسبت المناظرة منا !

- على أية حال ، أيا كان موقف التحليل الاشتراكى العلمى من الأديان ، فأنتم تحادثون جمهورا مؤمنا : جمهورا يرتضى الجوع فى الدنيا ، لانه سيشبع فى الآخرة ! جمهورا ينتخب الباشاوات والأغنياء ، ويخيل اليه انه يحكم هذا البلد ، جمهورا يحرس عساكره الملك وغيره من أصحاب الوسية ، وهو سعيد فخور بهذه الحراسة ، راض بقدره من الاستغلال والفقر! فكيف تهاجمون الدين فى شعب مؤمن . . انكم تثيرون الجمهور عليكم ، ولا يمكنكم كسبه بهذه الطريقة .

- ولكننا نحادث جمهورا جامعيا.

- الأمر يستوى ، فى المسائل السياسية ، كان الجمهور جامعيا ، أو شعبيا . . وعلى كل حال فمعظم الجمهور الذى استمع اليكم ، كان فى المدارس الثانوية منذ بضعة أشهر . . وأود أن أضيف ، دون الدخول فى جدل علمى ، انه يمكن الاستعانة بالمثل الواردة فى الأديان لتدعيم النظام الاشتراكى العلمى . وبهذا فالصدمة التى تحدثونها للجمهور عندما تهاجمون الدين ليست طريقة بارعة اذا أردتم أنصارا ، وهى كذلك ليست ضرورية .

- كلام معقول . . نشكرك والى اللقاء فى ساحة النضال ضد «مجتمع الوسية» .

لم يقتصر أثر المناظرة على هذه اللقاءات مع الفرق السياسية المختلفة ، ولكن رئيس جماعة الثقافة فاجأني بانه استقال من رياسة الجماعة ، وانه رشحنى لاخلفة ، وتم اختيارى فعلا ! وقبلت طوعا وكرها !

كانت أول مناظرة اقترحتها على جماعة الثقافة هى : « مجتمع الوسية بين أنصاره وخصومه » .

وقدمت موضوع المناظرة الى الجمهور ، عرضت فيها لملامح ذلك المجتمع . ونجحت المناظرة نجاحا ساحقا ، فاق المناظرة السابقة . وجد فيها اليساريون المعارضون للوسية فرصتهم ، ولعق « المتدينون » المناصرون للوسية الهزيمة فى هدوء وصمت وتربص .

أسهمت هذه العوامل جميعا فى أن ترتفع معنوياتى . فأقبلت على الدروس اقبالا كبيرا . وأسهمت لذة المواد ، واستطعامى لها ، فى أن أبقى معها أناجيها ، الى أن تمسح أشعة الفجر سجف الظلام الذى كان يغلف البحر طول الليل . حينئذ كنت أنام حيث يستيقظ الكون .

ترتب على هذه المؤثرات المعنوية ، وعلى الصداقة الوطيدة التى نشأت بينى وبين المواد ، أن اجتزت الامتحان بدرجة جيد جدا . لكننى فى هذه المرة كنت « أول » الأربعمـائة طالب الذين كانـوا معى فى السنة الثانية .

٥٤

لقد قدر لى أن أقنع بلحظات عابرة من السعادة . ذلك أن السعادة ترفض مرافقتى زمنا طويلا ! ولما كنت غير قانع بطبيعتى ، فحتى هذه اللحظات العابرة لم تكن سعادة خالصة ! فقد وقعت حادثة روع لها وجدانى : لقد تزوجت عالية !

بلغت الحركة السياسية والاجتماعية فى هذا العام (١٩٤٨) أوجهـا . فالجرائد تهاجم الانجليز والقصر بعنف ، وتكتب فى صراحة ضد الرأسمالية والاقطاع ، أو بعبارة أخرى ، ضد الوسية . والصحفيون يقبض عليهم كل يوم « للعيب فى الذات الملكية » . ثم يفرج عنهم ، أو يسجنون ، وينشر دفاعهم فى الجرائد ، فيثير الرأى العام . وكانت المرافعة فى تلك القضايا مدرسة سياسية كبرى أسهمت فى تقوية وعى الجماهير .

والاجتماعات والندوات السياسية تعقد فى الجامعات والمصانع والشوارع وفى كل مكان ، تصقل الوعى ، وتحضر الجماهير لليوم الأكبر ، يوم الثورة على الوسية . والطلاب والعمال يخرجون فى مظاهرات كبرى يحمسون الرأى العام ، ويحملون الشعارات الثورية ضد

مجتمع الوسية وحماته الأجانب والمحليين . بل ان النضال ضد المستعمر أصبح منظما ، فها هو الشباب الفدائى يقتحم معسكرات الانجليز فى القنال . ان المحتل يجب أن يغادر الوطن راغما . . والحكومات لن تفعل شيئا . فعلى الشعب أن يقود النضال بنفسه . وبينما كان وعى الجماهير ينصهر فى بوتقة الوطن الكبرى ، وبينما كان نضالها يمضى مصرا الى أهدافه لمكافحة الاستعمار ، الذى يملك أوطانا أو وسايا كثيرة تسهم فى رخاء الوطن الكبير أو الوسية ، الأم ، كانت القوى المضادة تدبر أمرا . .

فقد وقع حادث أنقذ الرجعية من مصيرها المحتوم ، وصرف الجماهير عن العدو الذى لا يزال يلطخ البلاد باحتلاله لها ، وصرفها كذلك عن شركائه من ملاك الوسية . لقد أنشئت دولة اسرائيل . وقامت حرب فلسطين . واتجه الرأى العام كله فى الدول العربية الى هذه المشكلة ، كما أريد له أن يتجه . وفرضت الأحكام العرفية . وتحركت الجيوش المتخلفة المسلحة تسليحا بدائيا فاسدا ، والتى يقودهـا ، الجنرالات ، حراس الوسية ، تحركت الى فلسطين . . . وكانت الهزيمة سافرة ، وكان قيام اسرائيل . ومع الهزيمة أو قبلها كان التخلص من الحركات التقدمية السياسية التى كانت موجهة ضد الاستعمار ، وضد النظام الاجتماعى الخرب .

انحطت معنوياتى ! وتأزمت نفسى ، أسى على القضايا الحيوية التى انتهزت الرجعية والاستعمار الأحـكام العرفية فضرباها فى الصميم . ومع هذه الأزمة أخذت هموم ثقيلة تنهال على من كل صوب وحدب . واذا بصور مجتمع الوسية تتراءى أمام عينى شائهة قميئة . لقد نالت الهزائم التى ألمت بالحركات القومية والاجتماعية والعسكرية من قدرتى على استذكار دروس السنة الثالثة . فمع كل سطر أقرأه فى كتبى ، أرى قضية عامة تهدر ، ومع كل صفحة أمل يغيض ، ويأس يتصاعد . أخذت أتساءل عن كنه المواد التى أدرسها : ما أصلها وما قيمتها وما هى رسالتها ؟ ما بال هذه المواد تشدنى الى ماضى بعيد سحيق ، الى وسية الخواجة اليونانى ؟ ان العلاقات فى تلك المزرعة بين الخواجة اليونانى وبين الفلاحين المصريين ، كانت تحرسها القوانين التى يسنها مجتمع الوسية الكبير . فالجوع يحرسه القانون . بل ان القواعد القانونية المنظمة للعلاقات بين الناس تؤدى الى ذلك الجوع . ألا يسجن القانون الجائع اذا سـرق ليقى نفسه وأهله من الهلاك ؟ اذن ، لو كنت سيىء الحظ . ورآنى الخواجة فى تلك الليلة ، التى أعطيت فيها الذرة لمحمد محمود من مخازن الخواجة ليلا ، كان السجن هو جزاؤنا . وبينما كان القانون حريصا على سجن الجائع ، أو

على سجن من يعاونه ليأكل ، كان أعمى تماما عن صور الاستغلال البشع ، أو عن السرقة (القانونية) الكبرى التى يقوم بها الخواجة وغيره من ملاك الوسية ، سواء السرقة المباشرة من محاصيل الفلاحين ، أو السرقة الاجتماعية التى تخولها لهم القوانين الملكية والايجار والمزارعة والعمل .

اذا كانت هذه المواد التى أدرسها هى شرح قوانين الملكية الخاصة لملاك الوسية ، فان هذه الكلية التى أنتمى اليها تفقه تلك القوانين التى تحمى حكام الوسية وملاكها . وعلى ذلك فهى تجعل من عملية الاستغلال قانونا ، ومن الفقر فقها ، ومن الملكية الخاصة للوسايا علما ! ان هذه المواد تقرر ان هذه الملكية للأرض وللمصنع مقدسة ترتبط بكرامة الانسان وبحريته . ولم تقل شيئا بالمرة عن الامتهان والعبودية التى يصبهما الفقر والاستغلال على الملايين فى مصر . كأن تلك القوانين لا تعبأ بالتخلف الذى يرين على البلاد . وبذلك فكلية الحقوق تدعم تلك العلاقات القائمة بين ملاك الوسية وبين جماهير العاملين فيها بل وتقدسها . لماذا اذن أسموها كلية الحقوق ؟ ألأنها تجعل من حقوق ملاك الوسية ، دون غيرهم ، قدسية ، وفقها ، وعلما ؟ أليس للعاملين المنتجين الحقيقيين حقوق ؟ لا شىء فى المواد التى ندرسها

يدل على أن هذه الأغلبية الكبرى من غير المالكين كانت موضع تفكير المشرعين والفقهاء وأساتذة القانون ، وكلية القانون . . يا لخيبة الرجاء . . لماذا التحقت بهذه الكلية ؟ هل سأنفق حياتى كمشتغل بالقانون أدعم الملكية الخاصة لأصحاب الوسايا ، وأقدح ذهنى للدفاع عنها وتقديسها ؟ أهذا عمل يسعد ؟ أهذه رسالة انسان ؟ أهذه نهاية مكافح ؟

ما أن وصلت الى هذا القدر من التفكير ، حتى انقلب سخطى الى زراية بالقوانين التى أدرسها ، وما يدعمها من فقه وشروح وقضايا . . امتدت الزراية الى الكلية التى أنتمى اليها . لم يعد للمهنة التى جهدت للوصول اليها ذلك الجلال الذى خلعته عليها عندما بدأت أستأنف الدراسة وسط الصحراء فى مدرسة ضباط الصف . لقد انطفأ بريقها ، وغدت مهنة للارتزاق ، بل من أكثر صور الارتزاق اتضاعا : سوف أكون من حماة مجتمع الوسية ، ومن الذين يشرعون له القوانين ، ويرهقون قرائحهم فى الدفاع عنه . لكن ذلك ينطبق على عمل القاضى ووكيل النيابة والمشتغلين ، الرسميين ، بالقانون . . ولكنه لا ينطبق على المحامى . وأنت تعد نفسك لتكون محاميا ، ثم لتكون سياسيا . والمحامى يمكن أن يدافع عن الحق وينتصر للمظلومين .

لكن هل لا يدافع المحامى عن الملكية فى مجتمع الوسية ؟ هب ان خواجة أو باشا أو أى مالك آخر من ملاك الوسية ، جاء لك بقضية مؤداها ان الفلاحين الذين يزرعون أرضه لم يسددوا الايجار . أو أن بعضهم أخذ جانبا من المحصول الذى أنتجه من الحقل أو الجرن أو المخزن ليدفع الجوع عن نفسه وعن أهله . هل سترفض أن تدافع عن ، حقوق ، ملاك الوسية ؟ لا جدال فى انك ستقبل القضية . وسوف تستخدم ما حباكالله من عقل ، وما حصلته من قانون وعلم فى الدفاع عن أصحاب الوسية ضد أولئك الذين سلبت حقوقهم . وبذلك تصبح حربا على المجموعة التى تنتمى اليها بتاريخك وعقلك وقلبك وفكرك . واذا رفضت هذه القضية وأمثالها ، فكيف يمكن أن تعيش ؟ لكننى أستطيع أن أدافع عن الجوعى والفقراء . وسأذهب للدفاع عن كل سارق يسرق لانه جائع . وسوف أجد فى ضميرى وذهنى وفى قراءاتى ما يعيننى على اقناع القضاء ببراءة هذا الفريق . ترى هل يستمع القضاة ؟ أم انهم فى واد وأنت فى واد ؟ لا أن التحليل الذى تتخيله لتبرئه هؤلاء الناس لا يقنع قضاة ، شباعى ، برجوازيين ، يستمسكون فى ترف بحرفية القانون .

كانت هذه الأفكار اليائسة قد ظلت تناوشنى حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل . لم أستطع البقاء فى الحجرة . خرجت الى

الكورنيش . لعل فى نسمات البحر ما يهمس فى أذنى بأفكار جديدة . لعل هدير الموج يتلاطم فى ذهنى . ويدفع اليه بنوع من الصخب . ويذهب بالموات الذى يوشك أن يصيب طموحى . ويقضى على اليأس الذى أخذ يلقى بسجفه الثقيلة على الأمل الحلو الذى عشت من أجله عمرى . لم تهمس النسمات بشىء ؛ لكنها كانت منعشة ألقت رذاذا رطيبا على وجهى ، تسلل بعض الشىء الى أعماقى . لم أجد موجات البحر صاخبة كما تمنيتها . لكنى وجدتها متراخية متثائبة . كأنها نائمة هى الأخرى كما ينام الكون . كان تكسرها على الشاطىء أشبه بزفير البحر النائم وشهيقه . ومع ذلك فقد خيل الى أن الأمواج تترنح نحو الشاطىء توشوشنى . وأن النسمات الناعمة تهمس فى أذنى . . أسهم الهمس والوشوشة فى هدوء أعصابى . الا أنهما لم يحملا لى أملا جديدا . لكنهما تسبب فى أن تتناثر الأفكار القاتمة من رأسى ، كما تتناثر قطرات الموج على رمال الشاطىء فلا يدرى المرء هل تتلاشى القطرات وتستوعبها الرمال أم ينتهى أمرها الى البحر من جديد ! كان سكون الليل حلوا أغرانى بالتوغل فيه . قطعت مسافة بعيدة مع البحر ونسيمه وموجه ، ومع النجوم الشاحبة فى السماء . لم أفطن الى الوقت الا عندما اختفت النجوم . وبدأت صفحة البحر تسترد لونها

الأزرق . وبدأت حركة تدب فى الشارع ، وعربات تنطلق فى صخب . أنكرت صخب الناس وضجيج العربات . انزعجت كثيرا لا يقاظى من هذه الغفوة الحلوة . عدت أدراجى الى غرفتى واستسلمت الى نـوم عميق .

٥٥

أحضر لى « سيد » الطعام . أحببت أن أداعبه فقلت له يظهـــر يا « سيد » أننا لا فكاك لنا من الفول . فقد خلقت أنا وأنت له ! يبدو أنه سيظل قدرنا ، ما بقى نظام الوسية الذى نعيش فيه . لم يدرك « سيد » ما هى الوسية وما نظامها ، وان كان أحد صرعاها . لم يفهم لماذا يثور الشباب . كان سعيدا بنصف القرش الذى منحه علاوة ، بعد خدمة خمسة عشر سنة فى الوسية « العلمية » .

انساب شىء من رضا « سيد » الى ، فبدأت أفكر فى دروسى . كانت أحداث العام قد عاقتنى عن استذكارها . لقد مضى نصف العام الدراسى ولم يبق الا نصفه . فلأبدأ اذن ، ولأتفرغ لها ، كى أحقق المستوى الذى حققته فى السنوات الماضية .

ما ان فتحت كتاب « القانون المدنى » حتى وقعت عينى على

عقود الايجار والبيع والرهن والديون المرتهنة أوالممتازة ، وتسجيل الملكية أو شهرها ، وانتقال الملكية فى العقار والمنقول . كأن هذه المواد كانت على موعد مع الوسية فهذه صورها تتابع على ذهنى : مزرعة الخواجة اليونانى ، الفلاحون المستغلون ، أرضنا المرهونة ، انتقال ملكيتها للخواجة . وحاولت أن أبعد هذه الصور . لكى أقرأ وأدرس وأستعد للامتحان . لكن مع كل سطر ، ومع كل فكرة ، كانت تختلط تماما قصة من قصص الوسية . ومع القصص وفقرات القانون المدنى غشيت عيناى . وأسرع الغيثان الى حلقى . طوحت بالكتاب بعيدا . ما فائدة علم ينظم علاقات ملاك الوسية بعضهم ببعض ، حينما يبيعون العقارات ويشترونها أو عندما يؤجرون الأرض للفلاحين ؟ ألم أشهد نتائج هذه العلاقات فى عزبة الخواجة ؟ ألم تؤد الديون المرتهنة أو الممتازة الى نزع ملكية أرضنا واغتصاب الخواجة لها ؟ ان علما ينظم الفقر والاستغلال ويجعل منه فقها وقضاء « وقدرا » للأغلبية الكبرى من رفاقى الفلاحين ليس جديرا بالقراءة أو الاحترام ، وهو كذلك لا خير يرتجى من ورائه .

دعنى ألقى نظرة على كتاب « القانون الدستورى » . . ما باله يعرض لتطور الديمقراطية ونظامها فى بريطانيا فحسب ! هل لا توجد

فى الدنيا نظم أخرى للحكم غير النظام الانجليزى ؟ أحقا تعتبر «الديقراطية» التى اقتبسناها من انجلترا «ديمقراطية» حقيقة ؟ انهم يعرفونها بانهـا «حكم الشعب بالشعب وللشعب» هل تحكم الجماهير المصرية بممثلين حقيقيين للعاملين المستغلين وللفلاحين الجوعى والعرايا والمرضى؟ هل يعمل هؤلاء الممثلون للشعب ، وهل يشنون حربا على التخلف الذى يرين عليه ، أم انهم أنفسهم مصادر ذلك التخلف ودعاماته ؟ . . الديمقراطية كذلك تعنى حكم الأغلبية ، هل تسيطر الأغلبية العامة على الحكم ؟ هل ملاك الوسية هم الأغلبية ؟

أتقصر فكرة الديمقراطية على ذلك الحق الرومانتيكى ، الذى يتيه به كتاب الديمقراطية البراجوازية على غيرها من نظم الحكم : يذهب الانسان الجائع الجاهل المستغل الى صندوق الانتخابات ، ليعطى صوته لمستغليه ومستذليه . ليس فى الكتاب الدستورى شىء عن الديمقراطية الاقتصادية . لم يذكر ان المواطن كما أن له حقا سياسيا فى انتخاب من يمثله ، اذا كان حقا يمثله ، فان له كذلك حقا اقتصاديا ديمقراطيا . أى يجب أن يكون له نصيب فى ثروة بلاده . وأن يكفل له هذا النصيب المساواة التى تتضمنها الفكرة الديمقراطية . بل ليس فى الكتاب اشارة الى أن الحق السياسى فى التصويت ، انما يرجع لا لفكرة ساذجة قائلة

بأن يتساوى الانسان مع زميله فى اختيار من يمثله ، بل ان هذا الحق انما يهدف الى أن الناخب يختار من يمثل مصالحه الاقتصادية . هذا هو الهدف الأول فى مجتمع يرمى الى القضاء على الظلم والفقر والجهل والمرض والاستغلال . لا يمكن للديمقراطية الاقتصادية أن تتحقق وكتب القانون الدستورى تعظ الناس بالفكرة الديمقراطية «الكلاسيكية» فهى تقرر بأن الديمقراطية مرتبطة بالحرية ، والحرية هنا هى الحرية الفردية ، والحرية الفردية هى حرية الرأسماليين فى تملك رأس المال ، وحرية ملاك الوسية فى تملك الأرض ، وحريتهم فى حرمان الكثرة الكثيرة من الجماهير العاملة منها . أما حق كل مواطن فى أن يكون له نصيب ديمقراطى فى الأرض أو المصنع وغيرهما من وسائل الانتاج فلا تعرفه الكتب الدستورية التقليدية . كيف أدرس «ديمقراطية» تمكن ملاك الوسية من رقاب الشعب . وتجعل اغتصابهم لحقوقه الاقتصادية حلالا قانونا ومباحا ومستحبا ؟ هذا كتاب آخر قراءته ضياع فى ضياع . قذفت به فى ركن ثان من أركان الغرفة .

كتاب المرافعات المدنية . أليست هذه المادة التى تنظم طريقة رفع القضايا والسير والفصل فيها واستئناف أحكامها ؟ ولكن أى قضايا ؟

القضايا التى تنظم حقوق ملاك الوسية . . اذن كتاب آخر لا جدوى منه . وقذفت به فى ركن ثالث . كتاب « قانون العقوبات » : من يعاقبون ؟ الفقراء ، أقذف به . كتاب تحقيق الجنايات ، أى جنايات أو أى جرائم ؟ تلك التى يرتكبها المحرومون . أقذف به . كتاب « الوقف » من الذى يقف ؟ ملاك « التكايا » . « القانون التجارى » . . فيـم يتجرون ؟ فى أرزاق الشعب . كتاب « المالية العامة » مالية من ؟ مالية الدولة . . دولة الوسية « الشهر العقارى » شهر المـلكية . ملكية من ؟ ملكية الخواجات والباشوات وغيرهم . . وهكذا ظللت أقذف بكتاب وراء الآخر حتى غطت الكتب والكراريس أرض الحجرة جميعا .

بينما كنت أطوح بالكتب يمينا ويسارا ، اذا بصديقى اسماعيل يدخل على . .

كان اسماعيل قطبا من أقطاب مجموعتنا الطلابيه ، ساحـر الحديث ، حلو النكته ، « سريع القفشة » ، خفيف الروح . يرجع اليه الفضل الأول فى تكوين « شلتنا » من الأصدقاء . . التى كانت تتميز بسمتين بزت بهم « الشلل الأخرى » : كنت تجدنا نضحك ضحكا عاليا يتردد صداه فى أرجاء الكلية كلها ، أو ننخرط فى نقاش وطنى وسياسى صاخب يجمع الطلاب الآخرين حولنا .

ذهل اسماعيل لأول وهلة ، **لكنه ما لبث أن قال** :

ـ ايه الحكاية يا شاويش ؟!

ـ لا تهزل . . ليس بى طاقة تتحمل الهزل ، أو تستمتع به .

ـ لماذا تقذف بالكتب بهذه الطريقة ؟

ـ دعك من مسألة الكتب الآن .

ـ لكن ليست هذه عادتك . . عهدتك تحنو على الكتب ، وتتخذ منها أصدقاء !

ـ كان ذلك فى الماضى .

ـ وماذا حدث الان ؟!

ـ أنا متعب بعض الشىء .

ـ مريض ، أو مرهق ، أو هناك مشكلة ؟

ـ من الأفضل أن نترك هذا الموضوع .

ـ لا أنا مصر على تناوله . . ماهى مهمتى اذن ؟ اذا كان هناك ما يكدرك ، فعلى أن أصفى كدرك .

ـ لن نستطيع هذه المرة .

ـ عيب . . أنا « أبو السباع » !

ـ أى سباع ؟ لن تقدر ، ولو كنت حتى « أبو اللبوءات » !!

اشتركت حنجرتانا القويتان فى قهقهة ، كان لها أثر عجيب فى تفتيت الأزمة مؤقتا .

- هذا هو الكلام . . ارجع الى طبيعتك الضاحكة التى جعلتنا نلتف حولك .

ثم تلمظ اسماعيل بشفتيه المكتنزتين ، الأمر الذى كان يفعل عندما يكون سعيدا متحفزا . طلب منى أن أقص عليه ما يشغلنى ، **فرجوته** :

- أطعنى ، ودعك من هذا الموضوع .
- مستحيل .
- اذن ، « ذنبك على جنبك » !
- ذنبى الأكبر أننى تعرفت عليك . . ان الصداقه حظوظ . . لماذا قذفت بهذه الكتب على الأرض ؟
- لقد قررت ألا أقرأ هذه الكتب !
- لابد أن تكون قد عملت لها « ملخصـات » حفظتها عن ظهر قلب ، لكى تحصل على «جيد جدا» . أو هل تريد « ممتاز » هذه السنة .
- أنا أجد وأنت تهزل .
- أنا أيضا أجد .
- سوف لا أقرأ هذه الكتب ، ولا المادة التى تحتوها !

- كيف تجتاز الامتحان اذن ؟! هل وصلت بك العبقرية الى هذا الحد ؟ تدخل الامتحان من غير أن تقرأ المواد ؟
- ألا تستطيع أن تقلع الهزل ، ولو لحظة واحدة ؟
- هل أنت جاد حقا ؟
- نعم .
- لا أفهم .
- كيف السبيل الى توضيح الأمر لك ؟ يكفى أن أقول لك ان هذه الكتب كلها تحمى « مجتمع الوسية » !

كان اسماعيل قد عرف من مناقشاتنا التى نظمناها أبعاد ذلك المجتمع . على اننى ما نطقت بهذه العبارة حتى رأيت جزعا فى عينيه ، استطعت أن أقرأ فيهما المعنى التالى : أننى حسبت خليلا يتخذ من مجتمع الوسية ، وهو الاسم الذى اختاره لمجتمعنا ، مادة للنقد أو للمناظرات ، وللنضال للتخلص منه . أو على الأقل الايحاء لأكبر عدد من الشباب بالثورة عليه . لكننى ما توقعت أن تؤثر فكرة « مجتمع الوسية » على مستقبله . ظهرت الحيرة والقلق على اسماعيل ، وشحب وجهه . شفاهه تتحرك دون كلام . ثم بدأ فمه مشروع ابتسامة ، لم تلبث أن وئدت قبل أن تولد . جمع اسماعيل قدرا كبيرا من الجهد ليقول :

ـ ما علاقة الكتب بمجتمع الوسية ؟

ـ العلاقة واضحة : ألا ترى أن القانون المدنى ينظم عملية استغلال الملاك للأجراء والمستأجرين والمزارعين ، ويحمى ملاك الوسية ، وينزع الأرض لمصلحة المرابين . . ألا يسجن القانون الجنائى الجوعى؟ ألا ترى الديمقراطية الزائفــة يعظـنا بهـا القانـون الدستــورى ؟ . . أرأيت . . أرأيت . .

قاطعنى اسماعيل بهدوء وبابتسامة يكمن فيها سحره وشخصيته المحبوبة :

ـ أنا لا أريد أن أخالفك فى تفسيرك للمادة ، التى تحويها الكتب ، وان كنت لا أخفى عليك أننى أسمع هذا التفسير لأول مرة . . ولكنها الكتب المقررة علينا ، ولابد لنا من دراستها واجتياز الامتحان فيها .

ـ انها مواد لا خير فيها .

ـ ان كنت تقصد الخير العام فأنا أتفق معك . . ولكن وراءها خيرا خاصا ، فنحن لن نستطيع التخرج من الجامعة ، الا اذا ذاكرانا هذه المواد ، واستوعبناها .

ـ أنا لا أريد أن أتخرج من الجامعة ، اذا كانت هذه هى المواد التى لابد لى من دراستها ! فأنا لا أود أن أصبح من حماة مجتمع الوسية ، أو من فقهائه ومشرعى القانون فيه .

جزع اسماعيل مرة أخرى :

ـ أنت لا تقصد انك لا تود أن تتم دراستك الجامعية ؟

ـ الحق أقول ، يا اسماعيل ، لقد فقدت الحرارة التى تدفعنى لأتم دراستى الجامعية ، وبصفة خاصة فى هذا العام . . ألا ترى الحركات الوطنية يقضى عليها . والثورة الاجتماعية الوليدة توأد فى مهدها . والوعى الذى تعمق فى وجدان الرأى العام ينحرف به حكام الوسية . أرأيت حراس الوسية يضربون الشباب الوطنى بالرصاص . فهل يجوز لنا بعد ذلك أن ندرس القوانين التى تحمى أصحاب الوسية وحكامها ، والتى تجعل من الاستغلال علما ؟

ـ **يجب أن نفرق فى نظرى بين وجهين للمشكلة** : الأول عام وأنا أتفق معك فيه تماما ، والثانى خاص وهو المتعلق بمستقبلنا ، واتمام تعليمنا ، وتخرجنا من الجامعة ، لكى نصلح بعد ذلك لخوض معركة الحياة ، سواء فى جانبها العام أو الخاص .

وسكت اسماعيل برهة قصيرة ليستمر بعد ذلك فى حديثه ، بعد أن نظر الى نظرة فاحصة فهمت منها انه يريد أن يرى وقع هـذا الكلام فى :

ـ اسمح لى أن أقول لك ، وأرجو ألا يغضبك قولى ، فعهدى بك أنك

موضوعى فى حوارك ، اننى أختلف معك تماما فى الجانب الخاص للمشكلة .

- هل نستطيع أن نفرق بين الجانب العام والجانب الخاص ؟

- التفرقة عسيرة لا مراء فى ذلك . والمشكلات العامة تنعكس علينا فى معيشتنا الخاصة ، بل وفى مزاجنا كأفراد ، ولكن فى هذه القضية ، التى نعرض لها الان ، يمكن للمرء أن يفرق بين ناحيتها العامة والخاصة : الناحية العامة نسهم فيها جميعا كمواطنين وذلك بالنضال من أجل الاستقلال، ومن أجل تحقيق مجتمع أفضل . ولكن الناحية الخاصة واضحة كذلك. فنحن لابد لنا من أن نتسلح بالعلم . ونتخرج من الجامعة بالحصول على الليسانس ، حتى يمكننا التفرغ للنضال العام والخاص . أما أن نأتى فى منتصف الطريق ، ونقول : ان هذه علوم لا خير فيها لانها تحمى المجتمع القائم فلا أتفق معك فيه . ثم ماذا تنتظر من كلية للقانون فى مجتمع معين ؟ ان عليها بحكم وظيفتها أن تشرح القانون القائم ، وتحمى المصالح المشروعة فى ظل الحكم التى تعتبر أحد عمده . ألا تفعل ذلك كليات الحقوق فى فرنسا وانجلترا وغيرهما من بلاد العالم ؟

توقف اسماعيل لحظة ، خلع فيها نظارته ، ومسح زجاجها بورقة

سيجارة ، **ثم وضعها على عينيه وقال :**

- دعنى أسألك سؤالا أرجو أن تجيب عليه فى صراحه . هل تعتقد ان قرارك بعدم قراءة الكتب ، وعدم دخول الامتحان ، وعدم حصولك على الليسانس ، سوف يحل قضية المجتمع الذى تطلق عليه ، مجتمع الوسية ، وهل سيقلبه ذلك الى مجتمع اشتراكى مثلا ؟

. . . . -

انتهز اسماعيل فرصه استماعى له ، وعرف بلماحيته المعروفه اننى بدأت أستوعب بعض ما يقول . انتهز هذه الفرصة وألقى بما لديه :

- لقد كان اعجابنا ، واعجاب الناس بك ، مصدره انك مناضل علمت نفسك ، بعد أن حرمتك الدولة حقك فى التعليم . . . وقمت ـ وما زلت تقوم ـ بتجربة فريدة ، هى ان جنديا فى الجيش أصبح جامعيا . . فماذا دهاك لتنسى هذا الهدف الكبير والعمل الفريد . . دعك من هذه الأفكار الان الى أن تنضج . ويحين الوقت للنضال من أجلها . دعنا نحقق الخطوة الأولى ، وهى الحصول على الليسانس ، لا سيما وقد بقيت عليه سنة واحدة .

. . . .

اقترح اسماعيل أن نذهب الى السينما ، فهناك أفلام جميلة

معروضـة . ثم استحـثنى قـائلا :

ـ هيا بنا يا « شيخ » أليست لديك نكتة ؟

ـ انت رائق المزاج وماذا يهمك ، ألستم من ملاك الوسية ؟! كان اسماعيل ذا روح رياضية عالية . لم يصدمه هذا القول تقبله بابتسامة معهودة . ويتلمظ شفتيه ، وأجاب على الفور :

ـ هل هذه نتيجة تعبى معك ؟ ليتنى تركتك للكلام الفارغ الذى استولى عليك ، لكى تقطع الكتب . ولا تقنع بقذفها على الأرض . ان تعليم أمثالك خطر جسيم ! لكن ماذا أصنع ؟ لقد كتب على أن أصادقك . ألم أقل لك خمسين مرة نحن لسنا رأسماليين . والحكاية على الله : شيوخ ونواب أمام الناس .

ثم سكت لحظة وكأنه يعد هجوما مضادا :

ـ انت الرأسمالى . . أنا لا أملك شيئا . . وأنت تملك فدانين ، اشتريتهما يا برجوازى وانت عسكرى ، فهى برجوازية وضيعة ، برجوازية أنباشية !!

انطلقت حنجرتانا ، كشأنها دائما نتيجة القفشات التى تتخلل أحاديثنا . أخذنا طريقنا الى السينما . ومع اسماعيل تنسى المتاعب الخاصة والعامة . ويحل محلها الانطلاق والمرح والنكت تفرقع لها ضحكاتنا .

لم تنقض الأزمة تماما ، ولكن ذراتها تشتتت فى نفسى فخـفت حدتها . بذلك أصبحت قادرا على أن أقرأ مواد القانون ، ولو ان درجة استيعابى لها ، لم تصل الى مستوى السنتين السابقتين . لكن لم يبق على الامتحان الا ثلاثة أشهر . والمواد ثقيلة فكريا ، وجافة فنيا . لابد أن أبذل جهدا مضاعفا ، لأتمكن من اجتياز هذه السنة الكئيبة ، اذا غضضنا الطرف عن التفوق . كيف لعمرى يتفوق المرء عقليا فى مواد يلفظها ضميره فكريا ؟!

اجتـزت الامتحـان . ولم أكـن فى المقدمـة . وحصلت على درجة «جيد» . لم أسعد بالنتيجة بطبيعة الحال ، لكننى أيضا لم أبتئس لها ، لا لانى لم أبذل جهدا كبيرا للسيطرة عليها فحسب ، ولكن لأن التفوق فى مواد أكرهها لن يسعدنى .

أمضينا صيفا هادئا . نرقب المستحمات الفاتنات يتخطرن أمـــام « كابينة » اسماعيل بشاطىء « ستانلى » . كانت « البرجوازية » تمسنا عن طريق صداقتنا لاسماعيل . والا كان مصيرنا التشرد على الشاطىء ، دون « كابينـة » ، أو حتى دون شمسيـة ! . وقد منحنى الاستخـدام «المجانى» لكابينة اسماعيل لذة خاصة . لا تقتصر على الاستمتاع المادى ، الذى تهيئه لنا . ولكن لان ذلك الاستمتـــاع طليق

« ومجانى » . ويبدو ان « المجانية » أى الاستمتاع بالخدمات العامة والخاصة دون دفع مقابل لها أو « مصروفات » قد أصبحت عقدة من عقد حياتى . بعد أن حرمتنى الدولة هذا الحق . وطردتنى من مدرسة الزقازيق الثانوية .عجبا هل للفقر مزايا !؟ وهل يمكن أن يكون وسيلة للتمتع بالخدمات المجانية ؟ سواء أكانت هذه الخدمات عامة تغتصبها أنت كرها . فهى لا تقدم لك طوعا فى مجتمع الوسية . أم كانت خدمات خاصة يقدمها اليك الأصدقاء ؟ لقد شعرت بلذة غامرة حين كنت أتخذ من حجرة المسرح المملوك للدولة سكنا .

لقد تسببت بقايا الأزمة، والعزوف عن التفوق فى مواد لا يرتضيها عقلى وضميرى ، أن أصابنى لون من التخفف غريب ، التخفف من كل شىء واللامبالاة بأى شىء .

بدأت السنة الرابعة والأخيرة من دراستى فى كلية الحقوق ، ١٩٤٩ ، بهذه الروح التى لا تعتبر سلبية ولا ايجابية : موجات من اليأس الغامض، والأمل الغامض تروح وتجىء . شعور غريب بأن الحامل لليسانس الحقوق كغير الحامل له ! بل ان الذى لا يحمل ليسانس الحقوق يعفى ضميره من ثقل الدفاع عن قيم الوسية ، ومن وخز التفقه فى تثبيت دعائمها .

ترتبت على هذه الروح اننى لم أعد حريصا على لقاء الأساتذة والعميد والطلاب ، اللهم الا مجموعة الأصدقاء التى كانت تسعى الى أكثر مما أسعى اليهم . لكن لقاء العميد مسألة أساسية فى مستهل كل عام للحصول على المجانية . لكننى الان لا أهتم بالمجانية أو المصروفات ، فليقرر العميد ما يشاء ! اننى ادخرت أربعين جنيها فى صندوق التوفير . فليأخذها العميد ليثرى دولة الوسية ، فأنا لست فى حاجة اليها ! الم أعش هذه السنوات الطوال بدونها ؟ لماذا أهتم بها بل لماذا أدخر على الاطلاق ؟ أأدخر للمستقبل ؟ هل سيكون المستقبل أسوء من الماضى والحاضر ؟ هل أشترى بها نصف فدان مثلا ؟ ولكن ليست هناك ضرورة لذلك ، فلدى فدانان يكفلان للأسرة الى جانب ما أرسله لها ، مستوى الكفاف . أأدخرها مثلا لتستثمرها الدولة استثمارا انتاجيا ؟ انها دولة الوسية ، والمدخرات سوف تقوى منها . وهى على أية حال ، سوف تنفقها فى أوجه الاسراف التى ينعم بها حكام الوسية . ولن تذهب الى عمل انتاجى ، أو الى خدمات تعود على الجماهير . ألم يحرمونى حقى فى خدمة التعليم فيما مضى ؟ اذن فليأخذ العميد الأربعين جنيـها ، وليذهب بعد ذلك الى الجحيم . ولأعف نفسى من تفضله ومنه ، ولن أقول له اننى فقير مرة أخرى .

٥٦

اذا كان النضال العام قد بتر . واذا كانت الفئة الحاكمة والمالكة للوسية قد أمسكت بزمام الأمور من جديد . واذا كانت المظاهرات قد حرمت فى الشوارع . فلا بأس من أن نستأنف النضال ثقافيا على الأقل داخل الجامعة . أنا ما زلت رئيسا لجماعة الثقافة . ومن الممكن أن يستخدم هذا المنبر ليظل المثقفون ممسكين بالمشعل ، الى أن يتسنى استئناف النضال الحقيقى للقضاء على المالكين للوسية . لكن ما هو الموضوع الذى نفتتح به الموسم الثقافى هذا العام ؟ برق فى خاطرى موضوع غير مألوف : كلية الحقوق ومجتمع الوسية !

لكن العميد قد يغضب . قد يكون فى هذا الموضوع نوع من نكران الجميل . لكن أى جميل ؟ ان لى حقا فى المجانية . والكلية ليست وسيةخاصة للعميد . وكذلك يجب ألا تكون هناك مجاملات فى القضايا العامة . فليغضب اذا كانت لا تثيره القضايا العامة . رضاه أو غضبه لا يهم ، بل قد يكون من المفيد اغضابه !

حدد يوم للمناظرة ، التى اخترت لها فطاحل اليسار ، ليمثلوا الهجوم على الكلية التى تشرع وتفقه لمجتمع الوسية . واخترت للطرف

الاخر من المناظرة من يدافع عن الكلية . نجحت المناظرة . شهدتها جماهير غفيرة من الطلاب . صال اليساريون وجالوا ، شهدوا يوما اخر من انتصاراتهم .

لكن فرحتى ، بالمناظرة ، وبنجاحها لم تتم . فما آن انتهت المناظرة حتى جاءنى فراش يستدعينى لمقابلة العميد فورا . ذهبت للقائه . بادرنى العميد بلهجة غير صديقة :

ـ ما هذا الذى تفعله ياسى خليل ؟

ـ ماذا فعلت ؟

ـ ما هذه المناظرة التى جمعت لها الجامعة كلها ؟

ـ هذا جزء من نشاطنا الثقافى .

احتد العميد احتدادا عنيفا :

ـ اسمع . . أنا لا أريد أن تنقلب الكلية فوضى . . الحرس الجامعى استدعانى من منزلى الآن قائلا : خليل عامل لنا ثورة فى الكلية .

ـ ما موضوع المناظرة ؟

ـ الموضوع الذى ناقشناه معا : كلية الحقوق ومجتمع الوسية !

انفجرالعميد ، تطايرت شظايا من فمه الى وجهى . كان جزء من ثورته لا يتعلق بموضوع المناظرة فحسب . بل لاننى لم أوف بعهدى

من عدم استخدام هذا اللفظ فى مواجهته :

ـ سوف أحرمك من المجانية . . هل تفهم ؟ ما أنت الا شاويش فحسب !

ـ لم هذا الغضب ؟

ـ لا تكلمنى بهدوء . . اننى يمكننى لا حرمانك من المجانية فحسب ، ولكن يمكننى فصلك من الكلية .

سكت العميد لحظة يجمع فيها شتات فكرة . بدا لى وكأنه يفكر فى ألفاظ أكثر وقاحة من الألفاظ التى وجهها لى حتى الآن . تبدى لى العميد على حقيقته . كان العلم قد خلع على الرجل رداء مهلهلا وتهذيبا سطحيا . انه لم يستطع أن يغير من طبيعته ، فها هو ذا وقد وجد ان مصالحه الشخصية مهددة ، فانقلبت ألفاظه جارحة مقذعة . **واصل العميد قذائفه :**

ـ ان أمثالك يجب ألا يتعلموا . ففى تعليمهم خطر على المجتمع !

ـ حاولت حتى الآن أن أحتفظ بصبرى . وما كان لى وأنت أستاذى أن أبادلك الشتائم ، التى ما تفتأ تقذف بها ذات اليمين وذات اليسار . لكن أرجو ألا تستغل موقفى ، وتستنفد صبرى ، فللصبر حدود !

ـ كيف اذن تجمع هؤلاء الأولاد الذين يدعون أنفسهم باليساريين ،

وتهاجمون الكلية والحكومة والقوانين . ألا تعرف أن هذه جناية ؟

ـ لك أن تصورها جناية كما تشاء . فأنت أستاذ قانون العقوبات . لكنى أعتقد ان هذا لونا من حرية الفكر . وأنا أود أن أذكرك ولو أن الكلية تدعم الوضع القائم وقوانينه من الناحية الرسمية ، الا انها كانت منبرا من منابر الفكر الحر . ودورها فى التصدى للقضايا الوطنية والاجتماعية معروف . ولا أعتقد أنه يسعدك أن يتخلى الطلاب والأساتذة فى عهدك عن هذه الرسالة .

أخذ العميد يهدأ بعض الشىء ، ويخفض من صوته :

ـ ألا تعلم أن هناك أحكام عرفية و أن الاجتماعات ممنوعة ؟

ـ حتى داخل الجامعة ؟

ـ هل تستثنى الأحكام العرفية الجامعات ؟ أنت كذلك لم تستأذنى لاقامة المناظرة . والمفروض أنك رجل مسئول عسكريا ، والجيش نظامه صعب، ولا يجوز للعسكرى أن يشتغل بالسياسة .

وهو ممنوع عليه على أية حال أن يهاجم الحكومة أو منظماتها . اننى أنصحك أن تبتعد عن هؤلاء الأولاد الذين أسهموا فى المناظرة .

خرجت من عند العميد لاذهب لغرفتى . استعرضت أحداث اليـوم . لقد كسبنا يوما ثائرا رغم تهديد حماة الوسية وفقهائها . ونمت نوما متقطعا ، فقد حرمتنى الاثارة من النوم العميق . . .

٥٧

يبدو أننى على موعد مع مجتمع الوسية ، ومع عذاباته الظاهرة والمستترة . تجرعت كئوسه جميعا : كأس الفقر والحسرة على أرضنا يغتصبها الجرسون اليونانى . وكأس الضياع فى وسية الخواجة ، وكأس البؤس والاستغلال يصبها الخواجة فى أفواه الفلاحين . وكأس خيبة الأمل فى الوسية العسكرية ، وكأس كلية الحقوق تفقه الاستغلال والظلم ينصبان على الجماهير . . على أنه وسط هذه الكئوس المرة ، تذوقت كأسا حلوة قصيرة الأجل عمرها من عمر الزهور . انتعش أملى على رصاص الانجليز ، وحراس الوسية المحليين ، يخترق صدور الشباب ، الذى يناضل للاستقلال، ولبناء مجتمع أفضل . على أن هذه الكأس لم تكن ملأى ، بل كانت فيها ثمالة نضبت قبل أن تـروى ظمئى . تلاشى عطرها ، ولم يكد يفوح . استرد حـراس الوسية سلطانهم ، وجفت الكأس ، ثم امتلأت بشراب لونه ظلام ، وقطراته غصص .

كنت أظن أننى بهذه الكئوس أكون قد أتيت على ما فى مجتمع الوسية من آلام . وتجرعت ما فيه من مرارة . لم أكن أدرى أن هناك كأسا أخرى ليست ككل الكئوس . لم يكن لى علم بها ، فهى كأس غير مرئية . يرتشف قطراتها مواطنون لا يحس بعذاباتهم انس ولا جان .

كنت أبيت ذات ليلة فى منزل قريبى . وفى الساعة الثالثة بعد

منتصف الليل دق باب المنزل دقا عنيفا متتابعا . استيقظ قريبى الذى كان مريضا متقدما فى السن ، وفتح الباب سمعت جلبة وأصوات أقدام فى الصالة فتح باب حجرتى فى عنف .

و اذا بيد غليظة تهزنى فى سريرى . وأفتح عينى على منظر رهيب : ضباط وعساكر ومدنيون ، يقدح الشرر من عيونهم . وأنتفض من فراشى فزعا . **واذا بصوت أجش يسألنى :**

ـ أنت خليل حسن خليل ؟

ـ نعم . . . .

ـ البس ملابسك وتعال معنا .

ـ الى أين ؟

ـ ستعرف ذلك حالا .

كانت الوجوه الجامدة ، والملامح المتزمتة ، واقتحام المنزل ، والارهاب الذى تمت به العملية ، كل ذلك قد أوحى الى بأننى قد جئت أمرا ادا .

كان عام ١٩٤٩ من أعوام الارهاب فى مصر . وقد قام بالارهاب الحاكمون والمحكومون . فقد اشتد ساعد « الاخوان المسلمين » . وقد أسهم فى انتشار قوتهم السياسية عوامل عدة منها : ذلك الصراع المستمر على السلطة بين الملك وبين حزب الوفد ، والذى كان يمثل الأغلبية . ومنها تمزيق حكومات الأقلية للدستور ، واستخفافها بالحريات

و بالديمقراطية . ومنها تفسخ حزب الوفد نفسه ، وانفصال أحمد ماهر والنقراشى ، وتكوينهما للحزب السعدى . وتبعهما مكرم عبيد ، وتكوينه للكتلة الوفدية . وأهم من هذا الفساد الذى استشرى فى الحكم والأحزاب جميعا فى ذلك الوقت ، فأصبحت البلاد وسية كبرى للأحزاب الملكية تارة، وللوفد تارة أخرى .

ومن الأسباب الرئيسية كذلك لقوة الاخوان المسلمين ، الدعوة التى يستندون اليها ، فالشعب المصرى شعب مسلم ، تهزه المعانى الدينية . ومن الممكن أن يستجيب لها ، بغض النظر عن القائمين بها .

أسهمت قيادة الاخوان المسلمين ، وبصفة خاصة مؤسسها ، حسن البنا ، الذى كانت له قدرات خارقة فى استخدام الدين لجذب الناس اليه . وقد يكون من الأسباب كذلك ، أن اليسار ، بدرجاته المختلفة ، لم يستطع أن يجتذب الجماهير من الوفد والاخوان ، فهناك تراكمات تاريخية لا نزاع قد حالت دون ذلك ولا شك أن اليسار قد اجتذب مجموعة كبيرة من شباب العمال والطلاب والمثقفين ، ولكن قيادته ، أو قياداته ، أتت معظمها من أبراج عاجية . وما كان للأبراج العاجية أن تكتل الجماهير الكادحة للنضال الوطنى والاجتماعى . فالقادة ليسوا - من وجهة نظر الحقيقة العلمية - قطعة حية ، وقدوة مقنعة لنضال الجماهير . وقد فطن الاخوان المسلمون لذلك فنادوا بأن الاسلام يدعو للاشتراكية .

أدرك الاخوان المسلمون أن السيطرة على الحكم ، لابد لها من قوة مسلحة ، فأنشأوا ما يسمى « بالجهاز السرى » أو « النظام الخاص » . وانضم له عدد كبير من الشباب كانوا يعدون عسكريا للاستيلاء على الحكم .

عاونتهم على ذلك الحرب مع اسرائيل عام ١٩٤٨ لتحرير فلسطين. فقد أسهمت معظم الحكومات فى اعطائهم الحرية للتسلح ، والتطوع لحرب فلسطين .

لسنا نود هنا أن نعرض لأحداث مصر فى تلك الفترة ، فهذا يتطلب دراسات تاريخية مطولة . لكن الذى يعنينا هنا ، هو أنه نشأ نزاع بين الاخوان وحكومة النقراشى ، وهو نزاع على السلطة . أدى هذا النزاع الى اغتيال النقراشى فى قلب قلعته ، وهى وزارة الداخلية ، فقد كان رئيسا للوزراء ، ووزيرا للداخلية . وقد قتل بطريقة « دراماتيكية » ، أدخلها الاخوان المسلمون لأول مرة فى مصر . ارتدى القاتل بذلة عسكرية لضابط من البوليس ، ودخل وزارة الداخلية ، وصرع النقراشى فى ساحة الداخلية نفسها .

اشتعل الارهاب من الجانبين . . تولى ابراهيم عبد الهادى رياسة الحكـومة بعد مقتل النقراشى .. وقد بدأ عملية الانتقام بقتل زعيم الجماعة « حسن البنا » فى شارع من أكبر شوارع القاهرة ، وهو شارع رمسيس . و بطبيعة الحال لم يكن هناك جناة !!

انصب الارهاب على جماعة الاخوان كلها ، اعتقل الجزء الأكبر من أعضائها . بل شمل الارهاب مصر كلها . واعتقلت أنا فى هذا الجو الرهيب ، ورغم أن السلطة على يقين من أننى لست اخوانيا .

ولكن ، من يقرأ ومن يسمع ، . ورغم الارهاب الأسود ، الذى لمسنى بلمساته ، فقد تذكرت حين اعتقالى هذه النكتة الشعبية المعبرة ،رأى جمل حمارا ، يجمح فى الشارع ، ويهرول مسرعا ، فاستوقفه . وسأله عن سبب جموحه . أجاب الحمار : انهم يجمعون الجمال . وأردف الجمل : ولكنك حمار ولست جملا . فأجاب الحمار : كيف أثبت أننى لست جملا !! ، .

ركبنا لوريا . . . وجدت فيه بعض الشباب من بينهم سالم طالب اعرابى صديق ، وأحد أعضاء مجموعتنا . كانت رؤيتى له تثير الراحة فى نفسى من ناحية ، وتزيد من مخاوفى من ناحية أخرى . فهو هادىء كالحمل الوديع ، يسوقه الى المراعى الجافة فى الصحراء أعرابى من البادية. فهو ليس سياسيا ، وليس خطيرا . ولا تتجاوز أفكاره أن يأكل ، قرصا ، مصنوعة من السكر والسمن والدقيق ، بدلا من الخبز العادى ، عندما يريد أن ينقص وزنه ، كما أخبرنى بذلك يوما ! فاذا كان يرافقنى فى هذه الرحلة فلا جناح علينا أو على أحدنا ! ولكن سالم قد هزل لحمه ، وشحب لونه ، وطالت لحيته ، فماذا فعلوا به ؟ تراءى لى خاطر مخيف ، فسالم صديقى ، وهو من ، المجموعة ، أو ، الشلة ، .

هل اعتبرونا شلة . خطرة على الدولة ، كما إلمح لى العميد بذلك ؟ وهل رأوا ذلك الخطر فى المناظرة التى نظمتها عن كلية الحقوق ومجتمع الوسية ؟ لكن سالم لم يسهم فى المناظرة ، وهو بطبعه لا يستطيع أن يسهم فيها و فى غيرها . . وعصفت بى الظنون .

ووصلنا الى قلعة البوليس . أخذنا الى مكتب فاخر فيه رياش وطنافس . وفيه كذلك انسان هزيل الجسم ، فى وجهه قسوة بالغة ، وفى عينيه شر مستطير . **وسألنى دون أن ينظر فى وجهى :**

- أين حسن ؟
- حسن مين يا أفندم ؟
- ألا تعرف حسن ؟ حسن عونى .

وتنفست الصعداء قليلا ، فلست أنا المقصود . ولم تكن المناظرة هى السبب فى هذه العملية الرهيبة . لكن الصعداء ما لبثت أن هبطت وسرت فى كيانى كله . ان حسن عونى من الاخوان المسلمين . وتهمة الاخوان فى هذه الأيام من عام ١٩٤٩ ، كانت كتهمة الخيانة العظمى تماما .

أجبته :

- لم أره منذ أسبوعين وكان يسكن فى شارع . . . .
- كيف لا ترى صاحبك طوال أسبوعين ؟ نحن نريده ولابد أن تدلنا عليه . . نريده لمسألة خطيرة : أنت تعرف الارهابى يوسف . .

كان مختفيا عند حسن . . ولا شك أنك ستعاوننا فى القبض عليه .

- أقسم بأى قسم تريده اننى لا أعرف مكان حسن .

- طيب . . . والارهابى يوسف ألا تعرف مكانه ؟

- أنا لم أسمع اسمه الا من الجرائد .

نظر الرجل الهزيل الى باحتقار . أشار الى أنباشى يقف بجوارى لكى يقودنى الى الخارج جذبنى الأنباشى من زراعى بقوة لا أدرى من أين اكتسبها ، فهو بائس فقير سيىء التغذية . كاد الأنباشى أن يخلع ذراعى . لا يعلم اننى أنباشى مثله . ومن نفس الصنف والطبقة . لكن انى له أن يعرف . ولو أخاله يعلم . فسوف لا يرفق بذراعى . خرجت من الغرفة . أخذ ضوء النهار يتسرب الى المكان المظلم اصبحت أرى وجوه المعتقلين الشاحبة ، والكدمات التى تعلوها .

رأيت من بينهم سالم . كان يقف فى الطرقة أمام مكاتب الضباط الذين يحققون معنا . وكان « ملطشه » لكل من هب ودب . فكل خارج من المكاتب وكل داخل اليها يصفعه أو يركله أو يبصق على وجهه . وكلهم يسألونه عن حسن ، وعن الارهابى ! وأضحك من المنظر وأبكى: أضحك لأن هؤلاء الناس الأذكياء الذين يتولون الحراسة السرية لمجتمع الوسية يعتقدون ان سالم اعرابى البادية الساذج لديه أسرار ، ويطوى صدره على معلومات عن ارهابى الاخوان . وابكى لان انسانا مثقفا سوف يكون محاميا أو وكيلا للنائب العام أو قاضيا بعد بضعة أشهر ،

يمتهن هذا الامتهان ، ويعبث بانسانيته هذا العبث . على أن ضحكى وبكائى كانا صامتين ، لا ابتسام ولا دموع .

ساقونا مع الفجر الى سراديب تحت الأرض . وفى هذه السراديب المظلمة القذرة ، التى تفوح منها رائحة كريهة كرائحة الموت ، وضعنا فى زنزانة جماعية . جلسنا على البلاط . وفى ركن من الأركان ، وضعت جرادل مكشوفة لتقوم بدور المراحيض . وجاءوا بفطور الصباح، ولم أعرف لونه فالحجرة مظلمة ، ولم أدر طعمه فحاسة الذوق عندى كانت معطلة .

عندما انتصف النهار ، استدعينا للاستجواب مرة أخرى وقفنا فى الطرقة أمام المكاتب . طال وقوفنا . واستمرت اللعبة التى يتسلى بها حراس الوسية اخذوا يصفعون سالم فى غدوهم ورواحهم . لكن عنصرا جديدا دخل على المشهد ، فقد كانت ترد الى أسماعنا صرخات عالية ، اهات مكبوتة تقطر دما ، ثم ما تلبث أن تنقلب الى صياح مسعور .

كان من بين الأصوات صوت ليس غريبا على أذنى . . كان صوتا قويا شابا يهدر كالثور الجريح . كان ذلك هو صوت حسن ، كان الضارب الذى يرافقه فى أدائه يحدث بأدائه فرقعة مرتفعة مبتورة تبطىء أحيانا . ثم يركض بعضها اثر بعض عندما تنتابه الحمى .

خرجت القافلة مرت أمامنا تجسد أمام ناظرينا هوان الانسان .

رأيت حسن ضمن القافلة . لقد اشتد الحول الذى كان بعينيه انقلب

حوله الى الداخل ، بعد أن كان يتجه الى الخارج ! لهذا لا أعتقد أنه رآنى ، رغم انه التفت نحوى . كان لونه الذى كلن يجرى فيه الورد أحيانا قد أصبح أشبه بلون الموتى . شوه وجهه الشاب . ضمر قفاه الذى كان رياضيا عريضا . انتابتنى فى هذه الحظة مشاعر خجلت لها . هذا هو حسن الذى جئنا بسببه الى هذا المكان . كان هناك شعور فردى بغيض ، يصور لى انه سبب النكبة التى حلت بنا . بقيت شهور قليلة على امتحان الليسانس . وهذه هى آخر مرحلة من مراحل الكفاح الطويل الذى خضته لاستئناف دراستى . فى الوقت الذى أكاد أمد فيه بيدى لأقطف الثمرة ، وأرى الأمل يتجسد فى الليسانس على بعد شهرين أمامى ، اذا بهم يعتقلوننا بسبب حسن هذا . سوف لانجنى الا الضياع ، وخيبة الرجاء .

أن العقيدة التى تسيطر على أذهان المعتقلين ، والفكرة التى يتفانون فى تحقيقها ، والنظام السياسى الذى يطمحون الى اقامته ، تخفف عنهم ويلات الاعتقال . وتمدهم بقوة معنوية يهون معها التعذيب ، ويستعذب معها الهوان . لكننى لست مؤمنا بفكرةالأخون السياسية ، فكيف أعتقل معهم ويطلب منى أن أرشد عن ارهابييهم ؟ ان أشد أنواع الظلم وقعا على النفس أن تواجه بتهمة أنت منها براء ، وأن تعتقل من أجل فكرة أنت من خصومها . ويبلغ الشعور بالظلم ذروته اذا كنت فى مجتمع لاتستطيع فيه الدفاع عن نفسك . فأنت لاتستطيع أن

تدافع عن نفسك فوق سطح الأرض ، وفى ضوء النهار ، فكيف يمكنك أن تفعل ذلك فى السراديب التى يحشر البشر فيها حشرا تحت الأرض . ثم تطلق عليهم قوى الظلام تنهش أجسادهم وأرواحهم جميعا .

ولكن حسن الآن يجمعنى به ألم مشترك ، « ألم الهوان الانسانى » . أن وجهه الشاحب وآثار « التشويه » التى أزرت بانسانتيه ، قد أنستنى انه كان سبب المحنة التى نتعرض لها الآن .

انقلب شعورى الى عطف عليه ، لاعطف على فكرته . وكان منظره قد ركب نوعا من المرارة علق فى حلقى ، نوعا لم أذقه من قبل فى مجتمع الوسية .

اقتادونا مرة أخرى الى جوف الأرض . تكدسنا فى الزنزانة فاحت رائحة البول والبراز من الجرادل ، التى لم استطع استخدامها . فليس فى جوفى ما أريد التخلص منه . كذلك فان العرق الذى يتصبب من مسامى طول الوقت قد وفر على عناء استخدام الجرادل للتبول .

وفى منتصف الليل تماما استدعيت وحدى للتحقيق .وفى غرفة الرجل الهزيل القاسى الملامح وجدت نحو عشرين ضابطا ومدنيا يجلسون فى شكل دائرة ينتظروننى . بدأت عملية استجواب رهيبة . كانوا قد أعدوا العدة لكى يقوم « حسن » بنوع من المؤثرات الصوتية الخلفية لعملية استجوابى . فمن الغرفة المجاورة تماما لغرفة التحقيق سمعت حسن يصرخ ويولول ويعوى . ثم ينوح ويلهث ثم يصمت .

وتصمت معه الأدوات التى تعاونه فى أدائه . ثم ينفجر فجأة فى صراخ وولولة وعواء من جديد .

بدأ الرجل الهزيل قاسى الملامح يسألنى :

- ألا تقول لنا يا أنباشى أين الارهابى يوسف ؟

- أظنكم قبضتم على حسن ، ولا شك أنه قال لكم أين هو .

وكان حسن فى هذه اللحظة فى مرحلة « النواح » ، فسكت الرجل الهزيل لكى أستوعب جيدا عملية النواح . و أعرف ما يجرى لحسن . وقصد بهذا الارهاب النفسى أن أرشد عن الارهابى والا فهذا مصيرى ، **ثم قال بصوت خفيض متهكم :**

- حسن لم يقل شيئا . . وأنت الذى ستقول !

- الحمد لله أن أمسكتم بحسن الذى جئت الى هنا من أجله .

- حسن ليس مهما . . . المهم الارهابى لابد أن ترشدنا اليه !

اعترانى رعب أسود . أنا لا أعرف الارهابى ولا شكله . وهذا التجمع المدنى العسكرى الذى أختير بدقة لتؤدى ملامحه ، ودعك الآن من وسائله ، دور الارهاب الأثيم حينما يستجوبون المعتقلين . هذا الاصرار على ضرورة ارشادهم عن الارهابى يوحى بانهم يتهموننى باننى من الاخوان المسلمين ، وهذه هى الطامة .

جمعت كل ما منحته فى هذه الدنيا من خبرة ومعرفة وقدرة على الكلام . استخدمت ما أستطيع أن أسيطر عليه من لغة وأسلوب وفن فى

الحديث . أكتسبت لهجتى المتحمسة بطبيعتها حماسة اضافية . لونت صوتى بألوان تجعله معبرا ، يثير الشفقة من ناحية والاقناع من ناحية أخرى . قلت لهم :

- ان كل انسان فى الكلية يعلم بأننى أعارض الاخوان ، نظمت مناظرات عدة ضدهم . يمكنكم كذلك أن تسألوا عنى بوليس الجامعة . وأنا عسكرى أسهم فى المحافظة على القانون والنظام ! و أنا كذلك انسان مسئول ومكافح . وقد حرمت من التعليم ، وضاعت أرضنا ، وتعرضت لصور من الفقر تخلصت منها بتطوعى فى الجيش . وبدأت عملية تثقيف ذاتية ، وتفوقت فى التوجيهية ، وأنا من أوائل كلية الحقوق ، وأمامى بضعة أشهر لكى أقطف ثمار جهودى وأحصل على الليسانس . ولدى أسرة أريد لها أن تعيش . و أقسم لكم ، وأنتم تعلمون بما لديكم من وسائل صدق هذا القسم ، اننى لا أعرف هذا الشخص ، ولم أره فى حياتى الاعندما نشرت الجرائد صورته .

كانوا يستمعون الى فى اهتمام واضح ، أو هكذا خيل الى .

وما أن انتهيت من كلامى حتى بادرنى أحدهم :

- نحن لا نريد خطبا أو انشاء ، نريد الارهابى يوسف !

سكت . . أغرق جسدى عرق كالسيل . كان حسن فى هذه اللحظة قد صمت نهائيا ، فران على المكان سكون زاد أعصابى اضطرابا . ثم استطعت أن أقول فى لهجة يائسة :

لقد قلت ما أعرفه.

وتبارى الفريق كله فى توجيه الأسئلة الى وأنهى الرجل الهزيل القاسى الوجه الاستجواب قائلا:

– اسمع يا أنباشى.

– أفندم.

– أنت تستطيع أن تفيدنا فى العثور على الإرهابى.

– كيف؟

– لاتقاطعنى.

– حاضر يا أفندم.

– أنت رجل عسكرى ومسئول، ولك أصدقاء من الطلبة، وسوف نطلق سراحك، بشرط أن تساعدنا على أن نقبض على الإرهابى.

وخرجت من الحجز، ومن قلعة البوليس، وشعرت بشعور الذى يخرج من القبر.. لقد أحسست بأنى بعثت مرة أخرى.

٧٤

إن الايام التى قضيتها فى الاعتقال قد عقّدتنى تعقيدا شديدا. وهى من ناحية أخرى قد أثْرت معلوماتى عن مجتمع الوسية. فقد كان هناك جانب من جوانبه مجهولا تماما، وأصبحت الآن على شئ من العلم بما يدور فى الدنيا المستترة

من دنيا مجتمع الوسية. وقد زادت المشاهد الرهيبة التى رأيتها من مدى الغثيان الذى أفرغه مجتمع الوسية فى جوفى.

لقد تحملت آلام هذا المجتمع فى شجاعة وصبر، ومن الممكن أن أتحملها مرة أخرى، ولكن الأهوال التى عشتها فى تلك الأيام لايمكن تحملها بنفس الشجاعة والصبر.

لماذا يتثقف الناس فى العالم الوسية اذا كان مصيرهم هو هذا الهوان والإذلال؟ لماذا ينقلب حراس الوسية كلابا مسعورة، تنهش لحوم اخوة لهم فى الدم والوطن والجنس والتاريخ والمصير؟ لقد حيرنى حقا أن العساكر والأنباشية يسهمون فى عملية التعذيب الوحشى. ان المعذَّبين هم اخوتهم وأبناء عمومتهم ومواطنوهم. ومن المتصور – وأنا لا أقصد الحالة التى اعتقلنا من أجلها – أن يكون المعتقل من المثقفين أو غيرهم من الثوريين، ويكون اعتقاله بسبب مناداته باقامة مجتمع أفضل، ينتفى فيه استغلال الإنسان للإنسان.

لماذا إذن يسهم هؤلاء فى عملية بشعة، هى أقسى ما يمكن أن يفعل انسان بانسان.

لاكرامة ولاضمان لإنسان يعيش فى مجتمع الوسية. ولن ينقذه من زيارة الحياة «السفلية» لهذا المجتمع أى مستوى ثقافى يكون قد وصل إليه [illegible] اذن أشقى وأجتهد للحصول على الليسانس، [illegible]

هذا هو مصير للمثقفين ؟ وأصابتنى اللوثة القديمة بأن التعليم فى مجتمع الوسية لن يجدى المرء أو المجتمع شيئا . عندما بلغت عذاباتى ذروتها ، وتقززاتى مداها ، أحسست بتيار آخر من الأفكار يتدفق فى اتجاه مضاد تماما لذلك التيار السلبى الحزين . ان مجتمع الوسية لا يكتفى فى حمايته لنفسه بالقوى الظاهرة ، ولكن لديه قوى خفيه أكثر شراسة وأشد ضرواة . إذن ، لابد من قوة اكبر من هذه القوى جميعا ، إذا كان يراد اجتثاث دولة الوسية من اساسها ، واقامة دولة أفضل . لكن أين هذه القوى الأكبر ؟ . .

أن الفئة المالكة للوسية عددها قليل . . والأغلبية الكبرى من الشعب هم الفلاحون والعمال والطلاب والعساكر والمثقفون . انهم اكثر عددا وأقوى ايمانا ، وآشد احساسا بالظلم اذ يقع عليهم وحدهم ، وأكبر استعدادا للعمل . على من تعتمد قيادة مجتمع الوسية ؟ على عساكر الجيش والبوليس ، أبناء الفلاحين والعمال ، فهل يمكن أن يدرك هؤلاء وأولئك أنهم قوة كبرى ، وأنهم اذا تخلوا عن ملاك الوسية وحكامها لا يلبث أن يتهاوى بناؤها وتتداعى أركانه ؟ انهم بتنظيم كفء وقيادة واعية امينة تنبثق من صفوفهم يمكن أن يضعوا نهاية للوسية الكبرى كيف الوصول الى ذلك ؟ لابد من عملية تثقيف . والتعليم مسألة أساسية لنشر الثقافة . وعلى ذلك لابد لى أن أتمم تعليمى وأحصل على الليسانس . وأقبلت على الكتب التى تشرح قوانين

الوسية وأصررت على التفوق . ويأتى الامتحان وأحصل على الليسانس وبدرجة « جيد جدا » . . . .

نشرت القصة فى الجرائد المجلات العربية والأفرنجية . وعلم وزير الدفاع بالخبر من الصحافة فنشر فى « الاهرام » حديثا عنى وعن فخره بى دون أن يرأنى ! وعن التقدم الذى أحرزه الجيش وعساكره فى عهده . وعد بأن يكافئنى مكافأة كبرى وذلك بتعيينى فى وظيفة ممتازة لكى أكون حافزا لعساكر الجيش الآخرين . ترقبت المكافأة الكبرى ولكنها تباطأت . عين زملائى وكلاء للنائب العام ، وأعضاء فى مجلس الدولة ، ومحامين فى قضايا الحكومة (وهى الوظائف التى تخصص للمتفوقين) . لم أعين معهم رغم تفوقى عليهم . وسألت عن الطلبات التى قدمتها لتلك الجهات فقيل لى ان الوزير سيعيننى فى مكان « ممتاز » انتظرت منحة وزير الدفاع دون جدوى . وقلقت وذهبت لمقابلة سكرتيره ، الذى قال لى ان « الباشا » مهتم بأمرى « ومر علينا الأسبوع القادم » عدت و أعيدت العبارة نفسها « الأسبوع القادم » . وبعد عدة أسابيع « قادمة » فوجئت بالمكان الممتاز الذى اختاره لى الباشا الوزير : موظف بالدرجة السادسة بمصلحة الطيران المدنى وطلبت مقابلة الوزير ولم أتمكن من رؤيته . قلت للسكرتير كيف أعين فى هذه الوظيفة ، وأنا متفوق على أولئك الذين عينوا فى النيابة ومجلس الدولة ؟ سكت السكرتير ، ولم أر الوزير .

ان مقاييس الوسية وقيمها ما زالت تلاحقنى ، حتى بعد أن حصلت على الليسانس بدرجة « جيد جدا » . فلم ترض حراسة الوسية القانونية بأن أكون أحد أعضائها ، فوظائف النيابة شأنها فى ذلك شأن وظائف الجيش والبوليس كانت وقفا على طبقة معينة . فهى مقصورة على أولئك الذين لهم نصيب فى الوسية ، أو على أولئك اللذين يمكن أن يكونوا حراسا مخلصين لها . علمت كذلك أن الوزير فى لحظة حماسة لى تحادث مع النائب العام ، الذى قال له ان وظائف النيابة تعطى لأفراد من أسر معينة . ولما كنت « عسكرى » فلا يجوز أن أتولى هذه المناصب « الممتازة » . اقتنع الوزير ، وهو المشرف على حراس الوسية بوجهة النظر هذه ، فهناك دائما تفاهم بين قانونيى لوسية وقادة حراسها . لذلك تبخرت حماسة الوزير ، ولم يقابلنى ، رغم مفاخرته بى على صفحات الجرائد !

تخلصت من خيبة الأمل بسرعة ، ذلك أن كل شىء متوقع فى دولة الوسية ، والتى غدت معاييرها وقيمها لا تحظى باحترامى . بل ان تقسيم الوظائف الى وظائف « راقية » مقصورة على طبقة معينة ، والى وظائف « للسوقة » يعين فيها أفراد الطبقات الشعبية ، أصبح لا يثيرنى . فطالما أن المجتمع متخلف ، وإن الذين يملكونه ويقودونه ويحرسونه ويحددون معاييره وقيمه متخلفون ، أذن فكل ما فيه متخلف .

أعلنت جامعة أسيوط عن بعثات توفدها للخارج للحصول على

الدكتوراه ، ثم العمل أساتذة فيها . لا مراء ان الدكتوراه والتدريس فى الجامعة سوف يتيح لى آفاقا رحيبة . تقدمت لبعثة الاقتصاد السياسى وحصلت عليها . وفى انجلترا عندما ذهبت لاعداد الدكتوراة تفتحت أمامى كنوز جديدة من المعرفة ، ونهلت من ينبوع ثقافى عريض .

عندما انتهيت من دراسة الدكتوراة ، عدت الى وطنى . وجدت أهل قريتى قد نصبوا مهرجانا لاستقبالى بدءا من الاسكندرية حيث جاء بعضهم للقائى فى الميناء وصلت القرية فى منتصف الليل . وجدت أهل القرية كلهم ، رجالا ونساء وأطفالا ، تتوسطهم أمى وأخى فيصل وأخواتى البنات قدموا لى أروع هدية يمكن أن تقدم لأحد أبناء القرية كانت الفرحة بدائية أصيلة رائعة ، كانت باقة من الأضواء والزغاريد والهتاف والرقص ، والأحضان و القبلات . غير أن انسانا واحدا عزيزا على قلوبنا جميعا ، غاب عن المهرجان : والدى • ارتحل عن دنيا الوسية . للقاء ربه . .

على ان مكافاة كبرى كانت رابضة هناك وسط الزحام لقد قبلنى الناس جميعا وعانقونى . لكن قبلة معينة كان لها مذاق خاص ، وعناقا معينا كانت له حرارة خاصة ، تلك كانت قبلة « عم محمد محمود » وعناقه . كان الرجل كما تركته فى عزبة الخواجة اليونانى منذ عشرين عاما . لم يتغير فيه الا شعره ، أذ أصبح ناصع البياض . كان وجهه ضامرا كما هو لم تجعده الأيام كيف يمكن أن تجعد العظام !